

كولين ويلسون

إله
المتناهية

ترجمة: عبد الإله الناصر



إله المتناهية، رواية تناقض السائد المتوارث، وتدفع بالتأثير
التغريبي نحو سياقات وفضاءات روائية واسعة، خاصة وأنها
إتخذت من أدب الجنس منطلقاً حقيقياً، للإنتلاق بهذه الروى
التغريبية نحو تلك الفضاءات الرحبة الواسعة.

من هنا فلا يمكن اعتبار هذه الرواية من روايات الأدب الداعر
التي تسعى لتدمير التأثير التغريبي. وقد جاءت الرواية على شكل
مذكرات إعترافية، تتخذ من الجنس منطلقاً لأفكارها ورواها من
دون أن يكون الركيزة الأساسية لبناءها الروائي، وبذلك فقد
شكلت بحق تحدي ممتع وكبير، لأن رواية الأدب الداعر أكثر
صراحة من الناحية الشكلية من أي نوع روائي آخر، أن الرواية
تتمتع بشيء من الصراحة الرمزية التي تصف بها الباليه من دون أن
تنتهك حرمة هذا الفن الراقي والرائع.



كله يشير إلى وجود صلة بنيتشه، في حين أن دراسة التشاؤم تربط للوضوع بشوبنهاور وشبترلر.

حاول ولسون في اللامنتمي أن يبين بأن الوجودية، التي ينتمي إليها فكراً، قد انحرفت عن طريقها الحقيقي، وأن بعض الفلاسفة والفكرين الوجوديين حاولوا إلباس تعصبهم وفشلهم الذاتي لغة مؤثرة ومجردة ولا معقولة، فأغرقوا في تعقيد الأمور، وهو الأمر الذي جعل ولسون يحاول أن يقاوم هذا الإنحراف ويواجهه على الرغم من إدراكه للسبق بأن مقاومته ستكون متواضعة وغير مؤثرة، ولكنها حتماً ستكون جديرة بالاهتمام في التفكير الوجودي.

وهكذا سلطت الأضواء بشكل مؤثر وكبير على ولسون بعد نشره لكتابه (اللامنتمي)، حتى أن ولسون نفسه تعجب أشد العجب من النجاح الكبير الذي أحرزه الكتاب في الساحة الأدبية والفكرية، يقول ولسون: "لن أنكر بأن فقدان (اللامنتمي) من المكتبات قد أصابني بمفاجأة، فقد أخطأت حين افترضت أن الوجودية موضوع لا يستهوي إلا القلة من الناس".

النجاح الباهر والكبير الذي حققه ولسون في كتابه (اللامنتمي) دفعه إلى التفكير جدياً في إصدار كتاب آخر، خاصة أن كتابه المشار إليه تناول الإشكالية المطروحة (انحراف الوجوديين) بتوسع وبيان من دون إعطاء تحليل حققي لها، ولذا فقد فكر ولسون بالحاجة الشديدة إلى فكرة أشمل وأعمق. وبنا ولسون بالفعل في مشروعه هذا، متوقفاً نجاحاً أكبر، أو يوازي في أسوأ الأحوال، كتابه (اللامنتمي)، ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن.

ففي تلك الفترة الصفقت بكون ولسون تهمة الانتماء إلى مجموعة (الشباب للتمرد)، التي أطلقها بعض الكتاب المعاصرين في الخمسينيات والستينيات من القرن المنصرم (القرن العشرين)، وكان المفكرون والأدباء والناس عموماً لا ينظرون لتلك الحركة بعين الارتياح والقبول، سواء في فكرهم أو أديهم. وهي واقعاً التهمة التي انبثت كثيراً على حياة ولسون الأدبية، أجبرته مرغماً ورغماً ما يتمتع به من ذكاء وإبداع أدبي وفكري، في الجلوس على مقاعد المبدعين والفكرين من الدرجة الثانية، وختم عليه بذلك، حتى أنه عندما أزيحت عنه هذه التهمة بقي ولسون في مكانه في الصف الثاني، وكان الأدباء والمفكرون والناس يتشككون في كل ما يطرحه كون ولسون.

مقدمة

■ كون ولسون كاتب دخل الأدب والفكر المعاصرين من باب عريض وواسع، وهو واقعاً لا يدعي ذلك، أثار حوله العديد من الظلال والعارك النقدية والجدل العميق، سواء أكانت المشجعة أو النبطية، انطلق بنجاح مذهل في ولوج هذا العالم الرائع (الأدب والفكر)، بعد انصراف غريب إلى المطالعة والبحث والمناقشة والحياة الجنية الثانية، على حساب رزقه وراحته وصحته وتفوقه المدرسي، لقد كان يتأرجح في سلم الحياة العملية بين ضابط في سلاح الطيران وعامل في تعبئة الطرقي والأزقة، بين موظف محترم في شركة كبيرة وعامل للغسيل والتنظيف، لكنه كان دائماً ذلك الفكر الذكي القلق الباحث عن الحقيقة والهدف والسعادة النفسية العالية، وبعد إصداره لكتابه الإشكالي (اللامنتمي) عام ١٩٥٥، والذي لقي قبولاً واسعاً وانتشاراً مدهلاً، وطبع عشر طبعات خلال أربعة أشهر، يقول ولسون عن الكتاب: "استطعت ذات صباح أن أضع خطة كتاب ما خلال نصف ساعة، وكنت مزماً أن أسميه (اللامنتمي في الأدب)، وأردته أن يكون بحثاً لمختلف أنواع القلق الإنساني. وأعددت قائمة بأنواع الناس الذين كنت أميل إلى بحثهم، وأهديت في الحال إلى بعضهم... وكان هنالك طبعاً عند كبير من مختلف أنواع اللامنتمين، كان هنالك بعض العمليين بينهم، وكان هنالك أيضاً سلبيون تماماً، وكان في وسعي أيضاً أن أخصص جانباً من الكتاب للشخصيات الدينية، التي كانت جميعها عاصية ضد التقاليد الشائعة، وهكذا يتشعب اللامنتمي إلى ناحيتين، ناحية الضعف، وناحية العصيان، ثم أعقب بالوجوديين الفرنسيين، وكان ذلك

عندما نشر ولسون كتاب (دين وتمرد)، وهو رؤية أكثر شمولية واتساع من كتاب (اللامنتمي)، وهو ملحق لكتاب، وجه الكاتب والكتاب بسخط كبير وغريب بين الناس، ولم يلقى من الصحف الأدبية غير الأذراء، حتى أن أحد النقاد في ذلك الوقت وصفه بأن (العاب السيد ولسون الأدبية قد انتهت أجلها)، فيما وصفت نافذة كتابه (دين ومرد) بأنه كتاب (نافه حقاً). يقول ولسون أن السمعة السيئة التي ألصقت باسمه في العام ١٩٥٦، (لا تزال تصبغني بلون غريب يجعل النقاد لا يتخذون حتى خطوة قصيرة بالنسبة لكتاباتي، عليهم قد يكتشفون بأنني أملك شيئاً يستحق الكتابة. وهكذا مرت جميع كتبتي دون ملاحظة تذكر).

هذا الأمر لم يقف عائقاً أمام ولسون في الاستمرار بالكتابة الإبداعية، ولذا فقد كتب (عصر التخائل)، والذي لم يلق أية ملاحظة تذكر من قبل النقاد والأدباء، حاول فيه ولسون خلق وجودية جديدة، لترت الموضوع (الفلس) الذي أوجده سارتر وهيدغر، إذ أن السقوط الفجائي من قمة الشهرة بشل الحركة، وأن (الإشكال الثقافي ما هو إلا مغلوطة (اللامعنى) وهو شكل فلسفي لذلك الغلوطة الذي قاد الوجودية إلى طريق مسدود).

وبذا استمر ولسون بالكتابة والإبداع الأدبي والفكري، فكان أن نشر (القوة على الحلم) و(أصول الدافع الجنسي) و(ما بعد اللامنتمي) و(ما بعد الحياة) و(ضياء في سوهو) و(الشك) و(المعقول واللامعقول في الأدب الحديث) و(الفنن الزحاجي) و(طقوس في الظلام) و(سقوط الحضارة) و(رحلة نحو البداية) و(الشعر والصوفية) و(الحالم)، إلى آخر ذلك.

ما تجدر الإشارة إليه أخيراً أن كتابات كولن ولسن على الرغم من السمعة السيئة التي ألصقت وتعلق رذائها به شخصياً وكتاباته طوال حياته الأدبية والفكرية، إلا أنه يتميز بظاهرة قلما انتبه لها أي ناقد أو كاتب، وهي أن كتابات ولسون مرتبطة مع بعضها البعض بسلسلة متشابكة واحدة، يصعب على أي كان أن يجزئها أو أن يختار جزء من تلك السلسلة لدراستها والاطلاع على أفكارها، من دون الأجزاء الباقية، فالرؤية في تلك الحالة ستكون قاصرة وغير دقيقة، فالكاتب الكبير كولن ولسون يتناول في جميع كتبه المنشورة موضوعاً واحداً من زوايا مختلفة، حتى تصل إلى الفكرة التي تستقطبها الكتب السابقة كلها، ومن الممكن القول ببساطة بأن الفكرة الرئيسية التي تقوم عليها جميع كتب ومؤلفات كولن ولسون، تقوم على محاولته لخلق (فلسفة جديدة) تركز بقوة على الأفكار الوجودية

والرومانسية. ربما نجح ولسون في إيجاد هذه الفلسفة الجديدة من خلال كتبه العديد، وربما استطاع أن يقول في كتبه بكل ما يريد أن يقوله في شرح تلك الفلسفة، إضافة إلى رؤاه الفكرية، إلا أن المؤكد أنه لم ينجح كل النجاح في إيصال فلسفته إلى جميع الأدباء والفكرين والناس. وبقي فكره محصوراً في فئة معينة، دون الفئات الواسع والأكبر.

حول (إله المحاهة)

■ في وقت ما من عام ١٩٦٨، نشرت جريدة الديلي تلغراف مقالاً افتتاحية تنتقد فيها تزايد كمية للشاهد للكشوفة فيما ينشر من أعمال أدبية، وأشارت إليّ وإلى ميس بريجيد بروفي Brigid Brophy باعتبارنا كاتبين "جادين" يهدفان إلى المزيد من المبيعات بأن يضمنا كتبهما ببهارات قوامها مشاهد ومواقف كان يمكن أن تؤدي إلى إدانتنا في أزمة أقل تحرراً. ولم اتحفظ بشيء على هذه المقالة، لأنه من الصحيح أنني كتبت عن الجنس في عدد من كتبي بطريقة ما كانت تواجه بالقبول أو يسمح بها منذ خمسين عاماً. ولكنني لا أفكر في نفسي باعتباري من كتاب الأدب الداعر Pornography ولكن إذا رغب شخص آخر في أن ينظر إلي بهذه الصفة، فلا شك أن هذه مسألة تتعلق بوجهة نظر صاحبها. ولكن حدث بعد بضعة أسابيع قليلة، أن أعيد نشر مقالة التلغراف اللندنية في جريدة نيوزيلاندا، فكتب قارئ نيوزيلاندي خطاباً يدافع فيه عني بقوة. أشار هذا القارئ إلى أن أكثر من نصف كتبي تدور حول موضوعات من مثل الفلسفة والفن والموسيقى والأدب، وأنه من بين رواياتي السبع، لا تحتوي أربع منها إلا على القليل من الجنس، أو لا تحتوي شيئاً منه على الإطلاق. وقد افتنعت حينما قرأت هذا الخطاب، أنني لست من كتاب الأدب الداعر. حقاً أن ناشر كتب من نيوزيلاندا قد قدم إلى المحاكمة بسبب عرضه كتاب "يوميات جيرارد سورم الجنسية" في واجهة مكتبته، ولكن هذه المحاكمة لم تؤد إلى إدانته. وكان رأي القاضي أنه

رغم أنني كنت محروماً بشكل كامل من أي مؤهبة أدبية، فإن الكتاب لم يكن منحطاً ولا مسيئاً للأخلاق من الناحية الفنية.

وبعد بضعة أسابيع من ظهور مقالة التلغراف، طلب مني أحد مكاتب المحاماة أن أتقدم إلى إحدى المحاكم كشاهد أشهد في صالح ناشر كتب من برادفورد، كان يحاكم بتهمة بيع كتاب "حياتي السرية" وهو ترجمة ذاتية كتبها أحد كتاب العصر الفيكتوري المجهولين، وأجبت على هذا الطلب بأنني مشغول لدرجة تمنعني من الذهاب إلى برادفورد. وهذه رحلة تستغرق يومين من كورنوال حيث أقيم - ولكنني رحبت بأن يعتمدوا على قولتي بأن الكتاب لم يكن من نوع الأدب الداعر، وأنه من الممكن أن ينشر علناً في إنكلترا. وأشارت إلى أنني مستعد لأن أكتب خطاباً بهذا المعنى. وحينما بدأت كتابة الخطاب، اكتشفت صعوبة المهمة الملقة على عاتق الدفاع. إن كتاب "حياتي السرية" ليست له أية قيمة أدبية. وحينما نشرته دار نشر "جروف بريس" في أمريكا، قال المسؤولون عنه أنه وثيقة اجتماعية ثمينة عن العصر الفيكتوري، ولكن هذا أيضاً غير صحيح. إن عالم الاجتماع يستطيع أن يعرف من عشر صفحات من كتابات تشارلز بوت أو هنري مايهيو أكثر مما يمكن أن يعرفه من الثلاثة آلاف صفحة التي يضمها كتاب "حياتي السرية". إن مؤلفه لم يكن سوى الصورة الذكورية لامرأة مصابة بالفلمة الجنسية nymphomaniac ولم يكن الجنس عنده سوى نوع من التنفيس عن طاقة مكبوتة. لقد جرب كل نوع ممكن من أنواع التجارب الجنسية لما يزيد عن أربعين سنة أو نحوها، ثم قرر أن كل ما فعله كان شيئاً سحراً فاتناً وأنه ينبغي أن يكتب عنه. فمن الذي يستطيع أن ينكر أنه كان على حق؟ من الصحيح أنه لن يقبل على قراءته كل الناس، ولكنني أقول أنه ليس كل الناس يقبلون على قراءة الزاجم الذاتية التي يكتبها جنود أو سياسيون أو رحالة. وليس هذه حجة تؤخذ ضدهم.

بل إن المرء لا يستطيع أن يقول أن كتاب "حياتي السرية" قد كتب دون نية بذيئة ودون قصد الإساءة إلى الأخلاق، أو أياً كانت العبارة التي استخدمت ضده. كان الرجل قد استمتع بالجنس، ولقد استمتع بالكتابة عنه. وكان الرجل شخصاً مضجراً فذو العقل، طالما أنه كتب كل تلك الصفحات عن الجنس مدافعاً عن فراغ العقل بصورة كاملة. ورغم كل شيء فإن الكتاب واقعي، إنه حياة رجل إنه "حقيقة"، تماماً مثلما كانت "حقيقة تلك المجلدات الهائلة التي قرأها ويب وزوجته ودرساها من "الأوراق البيضاء" من أجل كتاب

مؤلفهما في التاريخ. إنني أوافق الآن - رغم هذا - على أن هناك شيئاً ما يقف ضد نشر أنواع معينة من الحقائق غير السارة - على سبيل المثال، تفاصيل هجوم جنسي قد تظهر في أثناء محاكمات جرائم القتل، فإن نشر تلك التفاصيل قد يؤدي إلى ارتكاب جرائم مماثلة يقلدها فيها المجرمون، ولكن أي شخص يمكن أن يقلد ما قام به مؤلف "حياتي السرية" فإنه لن ينزل بأحد ضرراً حقيقياً ولن يقترب من إلحاق مثل هذا الضرر، وبذلك فإن اعتراضني لا ينطبق عليه، إنني لا أستطيع أن أفكر في أي أساس يصلح لأن أستند إليه من منع الكتاب - وبالتأكيد لا أجد ما يبرر الحكم على من باعوه بقضاء عامين في السجن - مثلما حدث لبائع الكتب في براندفورد.

ولكن حجة "الحقيقة" يصعب أن تطبق على أعمال دي صاد و"فاني هيل" Fanny Hill التي يمكنني أيضاً أن أدافع عن نشرها وخاصة إذا كانت أسعارها مرتفعة، حتى تعمل الأسعار المرتفعة عمل "الرشح" بالنسبة لصغار السن من القراء. إنني لا أحب دي صاد. وأنا لا أظنه "هاماً" أو ذا دلالة خاصة، بالطريقة التي تظهر بها أهمية ودلالة جان بولهان والأنسة دي بوهوار^(١). إن الروح الأساسية السائدة في كتبه هي روح تمرد يقوم به تلميذ - يشبه كتابة الكلمات القذرة على الجدران. ولكنني لا يمكن أن أف في صف منع نشر كتبه. أما بالنسبة لكتاب "فاني هيل" فإن كليلاند يعترف بأنه كتبه لكي يحصل على المال، وهذا الكتاب مثال نموذجي للكتب التي دعاها سانت يوف بأنها "الكتب التي يقرأها المرء بيد واحدة". إنه كتاب مسل، كتب بشكل جيد، وليس فيه شيء لا يعرفه بالفعل أي قارئ تجاوز سن الرشد. إننا لا بد أن نعرف بأن منع إصدار أي كتاب - وأن نعلن أنه ليس صالحاً لأن يستهلكه الجمهور - هو الشبيه الأدبي لعملية إعدام مجرم، أو إحراق ساحرة، أو إلقاء معارض سياسي في السجن. وأنه لمن الصعب أن ندافع عن مثل هذا الإجراء دون تحيز - وفي تباعد أو انعزال موضوعي. إنه لا يمكن الدافع عن مثل هذا الإجراء إلا على أساس من التعصب الفكري وضيق الأفق، مثل الأساس الذي قام عليه "فهرس الكنيسة الكاثوليكية" أو إحراق النازيين للكتب، أي على أساس تقديم عقائد جامدة لأبد من القبول بها. يمكننا أن

(١) سيمون دي بوهوار، زميلة سارتر ورفيقته، مؤلفة العديد من كتب الفلسفة والأدب والإبداع والنقد. مثل سارتر بملت مدرسة الفلسفة متأثرة بوضعية هيوم وبوجودية هيدغر وباسيرز، ولكنها سبقت سارتر إلى التأثير بالماركسية.

نهاجم عملية بيع العقاقير الخدرة دون رقابة، أو مزج عصير الفاصكهة بالكحول لكي يشتره صغار السن، على أساس نفعي وعملي، فإن هذه الأعمال يمكن أن تنتج تدمير الأجساد. ونحن نعرف كل شيء تقريباً عن إمكانيات الجسد، ولكننا لا نعرف شيئاً عن إمكانيات العقل. فهذا النوع من الحجج "النفعية" لا يستطيع أن ينتقل إلى مجال الكتب.

إنني أوافق على أن كل هذا يبدو في صورة التماس خاص - مثل التماس يقدمه محام ماضر يعرف أن قضيته لا يمكن الدافع عنها، فيقرر أن يحاول خلط الصفوف المستقلة ومزج القيم التي لا تمتزج. يجتاحني هذا الإحساس وأنا أقرأ عدداً كبيراً من آراء معارضي الرقابة. ولكنني حينما أنظر داخل نفسي، أحسني مالكا لأنواع بالغ الوضوح والتحدد من الجنس الذي ينتمي علي ما يكون الأدب الداعر وعلى ما لا يدخل في تكوينه. فاسمحوا لي بأن أحاول توضيح طبيعة هذا الجنس.

وقد يمكنني أن اتخذ نقطة انطلاقي من فقرة جاءت في ترجمتي "الذاتية"، "رحلة نحو البداية"،

إن بطل رواية "طقوس في الظلام" يسيطر عليه الإحساس بأن "ثمة" معنى في الوجود الإنساني، وأن هذا المعنى يمكن أن يصل إليه العقل - فقط إذا عرف العقل الطريق المؤدي إلى العثور عليه. وأن واحد من أكثر "تجارب المعنى" شيوعاً تأتي عن طريق الجنس، ولهذا فإن الجنس يقدم "نقطة بداية" ثمينة في سبيل البحث عن المعنى. وإنني أضع خطأ تحت عبارة "نقطة بداية" لأنه يبدو لي أنه لا شيء يمكن أن يكون أكثر عمقاً من الجنس إذا مارسه الإنسان كنوع من التنفيس عن الطاقة - مثلما فعل كازانوفا أو فرانك هاريس.

"يمكن" أن يكون الجنس نقطة بداية "للبحث عن المعنى"، إنكار ما أكدته سارتر من أنه، "لا معنى لأن نحيا ولا معنى لأن نموت"، ومن الواضح أن هذه الحجة تنطبق على د. ه. لورانس كما تنطبق على كني التي كانت التلغراف تعنيها في مقالها. إن الدافع عن دي صاد أيضاً أمر ممكن لأنه هو الآخر رأى أن الجنس يحتوي بشكل ما على معنى الوجود الإنساني. من الحق أن ثمة أخطاء جوهرية في تفكيره - الفشل في التفكير في "قانون رمود الأفعال المتلاشية"، هذا الفشل الذي يفسد عمله ويخيب مسعاه في التحليل الأخير، وهذا أثر عجيب من آثار الأخطاء الشهيرة، مثل نظرية الكون التي تقول بأن الأرض هي مركزه، أو نظرية عنصر الفلوجيستون الذي قبل يوماً أنه أساس الخليقة، ويبقى هذا الخطأ في صورة

رمز نافع للخط الذي يمكن أن يكتسب شيئاً من الأهمية. والجنس يقدم أيضاً نقطة بداية ممتازة لفلسفة وجودية. يقول "كيريلوف" أحد أبطال دوستوفسكي أنه إذا لم يكن هناك إله، إذن فإن الإنسان إله، وعليه أن ينبت هذا، ثم ينطلق بهذا المنطق حتى يصل إلى الانتحار. لما دي صاد فإنه ينطلق به حتى يصل إلى الدفاع اللطيف عن اللا أخلاقية. وفي كلتا الحالتين يستطيع المرء أن يبدأ في مناقشة مثمرة.

إنني أحس بأدب الدعارة الحقيقي حينما أقرأ كتباً معين لن يفكر أحد مطلقاً في منعها - كتب من نوع، "لا زهور أوركيد من أجل ميس بلانديش" أو "صانعو الأيسطة" أو حتى بعض روايات جيمس بوند. يتهم فورستر جيمس جويس بمحاولة تغطية الكون كله بالوحل. ولكنه كان مخطئاً. إن ما يبدو في رواية "يوليسيز" من عنف وقذارة وضع عمداً وقد قصد به أن يؤثر تأثيراً عكسياً، مثل دواء قابض، ويعترف جويس نفسه بقرابته للكاتب سوفيت. أما جيمس هادلي تشيز وهارولد روبينز فقد مارسا الكتابة لكي يتمتعوا القراءة فقط ولكي يربحا النقود عن طريق الإمتاع. إن الجنس والعنف والعنف - والعنف بشكل خاص - يقصد منهما أن يجعلوا الوحبة أكثر لذة وشهية. إنهما مثل حراس بيوت الدعارة وملاكها الذين يبتون استعدادهم لخدمة أي شخص مستعد للدفع. فإذا جر الرء حججهم إلى ضوء المناقشة، يجعلها نسخاً أخرى من حجج دي صاد، مثل هولثير أو أي وضعي منطقي حديث آخر، الذي كان يهاجم الأفكار "الليثافيزيقية" عن الطيبة والخير. إنه يقول قولة مؤثرة، "يقول الناس أن الفضيلة، وإنكار الذات، والتضحية بالنفس، والروح العامة والشرف والشجاعة، كلها خير. أما أنا فأقول أن هذا ليس سوى تفكير مختلط مشوه. فاللذة وحدها هي الخير بالنسبة لأي واقعي معتدل التفكير". إن ما يوشك حينئذ أن يفعله هو أن يرفض نفسه بمحاولة توضيح فكرته في أقصى امتداد له. والشيء الوحيد الذي يدهشنا هو أنه لم يحسب هو نفسه بالضجر إلى حد الرض قبل وقت طويل من إكمال روايته "كولبيت". على أنه من الواضح أنه كان يدرك القيم التي كان يحاول أن يفرسها وأن يبعث فيها الحياة.

لا أحد الآن ينتقد كونان دويل^(١) أو رايدر هاجار^(٢) لأنهما لا يتمتعان بالتعمق الذهني الذي تمتع به توماس مان أو الدوس هكسلي. فلقد خرجا إلى الناس باعتبارهما "مسليين" أو

(١) سير آرثر كونان دويل ١٨٥٩-١٩٢٠ روائي إنكليزي اشتهر بسلسلة رواياته التي كان "شرلوك هولمز" بطلها. ولكنه اشغل بالأسئلة الروحية وكتب تاريخاً لها، كما كتب عدداً من الروايات التاريخية لشهرها "أرميغادير جيزار" و"أروفيشور تشالنجر".

(٢) سير هنري رايدر هاجار ١٨٦٥-١٩٢٥. كاتب روائي إنكليزي بدأ حياته في البحرية البريطانية واشترك في كشف منطقة الزانغال الأفريقية، واشتهر بروايات القامرات الأفريقية. أشهر أعماله هي "سكنوز تلك سليمان" عام ١٨٨٥ ثم "هي" ١٨٨٧، وكتب عدداً من الروايات التاريخية العاطفية مستمدة من التاريخ الفرعوني.

مسامرين و"القيم" التي دافعا عنها، الشرف والشجاعة وما إلى ذلك، هي من القيم التي لا يمكن الاختلاف حولها بأي حال. ومنذ زمن ظهورهما، أصبح الكاتب السلي أو "المسامر" أكثر واقعية، وأكثر تعقيداً من الناحية الثقافية. ولكنه لسوء الحظ لم يصبح أكثر تعمقاً في التحليل الذهني - إنه يرفض القيم الأقدم عهداً - ولكنه لا يفعل ذلك باسم عقل باحث لا بكل عن طرح الأسئلة، وإنما فقط باسم تسلية، "إعطاء الناس ما يريدون". ولكن رفض القيم - إذا كان لهذا الفرض أن يكون نشاطاً مفيداً - يجب أن يكون واعياً تمام الوعي بطبيعته الخاصة. إننا حينما نلتقي بأناس يؤمنون بآراء لا يريدون التفكير فيها، فإننا ندعوهم بحق أغبياء أو متعصبين. والاعتراض على مثل هذا النوع من الغباء أو التعصب، هو أنه بشكل ما نوع من "إنكار الحياة". إنني أملك جهازاً هضمياً ومخارج للتعامل مع الطعام الذي احتاجه لكي يبقى على حياتي. وأملك أيضاً جهازاً هضمياً عقلياً ومخارج للتعامل مع تجاربي. ونموي باعتباري كائناتاً إنسانياً إنما يعتمد على هذا الجهاز مثلما يعتمد نمو الجسدي على الجهاز البدني. فإذا ما انغلق أو انسد أي من الجهازين، فإنني سأكون عرضة للتسمم البطيء. إن كتاباً من نوع إيان فليمنج^(١) أو هارولد روبينز لا يملكون أجهزة هضمية ومخارج للتعامل مع القيم التي يرفضونها. والنتيجة هي أن تفوح رائحة التعفن والتحلل، رائحة جهاز تسده فضلاته التي ينتجها بنفسه. فإذا ما قرأ شخص ما أعمالهما لمدة طويلة، كانت النتيجة هي الإحساس بالصناع، بتسرب الدم من الدماغ، بالعقم، هذه هي نتيجة الإمساك القاسي.

وهذا القانون ينطبق بالطبع على عدد كبير جداً من الأعمال الأدبية. يشعر المرء بنفس الإحساس بالعقم إذا قرأ طويلاً رواية رومان رولان "جان كريستوف" أو رواية بوديس "الذنب المنفرد" أو حتى "الحرب والسلام" هذه الكتب تمتلك جهازاً هضمياً، ولكنه ليس كبيراً إلى الدرجة الكافية للتعامل مع مثل تلك التجربة الكبيرة. ومن الجدير بالملاحظة أن الجهاز الهضمي ليس - ببساطة - هو القدرة على التفكير المجرد. إن أمثال هكسلي أو مان أذكاء، وعلى عمق ذهني كافٍ، ومع هذا فإن كتبهما تتصف بجمود غريب. إن الشيء الهام هو قدرة الكاتب على "مهاجمة" تجربته، وليس مجرد أن "يعانيها"، وإنما أن يتجاوزها. لا يمكن أن يبعث دوستوفسكي على الضجر، على الرغم من أسلوبه الوعر الثقيل وإطلاته

(١) إيان فليمنج - أشهر كتاب القصة البوليسية المعاصرة، بدأ حياته في أوروبا ثم في الشرق الأقصى حتى تركها بعد الحرب العالمية الثانية. خلق في أعماله شخصية "جيمس بوند".

المسببة، بسبب ما نشعر بما لديه من هذه النيران الملتهبة التي تحاول أن "تأكل" مادته، مثل أنون يصهر خام الذهب..

هذا هو ما يحدد ما قلت عنه إنه حدسي لطبيعة الأدب الداعر. إنه مرتبط بمسألة الجهاز الهضمي، إننا لا نطعم طيور البط بالأرز، ولا نرضع الأطفال الصغار بالحلوى الثقيلة، لأننا نعرف أن أجهزتهم الهضمية لن تصمد لمثل هذه الأطعمة، فإذا فعلت هذا وأنا أعرف ما ستكون عليه النتيجة، فأني أكون مداناً بتهمة الإهمال الإجرامي. وهذا هو ما ينطبق على كاتب ينتج خليطاً لزجاً رديء الطهو من الجنس والعنف، هادفاً بذلك إلى الوصول إلى "أكثر الفئات الهابطة شيوعاً" من القراء.

وهذا هو أيضاً ما يفسر السبب الذي يجعلني لا أعتبر كتباً من نوع "حياتي السرية" و"فاني هيل" أو أعمال دي صاد من الأدب الداعر الحقيقي. والمحك الحقيقي هو التساؤل عما إذا كانت تحتوي على هذا العنصر السام، عنصر إنكار الحياة. إن كتاب "حياتي السرية" بالغ الكآبة مليء بالتكرار بعد عدد قليل من الصفحات الأولى، ولكنه ليس أكثر تسميماً من كتاب "هانسارد"^(١) أو "سجل اللؤتمر". فالقاص، أو الروائي في هذا الكتاب خشن وغبي، ولكنه ليس قاسياً ولا وضيقاً. وقد يعترض المرء على قيمه الأساسية، على شعوره بأن الجنس هو أكثر التجارب الإنسانية أهمية، ولكن يستطيع المرء أن يؤمن بهذه القيمة أو أن يرفضها. وليس هناك شيء يمنع القارئ من أن يضع إحدى رباعيات بيتهوفن على الحاكي بعد أن يقرأ اثنتي عشر صفحة أو نحوها، وينطبق نفس الشيء على رواية "فاني هيل". أما بالنسبة لدي صاد، فإن قراءته تثير رد الفعل الذي يمكن بالفعل أن يوسع من اتفاق رباعية لبيتهوفن. أما المشكلة التي نواجهها مع هادلي تشيز أو هارولد روبينز، فهي أنه بعد قراءة عدد قليل من الصفحات، فإن المرء لا يعود قادراً على الاستمتاع بسماع بيتهوفن. فإذا حاول المرء سماعه مع ذلك، فإن بيتهوفن سوف يبدو شيئاً غير متناسب مع هذا العالم الفارغ الشرير الخطير العنيف الذي نعيش فيه، سوف يبدو في صورة "ملاك جميل لا فاعلية له"، يعيش في عالم أحلامه الموسيقي السخيف.

(١) الإشارة هنا لـ "هانسارد" الأسبوعية التي يصدرها البرلمان الإنكليزي والتي تضم النص الحرفي لمناقشات مجلس العموم واللوردات.

باختصار، يتضمن الأدب الداعر إحساساً بالتحقير من شأن القيم ومهانتها. وإذا كان الفن معركة بين عقل الإنسان والعالم المادي، إذن فإن كاتب أدب الداعة يقف إلى جانب العالم ضد عقل الإنسان. ومن المهم أن نلاحظ أن كلاً من فليمنج وهارولد روبينز وهادلي تشيز يستغلون الجريمة مثلما يستغلون الجنس، وكثيراً ما يبدو عليهم أنهم يساوون بين الاثنين باعتبارهما نوعاً من النشاط الهدام للمدر.

وقد أشار برناردشو إلى أننا نحكم على الفنان من خلال أعلى ذروة يبلغها، ونحكم على المجرم بادنى قاع يهبط إليه. وهذا يعني أن الفن قد ينظر إليه باعتباره دفاعاً عن أعلى ذروة يمكن أن يبلغها الإنسان ضد أدنى قاع يمكن أن يتدنّى إليه. والكاتب الذي يستغل الجريمة والجنس، لا شيء إلا لأن يثير القارئ ويستفز مشاعره إنما قد أصبح مدافعاً عن أدنى تلك القيعان المظلمة. أما إذا مضى إلى معالجة الجنس بالطريقة التي تجعله في سلة واحدة مع الجريمة باعتباره لحظة من أكثر لحظات الإنسان انحطاطاً، فإن اتهامه يصبح اتهاماً مركباً.

ولكن، فلننتقل الآن إلى المرحلة التالية من المناقشة. سوف نلاحظ هنا أن كلاً من توماس مان والدوس هكسلي قد انشغلا أيضاً بالعرفه بين العالم المادي وبين العقل، وأن كلاً منهما قد اتجه إلى أن يكون انهزامياً، مؤمناً بانهزام العقل في تلك المعركة. وأنا شخصياً كثيراً ما أشعر بأن هكسلي كاتب مقبض مثل جراهام جرين^(١) لأن العالم المادي عندما يبدو دائماً قادراً على أن يكسب السباق بمقدار طول رأس واحد. إنه يتحدث عن تأكيد الحياة، ولكن شيئاً من هذه الحياة المؤكدة - بشكل ما - لا يستطيع أن يصمد حتى النهاية في كتبه، إن اسمه "لؤكسين" أو الإيجابيين يبدو دائماً غير مبهيحين وأغبياء. وأصحاب الحساسية من شخصياته دائماً ضعفاء. ونفس الشيء يصدق أيضاً على توماس مان، ولكن "موضوعيته" تجعل تلك السمات أقل في تأثيرها القبيح.

(١) جراهام جرين (١٩٠٤-...) أحد كتاب الرواية الإنكليزية الكبار في هذا القرن. عرف بمعالجته للشخصيات ذات التكوين النفسي الشاذ وتلبية إلى الشر أو إلى التمرد الاجتماعي. ويعتبر أحد أساتذة أدب التوتر. أهم أعماله كانت "القوة والجسد".

إذن، فإن إنكار الحياة، بينما يكون عتصراً أساسياً من عناصر الأدب الداعر، فإنه ليس مقصوداً على هذا الأدب. وهذا ينتر التساؤل عن المدى الذي يصل إليه صدق العكس. هل يكون الأدب الداعر ممكناً إذا لم يكن إنكاراً للحياة قائماً؟

وهذا السؤال أكثر أهمية من مجرد مظهره، فإن هذا التساؤل عن الأخلاقية والأخلاقية، عن الصحة والانحلال قد ظل يشغلنا لمدة تقرب من قرن كامل، منذ أن بدأت مناقشات إبسن^(١) وزولا^(٢) في ثمانينات القرن الماضي. وقد كانت حجج كل من الجانبين هي نفس الحجج تقريباً على الدوام. فقد كتب توماس جيفرسون منذ عام ١٧٨٢، يقول: "هؤلاء الذين يعملون في الأرض هم شعب الله المختار... إن فساد الأخلاق بين جماهير اللربيين ولهنبيين لهو ظاهرة لم يخل من بعض نماذجها عصر ولا أمة من الأمم". إن تلك المجتمعات البسيطة البدائية شبيهة بالجسد القوي الصحة. وإن رفض "الفساد" هو وظيفة آتية من وظائف الصحة. وحينما يبدأ الشيء "الريب"، غير الصحي، الفاسد، في العثور على موطيء قدم، فإن هذا يعني - بحكم الأمر الواقع - إن الانحلال قد بدأ. إن جسدي العضوي إذا ما بدأ يصبح أكثر سرعة في التأثر بالجراثيم، فإنني جدير باتخاذ الخطوات اللازمة لمعالجته، لكي يستطيع أن يلفظ الجراثيم. ومن المؤكد أنني لن أقبل تلك الجراثيم على اعتبار أنها تقدم فرصة لإحداث تغيير ممتع بديل لحالة الصحة الثابتة الدائمة المضجرة. وهذا هو الخط الذي يتبعه ماكس نوردوفي كتابه "الاضمحلال" عام ١٨٩٣. فلا بد أن نعرف الانحلال بصفاته الحقيقية، فلا نتسامح معه أو نشجعه، إن كتاب شو الهجومي المضاد "صحة الفن" كان

(١) هنريك جون إبسن (١٨٢٨-١٩٠٦) الشاعر السرحي والكاتب النرويجي العظيم، خالق تيار الدراما الواقعية الاجتماعية الحديثة وأحد أعظم الكتاب السرحيين في كل العصور. كان له تأثير هني وفكري كبير، فتمعه كتاب كثيرون في لشكائه الفنية ومضامينه، خاصة منذ كتب جروج برنارد شو كتابه عن "الإبسية" حيث كشف عما تحتويه أعماله من قيم فنية واجتماعية عظيمة. ومن ناحية أخرى اعتبره أصحاب الاتجاهات السيكولوجية الصوفية في الفن من أعظم روادهم بأعماله الشعرية الرمزية الكرى وخاصة مسرحيته "برجنت" و"براند" حيث تجلت حساسيته النفاذة في دراسة النماذج البشرية ومطامح الإنسان في التمرد الروحي الشامل.

(٢) إميل إدوارد تشارلز انتوان زولا (١٨٥٠-١٩٠٢) الروائي الفرنسي الكبير، أشهر برايته للمدرسة الطبيعية في الأدب الفرنسي (وخاصة في الرواية) في القرن لاضي. تميزت أعماله بدقة غير عادية في رسمها للخلفية الاجتماعية، واللهجات والخصائص النفسية وبخضوع الشخصيات الفنية لنوع من الحمية القائمة على الورادة وتأثير البيئة.

يحمل عنواناً فرعياً يقول: "كشف وفضح للهراء الشائع عن كون الفنانين من عناصر الاضمحلال". ومن الممكن أن نلخص الحجة التي ساقها في الكلمات التالية: "ليس اضمحلالاً، وإنما هو تطور". أما توماس مان، الذي كان يكتب أولى أفاديسه في تلك الفترة، فقد اتخذ موقفاً أقل إيجابية (وهو الموقف الذي تسمك به طيلة حياته) يقضي بأنه، بينما يصبح الفن أكثر حساسية ورفقة، فإنه "يتطور" و"يضمحل"، فالتطور هنا يعني الاضمحلال، إذا ما مضى إلى وراء نقطة معينة. وقد قال شبنغلر نفس الشيء في كتابه "اضمحلال الغرب".

ولا يتفق شو مع هذا الرأي بصورة أساسية. لقد كان جديراً بأن يقول: "بالطبع، أن التطور "يمكن" أن يعني الاضمحلال، إذا ما زالت الحساسية على الحيوية. ولكن هذا لا يتبع ذلك بالضرورة". ومن الواضح أن هذا شكل آخر للسؤال الذي أترناه نحن بالفعل، لقد كان مان وهكسلي كاتبين زادت عندهما الحساسية على الحيوية، فإنها يجب - في النظرية - أن تكون قادرة على أن تزيد الحيوية إلى الدرجة المناسبة لها. ولكن لم يؤمن أحدهما بإمكان ذلك. ولكن هل هذا صحيح؟ ولنفترض أن لدي رأياً فجاً وبالف البساطة عن شيء ما. إن النتيجة هي أن يصطدم رأسي بالحقيقة صدمة تجعلني أكثر حكمة - أي أكثر حساسية - ولكنها صدمة ستجعلني - في لحظة وقوعها - أقل ثقة وأقل قدرة على اليقين والتأكيد. فهل ينبغي أن أظل على هذه الحالة طوال ما بقي من حياتي؟ من الواضح أن لا. إنني أبذل مجهوداً عقلياً، إنني "أتمثل" التجربة أو أهضمها، وأتأملها حتى أمتص كل معانيها ودلالاتها، أي حتى يمكنني السيطرة عليها. حينئذ تعود الثقة وتفيض ينابيع الحيوية مرة أخرى. وهذا يعني القول بأن الأمر يعتمد على نفس عملية "الهضم" التي ناقشتها بالفعل أثناء الحديث عن الأدب الداعر.

وهذه النظرة تقدم بديلاً للموقف الجيفرسوني: إن البساطة والصحة والشباب تعضي كلها معاً وتصبح إحداها الأخرين. إنك إذا قلبت ميزان الثبات، فسوف تقلب ميزان البساطة والصحة، ولكنك عن طريق مجهود معين وقدر معين من التفاؤل، فإن هذه الموازين يمكن أن تستعاد في مستوى أكثر سمواً، وسوف تكون النتيجة تطوراً حقيقياً وأصيلاً، إن البدائل ليست محافظة أشبه بانفراش الإقدام في الوحل أو اضمحلال سريع لا مناص منه.

قد تبلى النتيجة مجردة أو مطلقة، ولكنها بالنسبة لي كانت ذات أهمية عملية مباشرة، فإنني حينما بدأت كتابة روايتي الأولى، في أواخر سنوات العقد الثاني من عمري،

كانت تسبب على المشكلة التي دفعت جويس إلى اختيار ملحمة الأوديسة لكي يستمد منها بناء روايته التداخلات الأطراف والتي تسودها الفوضى والتي تحدثت عن ديلين الحديثة، وقد عبر بيتس^(١) عن هذه المشكلة في الأبيات الثلاثة التالية:

سمكة شكسبيرية تسبح في البحر، بعيداً عن اليابسة،

سمكة رومانتيكية تسبح في الشباك لتقترب من يد الصياد،

ولكن، ما كل تلك الأسماك الرافدة تشهق على رمال الشاطئ؟

ومعنى هذا هو أن الفن الشكسبيري قد رفع مرآة في مواجهة الطبيعة، أو ربما كان على المرء أن يقول أنه رفع في مواجهتها عدسة مكبرة، وكانت وحدتها الأساسية هي الحدث أو القصة. الشخصية مهمة، ولكنها مهمة فقط "في إطار" القصة، فإن الأمر - على أي حال لن يهم حقاً - سواء إذا كان هاملت هو الذي استبدت به الغيرة فقتل زوجته، أم أن لير هو الذي أصبح أمير كودور. أما شخصية فيرتر عند غوته، أو "أوبرمان" عند سينانكور، أو هيرتوت عند هولدرلين^(٢) فإن أحداً لا يستطيع أن يحل محل أي منها، لأن كل واحد منهم "هو" القصة. إن العدسة المكبرة تقترب أكثر، حتى لا يعود الحدث هو الوحدة الأساسية، وتصبح الوحدة الأساسية هي الشخصية.

إن قصة ما، سوف تحكي نفسها لك إذا أنت سمحت لها بذلك. أما الشخصية فلا بد أن يعيشها المؤلف. لقد كان على غوته أن "يصبح هو" فيرتر أو ويلهلم مايستر بطريقة لم يعرفها شكسبير في مطابقة نفسه مع هاملت أو الملك لير. ومع هذا، إذا ولج المؤلف الروائي "داخل" الشخصية، فإن الأحداث سوف تتطور حينئذ بشكل طبيعي، فيصبح ويلهلم مديراً لفرقة مسرحية، ويصبح فاوست محسناً عاماً ومشرفاً على مؤسسات خيرية.

(١) ويليام تيلر بيتس (١٨٦٦-١٩٢٩)، شاعر وكاتب درامي، بل إنه رائد حركة الإحياء الإيرلندية، تأثر بكل من ويليام بليك وشيللي وبنزعة الإيمان الهندي بالقوى الخفية وبالرمزية الفرنسية، وبيتس أحد مؤسسي حركة الأدب والمسرح الإيرلنديين في أواخر القرن الماضي، فاز بجائزة نوبل عام ١٩١٢ م.

(٢) جوان كريستيان فريدريش هولدرلين (١٧٧٠-١٨٤٣) أحد كبار الشعراء الألمان. كان صديق شيللر وتلميذ حتى تخلص من تأثيره وخلق لنفسه موسيقاه وأبنته الشعرية والفكرية. ولكن تم اكتشافه متأخراً كشاعر عظيم في القرن العشرين على أيدي الناقد هيلينجرات وبيستر. مزج بين ثقافته الإغريقية وتصوره الوثني عن الطبيعة في البداية، ثم تحول إلى التصورات السحبية وعبادة المسيح لكي يصبح واحداً من أهم المعبرين عن روح الثقافة الغربية السحبية وتجسيد الفكر التأملي في الشعر.

هذا، مع ضرورة أن تكون الشخصية واضحة الملامح محددة القسمات. ولكن جوهر النزعة الرومانتيكية كان هو انقسامها الذاتي، إحساسها بالافتقار إلى هوية محددة وواضحة. وببساطة، يخلي فيرتر السبيل لكي يأتي ستيفن ديدلوس، ولكن يأتي "مائي لوريلس بريجي" عند ريكله، ولكن يأتي روكانتان عند سارتر وميرسو عند كامو، ثم يأتي أخيراً البطل الاستاتيكي الكامل - "ك" عند كافكا، فالسمكة لم تعد تملك قوة تعينها على السباحة، ولا حتى على التقلب على جانبها، فهي لا تفعل عند بيكيت أكثر من أن تشهق وهي تضرب بذيلها. هناك كسب تحقق في التفاصيل - فالعدسة المكبرة الآن أصبحت على بُعد بوصة واحدة من انف السمكة - ولكن لم تعد القصة ممكنة القيام. وبدون "القصة"، كيف يمكن أن تكون هناك رواية؟

لم يكن الحل الذي تقدم به جويس قابلاً للتطبيق بشكل عام، وفي الحقيقة، وبقدر ما أعلم، كان هو الشخص الوحيد الذي حاول استخدام "المنهج الليتولوجي". لقد كشفت الرواية عن محاولة حل المشكلة، وقد ارتدت إلى مرحلة أحتت عهداً، وتصالحت مع ما حدث لها من خسارة في وضعها ومكانتها.

وقد عبرت الدراما بأزمة مشابهة في القرن العشرين. عندما انجرفت هي الأخرى نحو النزعات الذاتية والرمزية والتعبيرية، بل وإلى نوع من الكابوس التعمد في مسرح القسوة عند آرثو. ولقد كان بريخت^(١) هو الذي حاول أن يقيم اتصالاً جديداً مع البدايات، مع منبع الجري ومصدره. لقد بدأت الدراما بوصفها استعراضاً، بوصفها قصة تروى على جمهور من الشاهدين يعرف أنها ليست حقيقة من الواقع. إذن فلماذا تحاول أن تتنافس مع السينما؟ لماذا لا تحاول أن تحصل من ألقاها المحدودة على أفضل ما فيها، أي في الحقيقة أن "تؤكد" وجود الفجوة القائمة بين النظارة والممثلين؟ كان بيتس يداعب نفس الفكرة - فكرة مسرح الطقوس - ولكن بريخت كان يملك عبقرية اللزج بين مسرح الطقوس وبين منصة المحاضر، بين صالة الموسيقى والرقص وبين صندوق الصابون.

(١) برتولت بريخت (١٨٩٨-١٩٥٦) الشاعر والكاتب المسرحي الألماني الكبير. واحد الشخصيات البارزة في المسرح لعاصر إن لم يكن أبرزها جميعاً، لا بأعماله المسرحية الفنية فقط، وإنما بأفكاره الأصلية عن فنون التأليف والإخراج والتمثيل لمسرحية هذه الأفكار التي بلورت شيئاً مسرحياً جديداً معارضاً للتيار الأرستقراطي الذي ساد في الدراما الأوروبية منذ القرن الخامس ق. م. من أهم أعماله المسرحية هي: "الأم شجاعة" عام ١٩٤١ ثم "حياة غاليليو" عام ١٩٤٨ ثم "دائرة المطاشين الخوفانية" عام ١٩٤٨، ثم "السيد بونتيلا وتابعه ماثي" عام ١٩٥٢.

كنت قد كتبت عدداً من الروايات قبل أن يخطر لي أن ما كنت أفعله هو أن ادفع تأثير "التغريب" الريختي إلى مجال الرواية. لقد بدأت روايتي الأولى "طقوس في الظلام" ببناء ميثولوجي مستمد من الكتاب المصري، "كتاب الموتى"، حتى طرأ لي أنني إذا لم يكن في نيتي أن أستخدم إطاراً نابعاً بشكل طبيعي من العاني الداخلية في القصة، فإن الأجدد بي أن أستخدم إطاراً يمكن أن يقبله القارئ العادي وهكذا اخترت قصة جرائم قتل جاك الخناق. وبينما القصة السيكلوجية المثيرة، ولكنها كانت ما تزال بشكل أساسي رواية واقعية تقوم على تقاليد دستوفسكي في الواقعية. وفي الرواية الأخيرة، قصصت إلى "عامل الغريب" بشكل واع أكثر عن طريق اختيار أشكال تقليدية، هادفاً في نفس الوقت إلى تأثير قريب جداً من تأثير الاستعراض. ففي رواية "ضياء في سوهو" كان الإطار هو إطار الرواية التصويرية، وفي رواية "الشك الضروري" كان الإطار هو إطار "الرواية البوليسية". وفي رواية "عالم العنف" كان الإطار هو إطار "الرواية الكبيرة" الألمانية مع نغمات كوميدية مصاحبة تتخلل البناء، وفي رواية "طفليبات العقل"، "حجر الفلاسفة" كان الإطار هو القصص العلمي الخيالي، وفي رواية "الحجرة العتمة" كان الإطار هو رواية الجاسوسية، وفي رواية "القصص الزجاجي" عنت مرة أخرى إلى إطار الرواية البوليسية.

أما الآن، فإن الخطاب الذي دافع عني ضد اتهام كتابة الأدب الداعر قد أثار في ذهني سؤالاً: هل يستطيع المرء أن يستخدم شكل الرواية الداعرة التقليدية، بطريقة كليلاند أو أبولونير، باعتباره الإطار الأساسي لإحدى الروايات، ثم يصل إلى نفس التأثير التغريبي؟ لقد حاولت شيئاً مشابهاً في رواية "رجل بلا ظل"، التي تم تغيير اسمها فيما بعد دون استشارتي إلى "اليوميات الجنسية لجيرارد سورم" وقد لاحظت في ذلك الحين أن الكتابة عن الجنس تميل إلى تدمير التأثير التغريبي لأن القارئ يصبح منغمساً وداخلاً فيما يقرأه. ولكن "اليوميات الجنسية" لم تستخدم "شكل" الرواية الداعرة، وإنما شكل للذكريات الاعترافية، لقد كانت رواية أفكار لا تأخذ الجنس إلا باعتباره نقطة انطلاقها. ولكنه نوع من التحدي الممتع، لأن رواية الأدب الداعر أكثر صراحة من الناحية الكلية من أي نوع روائي آخر يمكنني أن أتذكره، إنها تتمتع بشيء من الصراحة الرمزية التي يتصف بها الباليه. وهذا شيء أفضل ما يكون من أجل إنتاج التأثير التغريبي. والتحدي الوجود هنا بالطبع، هو أن تضفي الحياة على البناء. والمشكلة القائمة في رواية الأدب الداعر التقليدية - ورواية "جوستين" يمكن أن تؤخذ هنا كمثال - هي أن المرء يعرف أنها سلسلة من "القطع المستقلة" يربطها خيط قصصي

معتف مفروض عليها، مثل إحدى أوبرات مونتفيري. وأنا أكثر اهتماماً بكثير بالقصة والأفكار مني بالقطع المستقلة المتعلقة الارتباط. ولابد لي أيضاً من الاعتراف - ونحن بصدد الحديث عن الشكل - بأن هذا الكتاب (إله المتاهة) لا يخضع لقواعد رواية الأدب الداعر بقدر ما يخضع لقواعد القصة البوليسية - وبوجه خاص لقواعد القصة البوليسية الأدبية من النوع الذي شاع في روسيا على يدي الكاتب إيراسكلي أندرونيكوف. وحكاية "جماعة العنقاء" قمت بتطويرها اعتماداً على إشارة عابرة وردت عند جورج لويس بورجيس، وفي الحقيقة، إذا صح أن يقال أن روايات "طفليبات العقل"، "حجر الفلاسفة" قد استعارتا الميثولوجيا التي وضعها "ه.ب. لوفركرافت"، فإن هذا الكتاب يمكن أن يقال عنه أنه قام على أساس من إشارات بوجريس ذات الطابع الميثولوجي.

إن نجاح هذه الرواية أو فشلها باعتبارها تمريناً في المعالجة التغريبية، لا ينبغي أن ينظر إليه كمقياس لقيمة هذا النوع من المعالجة. وأنا مقتنع بأن حل مشكلة السمكة الشيكسبيرية، ومشكلة السمكة الطروحة على الشاطئ إنما يكمن في تطبيق طريقة التأثير التغريبي على الرواية، سواء نجحت هذه الطريقة أو فشلت في هذه الحالة بعينها أو تلك، ولكنني يمكنني أن أقول - محتجاً - بأنها إذا "مكن" أن تنجح في هذه الحالة، فإنها يمكن أن تنجح في أي مكان آخر.

هناك نقطة أخيرة، أثيرها بشيء من التردد، طالما أنها تبدو لي واضحة. فنحن حينما ننمو لكي نخرج من طور الطفولة إلى الرجولة، فإننا نجد مجالات جديدة من التجربة يمكن ألا تكون عملية أو غير مرغوب فيها بالنسبة للطفل، من شرب الكحوليات والتدخين، إلى تسلق الجبال والاستماع إلى الرباعيات الوترية. إن الجنس يقف خارج كل أنواع التجارب الأخرى باعتباره تجربة لابد أن تعالج في شكل سر من الأسرار، كما لو كانت طقساً قبيلاً غريباً يتضمن اسماً لا يصح أن ينطقه اللسان.

وقد يكون هذا أمراً جوهرياً بالنسبة لبعض القبائل البدائية أو المجتمعات الأبوية (البطريكية)، ولكن إلى أي مدى يمكن أن يكون أمراً مرغوباً فيه بالنسبة لحضارة مثل حضارتنا، هدفها الأساسي (مهما كانت كتابة وثائقية ما يقوله المؤرخون) هو "الحلاوة والنور"؟ لقد كان تطور الحضارة الغربية هو تطور العقل، رفض العنصر القطعي الجامد والسلطوي المتعسف في الدين، وأيضاً (فيما نرجو) في السياسة، وهذا التطور لم يتوقف حينما

رهفت إنكلترا سيطرة البابا - أو حينما رهض فولتير المسيحية، وحتى رسالت نيو مان وأوكسفورد ينبغي أن ينظر إليها باعتبارها تطوراً لنفس الاتجاه، إصراراً على مطالب عقل أكثر رقة وتهذيباً وعمقاً متعلقة باحتياجات الإنسان الليتافيزيقية. وقد كان على هرويد أن يخوض نفس العركة، كان عليه أن يكبح سيطرة الحركات الاجتماعية والقيود المضاعفة وأن يقهرها بمطلب الصراحة وانفتاح العقول، وكذلك فعل د. ه. لورنس. ويمكن أن ننظر إلى معسكرات الإبادة النازية باعتبارها محاولة للعودة إلى شكل للمجتمع أكثر بدائية - وغير معقد - حيث تحل المشاكل عن طريق القوة والعقائد الجامدة القاطعة، وليس عن طريق العقل.

يبدو لي أن هذا التطور يفترض بشكل مسبق فرضاً إنسانياً هاماً: أن "التحريم" رديء في حد ذاته. رغم أنه قد يؤدي في بعض الأحيان إلى الضرر في مجال محدود. فعلى سبيل المثال، فإن جرائم القتل الجنسية لا يرتكبها أناس يفكرون في الجنس ويتحدثون عنه دون كبت، وإنما يرتكبها أناس تصاعد عندهم الإحباط حتى وصل إلى درجة الشيء المحرم الشديد الإغراء. ولذلك لا ينبغي أن نخلط بين "التحريم" والنظام الذي هو بشكل أساسي عنصر محرر. إن جيشاً جيداً يشبه آلة جيدة التشحيم، ونظامها هو العنصر الذي يسمح لها بأن تدور دون عوائق أو عقبات.

وإذا كان كل هذا صحيحاً - والتي لأجد أنه من الصعب أن أتصور أي شخص عاقل يمكن أن ينكره - إذن فلابد أن يتلو ذلك أنه ينبغي للراشدين الفاضلين أن يكونوا قادرين على التفكير في التجربة الجنسية مثلما يفكرون في أي شكل آخر من أشكال التجارب - في الفن أو العلم أو الرياضة أو الفامرة، حينما قرأت رايدر هاجارد في طفولتي - شعرت بالانفصال والمشاركة في وقت واحد. جاء الانفصال من الجلوس على مقعد وأنا أقرأ كتاباً جامد الحركة، ولكن الاستئارة جاءت من السير عبر الأحرار اللينة بالتعابين مع البطل الآن كاترمين. وهذه هي الخاصية الجوهرية للتجربة للنحضر، "الانفصال" و"المشاركة". ولكن حيث يتعلق الأمر بالجنس، لا تزال هذه الفكرة بعيدة عن القبول. فمن المفترض فينا إما أن نكون مشاركين بشكل مباشر - في الفراش مع شريكنا في الجنس - أو بعيدين منفصلين بشكل كامل، أي مثلما يحدث حينما أقرأ عن حالتني في كتب هافلوك ليس ثم أعنفه فناداً، "بالله من أمر ممتع!" هنا يبدو عنصر سخيف ولا معنى له، لقد عاش معظم القراء

الراشدين التجربة الأساسية التي وصفها كليلاند أو د. ه. لورنس، وعلى العكس القسوة أو الجريمة، لا ينظر إلى هذه التجربة باعتبارها شيئاً غير مرغوب فيه من الناحية الاجتماعية. فهل هناك حقاً مثل هذه الهوة بين موضوع الجنس وموضوعات من مثل التاريخ أو الفامرة أو الرياضة؟ هل هناك أي سبب يمنع الراشدين، إذا كان هذا هو احتياجهم العقلي، من القراءة عن الجنس مع الإحساس بالانفصال، أو التفكير، أو حتى مع قدر معين من الإحساس بالمشاركة؟ إننا إذاً كان يوسعنا أن نقول عن شيء ما إنه "صادم" دون أن نعني أنه فيبيح أو شرير. إذن فإنها تبدو لي كفكرة ممتازة أن أستخدم هذا الشيء لكي أصدم أكثر عدد ممكن من الناس، حتى يفقد تأثيره الصادم، وحتى يمكن أن ننظر إليه بهدوء ودون تشويه. في مجتمع متحضر حقاً - ونحن ما تزال بعيدين عنه - أن تكون هناك كتب محرمة، ولا أفكار محرمة.

توطئة

■ كان إيزموند دونيللي في الرابعة والثمانين من عمره حينما داهمه الموت في شهر ديسمبر عام ١٩٦٢، وكان في أواخر حياته موطناً تماماً لعلم الأرقام، حتى أنه تبادل عدة رسائل مع العالم الرياضي كارل جوس^(١). وفي إحدى رسائله إلى جوس يتحدث إيزموند عن الخصائص "السحرية" للرقم ١٢٧ - وهو رقم - بالطبع - لا يقبل القسمة. وبشكل عابر، صادقت نسخة من هذا الخطاب في اليوم السابق، وكانت موجودة في محفوظات مسر إكسالايد نوري، وقد ثارت خواصري حينما تبين أن هذا الكتاب سوف يطبع ويصدر بعد ١٢٧ عاماً بالضبط من موت إيزموند. واعتبرت هذه المصادفة علامة هائل حسن.

لا أستطيع أن أحدد بدقة متى بدأ اهتمامي بالبحث عن إيزموند دونيللي، ففي أحد الأشهر، واعتقده شهر يناير ذهبت بالطائرة إلى نيويورك مفتتحاً جولة طويلة ومرهقة من المحاضرات، أخذتني من فلوريدا إلى مين، ومن نيومكسيكو إلى سياتل. وكنت قد اصططحت أسرتي معي: زوجتي ديانا وابنتي مورين التي تبلغ الثالثة من عمرها.

لأنني أدركت سريعاً بعدم جدوى اصطحابهم معي في جميع تلك المدن والأماكن التي تنقلت إليها خلال تلك الفترة، ولذا فقد أبقيتهم مع بعض الأصدقاء في نيويورك، وكنت

(١) كارل فريدريك جوس (١٨٥٥-١٩٣٧) عالم رياضي وفلكي ألماني، ولد في برلين ونكح عاشر حياته في غوتنبرغ حيث شيد مرسداً كبيراً ونشر أغلب أعماله.

أعود لهما لقضاء عطلاتي الأسبوعية إذا ما كنت قريباً من نيويورك، أو وجدت متسعاً لنرحل إلى نيويورك. وبعد شهرين متواصلين من التنقل والاستقرار في مكان واحد، بدا لي متوتراً جداً، وكان علي أن أخفف من ذلك التوتر، وأن أكافح من أجل الحصول والمحافظة على درجة بسيطة من العزلة لكي أتمكن من كتابة مذكراتي الشخصية اليومية في كراسي التي اعتدتها لذلك، وحينما شرعت أخيراً في إعادة قراءة تلك المذكرات، كان واضحاً لي أنه لن تكون هناك بداية أكثر بساطة وسهولة لكتابي هذا من أن أقتبس تلك المذكرات بذات الصورة التي كتبتها تماماً.

- ١ -

١٠ أبريل ١٩٦٩...

■ كنت متكباً على فراشي في غرفة الضيافة بالحرم الجامعي، الشرب الشاي وأكل كعكاً صغيراً مصنوعاً من دقيق القمح، عندما تطلعت إلى الساعة، وكانت تقارب الثامنة والنصف صباحاً حسب توقيت الساحل الشرقي، والخامسة والنصف بالنسبة لي، وكان علي في التاسعة والنصف أن أتحدث في اجتماع.

لقد قالوا لي أن ديالان توماس^(١) قد نام في هذه الحجرة، وأثار فضيحة حينما سمع لأعضاء فريق كرة القدم من جامعة كويوكول - وهي جامعة الشبان على الفاحية الأخرى من المدينة - بالنوم على الأرض وبأن يتقياوا في حوض الاغتسال. ولابد أن نشاط هذا الرجل وطافته مكاناً خياليين.

بعد تسعة أسابيع من التجوال عبر أمريكا وإلقاء المحاضرات أصبحت في حالة من الإجهاد أشعر معها بأنني قد تحولت إلى زجاج بارد متجمد. إنني أستطيع دائماً أن أشعر مقدماً بما سيحدث حينما أكون على وشك الانتهاء، كان الأشياء تكتسب فجأة خاصية

(١) ديالان توماس (١٩٢٦-١٩٥٢) شاعر إنكليزي حديث، يشتهر بشعره بامتزاج القصائد السريالية مع عناصر من العيالات الأسطورية الكلتية القديمة، وخاصة تلك المتعلقة بهواجس الموت والتبلى الأرواح للأجساد.

عجبية ذات أعماق غامضة. كانت ديانا قد وضعت في حقيبتي قطعة كبيرة من صابون الطبخ العادي الآخر - فالغنادق الصغيرة لا تهين لك سوى قلع صغيرة تنزلق من بين يديك تحت الدش - . وعندما ذهبت هذا الصباح لكي أخذ قطعة الصابون من الحقيبة كان علي أن ألق في مكاني لكي أحقق في الأشياء. من الصعب أن أشرح ما شعرت به. أن قطعة الصابون لم تبد لي ببساطة مكانها قطعة من حجر المالاخيت الأخضر، ولكنه بدت أيضاً رخوة، بزخرفة، غائمة كما لو كانت تريد أن تختفي عن الأنظار. إن الأشياء التي أراها في مثل تلك اللحظات، تبدو كما لو كانت قد اكتسبت بعداً إضافياً أو معنى جديداً، سوى ما يتعلق بالصلاية واللون والرائحة والطعم... ثمة شيء آخر^{١١} أيضاً، يختلف تماماً عن تلك الخصائص. لابد لك أن تدعو هذا الشيء - بالنسبة للإنسان - الشخصية، أو الروح.

وكانت أدور حول الفرفة وأنا في تلك الحالة الأقرب إلى الحلم. شاعراً كأنني طفل ولد لتوه، عاجزاً عجزاً غريباً، ومع ذلك فأنا سعيد سعادة غريبة. حينما بدأت بصب الماء الساخن في صوب الشاي الذي أرسلته إلينا محلات "فيندلاتر" في دبلين - انتابني إحساس عابر للحظة واحدة بأنني أدوب في البخار المتصاعد، وأصبحت رفحة الشاي غريبة، تكاد أن تكون مخيفة أيضاً.

تلك الجولات فائقة. يريد وكيالي أن اليوم بجولة أخرى في العام القادم، ولكن هذه الفكرة شمر ثائرتي. إن أفضل ما يمر بك من اللحظات في أثنائها هي لحظات الجلوس في الطارات، وتناول شطائر الهامبرغر وشرب عصير الفاكهة أو عصير البرتقال الطازج. وأحياناً في مثل تلك اللحظات، أتمكن من الوصول إلى حالة جميلة من التباعد والنظر إلى الأمور في انفصال كامل عن اللحظة الراهنة، فأحس بالحجم المجرد لتلك البلاد، وأشعر هجاء بالرضا والسعادة. لقد وصلت إلى تلك الحالة أيضاً منذ ليلتين. حينما كنت أجلس في مشرب القندق الصغير في بورتلاند، انظر إلى السيارات والحافلات العامة تمر سريعة عبر خطوط الطر السوداء، ممزقة انعكاسات إعلانات السيون محيلة إياها إلى مرقق حمراء مثل شظايا القنابل لحظة الانفجار. ولم يحدث أبداً أن غاب عني ذلك الشعور الخاص بالابتهاج عندما كنت أجلس في محل بيع الكتب في أحد الطارات، حتى ولو لم يكن لدي أكثر من خمس دقائق لتغيير البطارية، وفي نفس الوقت يكون لدي من الكتب ذات الأغلفة الورقية (من الطباعات الرخيصة)

ما يزيد علي ما أستطيع أن أحمله. وفي مطار أوهافا بالأمس، اشترت كتاب أبو للينير^{١٢} "السيد الفاسق" وهو مؤلف سريالي من الأدب المكتشف. ورجت أفرا عن حياة الشيطان السكين التعيسة بينما كنت أنتظر الطائرة. وحينذاك أدركت الحقيقة بوضوح كبير أن عملي وعمل كل الكتاب هو أن نرفض أن نكون جزءاً من الحياة اليومية العادية، أن نقف جانباً بعيداً عن تيارها، حتى لو تطلب ذلك أن نتخذ موقفاً مشبعاً بالقسوة أو القومية. يجب ألا تمنعنا هذه الحياة ولا أن نفرق نحن فيها. هناك علاقة بسيطة كاملة بين العقل وبينته. البنية تعملنا معها وتنفصلنا مثل التيار في المجرى السريع، والعقل بشبه الآلة التي يمكن أن تدفع القارب في اتجاه معاكس لاتجاه التيار. أو على الأقل فإنها تساعد على البقاء في نفس المكان. فإذا استمرت الآلة في العمل، كان الإنسان صحيح الكيان بشكل جوهري، أما إذا توقفت الآلة، فإنه لن يكون في وضع أفضل من وضع قطعة الخشب الطافية فوق التيار.

■ مضت الاجتماعات والحاضرات في سبيلها بشكل جيد بصورة مكافئة - وتحدثت كثيراً عن طبيعة الشعر والنزعة الصوفية. وكان أن جرتني ست فتيان، بعد انتهاء إحدى الحاضرات ورجن بطرح علي الأسئلة. كن جميعاً قد قرأن كتاب يومياتي الذي أصدره الناشر الأمريكي تحت العنوان المفرز "اليوميات الجنسية لجيرارد سورم" (وقد كتفنتي الجنسية التي رفعتها بهذا الصدد في بوسن كل ملهم لعين أخته من حقوق النشر)، وكانت الفتيات الست يحفلن الكثير من الأسئلة عن كتابنهن. وكان من الغريب أن أرى أن شخصية كتابنهن ما زالت تطلب أبواب الفتيات رغم الصفحات غير السلية التي كتبتها عنه. كنت أحب أن أراه يتجول حراً في إحدى الكليات الأمريكية للفتيات - وأمل أنه كان سيأتي هذا بكفؤ الحفني. إن أكثر الدواعي الجنسية عدوانية في العالم، يمكن أن يفرق

١١) جيمس بوليس - الاسم الأصلي: جيمس بوليس - ويؤلفه: جيمس بوليس (١٩٨٨-١٩٨٩) طبع من الكتب: شخصيات جيمس بوليس في الأدب والسينما التشكيلية في القرن التاسع عشر. تميركة حداثته بالعمومي والتمرد الجنسية والحول آخر أعماله على أكثر من عاصم النزعة السريالية التي تشبه بها ترويه يرتكون فيها بعد في الموان السريالية.

في هذا البحر من العذرية الأمريكية غير الناضجة. ففي جامعة ولاية يورتلاند، عندما كنت أعقد ندوة، أحضرت تجمع من الطالبات حتى أنني لم أعد أرى سوى هذه الشابة العريضة النحلي بالسيفان الطويلة، والتنانير البالغة القصر. وحينما أخذتني مجموعة منهن لتناول الغداء، تبين أن الفتاة الأمريكية لم تتغير منذ كتب هنري جيمس عن شخصية ديزي ميلر. إن التفاحات تبدو شبيهة بما فيه الكفاية، ولكن الرائحة يكتشف أنها قد صنعت من الخشب.

وفي وقت لاحق، وحينما كنت لتناول الغداء مع ميرفين ديلاارد، رئيس قسم اللغة الإنكليزية في جامعة ولاية يورتلاند، سألتني إن كنت أعرف أي شيء عن إيزموند دونيللي. ومن الواضح أن هذا كان شخصاً إيرلندياً اشتهر بنفسه وخلاعته، وكان معاصراً لشيريدان. أمضى حياته كلها في صحبة الأوغاد في منطقة "جال واي". وقد نشرت بعض مراسلاته مع روسو في برن حوالي عام ١٨٠٠ تحت عنوان "افراغ العذاري" رغم أنه يبدو أن أسرته قد أعلنت أن هذا الكتاب ليس (لا نتيجة نوع من التزييف وكان سبب سؤاله، أن مؤسسة (عروف بريس) للنشر تحاول إصدار الكتاب في أمريكا مع مقدمة يكتبها ميرفين ديلاارد. وقد أخبرتني بأنني أقيمت في "جال واي" لمدة سبع سنوات ولكنني لم أسمع أبداً باسم دونيللي هناك. فإما أن يكون قد نسي تماماً، وإما أن تكون ذكراه قد أهملت عن عمد.

وحينما عدت إلى غرفة الضيافة، كان هناك مظروف (غلاف مغلق) جاءني من وكيلي مملوءاً بالبريد. وكان يتضمن خطاباً من بعض الناس يدعون "مؤسسة ليندن للنشر"، جاء فيه،

مؤسسة ليندن للنشر، ٥٦٥ الشاعر الخامس،

نيويورك، ن. ي. ١٠٠١٦ في إبريل ١٩٦٩.

عزيزي مستر سورم،

عرفت من اللقاء معك الذي نشر في باب نهر من الكتب في صحيفة نيويورك تايمز أنك تقوم بإلقاء بعض المحاضرات هنا. ويقول القاء لتشور أنك تنوي أن تعود قريباً، ولذلك أرجو أن يسلط هذا الخطاب سرياً.

لقد كنت من المعجبين بكتابك "اليوميات الجنسية" منذ صدوره. وقد تذكرت بالأمر. أنك نشرت في المقدمة إلى "موي كوكولان" وفي كتاب "مذكرات هاسي إيرلندي"

الذي نرغم أن نشره في الخريف. بصرف إيزموند دونيللي عملية إغواء لكل من ابنتي القسيس غير الشرعيتين في مدينة موي كوكولان، وهو الأب ربوردان.

وبالنظر إلى معرفتك بالكان الذي دارت فيه تلك الأحداث، أتساءل إن كنت ترغب في كتابة مقدمة للطبعة التي نرغم إصدارها؟ وأحب أيضاً أن أضيف أنني سأكون سعيداً إذا اتفقت معك على تأليف كتاب عن دونيللي إذا شعرت بأي ميل إلى القيام بمثل هذا العمل.

فإذا حدث أن تسلمت هذا الخطاب قبل مغادرتك البلاد، أتساءل إن كان سيمكنك الاتصال بي في الرقم المذكور على الفور، حتى يمكننا أن نتناقش في أمر لقائنا؟

وإذا انتظر بشوق أن أسمع صوتك فإنني أنقل إليك تحياتي.

الخلص لك

هورد هليشر.

ولا كنت أمك ساعة فراغ قبل أن تقلني السيارة إلى المطار. طلبت بالهاتف الرقم الذي أعطاني إياه. بدا لي الرجل - من صوته - ودوداً بما فيه الكفاية. ولم يبد عليه الاستياء من أنني لم أسمع أبداً عن دونيللي قبل اليوم. وشرحت له أنني لن أصل إلى نيويورك قبل يوم الجمعة المقبل. وفي وقت متأخر، فقال أنه سيقابلني في مطار كنتيدي لكي يأخذني إلى بيته في "لونغ أيلاند". وادرت في هذه المصادفة المتعلقة بدونيللي. إن مثل تلك الأشياء تحدث أحياناً بكثرة مضحكة. فقد حدث بالأمر أن سمعت اسم الشاعر الروسي لومونوسوف في متبايع السيارة، وبعد عدة ساعات رأيت الاسم أمامي في إحدى دوار المعارف حينما كنت أبحث عن شيء آخر. وتركتني هذه المصادفة وأنا أتعجب، ولذلك ففي أول مرة ذهبت فيها بعد ذلك إلى محل تباع الكتب في الحرم الجامعي، سألت المديرة إن كان لديها أي شيء عن الشاعر لومونوسوف. فقال لي:

"من الضحك أن تسأل عن ذلك. فقد وصلني كتاب يضم الكثير من قصائده بالأمر."

ونشرت الكتاب. وقرأت المقدمة، وعلى الفور أدركت بأنني قد وضعت يدي على شخصية رائعة تصلح لبناء رواية. ومنذ عشر سنوات، كنت حديراً بأن انظر إلى مثل تلك

العملية نظرتي إلى السحر والأعمال الخرافية. وأما الآن، فإنني أفتني أثر سبيل المصادفات بلهفة زائدة.

- ٣ -

١١ أبريل، مطار ويلكس - بار

□ كان قد بقي عشرة دقائق على بداية محاضرتي في هذا الصباح، عندما سلمني ديلارد البريد الخاص بي. كان هناك خطاب من جيم سميت من سان فرانسيسكو يخبرني فيه أن هيلغا نابزي قد انتحرت - ففرت من فوق برج بيركلي، بعد أن تسلقت بطريقة ما فوق الأسلاك الواقية التي وضعوها هناك لمنع حدوث مثل تلك الأشياء. كنت أشعر بالتعب، وقد تملكني الضجر بعض الشيء حينما وصفتي الخطاب، ولكن، حالاً قرأته، بدا لي أنني استيقظت، وأصبح الإجهاد كأنه لم يكن إطلاقاً.

شعرت أيضاً بالذنب، رغم أنه إن لم لا أساس له ولا معنى. كنت قد التقيت هيلغا من خلال جيم الذي كان يقيم حفلات للمعراة يتناول فيها الجميع عقاقير منشطة وترسم الفتيات على أجسادهن أشكالاً مختلفة. كانت طويلة القامة، سوداء الشعر على شيء من الكسل، وكانت قد أمضت الليلة السابقة مع جيم، أمضينا معاً ساعتين، نأكل السمك وشرايح البطاطس القلية ونشرب القداحاً من نبيذ قلعة بريمنتهام بينما راح جيم يتحدث عن التنجيم والفلك. قال إن الحرب في فيتنام سوف تستمر على الأقل لمدة عام آخر لأن النجوم تتصارع وتتصادم. وجماعة قالت هيلغا، "أراك تهتم بتأثير النجوم على الوجود الإنساني، وكان الأخير بك أن تعلم بأن الوجود الإنساني - بصورة أساسية - لا معنى له؟" ألا يكون من الأفضل أن نترك كل شيء للصدفة؟ وحينما قلت أنا أنني سألقي محاضرة في بيركلي في منتصف نهار الغد، عرضت علي أن تأخذني بسيارتها إلى هناك.

وفي صباح اليوم التالي جاءت إلى فندقي وقالت أنها أمضت الليلة الماضية في قراءة كتابي، "وسائل وأساليب الإيهام الذاتي". ومن المؤكد أنني لاحظت عليها إمارات السهر طوال الليل، وأنا ألقن مناقشة كنتي، كان هناك شعور بتملكني بأنها كانت على وشك الانهيار وأن من واجبي أن أحاول مساعدتها، كان ما ذهنتي، وخليعتي، هو أنها كانت تسلم

تسليماً مطلقاً بأن الحياة لا معنى لها. وقد قالت لي ذلك، كما لو كانت تقول إن ثناء ميلل بالخطوبة. وحينما حاولت أن أنشرح لها أنني لا أشاركها هذا الرأي، قالت إن المعنى الذي استخلصته من كتابي هو، أن البشر عاجزون عن أن يكونوا صائقيين أو أمعاء مع أنفسهم. ولذلك فإن كلاً منهم يحول حياته إلى مسرحية صغيرة يصبح هو فيها الشخصية الرئيسية، إنهم يجزعون الخيالات والأوهام التي تسعى الأدب والفلسفات وما إلى ذلك. وحاولت أن أوضح لها أنها حتى تلك النقطة فإن تفسيرها كان دقيقاً بما فيه الكفاية، ولكنني إنما كنت أخذ هذا الموقف لتدميري فحسب لكي أمهد الأرض أمام التفكير الحقيقي. إن ما يمارسه المتصوفون ليس هو الدين ولا الفلسفة، وإنما الحقيقة، فأطعمني بتغمة بالنسة تكاد تكون مفعمة بالضيق، "ما هي الحقيقة؟". فقلت، إنها ما كان لها أن تسأل هذا السؤال لأنها تعرف الإجابة بالفعل. إنك إذا كنت ضمناً تم شرب مشروباً بارداً كبيراً، فإن إحساسك بالمشروب وهو ينزل على حلقك هو الحقيقة، وهذا شيء يختلف تماماً عن الحديث عن المشروب، أو التفكير في مشروب آخر. والبشر أيضاً يملكون قدرة غريبة على ممارسة نوع من الحقيقة الوحدانية (متميزة عن الحقيقة الجسدية - المادية - ومقابلة لها). إنها من ذلك النوع الذي جريته بالأمس مع قطعة الصابون، أو ما أجريته مرة واحدة على الأقل في صقل عام حينما أشم رائحة الربيع لأول مرة. ففي تلك اللحظات لها الحواس هدوءاً شديداً، ويجتاحك شعور بأنك ترى الأشياء حقاً، بالطريقة التي رأى بها ووردزورت جسر وستمينستر^(١). وثمة إحساس آخر يتمثل تماماً مع مذاق الحقيقي للماء البارد وهو ينزل على حلقك. وقلت لها إن إحساسها بالعقم واللامعنى لم يكن سوى نوع من الجوع إلى الحقيقة، يولد نفس النوع من الإجهاد والبؤس الذي يولده الإجهاد الحقيقي أو البؤس.

والقيت محاضرتي في بيركلي، وأخذتني مجموعة من الطلبة لتناول طعام الغداء، وجاءت معي هيلغا أيضاً. وبعد ذلك أخذونا إلى قمة برج الساعة، وأخبرنا مرافقنا بأن عدداً كبيراً من محاولات الانتحار قد حدثت من هذا المكان خلال العام الماضي، وأن هذه المحاولات

(١) ويليام ووردزورت (١٧٣٠-١٨١٨) شاعر إنكليزي، كان إلى جانب صديقه كونراد فوج من قادة حركة الرومانتيكية في إنكلترا، عرف عنه أنه كان عابداً للطبيعة، متعاطفاً مع الديمقراطية الليبرالية، واهتمامه بتناقض حياة الناس والحياة اليومية العادية، واستخدام اللغات العلمية للناس العاديين، وإيمانه بفكرة وحدة الوجود على أساس أخلاقي.

تزيد، بمحاولة واحدة عن مثيلاتها التي وقعت في برج شانفوردي. واعتقد أن هذا الكلام هو ما أعطاهم فكرة الانتحار من ذلك المكان.

لم تقوِّف هيلغا عن الكلام طول طريق عودتنا بالسيارة إلى البلدة، وبعد أن وصلنا إلى التلينة، أخبرني بأنها تريد شراء بعض الأشياء من السوق، طالية مني مرافقتها إلى السوق، تعلمت لها بأنني أريد أن أكون في الراحة، بعد الساعات الطويلة من الكلام والمحاضرات، التي أجهدتني حقاً، ووعدها نهاية عن ذلك بأننا سنخرج معاً في وقت لاحق لتناول وجبة من الطعام في (تشينا تاون)، فبرأت بعض أعمال هولدرلين ثم استسلمت إلى النوم حتى الساعة. وجاءت هي إلى الفندق في الثامنة، فاحتسبنا بعض النبيذ في غرفتي ثم خرجنا فسرنا على الأقدام حتى الحي الصيني، قالت لي أنها أمضت فترة ما بعد الظهر في التجول حول المتاحف، فذكرت سبب الإجهاد الواضح عليها، احتسبنا شيئاً من نبيذ كاليفورنيا مع وجبتنا، فبدأ علينا الأمر خاد، وراحت تتحدث عن مشاكلها وقضاياها عن (إصلاح) زوجها الصاب بالشذوذ الجنسي، وعن تجاربها العاطفية مع عدد كبير من المدعين الرافضين، فأنها لا تستطيع أن تقاوم أي شخص يشبه الشاعر أو الرسام أو الفيلسوف. وحسبنا بدأت في رؤية المشكلة الحقيقية، الكسل، والضعف، والرغبة في أن "يحدث" لها شيء ما، أن يظهر حكيم ما لكي يسئحها الإجابة. وحينما بدأنا في شرب الزجاجات الثانية من نبيذ "ليدن" أصبحت فجأة رقيقة رقة بالغة ومجاملة للغاية. وقالت لي أنها كانت تحاول أن تتلقى بي منذ أن كنت هنا في شهر يناير الماضي. وقالت أنها لا تطلب مني شيئاً أكثر من أن أكون صديقاً لها. أكتب لها الرسائل من حين إلى آخر، وما إلى ذلك، وأخبرتها بأنني سأبدل القصي ما أستطيع. فقالت: "كنت المسألة أنني أريد أن أنام معك، فانا أنام مع الكثيرين"، وكان شعوري هو أنني لا أحد ما ألبعل رغبتني فيه عن النوم معها. كنت في مساء اليوم الماضي قد ظننتها جذابة، بل وحسنت جيم على الليلة التي قضاها معها، ولو أنني قابلتها منذ عشر سنوات لكنت قد نمت معها على أية حال، دون تفكير في النتائج. أما الآن فقد كنت أدرك بوضوح أنها كانت تحاول أن تعقد معي صفقة، بأن تمنحني شيئاً ما "في مقابل" شيء آخر أستطيع أن أمنحها إياه. ولم أبدأ أن أكون دائماً لها.

أمضينا ساعة في "مكتبة أضواء اللينة" وقابلنا عدداً من أصدقائنا، ثم انتقلنا إلى مقهى يقع عبر الطريق لشرب الزيد من النبيذ. وفي منتصف الليل، قلت لها أن علي أن أعود

إلى غرفتي، فقد كان علي أن أستيقظ في الصباح التالي لكي أقي محاضرة في "بالو التو". فقالت أنها تود أن تسم معي حتى حي "ساتر" لأنها بحاجة إلى استنشاق الهواء النقي. وعند ناحية شارع ساتر، حاولت أن أقنعها بأن تستقل إحدى سيارات الأجرة، فقالت أنها بحاجة إلى قديم من القهوة لكي تنتعش. وهكذا دعوتها إلى حجرتي وأنا شديد الامتناع. (كان الكاتب الليلي في الفندق صديقاً لي، ولم يفعل أكثر من أن يغمز لي بعينه. ولم أعرف في أنها تحمل في ذهنها فكرة إغوائي، فأنها لم يبد عليها أكثر من أنها تعاني من الشعور بالوحدة. ولكنني كنت مصمماً على أن لا يحدث شيء مع هذا على أي حال). أمضت عشر دقائق في الحمام بينما كنت أعد القهوة، ثم ذهبت إلى الحمام. وتركتها لكي تعصب القهوة، فوجدت الحمام يسبح في رائحة العطر. وحتى اللحظة لم يكن يوسعني أن أخيل ما كانت تفعله بهذا العطر، لأنها لم تكن تحمل منه شيئاً، وحينما خرجت من الحمام، كانت رائحة على أحد السريريين اللقبائين وقد أغمشت عينيها، وبدأ عليه الشحوب الشديد سائها إن كانت تشعر بأنها على ما يرام، فقالت أنها ليست كذلك، ولكنها ستتحسن في لحظاتها. وضعت القهوة على اللصدة الصغيرة المجاورة لسرير، فحدثت بذلك تبحت عن يدي حتى أمسكت بها وقالت:

"هل تسمح بأن تغيلني مرة واحدة، من فضلك؟"

كنت ما أزال أذكر نحوها تلك العاطفة الأبوية. فخرجت أريت على رأسها قاتلاً، أحمل، أحمل، بالطبع. واتحنت فوقها. كان همها ليناً وجذاباً، رغم أن شفتها السفلى كانت مشققة قليلاً. كان تقبيلي لها نوعاً من الصداقة - شعور يشبه ما كنت أحيطها عنه من قبل عن ابتلاع مشروب بارد ومجرد التفكير فيه. أنت هي بعد أن قبلتها، ورفقت في مكانها دون أن تفعل شيئاً، وحينما حاولت أن أراجع عنها، سمعت في حلقها صوتاً يشبه الأنين من جنين. ولم يكن هذا الوضع مريحاً - كانت رقبتي تؤلمني - ولذلك فقد وضعت ركبتي واحدة على السرير. وفجأة بدأت تتنفس بعمق وبانتظام، كما لو كانت قد استراحت راحة هائلة، وبدأت بعدها تمسح سروالي، كما لو كان هذا بالمصادفة، استقرت في مكانها هناك. وحدثت الاستجابة العنسية. وكنت التماس طول النهار إن كانت تريدني جواباً أو سراًويل ضيقة. وكنت أعرف أن هذه هي فرصتي الأخيرة، فلو أنها كانت تريدني السراويل الضيقة، وحتى إذا كانت تريدني حمالة جوارب مشدودة إلى سروالها الداخلي، لا يمكنني أن أعيت قليلاً بأنني. ثم أعطت منها أن تعطي فهورها، بينما تخبو رغباتي الطارئة ونصلي جلودها، أما إذا لم

يكن ذلك.. تباعد فحشاها حينما لست بيدي ركبتيها، وحينئذ نشت اللحم العاري فوق الجورب. وبعد لحظة، وصلت يدي إلى ملتقى الطرق، فوجدت أنها لم تكن ترتدي سروالاً داخلياً. ولابد أنها قد خلعت في الحمام.. وفي خلال ثوان قليلة كنت قد أصبحت داخلها ولابد أن أعرف بأنه كانت هناك دفعة غامرة من البهجة الخالصة. كان هذا نوعاً من الامتزاج المجرد بين الذكر والأنثى، دون وجود لشخصية كل منهما. وبدا لي أن دهشاً، حينما أحاطتني بساقيها، كان دهشاً طال إعداده من قبل. ولكن امتزاجنا لم يستغرق سوى وقت قصير. كان كل منا مستثاراً بشدة لردة أننا بلغنا ذروة نشوتنا في ثوان معدودة. رفعت وأنا في داخلها للحظة أخرى، وأنا أنظر إلى وجهها، فبهت لي مسألة تماماً وهادئة. وحينئذ قالت:

«فلنخضع ملابسنا وندخل إلى الفراش»

وكان هذا اقتراحاً معقولاً، ففدنا على الفور. ولكن ما تبقى من الليل لم يشبه تلك اللحظة الأولى. وكانت قد حصلت على ما أرادت الحصول عليه، وكنت أنا قد وصلت إلى ما كنت حريصاً على أن أتيه. ولكن أكثر ما أزعجني هو أنها بهت لي عاجزة عن التعاطف. وكانت تستمتع بالجنس في تفان جسدي لم يتح لي أن أعرف مثله كثيراً - كان هذا يرهنا جديداً لي على أن النساء اللواتي لا يميزن كثيراً في علاقاتهن الجنسية لسن بالضرورة بارداً أو قاترت. ولكنها في اللحظات التي تخللت دورات امتزاجنا، كانت تريد أن تتحدث عن مشاكلها، وعني، وعن علم النفس، وعن محاضرتي... وكان علينا أن نتبادل الحديث بالهوس حتى لا نزعج النزلاء في الغرف المجاورة.

في القطار المتجه إلى "بالو ألتو"، لعنت نفسي لأنني لم أجد معي كراسة مذكراتي، لم أضع الأشياء التي أود تسجيلها فيها. لم أكن أرغب في النوم مع هيلغا لأنني كنت أعرف مقدماً أن هذه التجربة لن تختلف شيئاً ورائها. إذن فلماذا لا أحصل بالفعل على مثل تلك النعمة من ديانا رغم أنني تزوجتها منذ سبع سنوات؟ لقد مضت علي عدة سنوات حتى الآن، وأنا أحاول تخفيف أسس الدافع الجنسي. لذا "ينبغي" لرجل ما أن يرغب في إيلاج عضوه للتعب داخل امرأة ما؟ لابد أن ثمة سبباً ما. والقول بأن هذه "غريزة" ليس جواباً حقيقياً. حينما كان مويبي (ابنتي) طفلة صغيرة، كنت أفسد دائماً ما أضع دائماً إيهام بينها وبينها تمسك لأنها بيدها الأخرى. ثم لاحظت أطفالاً آخرين يفعلون ذلك الشيء. وأنا

لأستدل أن لم يكن هذا مرتبطاً بالرضاعة من الثدي - وما إذا كان الطفل يمد يده بصورة أوتوماتيكية لكي يمسك بالحلمة الأخرى بينما يكون مشغولاً بتناول ضماحه من الحلمة التي في فمه. فهو يعامل أحده معاملته للحلمة؟ وهكذا لابد أن يكون هناك تفسير مشابه للدافع الجنسي.

قصت علي هيلغا قصة عريية، فحينما ذهبت إلى الكلية لأول مرة. كانت صيدة شابة مكبونة كيتاً شديداً قد جاءت من الغرب الأوسط وتحمل آراء متشعبة حول ممارسة الجنس قبل الزواج. خاصة وأن أمها كانت قد أخبرتها بأن الرجل يستطيع دائماً أن يخمن أن كانت زوجته عذراء أم غير عذراء، وأنه من المحتمل أن يهجرها على الفور. وطوال ستة شهور أو نحوها، ظلت تخرج مع أولاد عديدين، وتسمح لهم ببعض اللامسات القليلة. ولكنها كانت توفهمهم عند حلهم إذا حوثوا أن يخلعوا سروالها. وفي بداية عامها الأول، تنقبت لكي تسكن مع فتاة أخرى. أخبرتها بأنها حلت المشكلة باستخدام عضو أنثوي صناعي. وبثبت هذا الشيء حول الفخنيين بواسطة حزام، وكان شيئاً يزيد قليلاً عن أنبوبية صنعت من نوع ما من نطايط تنبت فوق العظام الأمامي، ويجب أن يربط مدخل الأنبوبة ببعض من زيت الزيتون. وقالت هيلغا أنها لا تظن أنه يمكن أن يكون عملياً، ولكن صديقها كان قد قال لها بالفعل أنه سوف يقطع علاقته بها إن هي لم تتنازل عن رأيها. ولكنها جربت هذا الجهاز بعد أن استعارته من صديقها. ولشد ما دهشت حينما وجدت أن فولد لم يهتم أقل اهتمام بذلك. كانا بنامان سوياً في الفنادق الصغيرة أثناء عطلات نهاية الأسبوع. وكانت هي تصر على الإبقاء على سروالها دون أن يخلعه، خوفاً من أن تشتعل شهوة الفتى. ولكنها قالت أنه حتى لم يحاول أن يشوم بمصاحمتها بشكل طبيعي، فقد كان يعد أن يبلغ نشوته. يلاحظها قليلاً ثم يتركها. وبعد ذلك استخدمت هي نفس الجهاز مع صديقين آخرين، معتقدة أنها بهذا الشكل سوف تكون قاضية بصورة رائعة، حتى جاءت ليلة ما فاشتعلت مائر عبة وطلبت من صديقها أن يمارس معها الجنس بشكل عادي.

تذكرت حينئذ أن ديانا كانت قد أخبرني بشيء مشابه لذلك حول تجاربها الجنسية الأولى. لقد حبت مرة أن تشاجرت مع صديقها، فذهبت إلى الفراش مع رجل كانت قد قابلته عصر ذلك اليوم نفسه، لكي تضيف صديقها ولكنها قبل أن تلعب إلى غرفة

الرجل قالت له إنها عذراء وأنها تود أن تظل كذلك. فوافق عل الفور. وظلَّ طوال الليل يربت أحدهما على الآخر ويلاطفه، ولكن دون أن يمارسا العملية الجنسية بشكل طبيعي.

خطر في ذهني في تلك اللحظة بأن هذا يمكن أن يكون مفتاحاً هاماً، إن الرجل "طبعاً" لم يكن رزيناً ولا محتشماً، كان هناك ديانا، وهي فتاة جميلة، من الطبقة المتوسطة ذات جسد رشيق وأخلاق محتشمة، أما هو فريد أن "يعرفها" أنها بالنسبة له مثل شيء وضعت في صندوق زجاجي داخل التحف وكتب عليها، "ممنوع اللمس". وهناك قصة لوبياسان عن مجرم هرب من سجنه وتنكر في ملابس النساء، وعمل كخادمة في منزل إحدى السيدات، وظل يساعدها على خلع وارتداء ملابسها طيلة شهر. "هذه" هي ككيفية رغبة الرجل في معرفة المرأة التي تجلس أمامه في عزو الأنفاق، أو تقف أمام قسم العطور في أحد المحلات الغالية. إن الإيلاج الفعلي في عضوها هو أقل أجزاء المسألة أهمية بالنسبة إليه، إنه ليس سوى الرمز النهائي للاستسلام، إنه يستطيع أن يتنظر إليها فيقول لنفسه، "كم أود أن أحصل عليها"، لكنه يكون قد حصل عليها بطريقة تكاد تقرب من حصوله عليها إذا ما قضى معها ليلة متكاملة في حجرتها، فظل يراقبها وهي تخلع ملابسها، وراح يتجول بيديه فوق جسدها مكنها، ويشعر بينيها فوق بيده. وبما فيها وهي ترتدي ملابسها وتمشط شعرها، ويرى الأساليب التي تستعملها أدوات ومواد التجميل، ونوع معجون الأسنان الذي تستخدمه (إن جوع الذئب للأنثى هو جوع لا يمتلئها، أودتها الغريبة عنه، وإلى شكل شيء فيها).

مرة أخرى أحب أن أقول أنني كنت شديد الإعجاب على الدوام بقصة ككلايست^(١) حين التزم كدير هون، وفيها أن بعض الجلود الروم يحزون بلذة صغيرة فيأخذون الكونيسة كشابة لكي يفتصبوها. وينفذها ضابط روسي، فيغمى عليها بسبب ما شعرت به من الرعب. وبعد شهور قليلة تنهض عندها تكتشف أنها حامل، ولكنها وخلة من برائتها ثقة كاملة لدرجة أن تعلن في الصحف مضالمة والد طفلها بأن يتقدم ليعرفها بنفسه. وبعد قليل، يتقدم

(١) برنارد هانز ريتش ويلهلم هون في ككلايست (1910-1994) شاعر ومكتاتب برامبي تالي، يعبر واحداً من رواد حركة "المنفعة والتفكير" التي طمعت الرومانسية الأنثوية بمساعدة ولذا ملوياً ورسم قصر حياته وصالة ما طمعت به تلك طمعت، لقمصته أهمية كبيرة لدرجة قيل معها أن تاترد على فرمز ككلايست كان قويا للغاية. ولكن حياته نفسها كانت بعد الفراء، فبعد أن وصل إلى حالة انهيار أطلق النار على حبيبته "فريديت" أو حيلاً ثم انتحر.

الولد بالفعل - إنه الضابط الشاب الذي أنقذها. وكان ككلايست من حسن التقدير بحيث حاول أن ينهي القصة نهاية سعيدة، ولكن أكثر الرومانتيكيين كانوا جديرين بأن يجعلوها تنتحر فراراً من العار، ثم يدخل الضابط الدير بدافع الندم لكي يصبح راهباً فيكفر عن ذنبه. ولكن غوته تحلت بخشونة واضحة عن قصة ككلايست، مصرحاً بأنها من السفخ بحيث لا يمكن أن تقرب من الحياة الحقيقية. الأمر الذي يوضح أن ككلايست كان يعرف عن الطبيعة البشرية أكثر بكثير مما يعرفه غوته - أو على الأقل فيما يتعلق بالجنس. ليست هناك حاجة إلى إظهار أن الضابط كان أخلاقاً لا أخلاق له. إنه ينقذها بروح فارس من هرسان المائدة المستديرة، وحينما يغشى عليها، يرقنها برقة فوق أريكة ناعمة، وترتد هي بسكون كما لو كانت نائمة، ويشعر هو بنوع من الفضول إلى معرفة كيف يبدو النصف الأسفل من جسدها إذا خلعت ملابسها، وهو يعرف أن ليس عليه سوى أن يرفع ذيل ثوبها إلى وسطها لكي يراها عارية - فقد كانت تلك هي الأيام السابقة على اختراع السراويل الداخلية، ويقوم هو بهذا العمل في حذر، خشية أن تستيقظ، ويدس يده بين فخذيها لكي يباعد ما بين الساقين، ثم لا يكون من الهم أن تستيقظ أو لا تستيقظ، ففجأة يصبح كل ما يهمه حقاً هو أن يخلع ينظرونه الضيق وأن يلمس عريها بعريه. ويقوم بذلك ويكتشف أن الإيلاج سهل، ويوصل إلى ذروة نشوته على الفور، ثم ينسحب، شاعراً بالخجل، متوقفاً أن يراها تقفز في مكانها مفرعة، ولكنها تظل راقدة في مكانها في سكون. ويعيد ترتيب ملابسها، ثم يرتب ملابسها، ويخرج بحثاً عن بعض الماء لكي يفتسل. حينما يعود، يجدها جالسة، تنظر إليه بامتنان. هذه هي الفظة، هل ستعلم أن غريباً قد زار أكثر أعماقها ظلاماً؟ ولكنها مليئة بالكدمات تشعر بالرجفة نتيجة لهجوم الجنود، لدرجة أنها لا تشعر بشيء من فعلته، أجل، لقد أدرك ككلايست فضول الذئب التائر الذي يتلظى إلى معرفة الأنثى كما تتعطلش الأرض الجافة إلى الماء. ولابد أن غوته قد أدرك شيئاً من هذا هو الآخر. وإلا فأي شيء آخر دفع هاوست إلى إغواء مارغريتا إنها فتاة ريفية عادية، ليس فيها ما يلمع أو يخطف الأبصار بصورة غير عادية، ولو أنه كان طبيعياً الذي يعالجها لشعر إزائها بنوع من عاطفة الأبوة، ولكنها أجنبية عنه، غريبة، إنه حتى لا يعرف ما ترتديه الفتاة الريفية تحت تنورتها الواسعة التي لا تلبسها إلا في أيام الأحاد، وهو بحاجة ملحة إلى أن يعرف.

وهذا ما يفسر لا ميالاتي الجنسية وراء هينغا في صباح اليوم التالي، وكانت قد سلمت نفسها عارية إلى بالفعل، سلمت هزيمتها، وكسلها، وشقيقتها إلى الاهتمام واستعادة الثقة

بالفلس. ولم يكن هناك سوى شيء واحد آخر ينبغي اكتشافه، هل كانت ترتدي جوارب
مسيقة أم سروالاً داخلياً؟ وكان الإيلاج الأول فيها مجرد جنس محض، ذلك النوع من الجنس
الذي تمارسه الحيوانات بالطبع حينما تتسافد فيما بينها. ولكن بعد ذلك، برز عقلنا لكي
يفطما الطريق على ذلك الجنس وتكي بضلالة...

والد كنتيت لي بعد ذلك مرتين، المرة الأولى لكي تصف انعماسها في علاقة مع مدير
متوسط العمر لإحدى الشركات، والمرة الثانية لكي تعلن لي خطبتها إلى طالب من ولاية
سان فرانسيسكو. ولم أكن قد تمكنت بعد من الإجابة على خطبتها الثاني حينما سمعت
بانتحارها.

جعلتني أخبار انتحارها أشعر بقوة الاصطدام بالحقيقة. تبين أن إجهاد هذه المجهود
من المحاضرات كان إجهاداً زائفاً. إن نتيجة الافتقار إلى الاحتكاك بالحقيقة هو ما أدى بها إلى
الانتحار. وكانت آخر مرة رأيتها فيها في شقة جيم سميت، فقد غادرت سان فرانسيسكو على
مائدة الليل في نفس اليوم. وكان قد وضع سطوانة تسجيل على جهاز الحافكي لديه وقرب
سنة إبرة اللاقط، ولم يحدث شيء في تلك المرة - ليس سوى الصمت. وأخير مكررات الصوت
بأن وضع الأنبة عليها، وحدث حيناً في إبرة اللاقط لكي يتأكد من أن شيئاً من الزغب لم
يعلق بها. ثم أسقط ذراع اللاقط مرة أخرى. ولم يصدر أي صوت. ثم لاحظت أن الذراع
كان يسقط على جزء من الآلة صمم بحيث يمنع الإبرة من خدش الاسطوانة فقلت له أن
هذا الجزء ربما يمنع الإبرة من الالتصاق بالاسطوانة بشكل كامل. وهيئة جيم على يديه
وركبتيه ونظر إليها من أسفل. وقال إن لا، فالإبرة تنمى الإسطوانة بالفعل. ومع هذا فقد
غلب من وضع الجزء الصغير بعض الشيء. وعلى الفور امتلأت الحجرة بالموسيقى. وكان قد
أسقط الإبرة مسافة إضافية لا تزيد عن جزء واحد من مئة جزء من أبوصة لكي يلمس
الاسطوانة - فكانت قريبة منها لدرجة أن العين الباردة لم تكن تستطيع أن تلاحظ المسافة
الدقيقة التي تفصل بينهما. ومع هذا فقد كانت المسافة كافية لكي تخلق الفارق بين
الصمت والموسيقى.

(إن ما يشغلني حقاً هو المسافة التي تفصل بين العقل والحقيقة)، إن الضمير السرف
يوسع من هذه المسافة، وكذلك الإرهاق. ولكن هذه المسافة الفاصلة يمكن أن تكون مستهلة
إلى الدرجة التي تجعل شكل الدارك والحوس تنوهم أنها تحتك بالحقيقة احتكاكاً مباشراً

ثم يحدث أن تقع صدمة مفاجئة فيمتلئ الوجود الداعلي بالموسيقى، فتعرف أنه لم يكن
هناك احتكاك حقيقي. كنت مغدوعاً، كنت وحيداً في فراغك الخاص، تحتلق ببطء حتى
الموت.



فيما بعد - في الطريق إلى نيويورك.

أشعر بأنني مدين بشيء من الامتنان لهيلفا، لقد احتطفتني انتحارها أو انتزعني بقسوة
لكي أخرج من حالة الافتقار إلى الإرادة التي كنت أرتك نفسي لكي أنساق فيها. إن الكائنات
البشرية تتشابه إلى حد كبير مع إطارات سيارات، فلنكي تحصل منها على أحسن النتائج
ينبغي أن تحتفظ في حالة من الامتنان المناسب. فإذا كان إطار سيارة فارغاً من الهواء،
وقدلت السيارة لمسافة ميلين، فإنك سوف تدمر تماماً. ويحدث ذات الشيء إذا كانت الإرادة
خاوية. كنت أعمد ترك أرادتي تزدهر خوفاً بانتظام طوال الأسبوع الماضي أو نحوه، وكنت
أتساءل لماذا كنت أشعر بالإجهاد إلى هذا الحد.

يقول دي صناد أن الناس ساديون، فحتى أفضل الناس يحصلون على نوع معين من
الإشباع من تأمل ما أصيب به الآخرون من خيبة أمل أو صدمات قاسية. وأنه أعلى حق.
ولكن ليس لهذا أية علاقة بالمسافة. إنه لسبب غريب ما، يجمنا الضمير نفقد شكل ارتباط
بالحقيقة. إنك قد تظن، على سبيل المثال، أن رجلاً تم إنقاذه من خيمته النائية الباردة في
القطب الجنوبي، قد لا يكون قادراً على الضمير طوال ما تبقى من حياته. لأنه في كل مرة
يبدأ فيها في التسليم بالأشياء على ما هي عليه، فإنه ببساطة يستعيد اللحظة التي كان
فيها قريباً من الموت. كل القرب، ثم يرى كيف أن ظروفه الحالية جميلة إلى أقصى حد.
بصرف النظر عن قناعتها. ولكن في الحقيقة، فإن مثل هذا الرجل حزين بأن يشعر بالضجر
بنفس القدر الذي يشعر به رجل انفق جل حياته في مرزعة ريفية، وربما كان ضجرة
أكبر. إن سوء حظ الآخرين أو ما يقابلهم من قسوة الحياة، قد يوقظنا من سباتنا الغريب.

هذا الجريان السائب في الطبيعة البشرية هو ما يسحري - إذ بغرسه في قلوبنا وجود
الضمير. اجثت هذا الضمير وهذا التسيب، وسوف تحصل على السوبرمان.

السبت، ١٦ إبريل، جريت نيك، لونغ بيلاند.

□ الإجهاد يجعل من عملية اتخاذ أيًا من القرارات الجيدة أو المحافظة على تلك القرارات أمراً في غاية الصعوبة. وصلت إلى مكيتيدي في وقت متأخر من الليلة الماضية. وفاديلني هوارد فيلنر، كان ضئيل الحجم، ايطالي اللامح، مثيلاً بالحساس والرغبة في الاقتحام، هانني إلى منزل جميل على قمة تل صخري. يقول أنه اشتد من امرأة رجل مشهور من رجال نافيا قتل في جريمة لم تكشف ألقاها. إن فيلنر هذا واحد من أولئك الناس الذين توحى طريقتهم في التصرف بأنك لابد أن تعيهم، فانت تشعر ببساطة بأنك وهو تشركان بالكثير من الأشياء... ضللت اتوقع منه أن يضع ذراعه حول كتفي وأن يناديني "يا ولد". ومن الواضح أنه يشترك في عدد كبير من الأعمال الضخمة خلاف النشر - وفي الحقيقة، لقد راودتني الشكوك في أن دار ليندن للنشر ليست سوى عمل جانبي أنتجه لأغراض ضريبية. وبينما كنا عائدتين بالسيارة، قال بوفار بأنه قد عرف هور اصطلاحه على كتابي "اليوميات الجنسية" أن هذا الكتاب ليس نوعاً من الأدب للكشف الداعر، وإنما شخص مخاض يحمل أفكاراً ويريد أن يعبر عنها. وقد تكلمت أنا وحافظت على سمعي. وعدا إلى المنزل في حوالي الحادية عشرة والنصف. وفتح الباب، فوجدت فتاة سوداء ذات جمال مذهل قدمها إلي باعتبارها سكرتيرة. وكانت هناك أيضاً فتاة أصغر سناً، اسمها بيفرلي. بدت خنيفة الجمال بالمقارنة إلى الفتاة الأولى. وقال أنها تشتت في السكن مع سارة (السكرتيرة) وأنها تدرس في إحدى مدارس السكرتارية. ووضعت الفتاتان على المائدة عشاءً بارداً ممتازاً، تضمن سرطانات البحر وجراد البحر أيضاً. وبعد أن تناولت الطعام، وشربت قهوة من البيرة، شعرت بأنني أقل عدا نحو مضيفي. ولكنني كنت متعباً لدرجة أنه كان من الصعب أن احتفظ بعيني مفتوحتين. ولكن هوارد (وقد أسر علي أن نتخاطب بالأسماء الأولى على الفور) أصبح في الحقيقة أكثر تقمناً وحامساً بعد منتصف الليل. تحدثت عن الحرية الجديدة في الأدب، وعن التمرد في الجامعات. وقال أن هناك جيلاً جديداً لابد من البحث عن ملامحه ودراسته. وأنه حيل جانغ إلى الأفكار، وإلى حرية التعبير، وإلى الحديث المباشر المخلص. وحاولت أن أكتشف ما يعنيه بالأفكار وحرية التعبير، ولكنني لم أستطع أن أكتشف إلا أنه كان يعني حرية التعبير عن الدوافع العلوية دون قيود ومن خلال التعبير الداعر الذي لا يكبته شيء.

كان علي أن أروي اهتماماً وحداً بكلام هوارد الذي استمر في الكلام دون انقطاع إلى ما بعد منتصف الليل. وفي حوالي الثالثة صباحاً، هانني إلى غرفتي. وبينما كان يتعباً لغافرتي، غمز لي بعينه وأشار إلى باب الغرفة المجاورة وقال "بيفرلي في هذه الغرفة إن كنت تريدنا". وعمفمت بكلمات عنيت بها أن هذا نمط شديد منه علي، ورحبت بعد هذا في سبات أشبه بالإغماء. وقبل أن أغرق في النوم مباشرة تذكرت أنني نسيت أن أطلب ديانا بالتليفون في ديوهافن.

في الصباح التالي، لقطتني بيفرلي في حوالي الساعة التاسعة وهي تحمل طعام الإفطار. وسألني إن كنت قد نمت جيداً. ظننت أنني رايت تعباً خافضاً علي وجهها يدل على السخريّة، وتساءلت - في داخل عيني - إن كانت باردة متحفظة كما تبدو. وكانت تشعر بالانقباض. كان الإصغاء لهوارد طوال ثلاث ساعات في الليلة السابقة قد دفعني إلى حالة لم أكن أريد إلا أن أخرج منها لأفقت من قبضته. كنت أريد أن أصرخ "تركتني وشائي. إنني أكره كل شيء لعين تدفع أنت عنه". ولا أظن أن هذا كان من الممكن أن يقضيه أو يجره على السكون. كان من الممكن أن يقول "كلا. إنك لا تكره شيئاً من ذلك. إنك فقط تظن أنك تكرهه..". ثم يمضي فيتحدث بسرعة أكبر مما كان يتحدث في البداية.

دخل إلى حجرتي بينما كنت أتناول طعام إفطاري - إلفطاراً إنكليزياً يضم البيض ولحمًا من فخذ من خنزير ومربي بالزبدة - فناولني مخطوطة كتاب دونيللي. ولم يكن حجمه يزيد على ستين صفحة كتبت بخط اليد. سأنته عما حدث لبقيّة الكتاب فقال - "أجل، حسناً، إيه.. هذه هي المشكلة".

وبعد نصف ساعة من التفسيرات الكثيرة المتعاقبة، والتأكيدات بأنه يقف دائماً إلى جانب استدلالاته، بدأت في إدراك ما كان ينبغي علي أن أتبينه في الليلة السابقة. إنه يشعر بالفيرة من دار "مكروفر للنشر" لأنها نشرت بعض كتب دي صاد، وخاصة كتاب "حياتي السرية" قبل أن يفكر في هذا الكتاب أي شخص آخر. ولكنه لم يكن يرى ما ينبغي أن يعنيه من التقدم إلى ما هو أفضل من ذلك بأن ينشر كل كتاب جاء، ذكره في القائمة التي وضعها ألفورد أنشي عن "بيلاوغر ألبا الكتب الملوعة"، وهو يبدأ هذا المشروع بالفعل بنشر ترجمة

لامعارفات الأخ، أخازيوس من مملكة دوزين، وهو راهب من طائفة الكابوتشان^(١) Capucin يكون جمعية كان يجلد بناء على تعاليمها تابعاته من النساء قبل أن يضاجعهن. وأعارني هوارد مخطوطة الكتاب التي كتبت على الألة الكاثية، ومن المؤكد أنه كان واحداً من تلك "الكتب التي تقرأ بيد واحدة". وكان قد شرع أيضاً في طبع كتاب يسمى "القاسوسة الفاضلون" وإن كان لم يوضح لي من أين حصل على مادة الكتاب.

وأخيراً وصلنا إلى الهدف من كل هذا الحديث. إنه مستعد لأن يدفع لي خمسة آلاف دولار مقابل كتابة بحث حول "ميكولان وباليكاكين" - مسقط رأس دونييلي - وهو مبلغ يكفي لتغطية تكاليف المقدمة. فإذا كان باستطاعتي أن أنتج "مادة" إضافية للكتاب نفسه - أي إذا كان باستطاعتي أن أكتشف مزيداً من الكتابات التي تركها دونييلي نفسه، أو أن أزورها بنفسي - فإنه س يدفع لي عشرة آلاف إضافية من الدولارات. ومن الواضح أنه لم يكن يبالي كثيراً بما إذا كنت سأكتشف هذه الكتابات أم سأقوم بتزويرها. وأشار إلى أن اليكس ثروتشي قد كتب بقلمه أكثر من خمس الكتابات المنسوبة إلى فرانك هاريس تحت عنوان "حياتي وتجاري في الحب" وأنه منذ ذلك الحين كان يطبعه باسمه هو لا باسم هاريس. والسؤال الرئيسية هي أن أكون مستعداً لأن أحمل أي نقد يوجه إلى الكتاب، إذا حلت ووجه إليه مثل هذا النقد.

كان الحصول على مثل ذلك المال كله أمراً مغرياً، وكنت سأعتبر نفسي سعيد الحظ لو تبقى لي خمسمائة دولار من مجموع المال الذي وصليتي مقابل تلك الجولة من المحاضرات. وقلت لفليشر أنني سأفكر في الأمر، ففادرنى مع المخطوط بين يدي.

امضيت ما تبقى من فترة الصباح في الفراش، بينما كان يتزايد انقباضي كلما توغلت في قراءة دونييلي. إنني لا أفهم كيف استطاع أن يحافظ على صداقته لأشخاص مرموقين مثل شريدان وروسو، إنه يبدو في صورة لا تزيد عن صورة متشرد قدر العقل والأسوأ من هذا، هو أنني أشك في ألا يكون ببساطة، كاذباً. فالنساء اللواتي أغواهن - بدءاً من شقيقته وخدمة المنزل - يبدوون جميعهن كما لو مكن نسخاً مختلفة من نفس الصورة الخيالية للرغبة في التحقق. إنهن يبدن جميعاً بالقاومة بشكل يوحى بالفضيلة وهن يقنن،

(١) طائفة من رهبان الفرنسيسكان انشئت عليها وظلّت جماعة جديدة للرهبنة في عام ١٥٢٨.

"أوه، يا للعار!" وحينما يدفع إصبعه إلى داخل "الشق الشرجي المستطيل"، يتنهلن، بينما انفذهن، "تنفرح كما لو كان ذلك يتم بصورة تلقائية". ومنذ تلك اللحظة، تمضي كل قصة إلى الأمام دون العناية وأخذت حتى تنكس كل امرأة منهن منتشية في الفراش. إن فليشر إما أن يكون أبلها غيباً أكثر مما يبدو عليه، وإما أنه يعلم تماماً بأنه قد خدع ولا يبالي بذلك أدنى مبالاة.

جاء إلى غرفتي وقال إننا نتوقع وصول ضيوف يتناولون معنا طعام الغداء. وكان ذلك أشبه بالقبضة الأخيرة التي قصمت ظهر الجمل - لم أكن أشعر أبداً بأنني على استعداد لاستقبال الناس في ود لطيف. ذهبت إلى الحمام، وفتحت "النش" فوق رأسي. فجأة شعرت ببولار، وكان علي أن أعلق بعمود ستارة الحمام. جلست على مقعد الشراش، وحدثت في مشرط الحمام التزركش بالورود، شاعراً بموجات الانقباض تتلاحق فوقني وتزركشكم. فكرت في هيلغا، في ذلك الصباح الآخر، بينما كانت قد جلست على حافة الفراش، ترتدي حواربها وتجذبها إلى أعلى ساقيها. قالت حينذاك: "إنني سعيدة لأننا نغنا معاً، ربما كان علينا أيضاً أن نأخذ أي متعة نستطيع أن نحصل عليها". ولم تزد على ذلك حرفاً، ولكنني فهمت ما كانت تريد أن تقول. كانت تعني أن الحياة لا معنى لها. كنا قد صعدنا إلى الفراش معاً، وتضاجعنا مثل حيوانين. وغرقنا في النوم وصحونا من جديد، ولكننا كنا غريبين، أكثر أمانة من أن نرودنا أية أوهام عن الحب أو الحنان - كل منا غريب عن الآخر وعن الكون وفجأة أدركت أن الشرح لها ما يدور برأسي. أدركت أن أقول لها أن العالم يبدو لها بلا معنى لأن "لا وعيها" قد غرق في سبات عميق. وحينما نكون سعداء، نظل فقاعات التمتع تتصاعد من أعماق اللاوعي - ذكريات وروائح وأمكنة. وحينما يتملك الإجهاد، يكف اللاوعي عن القيام بعمله، وتكون النتيجة هي الحالة التي يدعوها سارتر، "الفتيان". ساعته تترك الأشياء دون ظل المعنى القصير الذي يلقيه على الأشياء في أعماق العقل. يقول سانت أوغسطين: "ما هو الزمن؟ حينما لا أسأل نفسي هذا السؤال، أعرف الجواب". تماماً إن عزل شيء ما في داخل الوعي ينزع عنه معناه. إن حقيقة أن الوعي يرى العالم خالياً من المعنى إنما هي حقيقة لم تبلغ شيئاً من شيء. فليس من المفروض في الوعي أن يدرك المعنى، المفروض فيه أن يدرك "الأشياء"، الموضوعات الخارجية المستقلة عن الذات. ولكن كيف كان لي أن أشرح ذلك لفاتاة سقطت تحت طعن مهرب في حالة من الإجهاد العصبي الكامل؟ وكان المفروض - من أجل إخراجها من هذه الحالة - أن يتم بقائها بأن تبذل شيئاً من الجهد، وهي لن تبذل أي مجهود

لأنها تقول أن كل جهد لا معنى له ولا هدف ولا نتيجة. لقد وقعت في شرك دائرة مغلقة، مفرغة.

كنت مصمماً على ألا ألق في نفس الخطأ، أخرجت نفسي من هذا الجمود كما لو كنت أصحو من إغماء، وخطوت إلى تحت مياه "الدش" الساخنة، ورحبت الفكر في أنني سوف أرى دياناً غداً، وإن بإمكاننا العودة إلى بيتنا بعد عشرة أيام.

لم أتفاجأ من رداءة طعام الفداء فقد كنت أتوقع ذلك. كان من الواضح أن الضيوف جيران اغتيا، وكان فليشر قد دعاهم إلى مائتته لا شيء إلا لأنهم جيران أغتيا. وفكرت في كثير ما يحدث في أمريكا من مثل هذه الأشياء - أناس يشربون ويتبادلون الأحاديث دون أن يكون بينهم أي شيء مشترك - وغرقت مرة ثانية في حالة من الانقباض الزعج. شعرت بأن فليشر لا يملك الحق في أن يصب على رأسي كل هذه الصور اللعينة من أنواع الضجر. رجال الأعمال السمان وزوجاتهم البلهاء وتورثتهم عن "الغيا" للخصصة للعطلات والتي اشتروها في فلوريدا أو على هضبة الكارميل. وكانت بيغرلي جالسة في الطرف البعيد من الحجرة، مع شاب سمين من النوع العملي النموذجي، وكانت زوجته قد رحلت بعيداً لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، وأزعجني هذا أكثر من أي شيء آخر لأنني شعرت أنها لم تكن موجودة هنا إلا لكي تسبني - حتى ولو لم أكن راغباً في النوم معها. إنما أردت أن يكون هذا "اختياراً" مني. أنا.

خرجت إلى الشرفة القائمة إلى جوار بحيرة السباحة الصناعية الساخنة وألقيت ناظري عبر الأصوات المتصاعدة إلى أراضي كونيكتيكان. كان الهواء دافئاً ومعتدلاً، وهجاء قررت أن علي أن ألي برأي لفليشر. أنني لا أريد أن أفعل أي شيء في كتابه اللعين. بل أنني حتى لا أستطيع أن التحمل مسؤولية كتابة مقدمة دون نوع من عدم الأمانة، لأن دونيللي بدا لي في صورة شريرة معلقة. لا بد لي من مغادرة هذا المكان بعد الفداء مباشرة لكي الحق السيارة العامة بعد الظهر فأذهب إلى نيويورك...

كنت على وشك الخروج لكي أقول لفليشر كل شيء حينما خرجت بيغرلي إلى الشرفة حاملت لي صحناً من سمك السالون المدخن وفدحاً من البيرة. قالت:

- "بدو عليك الضجر"

قلت - بشيء من الغضب كما لو كنت ألومها - : "بشيء ضجر حقاً. أنني أشعر بالفتيان من كل هذه المسألة اللعينة". وقلت لها أنني نويت أن أعاود المنزل بعد الفداء مباشرة. وأدهشني اهتمامها. قالت:

- "كلاً. ليس لك أن تفعل هذا. انتظر حتى يذهب الآخرون".

أثار انتباهها لي غيروي، فوعدها بالانتظار. وبعد خمس دقائق، جاء هوارد وسألني عن حالتي وما أشعر به. فقلت أنني بصر وأنني أفكر في الرحيل في اليوم نفسه، وثار اهتمامه جداً هو الآخر. وهرع إلى داخل المنزل.

أضكت السالون وبعض اللحم البارد. وصعدت إلى حجرتي. كنت جالساً على الفراش أقرأ في مخطوطة دونيللي حينما دخلت بيغرلي. نسيت غير وثقة تماماً من نفسها. وقالت: "جئتك بشيء من فطيرة التوت البري".

شكرتها، فجلست إلى جوارتي على السرير. قالت:

- "يقول هوارد أن علي أن أفلت بك بالاً ترحل".

- "لماذا؟"

ترددت، ثم قالت: "هذا يعني الكثير بالنسبة لي. أريدك أن تبقى".

قلت ثانية: "لماذا؟" وقد ازدادت دهشتي.

تكلمت بكلمات غامضة عن أنها لم يبق لها سوى عام واحد في الدراسة، قبل أن تتمكن من الحصول على وظيفة ذات راتب جيد، وأوضح لي بالتدريج أن فليشر كان يدفع لها مسروقات دراستها، ولها بدورها، كان عليها أن "تسلي" ضيوفاً مثلي. وافترضت أن كل شيء يتفق مع هذا الاستنتاج. كانت سيارة سكرتيرة فليشر وعشيقته. وكانت بيغرلي تشارك في شقة مع سارة. ثم أيركت أن فليشر قد غضب منها لأنها لم تحصن الليلة معي. قلت: "ولكن لم توضحي لي أنني كنت غارقاً في نوم عميق؟"

قالت: "جل. أعرف ذلك. فقد جئت إلى حجرتك في الليل".

كنت أكل فطيرة التوت البري - رغم أنني لم أكن أريدها - إنما أكلتها بدافع الحرج. كان الموقف واحداً من تلك المواقف للحرجة الغريبة، لم يكن بمقدوري أن أقول: "حسناً، خلعي ملابسك، وسوف تعوض ما فاتنا من الوقت".

قلت، "ولكنني وضعت لهوارد أن زوجتي وابنتي ينتظرانني في نيويورك".

قالت في تعاسة، "جل، اعرف هذا".

قلت، ولكن ما الفرق بين أن أكون قد قضيت الليلة معك أم لا؟

ولكنني في الحقيقة كنت قادراً على تخمين الفارق. كان هليش واحداً من أولئك الرجال الذين يصممون على أن يمضوا في طريقهم إلى غايته. وكان قد قرأ كتابي وقرر أنني الشخص الذي كان بحاجة إليه لتقديم كتاب دونيلي في صورة تبعث على الاحترام. فإذا كنت قد أمضيت عطلة نهاية الأسبوع في منزله، مع فتاة جليها من أحلي، فإني أكون تحت نوع من الالتزام نحوه بشكل ما.

قلت، "اسمعي. لا أظنني قادراً على قبول هذه المهمة. إن هذا الكتاب مجرد مؤلف من الأدب المكتشف، وهو حتى ليس أدباً مكتشفاً كتب بطريقة جيدة. إنه لا يقنعني". قلت لها الشهد الذي يمضي فيه إلى الفراش مع شقيقته وهي في فترة الطمث، وتسمح له شقيقته بأن ينال عذريتها. ثم قلت، "فتاة إيرلندية في ثمانينات القرن الثامن عشر ما كانت تسمح لأخيها حتى بأن يعرف أنها في فترة الطمث".

ومع هذا فقد وجدت أن قراءة هذا الشهد بصوت مرتفع قد أنتجت إحساساً قلقاً في أعلى الساقين جعل من السير أمراً لا يبعث على الارتياح، ولذلك فقد جلست على حافة المناهضة العريضة بشكل مكاف. واعتزيت هي على أساس أن الأخلاق كانت أكثر مما ظننت حرية في القرن الثامن عشر، وأنه من المحتمل أن يكون دونيلي ببساطة كاتباً مهماً أغفل المخطوطة الهامة في عملية الإغواء. قلت،

- "حسناً، فما زلت إذا في هذا الشهد؟"

تحولت إلى الشهد الذي يصف فيه إغواؤه لزميلة شقيقته في المدرسة تحركت ببطءي لتقريب من مكثفي، وتركت نهداً بضغماً عليه. كان الشهد يصف كيف كانت الفتاة

تقف معه، تشاهد استعراضاً يسير أمامهما. ويحل هو رباطاً نوبيا القوي ويمض حلماتها. ثم بدس أصبحت في "الشق الرحاسي المستطيل". وينتهيان بأن ينصاحاً وهي جالسة على ركبتيه؟ قلت أنني أظن في هذا الشهد نوعاً من الاستحالة النهائية للعقل، ولكنني كنت أشعر بأن صوتي قابضاً متوتراً. كان ارتباط الشهد الداعر، بنهدتها الضعيف بقوة على مكثفي قد دفعني إلى حالة من التوتر. كان من الممكن أن تظهر واسعة للعبون أو أنني لم أكن قد وضعت المخطوطة في حجري. كانت ترتدي صدرة من الصوف، الكث القرمزي، تكشف عن كتفها، وكانت الصدرة تتناسب جداً مع بشرتها الذهبية. وحينما انتهت من القراءة، بللت أسيما الأوسط بلعابها، وذارت بشرتها حول رأسي، فوضعت يدي في أنفي. لا أعرف أين تعلمت هذه الحيلة، ولكن تأثرها كان مروعاً، فجأة أصبح الموقف ملكها هي، وكانت هي تعرف ذلك. وكان الحرج الذي ساد الموقف في البداية قد اختفى، ملمت يدي وجذبت صدرها ليكشف عن كتفها، ثم جذبت دائرتي حمالة صدرها إلى أسفل، وكانت الدائرتان صغيرتين، لا تزيدان عن "بقعة" ضئيلة من مادة ناعمة. كانت حلماتها منتصبين وشديدي الاحمرار، أخذتهما في فمي واحدة بعد الأخرى، ورحلت أدلكهما بإصبعي، انزلت لتجلس على ركبتني، ودفعت المخطوطة لتقع على الأرض. جلست كذلك في هذا الوضع، وقد ثقل تنفسي ككل منا، تساءلت بيني وبين نفسي إن كانت تريد أن تنتقل إلى الفراش، ولكن أصابعها راحت ترمت علي بنوع من الهارة جعلني أرغب في البقاء ساكناً في مكاني. لأثر سكا تمضي في عملها. كان يوسعي أن أرى ما وراء مكثفها، ما خارج النافذة، المخطوط الخارجية السوداء للأشجار على صفحة البحر، بينما هروغها فقط تنفطى براعم أوراق خضراء صغيرة. بلغت الأوراق والأغصان صلبة صلبة رائعة، كما لو كانت قد صنعت من "خشب من"، يزاح بين الفضي والأسود. حينذاك بلغت ذروة تنفوتي، وتمايلت الأشجار، وتصلب في باخلي شيء ما صلبة لا حد لها، حتى لقد كان كل ما نظرت إليه يمثل هذه الصلابة، سلباً وحميلاً جمالاً خارقاً، جميلاً كما لا يتبغي لغير الصلب أن يكون. انحلت فوقي، ودست أسانها في فمي، وتركتها في مكانه حتى تراخيت بالتدريج في بندها، جذبتني من يدي، فنحرت سكا إلى الفراش، وببساطة رقدت عليه، بكامل ملابسنا، كنت على وشك أن أفرق في النعاس حينما سمعت صوت إضاءة مصباح ما ففتحت عيني في الرقعة، رأيت صورة الباب وهو يفتح. خلف هليش نظرة إلى الداخل، ورقنا، ثم انسحب ثانية على الفور. كانت بيفرني نائمة، وقد انفرجت شفتاه، وهجاء شجرت بالإشفاق عليها، وغمرني إحساس دافئ. كان

هو "العيب" بشكل أساسي. فكان فليشر قد أمرها بأن تأتي إلي لكي تمنحني نفسها. وقد بذلت أفضل ما في وسعها. حاولت أن تمنحني اللذة دون تفكير في متعتها هي، وسنديلي بحمل النتيجة. فبذلت شفيتها المنفرجتين، وحينما جفت قليلاً، قبلت جبهتها

عندما هبطت إلى الطابق السفلي، قلت لفليشر أنني أريد أن أرحل على الفور، ولكنني سأقبل التعاقب معه. قال:

"بال تأكيد يا رجل. هذا هو رجلي". ووكزني في كتفي يود.



نفس اليوم، فيما بعد.

تركت (جريت نيك)، مسافراً إلى نيويورك لتلحق بديانا، وقضاء بضعة أيام معها، في سفرتي هذا شغل ذهني تعثر وتلعثم بيرجسون^(١٧). وهو يحاول الإجابة على إحساس هيلفا باللامعنى. ففي إحدى مقالاته، وصف فكيف أن ساحراً من سحرة الاستعراضات السحرية (هاودين)، فكما أظن قد درّب ولده الذي كان يبلغ الخامسة من عمره، على الملاحظة الفورية الحافظة. حيث هاودين يطلع ولده على قطع لعبة "الدومينو" ولكنه لم يكن يسمح له بأن يحصى عدد ما رسم عليها من نقاط سوداء. ثم يثأله بعد هذا أن يتذكر حكم كان عدد النقاط، أي أنه كان عليه أن يحصى النقاط "في خياله". ثم كان يطلعه على مجموعتين من قطع الدومينو، ويأمره بأن يحصى النقاط، ومرة أخرى، كان عليه أن "يتخيل" تلك النقاط بعد أن تبعده عنه القطع ويطلب منه أن يتذكر عدد ما كان عليه من نقاط سوداء. كان الصبي - بهذا الشكل - قد درّب على أن يلتقط صوراً فوتوغرافية منظارية (مرئية) يذاكرته، وفيما بعد، كان يؤخذ لكي يخبئ لذة ثانية واحدة أمام واجهة لمحل من

(١٧) هنري بيرجسون (١٨٥٩-١٩٤١) فيلسوف فرنسي معاصر حاز على جائزة نوبل لأدب عام ١٩٢٧. عرف عنه اعتماده على المنهج الباشر كأسلوب للعقول على المعرفة بدلاً من وسائل العلم القائمة على التجربة والملاحظة والاستدلال. من أهم أعماله كتاب (التطور الخلوي) عام ١٩٠٧، وكتاب (لذة والذاكرة) عام ١٨٩٦، وكتاب (الصحة) عام ١٩٠٠.

محلات بيع دمي الأطفال، ثم يطلب منه أن يكتب أسماء أربعين أو خمسين من تلك الدمي. من الذائكره. كان هاودين يدرب الصبي على التظاهر بأنه يمتلك حاسة سادسة. وكان على الصبي أن يسمع إلى السرح، فيختطف لذة سريعة على انظر حين لذة دقيقة واحدة أو نحوها بينما يقدمه ولده إلى الجمهور. وفي تلك اللذة القصيرة، يكون الصبي مسؤولاً بـ "تصوير" كل الأشياء المرئية التي يستطيع أن يراها - سلاسل الساعات وما إليها. ثم تفعل عيناها بغطاء محكم، وبإشارة ما من والده، يكون قادراً على أن يذير الشيء. أو يتعرف عليه - بشكل عام. كان يمكنه - بالطبع - أن يسمع صوت الرجل الذي ناول الشيء إلى أبيه، فيكون قادراً على تقدير موضع جلوسه في صالة السرح.

ويشير بيرجسون إلى أن جوهر هذه الطريقة هو "عدم" السماح للصبي بأن يحصى النقاط السوداء. وبدلاً من أن "يقرر" ما رآه، مثلما نفعل نحن جميعاً في أثناء استيعابنا اليومي لما يحيط بنا، لم يكن يطلب منه سوى أن يسمح للمستوى الأعلى من عقله بأن يصور هذا الذي رآه في لذة حافظة. وأصبح للمستوى الأعلى من عقله منفصلاً ومستقلاً عن حواسه، وحسبه، وأحكامه. الخ. وأصبح قادراً على أن يتحرك بسرعة أكبر بكثير. كان ألبه بـ "الضوء المتحرك".

إن الصغار من الناس - ولهرة منهم بالتحديد - سرعان ما يتعلمون هذه الحيلة - خاصة إذا كانوا يتعرضون لنوع من الامتحانات، إنهم يتعلمون كيف يفصلون بين مستويات العقل. ولكن لاحظ ما يعني هذا. إنك تعلم نفسك أن تصور "الحقائق" دون معناها. فإني لو سئلت أن أتذكر مستويات واجهة لأحد محلات بيع لعب الأطفال لقلت: "هناك آلة إطفاء في الوسط، ودمية عروس في ذلك الركن، وذب السم في الركن الآخر...". ثم لا أكون قادراً على تذكر أكثر من شيئين أو ثلاثة أشياء في عدة نون.

ومن السهل أن تصبح عادة، إدراك الأشياء دون معناها. وبصباح من الصعب أن تعيد ربط مستويات عقلك العليا بفرايزك وجواسك. إن الجواد سرفاض أن يهاد لكي يربط إلى العربية مرة أخرى مثلما كان في البداية. إنك تمضي فلا تفعل أكثر من أن "تري" الأشياء دون أن ترى معانيها، ثم تقول: "إن العالم لا معنى له".

الاثنين ١٤ إبريل، شارلستون، س. س.

□ إن يوماً من أيام الأحد قضيت مع ديانا وموسي جيلني، أشعر بأنني أكثر عقلاً. قضيت يوم أمس في مداعبة فكرة تمريق الشدات التي كتبها دونيللي وكتابة كتاب كامل - لفليشر - عن مذكرات دونيللي، ولكن حدث هذا الصباح، وقبل أن أغادر نيويورك مباشرة أن اتصل بي فليشر تليفونياً، وكان قد تذكر أنوه أنني كنت ذاهباً إلى "باتون روج" وأراد أن يقول لي، إن واحداً من سلالة دونيللي - الكولونيل ميثرو دونيللي - يعيش في مدينة "دينهام سبرينغز". وسوف أكون هناك لمدة ستة وخلاص ساعة، على أن أحاول الاتصال به.

ظللت أفكر في بيفرلي، لم أكن أفكر فيها فقط، وإنما فيما حدثت لأشجار حينما حدثت فيها. حاولت التعبير عن ذلك بالكلمات، وكان ذلك شديد الشبه بما يحدث حينما تشعر بالنعاسة، فيبدو كل ما تنظر إليه ممتزجاً بتهاستك - يصبح نوعاً من "الرمز" تهاستك، مثل السماء الرمادية أو تساقط أوراق الخريف - كذلك هو الأمر في اللحظة التي تلوي فيها النشوة كل جزء من أجزاء الجسد، إذ يصبح كل شيء رمزاً للإحساس بالقوة، وهذا ما يفسر السبب الذي جعلني أرفض دونيللي، إن لحظات نشوته الفاترة الغالية من أي طعم، لا تؤدي إلى أي مكان. إنه لم يحاول أبداً أن يقتفي آثارها بحثاً عن منبعها في ذاته.

(يوميات الأسبوع التالي تم حذفها)

□ في صباح يوم السبت الماضي، ومرة أخرى في مساء اليوم نفسه، أقيمت محاضرة في جامعة ولاية لويزيانا، وكانت محاضرة جيدة رغم هذه العباءة من التعب التي تفرشت دون أن أستطيع خلعها أو التخلص منها. (إنني لا أستمع كثيراً بإلقاء المحاضرات. إنني أصر على تذكر ذلك التعليق الذي قاله ماركيز هاليفانكي: "إن الفرو الذي تبعته عملية

تعليم الآخرين في النفس، ليفري الرجل دائماً بأن ينسى أنه صاحب عقل مفلق". وفي ساعة باكورة من صباح يوم الأحد، تناولت إيطاري في غرفة الفندق الصغيرة واستأجرت سيارة لتقلني إلى منطقة "دينهام سبرينغز"، التي تبعد مسافة عشرة أميال (أو كان فليشر قد عرض علي أن يدفع هو أية تكاليف). ولذا فقد استأجرت سيارة لهذا الغرض وقد صممت أن تكون من سيارات "دينهام سبرينغز" نفسها، وكان سائق السيارة زنجياً متوسط العمر. سألته إن كان يعرف أين يسكن الكولونيل دونيللي. قال: "أوه، نعم" وكان يعرف الكولونيل بالفعل، وقال إن الكولونيل يسكن على بُعد ميل واحد خارج المدينة، وسألني إن كنت صديقاً للكولونيل، فقلت له إنني لم أقابله من قبل أبداً، ولكنني أمل أن أجدّه في بيته. فقال:

"طيب، اسمع، في هذه الحالة قد يقابلتك وقد لا يسمح لك بمقابلته. فإنك لا تستطيع أبداً أن تتنبا بما سوف يفعله الكولونيل".

وانصبت الرجل لي أنه شرار بدرجة لا تقل عن شررة أكثر سائقي سيارات الأجرة في أمريكا، وفي خلال عشرين دقيقة كان قد أخبرني بالكثير عن دونيللي، ولم يكن فيما نقله إلي من المعلومات ما يمكن أن يهمني كثيراً، كان قد جاء إلى ولاية لويزيانا قادماً من ولاية مكسيكو بعد الحرب بفترة قصيرة، فاشترى مساحة من الأرض خارج البلدة. وقد حصل على الأرض بثمن بخس لأنها كانت سبخة مليئة بالنعابين. فاستأجر بعض المعدات الثقيلة، حتى جفف الأرض ونظفها، ثم بدأ في الزراعة، فاستلقت الأرز، وقصب السكر وغرس أشجار البرتقال. كان يدفع أجوراً ضئيلة، عرف عنه أنه كان يقسو على نفسه وعلى عماله. فقد كانت الأيدي العاملة - ومعظمها من الزنوج - تعيش في أبنية خشبية كدكانات الجنود القديمة، وكان دونيللي طامعاً تماماً، رغم ما عرف عنه من هوس بالعدالة والحق. كان يقضي في النزاعات بنفسه، وكان أحياناً يأمر بجلد بعض العمال، بل كان يقوم بعملية الجلد بنفسه. وكان يوسع من بريد الرجل أن ير حل، كان يسكن بمفرده، ولم يعرف عنه أبداً أنه نام مع امرأة. وكان خادمه الوحيد رجلاً مكسيكياً ككوماً، هائل العنة، وكانت هناك شائعات تقول بأنه يضرب الرجل - فقد كانت أصوات الضربات واللعنات تسمع أحياناً من داخل مبنى الزراعة - ولكن الخادم لم يشك الأمر إلى مخلوق على الإطلاق، ثم مات يعرف التيفونيد بعد عدة سنوات.

وفي عام ١٩٦٢، اكتشفت شركة "ستانفورد أويل"، التي كان لها مركز كبير في "باتون روج"، البترول في أرضه، فعرضت عليه ثمناً كبيراً لها. ولكن دونيللي وافق على أن يؤجر لهم قسماً من الأرض. ورغم أنه احتفظ بقسم كبير منها لصلاح للزراعة، فإنه أفلح عنها، وصرف عماله، وعاش حياة ناسك وحيد. وكان يعيش بمفرده منذ ذلك الحين، بزدان نحولاً وحساسياً، وكان يخفي عدة مرات في كل عام - وكان يعتقد أن ينهب إلى نيو أورليانز. وزعم أحد سكان "دينهام سبرينغز" أنه رآه هناك في بيت للدعارة، ولكن لم يصدق ذلك إلا القليلون.

كنا قد أصبحنا على بعد أميال قليلة من "دينهام سبرينغز" ونصحبني السائق بأن أرفع زجاج نافذتي. وفسر لي الأمر بأننا كنا على وشك أن نمر بعمل للفريخ الدواجن ونبحها كان قد احترق منذ فترة قصيرة، وأن أجساد الطيور الميتة لم تكن قد دفنت بعد أو نقلت من المكان. وعبر بالمكان عن يميننا - ولم يكن "العمل" أكثر من سقيفة خشبية كبيرة، بقدر ما كانت قادراً على الحكم من خلال ما رأيته من بقايا تحلونها آثار الحريق. ورغم الحلاق التواضع، فإن الرائحة الكريهة تسكنت إلينا. وأخبرني السائق بأنهم يواجهون الكثير من الحرائق في المنطقة، فإن مساكن العمال في مزرعة دونيللي قد احترقت، كما احترقت حظيرة ملائ بجزم القش الضغوط.

لم يدهشني هذا، فإن الشيء الوحيد الذي يدهشني في القسم الجنوبي من أمريكا الشمالية، هو أن المنطقة نفسها لا تلتهم مشتعلة بالنار في منتصف الصيف. ورغم أن الوقت لم يكن قد تجاوز الحادية عشر صباحاً، فإن الهواء كان ساخناً مثل الفرن.

سارت بنا السيارة عبر شوارع البلدة الصغيرة الناعسة، حيث بدأ كل شيء خالياً تماماً ومكتمل الهواء في صباح يوم الأحد، ثم دارت السيارة إلى اليمين هابطة منحراً مغشياً كان يتعرج أسفل التلينة. وبعد نصف ساعة من القيادة الحاذرة البطيئة - بهدف تجنب فترات السيارة - وصلنا إلى أشنية مزرعة خشبية تقاوم القدم، وقد بدت كالكهجرة. دفعت للسائق أجره وخرجت من السيارة. فقال:

- "أفضل أن أنتظرك لأرى إن كان سيسمح لك بالدخول أم لا؟. فإنه قد يقرر ألا يستقبلك".

وهكذا عبرت الفناء القرب، ماراً بمعدات المزرعة التي علاها الصند، متجهاً نحو البنى الرئيسي. نبح في وجهي ككلب ضخم أصفر اللون. ولكنه لم يبذل أية محاولة للهوض من رقبته.

فتح الباب قبل أن أصل إليه، ووقف دونيللي على عتبة. عرفت أن هذا الرجل لابد أن يكون هو دونيللي - فقد بدا أوروبياً إلى درجة أكثر من أن يكون أي شخص آخر. إنه رجل من النوع الذي اعتاد أن يرى الإعلانات القديمة في الصحف عن شاي "بلاذر" وقهوة "كامب"، نحيل القامة، لوحث الشمس جلده، يحمل وجهاً تظهر من خلال بشرته كل عضلة من عضلاته. راقبني وأنا أقرب دون أن يتكلم. ثم قال:

- "أنت مسر سورم؟"

وكان هذا باعناً على الراحة. فقد كنت أتوقع أن يقول: "من أنت بحق الجحيم؟" حيثه بأنني أنا سورم. أو سأ إيماءة مختصرة للغاية، ثم فتح الباب على سعته لكي يسمح لي بالدخول.

كانت الحجرة عارية ونظيفة ومرتبعة، مثل فمرة ضابط في سفينة. ولم يكن دونيللي قد ابتسم أو حاول مصافحتي. ولكنني التفت حينما دخل خلفي من الباب - وكان قد وقف قليلاً يراقب السيارة وهي تبتعد - فخيل إلي أنه كان يرمقني وقد بان على وجهه تعبير غريب. وراح يتأملني مثل قطرة تراقب قنفذاً برياً. قال:

- "أيمكنني أن أقدم لك الشاي؟".

قلت نعم بعماس، خرج، وغادرتي بمفردي. كان من الواضح أنه يعيش في تلك الحجرة الوحيدة. كان هناك سرير من أسرة العسكرية، ومقعد ذو مسندين غير مريح ومقعد آخر عادي مصنوع من الخشب، ومائدة صغيرة يمكن طيها. وكانت أرضية الحجرة عارية ونظيفة، وهناك خزانة خضراء قديمة في ركن الحجرة، وست صور صناعية على الجدار، تمثل عنداً من الملاكين يتبادلون الضربات بالقبضات العارية، وتمثل أيضاً حياداً جميلة. ولم تكن هناك كتب.

عاد دونيلي يحمل الشاي، ومسحناً ملاء بشطائر صغيرة مقعدة دهنت بالزبد. راودني إحساس بأنه يريد أن يتحرر قليلاً من تخبئه، وأن يقول شيئاً ما بطريقة ودية، ولكنه كان قد نسي كيفية القيام بعمل تلك التصرفات. وبينما كان يقبض الشاي سألتني إن كنت قد قمت برحلة طيبة حتى منزله. فأجبته: نعم، قاومت الإغراء بالكلام لكي أملاً هراغ الصمت، وبينما رحت أرتشف الشاي - الذي كان قد صنع بطريقة جيدة - تذكرت عبارة هايتي في تعريف الصمت باعتبارها الحوار بين الإنكليز، فوجدت أنه من الصعب ألا ألتسم. وأخيراً توقفت عن مقاومة الإغراء بالابتسام. نظر إلي دونيلي في تلك اللحظة. فحولت ابتسامتي إلى تعبير ودي، وقلت: "حسناً، إنه لمن الممتع حقاً أن يعثر المرء على سيد إنكليزي في هذه البقعة القاحلة".

قال بصرامة: "إنني أيرلندي".

- "إنهما شيء واحد على هذا البعد". هكذا أجبته. وأنا أتساءل إن لم يكن قد فطنني بشيء ما. ولكنه ابتسم ابتسامة باردة كالتلج وقال:

- "أجل، أظن هذا".

ولسب غريب ما، تحطم التلج. قال:

- "وهكذا فانت نقيم في موي كوالان؟ أين بالضبط؟"

فوصفت له الكوخ الذي استأجرناه، والمنزل الذي انتقلنا إليه. فسألني إن كنت أعرف شيئاً عن جريمة قتل "دومينيك"، الفتاة التي كانت جثتها قد وجدت عند قاع مرتفع (موهير) الصخري منذ عامين. وكنت أعرف كل ما يتعلق بهذه القضية. فوصفتها له بالتفصيل. وكانت فتاة أمريكية قتلها عاشقها لكي يحصل على ما كانت تحمله من تحويلات مالية تصرف للمسافرين. وكنت أعرف صياد الأسماك الذي غتر على الجثة، وعضو الحرس المحلي الذي استدعي لكي يلقي عليها نظرة لعله يتعرف عليها. ومن الواضح أنه لم يمكن التعرف على وجهها، ولكن القاتل كان قد ارتكب خطأ الوحيد برصه قطعة ثياب واحدة على الجثة. وكانت هذه القطعة سروالاً من النايلون الأسود. وكان السروال يحمل علامة واسم المصانع الأمريكي. وبالتالي قاد هذا إلى معرفة هويتها. وكنت أيضاً قد بادلت الحديث مع مفتش الشرطة السري في دبلين الذي كان قد حمل مسؤولية تحقيق

القضية، فأخبرني ببعض التفاصيل عن الأساليب التي لجأ إليها في التحقيق. وسعرت كل هذه المعلومات المباشرة دونيلي، فبدأت أمل في أن يتمرقص بطريقة ودية فيما يتعلق بموضوع أسلافه.

وعندما انتصف النهار كانت حرارة الجو قد أصبحت قاتلة لا تقاوم. فخلع دونيلي معنائه الصوفي وجلس أمام المائدة لا يرتدي غير القميص - الذي كان مفتوحاً حتى وسطه - والبنطلون. وخلعت أنا سرتي. واقترح هو أننا ربما كان علينا أن نتناول مشروباً، فوافقت. وجاء دونيلي برحاجة من الروم الأسود. وكنت أعرف أنني لن ألقى أي معاسرات حتى يوم الثلاثاء، ولذلك فقد وافقت دون شعور بالحرج. وجاء دونيلي بالزبد من شطائرة للقدرة الدهونة بالزبد، وفتح بعض علب السردين المحفوظ. وبعد أن تبادلنا كلمة "صحتك"، اندفع إلى موضوع إيرموند دونيلي. قائلاً:

- "ظن أن هذا الولد الناصر قد أخبرك بأنني قلت له أن يذهب إلى الجحيم؟"

- "كلا. لم يخبرني".

كان هذا هو تصرف فليشر النموذجي. أن يقترح علي الذهاب إلى دونيلي دون أن يوضح لي أنه قد تلقى استقبالا عذيباً. وربما كان هذا تصرفاً حسناً من جانبته، فإني ما كنت سأتي إليه لو أنه أخبرني بذلك.

سألني: "هل رأيت تلك الخطوطة؟".

- "أجل. وقد جئت بها معي". أخرجتها من الجيب الداخلي لسرتي، فتناولها بلهفة.

وبعد أن قرأ نصف صفحة، ألقي بها على المائدة مع إشارة تدل على الاهتمام.

- "تماماً كما كنت أظن. تزوير مجرد تزوير غبي لعين".

دهشت كالصعق، سألته: "أنت متأكد؟"

- "أنا متأكد طبعاً، ألم تقرأ يوميات إيرموند؟"

- "خشى أن أصرحك بأنني لم أقرأها. بل إنني لم أكن أعرف بوجودها قبل الآن. هل

نشرت؟"

- "إنها منشورة بالطبع، نشرت في دبلن عام 1817".

خرج من الحجرة. وبعد دقائق قليلة عاد وقد على السرير مجلداً صغيراً ذا غلاف من الجلد. وكان العنوان: "يوميات إزموند دونيلي". وكان الناشر هو "دار ثيلفورد" في دبلن. وكان الإهداء الرسمي موجهاً إلى اللورد تشستر فيلد. وهذا نصه:

"سيندي اللورد، لقد كان لدي دائماً من الأسباب ما يدعوني إلى أن أتذكر قولك بأن أسوأ الرجال تربية في أوروبا، إذا سقطت مروحة إحدى السيدات، ليجبر بالتاكيد بأن يتناول المروحة ليعيدها إلى صاحبها، وإن أفضل الرجال تربية في أوروبا لا يستطيع أن يفعل أكثر من هذا. وقد كانت هذه الفكرة (التقليدية) حول تشابه اللوهاب بين العظيم والوضيع في إطار مجالات محددة للنشاط، هي ما دفعني إلى أن أقدم إلى سيادتكم هذا المجلد الخالي من الادعاء".

ولم تكن هناك حاجة إلى الضي في القراءة بعد هذا، فإن الرجل الذي كان باستطاعته أن يكتب هذا النثر الأنيق الجيد الصياغة لا يمكن أن يكون هو ذلك العبي الأبله الذي كتب يقول: "وفي خلال ثوان قليلة كان ختفائي الكبيرة الحظوظة، قد اندست داخل معربها العذري، وسألني النوي يجعل خصيتي تنسفان كتاباتونه". وهذه العبارات الأخيرة التي اقتطفتها هنا تشير بوضوح إلى جوهر أسلوب الخطوطة التي قدمها لي فليشر، وأني لعاجز عن المجادلة دفاعاً عن فكرة أن رجلاً واحداً هو الذي استطاع أن يكتب الإهداء الرسمي إلى اللورد تشستر فيلد والجملة الأخيرة. ولكن حسناً طارناً تصاعد إلى مستوى اليقين جعلني أشعر بأن الأمر لا يصح أن يكون على هذا النحو قلت:

- "استطيع أن أرى ما تعنيه، إنك لا تظن أنه من الممكن أن يختلف أسلوب مذكريات خاصة اختلافاً شليداً - بالضرورة - عن يوميات يكتبها المرء أثناء السفر؟".

- "إنه أسلوب يختلف أيضاً عن أسلوب يومياته غير المنشورة".

- "هل رأيت أنت تلك اليوميات إذن؟" كذلك سألته وأنا أحاول ألا تظهر في صوتي رنة لهفة الشديدة.

- "أوه، أجل" قالها بطريقة عابرة، وصبت لنفسه مزيداً من الشراب استكثت ستاً من أسماك السردين، وكمكة جافة منهونة بالزبد قبل أن أشرب شرباً وفكرت في أنني أستطيع أن أمضي ما بعد الظهور ونساء دائماً في غرافتي بالفتى الصغير

وحينئذ أخبرت دونيلي بلغاني مع فليشر، فوضحت له أنني لم أكن قد سمعت باسم حده شيئاً قبل تلك القليلة. ووافقتي هو على أن ذلك لم يكن بالأمر الفاحش بالنسبة له، فإن يوميات دونيلي لا تزيد في قيمتها عن العشرات من أمثاله في ذلك العصر الذي كثبت فيه يوميات أشخاص مثل توماس بيرتر، وماري كوايز، وإيرل إجمونت، وهي ببساطة لا يمكن أن توضع في نفس النكدة التي توضع فيها يوميات فاني بيرني. كان إزموند دونيلي معروفاً لعلامة الأدب الإيرلندي، ولكن ذكره لم يرد حتى في مجلد "تاريخ كاسميريندج للأدب الإنكليزي".

وبدافع من رغبتي في الكشف عن مواقع فليشر نشرت إلى أنه من النادر أن يكون هناك دخان من غير نار، وأنه إذا كانت هناك شائعة تقول بأن دونيلي كان يدوم على كتابة "يوميات جنسية"، فمن المحتمل جداً أن يكون ثمة أساس لهذه الشائعة. حلق في وجهي بعينيه البارزتين. وليس على وجهه أي تغير، وقال لي

- "أفترض أن لهذه الشائعة بعض الأساس، فهل تفترض أن أحفاده يتلفون على رؤية مثل تلك الأشياء مطبوعة منشورة على الناس؟ أنك تعرف إيرلندا".

أدركت ما يرمي إليه. فالإيرلنديون لا يتساهلون فيما يتعلق بأمور الأخلاق. من المؤكد أنهم يتمنعون بشيء من الروعة. ولكن مرونتهم تقف عند أمور الأخلاق ولا تستطيع تجاوزها على الإطلاق. وهناك الكثير من حوادث منع الكتب، والفهرس ما يزال شيئاً لا بد من التفكير فيه. وكان يوسمي أن أدرك أن عائلة دونيلي القاطنة في بلدة "باللي كاهرن" قد تجد نفسها فجأة ذات سمعة سيئة محرجة، حتى ولو كانت مريضة.

وحينما اقتربت الساعة من الواحدة، صككت مخموراً بشكل واضح، وقلت أنه أصبح علي أن أرحل. ولشد دهشتي اعترضني على ذلك قائلاً:

- "لا، لا. يمكنك أن تتناول طعامك هذا، سأطهو بعض البيض ولحم الخنزير، فإذا لم يعجبك هذا، لندي بعض الفصح الطازج الأخضر". وذهب إلى المطبخ، ورحبت أنا القرا بعض

يتكلم لم ينم عن أية نوابا سادية. وتذكرت فجأة حكاية أنه قد عاش وحيداً لمدة طويلة. وكان جائعاً إلى الجنس معزولاً في وحدته عن البشر، ولا شك أنه استمتع بالحصول على من يبادل له الحديث. ولم يكن في هذا أي شيء غير طبيعي.

ولكنني بدأت أتمنى لو أنني كنت قد اخترت موعد زيارتي إلى وقت متأخر من هذا اليوم. فقد بدأت أشعر بأنه يتوي أن يحتفظ بي هنا طوال فترة ما بعد الظهر والنساء. وكان بوسعني أن أرحل، بالطبع. ولكن دونيللي كان هو المصدر الوحيد للمعلومات عن جيله بالنسبة لي، وكنت سأحصل على خمسة آلاف دولار إذا كتبت عن هذا الرجل. وكان بوسع الإحساس بالنفث وحده أن يقبني جالساً في هذا المكان، طالما أنني كنت ألقى الزحبيب.

وحينما انقضت فترة العصر وأقبل المساء، بدأت انتاب مرة كل دقيقة. لكن يبدو أن دونيللي لم يلاحظ ذلك. وكان قد أتى بمقعد لا يظهر له ولا مساند. وجلس عليه، ورفع ساقيه على القعد الخشبي. وأصر على أن أجلس أنا على القعد غير المزيج ذي السنتين. ورفع ساقي على السرير. وكان في تلك اللحظة لشرب البيرة - من نوع البادوايزر المعفاة في أغلب من الصفيح. وكان يدخل سيجاراً من نوع الشيروت. وجاؤت من حين إلى آخر، أن أعيد الحديث إلى موضوع دونيللي. ولكنه كان يتجنبه. وأخيراً في حوالي الساعة الرابعة، سألني إن كنت بحاجة إلى بعض الشيء. فوافقت على اعتبار أنها محاولة لكسر هذا الدور الشبيه بالثوبيم الغناطيسي. كنت قد بدأت أشعر بالانزعاج في صحبتي. وكان بوسعني أن يرى أن النعاس بدأ يسيطر عليّ. وربما كان من واجبه أن يقترح عليّ أن أنام لمدة نصف ساعة على الأقل، أو أن يتركني لكي أقرأ مذكرات إيزموند دونيللي. ولكنه كان يريد أن يتكلم، ومن الواضح أنه لم يكن يهتم بما إذا كنت أريد أن أنام أم لا.

رغم حرارة الجو، ارتدى دونيللي قميصاً نظيفاً ووضع ربطة عنق، ولاتدى سرة رياضية. أما أنا فعملت سرتي على شكلتي. وأصبح هو في هيئة من يتخذ طريقته إلى ناديه الخاص في لندن ليحتسي سكاً في فترة ما بعد الظهر، أما أنا فشعرت بالاحلال الإردف، وأنا عاجز عن اتخاذ قرار ما، فماذا في. ولما كنت قد أصبحت وألماً لأنه يتحدث ببطء داخلي فأشعر، فأتيت له أعدت التقت إلى ما يقول إلا نادراً، وإن كنت مصت في سري إلى جانبه على أرض الحقول المهيورة التي تمسكت تربتها، وكلمنا الكلب الأصفر الضخم. وكان ساقاً من الطول بحيث بدا لي كلما لو كان صورة سينمائية تعرض بالحرركة البطيئة. وسار

دونيللي بخطوات واسعة، مشيراً بعصاه إلى أشياء مختلفة تثير الاهتمام. "هذه الشجرة تعرف باسم شجرة الإعدام الفوري. لقد أعدم عصاة "الكلان" ثلاثة من الزوج هنا منذ سنوات قليلة".

- "ماذا كانوا يفعلون؟"

- "كانوا يشعلون النار في مخازن القش".

كانت بعض المناطق المشيبة التي سرنا فوقها جميلة، ولكنني دهشت بسبب كمية الصفائح الصغيرة الصلدة وزجاجات الكوكاكولا الفارغة التي كانت ملقاة في كل مكان. تكالما على سور قائم لترقب حفارات البترول، وفجأة لاحظت أن دونيللي كان يحمل مسدساً في حزام معلق بكتفه تحت سترته. سألته:

- "لماذا تحمل هذا السلاح؟"

- "بسبب الأفاعي".

ومن الواضح أنه شعر بأن ضجة الحفارات كانت تغطي على الحديث، لأنه سارع بإجئائي بعيداً. ولاحظت أنه ظل ينظر إلى ساعته من حين إلى آخر سألته:

- "كنت ذاهب إلى مكان بعيد؟"

توقف متوهان الكلام للحظة ثم قال: "كلا". وبدأ أنه كان صادقاً. بدأت أشعر بالعملى، وكان توشه ينتقل إلي بالتدريج. قلت:

- "أى أين نحن ذاهبان؟"

- "أوه، ظننت أنه من المستحسن أن تسير مسافة ميل آخر أو نحو ذلك، ثم تعود إلى

البيت".

وكانت كلمة "تسير" غير مناسبة على الإطلاق للتعبير عن سرعة مشيته حتى أنني أبسفت. وفكرت: "ينبغي أن أفكر الآن في العودة". ولكنه تجاهل ملاحظتي، وإن كان قد عاد فخطر مرة أخرى إلى ساعته. كان الكلب الأصفر الضخم ينبج ويرمجر أمام دغلة مكثفة من الحشائش في إحدى الحفر الكبيرة. نظرت في الحفرة فראيت أفعى كبيرة سوداء تتلوى

حول نفسها وتفتح، وحينما رآته، انصبت برأسها وافقة. وتوقفت من دونيلي أن يطلق عليها النار. ولكنه اكتفى بأن قال: "هيا بنا".

تسلقنا سوراً واطناً فتخطيناها إلى طريق ضيق قذر. كانت هناك أبنية للزراعة على بعد عدة مئات قليلة من اليارات، ورايت صندوقاً للبريد أشار إلى أننا الآن نسير فوق أرض شخص آخر.

فجأة قال دونيلي:

"يبدو أن هناك حريقاً".

"أين؟"

أشار إلى حقل مجاور لبني الزراعة، ولكن كان كل ما استطعت أن أراه خيطاً واهناً من الدخان يتصاعد من حظيرة مفتوحة ملأى بالقش. ولكن بعد دقائق قليلة، كانت السنة الذهب تتصاعد بعنف في الهواء، والدخان الأسود يتكاثف ويتلوى مثل جني يوشك أن يتجسد خارجاً من قمممه الصغير. فجأة كان دونيلي يجري ومسده بتارحج ليرتطم بمؤخرته، والكلب الكبير يجري إلى جواره وقد لوى رأسه نحو سيدة مثل جواد السباق الأصيل الصغير إذ يجري إلى جوار أمه. تسلقنا جداراً واطناً آخر وعبرنا حقلاً تناثرت فيه الخنازير التي تحفر الطين بأقدامها بحثاً عن غذاء. وكان هناك أيضاً رجال يجرّون من اتجاه مبنى الزراعة.

انركبت سريعاً بعدما جدوى جريتنا بهذه الصورة، فقد أصبح واضحاً أنه لم يكن بوسعنا أن نفعل أي شيء، ومن المؤكد أن النار ما كان يمكن أن نخمد قبل وصولنا إليها. وهكذا خففت من سري وبدأت أسر بيطيء عمر الحقل، وبدأ في جيبى. وبعد خمس دقائق كنت قد لحقت بدونيلي. ومن المؤكد أن الحريق كان ضخماً. كانت السنة الذهب من القوة بحيث كانت تحمل أجزاء كبيرة من أعواد القش المشتعلة التي بدأت تمطرنا بأجزاءها الصغيرة المتساقطة، أو تلطم مع الهواء في بقع زمانية. وكان من المستحيل أن يقترب أحد من الحظيرة المشتعلة لسافة تقل عن خمسين يارداً، فقد كانت الحرارة الطبيعة انفجر شيء ما - ربما كان برميلاً - وسقط جزء من السقف. تصاعدت دفقات الشرر كلما لو. وكانت نوعاً من الألعاب الخارية، فلتت شيئاً ما لدونيلي، وكنبه فجأة. نظرت إلى وجهه، ثم صرخت نظري بسرعة. كان فكه الأسفل بارزاً ومتصلباً، وكانت عيناه تعنفان في جمود كلما لو.

كانتاً مستوعبين من زجاج أزرق. كانت حالته أقرب ما تكون إلى من يفتح يصولفان لضجة والدخان الذي نشاهده أمامنا. وحتى عندما ذهب الدخان ناحيتنا، وذهبت عيناي منه، ظل هو يحدق كلما لو. كان متوماً. كانت قبضته متصلبتان داخل جيبى يتطلونه. كان هناك شيء ما في برور وجهه جعلني أتحقق من أن عاطفة مروعة تحتاجه من الداخل. وبشكل ما، كان يوسعي أن ألقم هذه العاطفة. كانت النيران جليلة وهائلة، وكانت هناك سمة موسيقية متناغمة تجمع بين أصوات التشقق والحرارة وطوقان الشرر.

شعرت بأن بعض المتفرجين الآخرين كانوا ينظرون إلينا بشيء من الغمور، كلما لو. كنا لا نميلت التحق في الوقوف في ذلك المكان، ولذلك فقد تراجعت نحو السور وجلسنا فوقه. وبعد نصف ساعة، حينما لم يكن قد تغير شيء من الحظيرة سوى بعض القوائم المعدنية، وصلت سيارة الإطفاء.

قال شخص ما من خلفي: "اتسمح بإخباري باسمك؟" ووجدت شرطياً ضخماً الجثة ينظر إلي بطريقة تنم على الرقض الكامل. وكان رجلان يقفان خلفه، يحملان البنادق، وبدا عليهما أنهما من عمال الزراعة. أعطيته اسمي، وقلت أنني كنت مع الكولونيل دونيلي. عندها قال أكبر الرجلين الواقفين وراء الشرطي:

"أوه، إنك مع دونيلي، اليس كذلك؟"

ذهبت لللغة العادية في صوته. توجه الشرطي إلى وجهه، ثم قال لي:

"اتسمح بأن أخبرني كيم من الوقت ظلت هنا؟"

"بعد بداية النيران بقليل. كنا نتمشى".

أدهشني الأسئلة التالية، ولكنها بدت أكثر سهولة. سألتني:

"من أنت؟" وحينما وصحت له أنني أدرس في جامعة "باتون روج" أصبحت لهجة أكثر تهديداً. كان عقد قيامي بالمحاضرات في جيبى، وبطاقة هوية كانت يحملها في أمريكا على التوأم. وكنت على وشك أن أسأل إن كان من الأمور الخارجية على القانون أن أتوقف لأرغب حريقاً، ولكن بدا لي أن هذا السؤال لا جدوى منه. فحص الشرطي أوراقي، وشكرني بأنك ثم سار بخطوات واسعة نحو دونيلي، يتبعه الرجلان. وقف الكلب الأصغر الضخم إلى

جوار دونيللي، وحينما اقرب منه الرجال بدأ يبيع نباحاً خافتاً، فكما لو كان يتهاى للقفز. أمسك دونيللي بحزام رقيقة كتفه، وكانت المحاور قصيرة، ورأته يشير نحوي. ثم جاء إلي وهو يتنأى وقال: "حسناً، اعتقد أنه من الأفضل لنا أن نعود".

كانت آلة الإطفاء قد رحت أخيراً تصب الماء فوق البقايا اللتهية، وتصاعدت سحباً من البخار حاملاً ذرات الرماد وشظايا صغيرة من الحطب المنفحم.

- "قيم مكان كل هذا؟"

- "و، إنهم يشكون بشدة في الإغراب في هذه المنطقة"

- "ولكن ما كان يوسعهم ان يشكو في أننا نحن الذين أشعلنا الحريق"

هز بكتفيه ثم بدأ يصفر بفمه نحناً إيرلندياً. سار عائداً بنفس الخطوات الواسعة ولكن بدا لي أنه لم يعد متوقفاً. كان خلال القسم الأول من مسيرتنا يتكلم ويسير وكأنه شيء، أو مثل رجل تركز عقشه بنيات على شيء آخر سوى ما يتحدث عنه. أما الآن فكان بشراً سوياً، مسريحاً. وحينما دخلنا المنزل، بلغ في سروره وبهجته، فوضع يده فوق كتفي وقال: "حسناً، افن أننا نحن الاثنين نستحق مشروباً بارداً كبيراً؟"

جاء بزجاجات من الجعة الإنكليزية - من نوع "وورثينغتون". وبينما كنت أرفقه وهو يصيب الجعة في الكوبين، ويزفهم لنفسه بلحن ما، طرأ شيء ما، أبده، على رأسي. كان الإجهاد قد غمرني بإحساس من الالمبالاة. أضعت هذا الدافع الدخلي الغلاب وقلت:

- "لا اعتقد أن لك علاقة بهذه المسألة، اليس كذلك؟"

للحظة سالت نفسي إن كنت قد أسرفت في السوح بما شعرت به. ولكنه قدم إلي كأس الجعة وهو يبتسم بتسامية التلميذ اليرينة السعيدة. وقال:

- "يا له من سؤال غريب. كيف كان يمكنني ذلك؟"

وفجأة، وبقين لا يمكنني أن أشرح أسبابه. عرفت أنه كان على علاقة بالحريق. ربما كان السبب هو طريقة نطقه لإجابته على سؤالي، أو فهمه الفوري للسؤال. إن رجلاً بريئاً كان جذيراً بأن يخرجه قليلاً، وإن يتساءل إن كان قد فهم السؤال على النحو الصحيح.

جلست في القعد ذي السدين، وشربت الجعة باستغراق ونهم. وحينما نظرت إليه مرة أخرى فكان ذلك البقير قد اختفى. وكان شكى مبعته أن الرجل كان معي طوال اليوم. سمعته يقول:

- "أشرب في صحة يزموند دونيللي".

شربت، وبدأ لي هذا النعيب دون مناسبة.

ذهب إلى المطبخ وسمعت أصوات إعداد الطعام. كان قد أدار مفتاح النباح - وهذه علامة أخرى تدر على الارتياح، هبت نسمة باردة من خلال النافذة المفتوحة. وكلما سمعت، في التفكير في المسألة، كلما زاد ميلي إلى تصديق أنه كان على علم مسبق باستعمال النار في ذلك النوع. كل شيء يتناسب تماماً مع هذا الافتراض. محاولته بإقناعي بالبقاء، الحديث ليكتائيني الخافي من الرغبة الحقيقية، السيرة الطويلة الخالية من المعنى في عصر يوم حار، السندس الذي حملته، والكلب الضخم الذي اصطفيه معه، تزايد اتساع خطوته حينما اقتربنا من دغلة القش ونظراته المتلاحقة إلى ساعتها، إن الرجل ولا شك مصاب بهوس الحرائق. ومن المحتمل أن يكون هو الذي أشعل النار بنفسه في مباني مزرعته. وربما كان هو الذي أحرق معمل تفريخ السواجن أيضاً. وفجأة شعرت بصدمة باردة حينما قلت لنفسي إنه من المحتمل أن يكون هو الذي أشعل الحريق الذي أعدم من أجله الزنجان. ولكن كيف استطاع أن يفعل ذلك! أكان شريكاً له هو من أشعل النار حينما اقتربنا من البيت. إن في هذا خطراً عظيماً، بالتأكيد. إذن أكانت وسيلته أداة للاشتعال ذات توقيت. لا بد أن هذا هو الجواب.

انتهيت من كأس الجعة وبدأت أشعر بالنعاس. صحوت حينما جاء بالطعام - بطاطس مشوية بالطريق الفرنسية وسجق من لحم البقر، صب لنفسه مزيداً من الجعة، وأكلت على صينية وضعها فوق ركبتني. كان من الواضح أنه شديد الجوع ولم يكن يشبه الكونت درايمكولا في شيء، وهو حريص على سره المرعب وإنما بدا مثل رجل متعب انهكته سنواته الخمسون، اعتاد أن يقتسو على نفس بشدة ولم يكن يهتم بأن يتناول وجبات من الطعام الجيد. وعرفت أن من واجبي أن أدلي بشكوكي إلى شخص ما - ربما إلى رئيس قسم اللغة الإنكليزية في جامعة لويزيانا، ولكنني كنت أعرف أنني لن أفعل هذا. لقد كان مضيقاً، ولم يكن لي إلا أن أمل أن يقبض عليه في وقت قريب.

كانت الساعة قد قاربت التاسعة حينما انتهت من تناول الطعام. ثم قلت:

- "لقد كنت شديد المصطف حقاً، ولكن لابد لي بالفعل من التفكير في العودة.."

كان يجمع الصغون فوق صينية، قال بطريقة عابرة:

- "ماذا؟ ترحل قبل أن ترى مخطوطة دونيللي؟"

كنت عاجزاً عن تصديق أنني سمعت بطريقة سليمة، سألته: "مخطوطة؟"

- "هذا هو ما جئت لأجده، اليس كذلك؟"

- "أملك حقاً شيئاً من مخطوطاته؟"

أوما برأسه وهو يحمل الصينية ويخرج بها، وحينما عاد، أخرج مفتاحاً من جيبه.

وفتح الخزانة الخصرء في الركن، قال:

- "ليست هذه الذكريات للنشر، بالطبع."

كان هناك صندوق خشبي في القسم العلوي من الخزانة، وعلى طرف السفلي عدد من المظاريف المستفحة، تناول أحد تلك المظاريف وناولني إياه. كان يحتوي على ملف ضخيم من الأوراق ربطت بخيط شمعي. كان الخط متميزاً شديد الخصوصية، ولكنه سهل القراءة إلى الدرجة الكافية.

"فلاوت، 6 مارس، ١٧٨٧"

الزحاجة تفرق. الرياح الغربية تهب برهق فوق المياه، والدخان يتصاعد يهدوء إلى سقف الحجرة، والبحارة يتناهبون بضجر على باب كل حانة من حانات الجعة. لقد غادرني بيكفوردي لكي يذهب للبحث عن سيدة قلبه فوق النل، وبقيت أنا هنا، يداعب النحاس جفوني وأنا في هذه الحالة من السكينة الهادئة، أرهب فتاتين شابتين، جميلتي التكوين، ثرتديان برشاقة أنواعاً جميلة من الثياب المحلية، وتسمران على حافة البحر، يا تلك المخلوقات اللبيدة

المحبدة! من الذي يستطيع أن يجادل فيما أسكده زوزيموس المانويوليتاني^{١١٠} من أن المرأة لم تلتفت من نفس الجندر الذي أثبت الرجل، وإنما خلقت للناس من كوكب آخر بعيد، ثم سمح لها بأن تعيش في كوكبنا هذه كوكب الذكور، كما لو كانت خاملة من خلطت الخيال ألبست المرأة هي لغز الخلق الجليل، الحضور الرئي للسحر في هذا العالم المتحلل البيوضي^{١١١}؟

قال جودوين أن أسقف كامباري الشهير كان أفضل وأكثر قيمة من خادمته، ولكنني نلت على استعداد لأن أبادل الجميلة الصغيرة التي شاركتني الفراش في الليلة الماضية بعشرة من الأساقفة. كانت الغادة - التي تسمى كلارا - قد خدمتنا على العشاء ليلة الفصح، وقال بيكفوردي - الذي لا يروق لنوقه نوعها - أن للفتاة مؤخرة كمؤخرة الصبي. وقلت أنها مؤخرة مستحجرة بأكثر مما يمكن لفتى، على الأقل، إذا كان لي أن أحكم بناء على الذهب الصغير الذي كان يوسعي أن أراه حينما اتحت على اللائدة لكي تصب الزبد الذائب على قطعة اللحم أمامي. وحينما اقتربت مني همست لها بأنني على استعداد لأن أتنازل عن تاج ملكة في مقابل قبلة منها، فضحكت واحمر وجهها. ولم أكن قد أوليتها إلا القليل من الاهتمام حتى تحدث بيكفوردي عنها. ولكن تركزت الآن أفكارني عليها، وتسلل إلى التفتاة الصغير إلى صدري وجعل قلبي وسادة لرأسه، في كل مرة كانت تدخل فيها إلى الحجرة كنت أنظر إليها كما لو كنت قد وقعت في الحب منذ برهة وجيزة، ومن المؤكد أنه لابد قد لاح لي أن الزواج بها ليس بالثمن الباهظ في مقابل أن أتفحص مفاتيحها فحسباً أكثر دقة، ورغم أنني أعتقد أنني أتمتع بقدر من صفات الأنوثة أقل مما يتمتع به بيكفوردي.

^{١١٠} زوزيموس المانويوليتاني، مؤرخ يوناني عاش تحت رعاية الإمبراطور نيو ديسيوس الثاني، وألف عندما من أكتب عن انهيار روما من سيطرة أوغسطس حتى عام ٢١٠ متجاهلاً الفترة من حكم بربريوس حتى عام ٢٠٢ م. لم يكن كتابه الأخير قد اكتمل حتى عام ١٢٥ م. واشتمل في كتابته على مصادر موثوق بها مثل المؤرخين ديكسيوس والوتانيوس ولم يكن عمله يخضع من أحكامه التاريخية ولا من الحس الأسلوب، وإن لم يكن دقيقاً في ذكر التواريخ وكثيراً ما تناول عسوراً طويلة بطريقة عابرة.

^{١١١} الموضي نسبة إلى "بوهيا" مملكة مذبذبة أسيرطه الإغريقية القديمة التي كانت مهداً ورجالها الأساسية هي الزراعة والحرب.

قائلي مدين لفضول بانندورا^(١١) الهلك بقدر يستطيع ان يدفعني الى تجاهل كل الاعتبارات الأخرى. وحينما أقربت مني لكي تعيد ملء كاسي، مدت ذراعي من حولها وسمعت ليدي بان تستقر فوق فخذه، عارفاً بأنها إذا اعرضت على هذه الخطوة، فإننا لن نتقدم إلى ما هو أبعد منها. ولكنها وفقت يهدوء، مثل جواد أحسن تدريبه. ثم دخل صاحب البيت بمزيد من عصر الليمون والسكر، وسمحت ليدي. ولم تنح لي فرصة أخرى للاصطفاء خلال تناول الطعام. ولكنها عندما غادرت الحجرة، دسست في يدها جنيها ذهبياً، وهمست لها، "هذا لك يا عزيزتي. وهناك خمسة أخرى تنتظرك إذا أنت حنت إلى غرفتي حينما يأتي كل من بالبيت إلى فراشه". ولم تقل شيئاً وهي تخضع عينيهما، ولكنها أخذت النقود. وقال لي بيكفورد فيما بعد أنه قد اكتشف أنها متزوجة من صياد، وأني ربما أكون قد أضعت نفودي سدى. فأجبتته بأن النقود التي تعطي لفتاة جميلة لا تضيع أبداً سدى، إذا ما كانت فاضلة، لأن هذه النقود لابد أن تعثر قريباً يقدم إلى أفروديت، التي سوف تعترف بهذه الصلابة وهذا الثناء، حينما يحلب لها، وفي أي وقت تشاء.

لم تمضي على مقولة بيكفورد بأني أضعت نفودي سوى عدة ساعات حتى تهدمت تماماً، وذهبت بالدليل على خطأ تصور بيكفورد، لأن العروس الجميلة انزلت تحت طماني في الساعة الثالثة من الصباح. بعد أن كنت قد تخليت عن كل أمل، ولم تلجس علي شيئاً بعد ذلك، سألتها هامساً عما كان من أمر زوجها، فقالت أنه كان قد خرج مع أسطول الصيد. كانت ترتدي كويماً فضفاضاً من القيل الخضن، سرتان ما رفعتها إلى ما فوق ركبتيها، قبلتها ودعوتها بالكثير من الكلمات الرقيقة، لأنني ما كنت أبداً أطيق صبراً مع الأصدقاء الذين يسلبون فتاة فضيلتها، ثم يعاملونها بعد ذلك كما لو كانت عملية السلب قد حرمتها من كل حق في التقدير والحنان. يضاف إلى هذا، إنني عرفت أن الفتاة كانت شبة من هبات الربة التي ولدت من زبد البحر^(١٢)، ولأنها تستحق لهما من المساوات الواجبة لقاء عطيتهما

(١١) بانندورا - في الميثولوجيا اليونانية هي شبيهة جواد، أم البشر التي خلقتها زيوس كعكر الألهة على يديها حياة الإنسان (الرجل) الذي خلقه زيوس ميتيوس بأن أرسل معها صندوقاً خفيته لأمر رجل وأمرها ألا تفتحها. ولكن فضولها الذي رزقه فيها زيوس دفعها إلى فتح الصندوق فامتشتت منه خطافس الألام والعذابات مع فراشه "الأمم" البيضاء الوحيدة.

(١٢) هي "كيبوس" أو "أفروديت" ربة الحب، والجمال والزواج في الميثولوجيا اليونانية التي خلقتها أبوها زيوس من زبد البحر وخرجت من سنبهة لؤلؤة في البحر قرب قبرس.

التمينة. وهكذا فقد لاحظت أننيها بالكلمات الناعمة وبطرف لساني، ثم سمحت لفصاحة هذا اللسان بأن تتحدث إلى نهايتها، بل وبأن تتحدث حتى مع الجدران القطنية للمعبد نفسه. وفي ذلك الحين، كانت تقمصات ردها تنطق بالرغبة، وحينذاك نقلت لساني إلى مستقره الصحيح في فمها، وأخذتها بنعومة تسلل الرجل إلى فراشه (١٠) وظللت أقبيل شفيتها كلما لو كنت أعوض ما فات من عمر بأكملة من الإمساك والزهد، وقد صعب علي أن أصدق أن هذه الكاهنة البيضاء كاللبن كانت هي كلارا، ذاتها التي صببت الدهن على قطعة اللحم للشوية أمامي ومنحتني لحة خاضفة من حلمتين لاحقاً لي وكانما تشكلتا منذ لحظة وجيرة. ورغم أن ردها كانا ساكنين الآن - هذان الردفان اللذان كانا مستديرين بأكثر مما ينبغي لفلام - فقد ارتعش جوادي في داخلها، كما لو كان عاجزاً عن أن يصدق أنه آمن في داخل مثل هذا المسكن اللين. ومضينا في رياضتنا حتى نبلج الصبح حينما غادرتني رفقت في مكاني ورحلت الفكر في النافذة التي تارت بيني وبين بيكفورد في العربية بالأمس؛ حول الأسلوب الإغريقي في الحب أكثر روحانية وجلالاً من ذلك النوع المعروف بين الرجال والنساء. وفي خلال صوفان إخلاصي كان يومي أن أتمنى لبيكفورد صحبة زوج كلارا - صيد السمك - على أن يحملته معه في عربته ذات الجياد الأربعة. ولكن أما كان من الممكن مثل هذا اللقاء أن يكون لقاء نادر العروق فطبعاً بالشهود، كما لو كان أستاذ الفرسان يتعمد أن يحرره من اللعنة أن مثل هذا اللقاء قد يكون جزءاً من عالم سيد الشمس المتين للعضلات^(١٣)، وليس جزءاً من عالم نداء السحري الأخضر الذي تحكمه أرتميس^(١٤).

كنت أفرا ناسياً وجود دوسيتي. وقد جعلتني ملاحظته عن أن هذا المخطوطة لم يكن لتشر. جعلتني ألبس ما شعرت به من توتر في إطار عسقي، ولكنني شعرت بأني قد مارست مثل ذلك من قبل، في لحظات حرجة أخرى من حياتي (امتلاً حينئذ فابلت أوستين في معبر من أعمال دياجليمف). فكان شعوري أن يكون (حساساً بالذكرا) مشهود بضدته قد جريته من قبل.

(١٠) هو هيلينوس (أولاد) ربة الشمس والقمر، عالة عالم الحساسية والاستماع الكوني.

(١١) أرتميس ربة القمر، أخت هيلينوس أو أبولو وسبها أروماني ديانا وهي ربة الصيد ولعبة النحلة بالصيد. عائلها هو الليل والضباب، غيرة لينة لم تنجح في أي صيد رغم جعلها.

مكان دونييلي قد عاد إلى زجاجة الشراب، ورفضت الكأس التي عرضها علي منه. ولكنني قبلت ككوباً من جملة البادوايزر، وحينما بلغت نهاية المشهد، وصنعت المخطوطة المجلدة على الأند. سألته:

- "أنت واثق تماماً من أنك لن تكون رغبياً في نشر هذا المجلد؟"

- "أظن هذا".

قلت: "سيجعل هذا الموقف من المشروع كله مجرد هراء. إنني أظن الآن ما عنيته من أن نسخة هليشبر كانت من قبيل التزوير. ولكنني لا أتبين كيف استطيع أن أوصي هليشبر بأن ينشر نسخته. سيكون هذا نوعاً من العبث".

- "أوافقك على هذا".

- "أليست هناك فرصة للالتقاء في منتصف الطريق؟"

اشعل سيجاراً جديداً. قال:

- "ستغضب الأسرة للغاية إذا نشرت هذه الأوراق".

- "ولكنك قلت أنك لست على علاقة طيبة بالأسرة".

- "كلا. لست على علاقة طيبة بهم. ولكن لا أريد أن يكون هذا سبباً لإحراقهم".

لم أستطع احتمال هذا الموقف، خاصة أنه جاء من نفس الرجل الذي أحرق مخزن شخص آخر منذ وقت قصير. ولكنني تماكنت نفسي واستطعت جاهداً أن أغر أسلوب معالجاتي للموقف، وسألته كيف وصلت الأوراق إلى حوزته، ولاح عليه أنه يفكر في الإجابة على السؤال اللحظة. ثم قال:

- "أجل، أعتقد أنه لا ضرر من إخبارك بهذا. حينما قام دونييلي بزيارة روسو في

نيوشاتل عام ١٧٦٥ - وكان دونييلي في نحو السابعة عشرة من عمره في ذلك الوقت - أهدى

إليه مقالاً مكتوباً بالفرنسية، يرفض فيه فلسفة هيوم^(١١) ودالامير^(١٢) وقد ورد ذكر هذا اللقاء وما دار فيه، في كتاب جون مورلي عن "حياة روسو". وأصبح دونييلي وروسو صديقين، رغم فارق السن بينهما. ولكن روسو كان يجتاز في تلك الفترة مرحلة صعبة من حياته. فقد كان ككل الفلاسفة في نيوشاتل يملأون عظامهم بالهجوم عليه، وجرى اتهامه بأنه سحر رجلاً كان قد مات بالتسمم الكحولي. وذات صباح، اكتشف دونييلي أن شخصاً ما قد وضع صخرة ضخمة على باب منزل روسو من الخارج في وضع متوازن بحيث تسقط فوقه لحظة خروجه - ومن المؤكد أن الصخرة لو سقطت عليه لقتلته، وأزاح إيزموند الصخرة. وفي الليلة التالية نصب بنفسه الفخ القاتل خارج منزل الحداد - الذي كان عدواً بارزاً لروسو، وكان أيضاً الرجل الوحيد الذي تسمح له قوته العضلية بأن يرفع الصخرة فيضعها في مكانها الأول دون معونة من أحد. وحطمت الصخرة ذراع الحداد وعظم ترقوته. ولكن هذا الأمر لم يكن ذا جدوى بالنسبة لروسو المسكين ومن ككل الوجوه، فقد كان عليه أن يغادر البلدة على أي حال - وكان الناس قد وصلوا إلى مرحلة فذقه بالأحجار في الشوارع. وبعد ذلك بعامين، حينما كان روسو يعيش في لندن كضيف على ديفيد هيوم، سأله دونييلي عما كان من أمر مخطوطته، فقال روسو أنه ترك مخطوطة المقال وراءه في باريس، وأنه سيعيدها حينما يعود إلى هناك، ولكنه لم يفعل ذلك أبداً.

"وقد حلت بعد الحرب بفترة قصيرة، إن كنت مقيماً في مدينة لوزان وتعرفت بمانع كتب يدعى كلوزو كان له عمل ما في نيوشاتل، وآخرته - بقصة مخطوطة مقال دونييلي فقال لي أنه قد يكون قادراً على مساعدتي. وبعد ستة شهور، كتب إلي خطاباً وعرض علي أن يبيعني المخطوطة - بسعر معتدل إلى حد كبير - وهذا ما ينبغي علي أن أضيفه هنا. وأظن أنه عثر عليه في منزل الرجل الذي كان روسو قد استأجر منه منزله، في

(١١) ديفيد هيوم ١٧١١ - ١٧٧٦ - فيلسوف اسكتلندي ومؤرخ مؤسس النزعة الوضعية التحريمية في الفلسفة الحديثة، عرف عنه تقيده للمعرفة الإنسانية بممارسة التجربة والانطباعات مباشرة جزئية وفردية، وكان ذا تأثير بالغ المخطورة في الفكر الليتافيزيقي الحديث.

(١٢) جان لوروند دالامير ١٧١٧ - ١٧٨٢ - عالم رياضي وفيلسوف فرنسي، اشترك مع ديدرو في تحرير "دائرة المعارف" وكان من مؤسسي النزعة المادية العلمية الحديثة، الفلسفة بالفهم التاريخي والجنلي كحركة الكون والتجمع.

صنعتوني قلبه للأشياء المهمة والثاقفة وقد عثر أيضاً هناك على مكرسة لمذكرات الرحلات كان دونيللي قد كتبها.

"وبعد ذلك بعدة سنوات كتب إلي كلورو ليسألني إن كنت ما أزال مهتما بمخطوطات دونيللي، وكان قد عثر بالصدفة على مخطوطة أخرى في جنيف. وكنت أعرف أن إيرموند قد استاجر منزلاً في جنيف فامضى هناك الجانب الأكبر من العشرين عاماً الأخيرة من حياته. ولكنه كان قد انتقل عائداً إلى إيرلندا قبل عام واحد من موته في عام ١٨٣٠، وأخذ معه معظم ممتلكاته الشخصية. وليس لدي أية فكرة عن كيفية تركه لهذه المخطوطة بالذات في جنيف عند رحيله عنها، رغم أنني أملك بالفعل نظرية للتفسير هذه الواقعة قد تكون على شيء من الأهمية. كان بابرون قد زار إيرموند في جنيف وكان قد التقى به عن طريق شريدان. وبعد هذه الزيارة ببضعة أسابيع، كان بابرون يكتب لـ"صديق" "هوب هاوز" من مدينة بيرماingham، فيقول له أنه يقرأ الآن "كثير المخطوطات التي رآها عهداً وتشويقاً بقلم إيرموند المعجوز". وأنا أفترض أن "إيرموند" المذكور في رسالة بابرون كان هو دونيللي. وفي هذه الحالة، يكون بابرون قد استعار المخطوطة من إيرموند دونيللي ونسي أن يعيدها".

كان علي أن أعجب بالطريقة الحاذقة التي روى بها دونيللي قصته، ورغم أنه كان قد شرب معظم زجاجته الثانية من الشراب، فقد كان يتحدث ويتناقش مثل كاهن مثقف يتناقش في موضوع بحث الجسد والروح بعد الموت.

ولكن الشيء الغريب هو أنني كنت قد بدأت أشعر فجأة باللامبالاة الكاملة بالموضوع كله. وقد أقول أنني رفضت أن تكون لدونيللي مثل هذه السيطرة علي. وكنت بالفعل قد قررت أن أعيد إلى قلبي مبلغ الخمسة آلاف دولار وأن أنسى الموضوع كله، وهكذا لم أهتم أبدى اهتمام بما إذا كان من الممكن إقناع دونيللي بأن يغير رأيه أم لا. وحالاً قررت ذلك لم أعد أهتم. شعرت بالحرية واللامبالاة. وقررت أنه مهما حدث، فإني سأرحل عن هذا المكان في خلال نصف ساعة سأعود إلى فندقي الصغير. سألت دونيللي عن كيفية بدء اهتمامه بجدته الأولى. فقال أنه كان قد اكتشف مذكرات الرحلات المنشورة في بيت الأسرة في بالي كاهان سألته كم من السنوات من عمره فساها هناك.

"سنوات قليلة جداً. لقد انتقلنا إلى دبلين حينما كنت في الخامسة من عمري، ورحلنا إلى أتلانتيكو وأنا في التاسعة".

"هل فكرت في كتابة يوميات لرحلاتك؟"

سأرحب هذا السؤال من دون أدنى اهتمام حقيقي. فقد كان السؤال مجرد شغل الوقت بأي شيء. مهما يكن. وكانت النتيجة صوفاناً من البوح والكشف عن الذات لا يكاد يصلح.

قال وهو يتنفس بصعوبة:

"لم أداوم أبداً على كتابة يومياتي، لأنه كان هناك الكثير جداً من الأشياء التي لم أجروها أبداً على تسجيلها".

"ولكن هذا السبب لم يمنع إيرموند من كتابة يومياته"

ابتسم ابتسامة غريبة. فتنصبة. وقال:

"كانت حياة إيرموند الجنسية من النوع الذي كان يوسع أن يكتب عنه. أما حياتي أنا الجنسية فلم تستحق ذلك".

ظننت أنه كان يشير إلى إحراق مخزن القنص. أو مات بتعاطف وقلت أنني أدرت ما يمنية وقهمته. فقال بنوع من التخاطب الذاتي الجهد:

"أنت في أنت قد فهمت ما عنيته تماماً. حينما كنت في الثامنة من عمري، كانت لدينا مربية اعتادت أن تضربنا على مؤخرتنا وأن تعبت بأعضائنا الجنسية".

"من تعني بصيغة الجمع هذه؟"

"أخي إيرموند، وأنا. وكان إيرموند يكرمني عام واحد. كانت هذه الفترة اسكتلندية من مدينة كلاسكو - واحد من أولئك العاديات ذوات الأحساد الضخمة والصحة الجيدة. لقد أحبها كل منا إلى حد العبادة منذ اللحظة التي رأيناها فيها. كنا نتبعها أينما ذهبت مثل كلاب الراعي. وذات يوم كنا نجري ويطارد أحدها الآخر حول مائدة وضعت فوقها مزهرية من البورسلين النمرين، ووقعت المزهرية وتحطمت. كان والدنا

بالخارج، ورجونا بريدجيت ألا تضرهما بالأمر. فوافقت على أن تقوم بإخفاء الشطابا، ولكن بشرط أن تعاقبنا هي بنفسها، فابتهجنا ككلانا، لهذه الفكرة. فأمرتنا بأن نصدق إلى حجرتنا وأن يطلع كل منا بنطلونه. وحينما عادت بالحصى سكنا عازيين بالفعل. جلست على السرير وأمرت كلانا بأن ينحني على ركبتها، ثم ضربت كلانا منا عشر ضربات رقيقة.

- "هل أثارنا هذا جنسياً؟"

- "ليس بصورة حقيقية، على الأقل لم تنرني العقوبة البدنية. أما ما أثارني فهو تكويني عارياً أضغط بجسدي على ركبتها".

لن أحاول أن أسجل هنا بقية قصته بكلماته نفسها، لأنه راح يرد كل التفاصيل الصغرى التي لم تكن ذات أهمية حقيقية، وكان ما قاله، أنه وأخيه اتفقا على أنهما ستمتعا كثيراً بذلك العقاب، وأنهما قررا أن تبقى تعاقبهما بريدجيت ثرات عديدة، ولذا عندما انفردا معها في المنزل في المناسبة التالية، تمعنا أن يكسرا شيئاً ما، ثم قاما بنفس العملية بكاملها مرة أخرى. كان هذا في عام ١٩٢٨ - عصر الثلاثين الفسورة. فكان يستطيع أن يضغض بعضوه التناسلي على ركبتها أثناء ضربها له - وقال أن إحساسه بهذا الوضع كان بالغ الحد للرجة أنه كان يغشى عليه بعدها، وفي هذه المرة، رأت بريدجيت أن عضوه كان منتصباً وهو يتعد عنها، فمدت يدها إلى أسفل ولسته... وقال دونيلي، أنه منذ تلك اللحظة، لم يكن يفكر - هو وأخوه - في أي شيء آخر إلا في كيفية إقناعها بضربهما مرة أخرى. وبعد أسبوع أو نحوه، لم يعد من الضروري أن يحطما شيئاً لكي ينالا منها ما يريدان من الضربات. فحالاً كانوا ينفردون في المنزل، كان - هو وأخوه - يقترح أن يلعبوا لعبة للدرسة، فنقوم هي بدور المدرسة، ويجيبان على أسئلتها إجابات خاطئة عاردين، فتأمرهما بعد قليل بالنوجه إلى غرفتهما. وهناك يخلعان ملابسهما، ويقومون جميعاً بالاستعراض كاملاً مرة بعد أخرى..

وانتهت هذه المرحلة حينما بلغا التاسعة، فقد نقل والده إلى اللابو، حيث كان يعمل مديراً لأحد مناجم الصمغ، وحينما كانوا بعيداً عن إنكلترا سمعوا بأن بريدجيت قد تزوجت، فغمرهما الحزن، وكان كل منهما قد راهن الآخر على أنه سوف يتزوجها عندما يكبر.

بعد ذلك بعامين، كانا قد نسيا ذكرى بريدجيت، أو كانا، وفي أحد الأيام، سألتهما والدتهما عن رأيهما فيما إذا جاءت بريدجيت لكي ترعاهما مرة أخرى. كان زوجها قد تركها، وكانت هي تريد أن تبعد عن اسكتلندا. ولحقت الفتاة بهما حينما كانوا يقضون إحدى إجازاتهم في لندن، ثم عادت معهم إلى اللابو. وقال دونيلي أن جسدها كان قد ازداد سخامة ونقلاً، وأن كلانا منهما قد وجدها أكثر جاذبية مما كانت من قبل. وحالاً اتبعت الفرصة للأفراد بها في المنزل، سألها شقيقه إن كان ستضربهما إن أساء سلوكهما فقالت "بالطبع" وقال دونيلي أنهما اهتزتا من البهجة لهذه الإجابة.

وطوال الأسابيع الأولى بعد عودتهما إلى اللابو، لم يحدث شيء، فقد كان لديهم خد من الأهالي، وخشيت هي أن يتبدل نفسها أمامهم، ولكن الطقس الحار والافتقار إلى التنفيس الجنسي سرعان ما جعلها تصرف النظر عن حرصها.

كان الرجال من الأهالي يتمجلون عراة تقريباً فزعمت أن تنشئتها كانت تنشئة دينية وأنها تشعر بأن هذا الوضع يصدم مشاعرهما، وكان الصبيان يستمتعان بإغاضتها وأحياناً بـ "قرصها" فكانت تصفعهما. وكان يوسهما أن يشغرا من تزايد قوة الضربات أنها كانت مثبساً لشيء آخر إلى جانب الضيق. وحدث أن راتهما عازيين ذات ليلة بعد الاستحمام، فصدرت عنها ملاحظة عن تطور عضو دونيلي الجنسي. وثار غيرة إيرموند، وفي تلك الليلة، تشارك هو وشقيقه عراكاً مريراً، انتهى بكدمات سوداء في عيني كل منهما.

وذاة يوم، ضبطتهما مخنئين في كوخ في الحديقة بدخان السجائر، وقالت لهما أنها سوف تعاقبهما على القور. وكان هذا هو ما ينتظرانه منذ زمن طويل. وكان من المستحيل عملياً أن يخلعا كل ملابسهما، فانزلا بنطلونهما فقط وضغضا نفسيهما على ركبتيهما، وقال أنه حينما انتهت هي من "العقوبة" إن كل منهما قد احمر وجهه وراح بنفس بصعوبة. وكان هو والثقا من أنها قد بلغت ذروة نشوتها (رغم أنه بالطبع لم يترك هذا في ذلك الوقت).

وبعد ذلك بعدة أيام، صادف أن اصطليحت والدته شقيقه إيرموند إلى البلدة القريبة لتشغري له بعض الملابس، فصعد هو إلى حجرة بريدجيت ووجدها خالية، ففتح خزانة ملابسها، وعثر على الثوب الذي اعتادت أن ترتديه حينما كانت تضربهما في دبلن، وهو ثوب بني اللون صنع من مادة صلبة. خلع ملابسها كلها، وفرد الثوب على الفراش، ورفق

هوفنه، وراح يتشتم راحته المتميزة. وهجاء سمع صفقة الباب، وعرف صوت خطوات بريدجيت في الصابق السفلي، وذهبت هي عبر النزل إلى المطبخ. وأراد هو أن تراه رفقا فوق ثوبها، فقلب شيئا ما وألقاه على الأرض بصوت مرتفع. هشتت "من هناك؟" ثم صعدت إلى الصابق العلوي. تظاهر بأنه نائم، وألحظ عينيته متظاهرا بأنه جفل، أمامها وهي تحديق فيه. وكانت في حالة شديد من الضيق ككوته عبت بخزانة ملابسها، ونظرا إلى ما بداخله. وقالت، "سيكون علي أن أعاقبك - قم"، وحتى قبل أن ينحني فوق ركبتها مكان عضوه قد انتصب، ولكنها تظاهرت بأنها لم تلاحظ ذلك، التفتت فرشاة شعرها وأمرته بأن ينحني فوق ركبتها. وفي هذه المرة، لاحظ أن ركبتها كانتا متباعدين أكثر من المعتاد، وأنه عن طريق الضغط بجذر على أعلى ثوبها، يستطيع أن يجعل الثوب يرتفع إلى فخذها. وحاول أن يحديق إلى أعلى ساقها، ولكنهما كانتا يواجهان الباب، ولم يكن هناك ما يكفي من الضوء. وهجاء قالت:

"هذا المكان ليس مرتفعا بما يكفي، تحرك حول الفراش، إلى الجانب الآخر."

ثم انتقلت إلى حافة الفراش الأخرى - المواجهة للنافذة. انحنى فوقها مرة أخرى، ودون مقدمات جذب ثوبها إلى أعلى. وفتحت هي ركبتها أكثر، ورفعت إحداها مسندة إياها على مسند للأقدام، واستطاع أن يرى كل شيء إلى قمة فخذها. كانت ترتدي سروالا داخليا غير محكم له فتحات سيقان واسعة، ومع انفراج ساقها لم يكن "حجر" السروال يغطي شيئا. وبدأ يحرك عضوه المنتصب على ركبتها وهي تضربه. ثم غيرت وضعها، وبدأت يدها الأخرى تحتك بعضوه، ثم أطبقت يدها حوله ببطء. وهجاء بدأت تضربه بخضب، وتخبط بكل ما تملك من قوة. وفي نفس الوقت شعر بلذة حادة بين خديه جعلته يشعر كما لو كان سيخس عليه. وكاد يقطع بين ساقها، بينما استمرت هي تضربه. وأخيرا ارتجفت وألقت بفرشاة الشعر. قالت، "أوه. لقد جعلتني أشعر بالمرض"، ثم رفعت على ظهرها فوق الفراش، ولقد أغمضت عينيها، ورفد هو الآخر على الفراش. وقال لهما كانا مجننين، ولم يحدث شيء آخر في ذلك اليوم. وحينما سمعا صوت الأم، وقد عادت إلى المنزل، أسرع إلى حجرته. وقال لشقيقه فيما بعد، "سوف أتزوج بريدجيت وأجعلها تضربني كل يوم".

استمر هذا الوضع طوال سنوات ثلاث، وفي خلال هذه الفترة، خطبت بريدجيت إلى مهندس من مهندسي الناجم، وبدأت تمارس معه الجنس بصورة طبيعية، ولكنها ظلت تؤجل زواجها منه لأنها قالت أن مسر دونيلي لن تستطيع أن تسريح دون معونتها في المنزل. ولكن السبب الحقيقي هو أنها أرادت أن تظل قريبة من الشقيقين وأن تستمر في عمليات الضرب. وأخيرا، فاز المهندس، هتز زوجته، وانتقلت معه إلى أمريكا الجنوبية.

ولدة أسبوع أو نحوه، شعر الشقيقان بالوحدة، وبأنهما مهجوران. ثم حدث ذات يوم أن قال إيزموند، "تظاهرت أنت بأنك بريدجيت"، ورفد على وجهه وفق السرير، وراح أخوه يضربه بحزام جلدي. وبلغ إيزموند نشوته. وبعد ذلك، تسلم إيزموند الحزام، وتحيل دونيلي أن بريدجيت هي التي تضربه، وبلغ نشوته هو الآخر.

وحينما عانت الأسرة إلى إنكلترا، وكان دونيلي في الرابعة عشرة، أرسل هو وأخوه إلى مدرسة عامة صغيرة. وأصبح دونيلي تابعا لأحد التلاميذ الصغار (Fag) (حسب الأوضاع التي كانت سائدة في المدارس الإنكليزية)، أما إيزموند، الذي كان يكبره بعام فلم يصبح تابعا. ولم يكن دونيلي تابعا مرضيا حتى أنه كان يستمتع بأن يضرب مرة كل أسبوع. وذات يوم، وبعد أن ضربه التلميذ الكلف بحفظ النظام، جعله هذا التلميذ يخلع بتطوونه ثم اغتصبه. وما كانت مؤخرته ما تزال تؤلمه من الضرب، فإن التجربة كانت مؤلمة للغاية مزدوجا، واستمتع بها دونيلي استمتاعا يفوق كل متعة شعر بها من قبل. ولكنه اكتشف أن اللواط دون الضرب الصاحب للعملية، لم يعطه أية لذة.

وليس من الضروري هنا أن أقول إنني لم أرحل بعد نصف الساعة الذي كنت قد حدثته نفسي. بل إنني قبلت مزيدا من الشراب. وظل دونيلي يتحلى ويتحدث، شارحا بالتفصيل كل تجاربه في كل مبحث زاره في أرجاء العالم. وكان الرجل مصابا بالكثير من الماهات النفسية والكوابح والثوابت حتى أن الأمر ليتطلب عشرين صفحة أخرى لسردها هنا بالتفصيل - كان متعلقا بشعر النساء، وأخذية النساء الجلدية الرقيقة، وقمصان التنس، أخذية الطر ذات العنق الطويل والمجموعة من الطاطا والمعاطف الواقية من الطر، والبندق، والسياسة، والعصي، وشفرات الحلاقة. وفي حوالي منتصف الليل، أطلعتني على مجموعته من البنادق، والصور الفاضحة، والسياسة والعصي. وناولني سوطا مصنوعا من تسعة من ذيول

القطط وسألني أن أجربه. فرفعت بالسوط في الهواء. فاعترض عينيها فكما لو كان يصفي إلى موسيقى ممتعة. ثم قال بلهجة جائلة:

- "أحب أن تستخدمه؟"

- "على جسدك أنت؟". كنت قد علمت أن هذا هو ما يسعى إليه.

- "أجل".

- "كلا. سأشعر بالبالهة".

قبض على ذراعي وقال:

- "حتى ولا في مقابل الخطوطة؟"

- "أسمح لي بأخذها في هذه الحالة؟"

- "يمكنك أن تنسخها ثم تعيدها إلي".

- "وهو كذلك".

أصبح صوته نوعاً من "المنحنحة" وهو يقول:

- "تعال إلى الداخل، هناك".

دخلنا الحجرة الأخرى. لم يكن هناك شيء سوى سرير ضخم، من طراز قديم، لشخصين، مزود بوسادة كبيرة لأحت لي غير مريحة كما لو كانت لوحاً من الخشب. وفي كل ركن من أركان الحجرة علفت أحزمة جلدية تنتهي إلى قابضات يمكن أن تمسك بالأيدي.

خلع ملابسهم ببطء، وبدون ما علامة توحى بالحرع. لاحظت أن السائر على النوافذ كانت ثقيلة جداً. وعرفت الآن السبب الذي جعل دونيلي يشعر بالسعادة للتخلص من عمال مزروعة. ففي مبنى خشبي من هذا النوع، كان صوت الضربات حتماً سيسمع ومن مسافة بعيدة، وخاصة في الليلي الجنوبية الساكنة، حيث يمكن أن يسمع صوت مكروان صغير على بعد ميل كامل.

رقد على الفراش غارياً، ووجه إلى أسفل، ونظرت إليه نظرة مباشرة طويلة لأول مرة منذ دخولنا هذه الحجرة. كان ظهره، وردفاؤه، وهنداه تحمل أسنن قليلًا من مجرد آثار وتلصق السباط. بدا جلده في هذه الأجزاء، فكما لو كان طريقاً غطاء الضيق ثم مرت عليه ست عربات جبلية وذهاباً عدة مرات. وكان من الدهش أن يستطيع أن يشعر بشيء ما تحت شكل هذه التيوب القديمة، ذات الجلد اللبوع.

كان علي أن أحكم القوابض فوق معصميه، ثم فوق كاحليه، وأن أشد الأحزمة الجلدية شداً محكماً حتى يتمدد جسده تماماً. في البداية تركبت الأحزمة الجلدية دون إحكام، ولكنه صرخ بي قائلاً الصبر "أكثر إحكاماً". وبعد ذلك، أثار وجهه ناحيتي، فمضت الفلين تحشر صوته وهو يقول: "الآن".

كنت أعرف أنه لا فائدة من التراجع، وكان ما تسألته عنه في دخلي هو ما إذا كان باستطاعتي أن أستمع في ضربه حتى أجعله يسألني أن أكف مكتفياً بما ناله من الضربات. وهكذا رفعت الشيء الذي أعطاني إياد فوق رأسي - وكانت له فقرة قائمة على الارتداد والتلوي - ثم هويت عليه بأقصى ما أملكه من القوة. أصدر السوط هسباً مثل صاروخ ينطلق. ودهشت حينما رأيت العلامة الحمراء العميقة التي صنعها على ظهر الرجل. ترددت للحظة، فقال من بين أسنانه اللطيفة: "استمر، استمر، لا تتوقف".

وهكذا، وقد تذكرت نصيبي من الصفقة، هويت مرة أخرى عليه بكل قوتي، ولو أنني كنت أوي إيذاه لكان هذا مستحيلاً بالنسبة لي. ولكن كان من الواضح أنه يحصل علي أكثر ما يمكن من البهجة الشوانة من هذا الضرب. انزعجت حينما بدا الدم يتصبب من اللدمات التي تركها السوط. فكما بدأت فطرت قدم نصيبي في وجهي مع طرف السوط كلما رفعت إلى أعلى، ولكنني كلما توقفت كان يصبح في أني، "أرجوك". وعند لحظة معينة قال: "كف". وظننت أنه قد نال كفايته، ولكنه قال: "والآن، العصا". وكان علي أن أبحث عن عصا مروعة لشرطي مغطاة بالجلد، وأن أضربه بها على رذفيه وساقيه. وفي البداية، حاولت أن أجعلها "تفرقع" بأن أضرب بكل ما أملك من القوة - وكانت ذراعي قد بدأت تكل - ولكن هذا لم يؤد إلى أي اختلاف. فإذها قد انحست فقط، وبعد عشر دقائق، جلست متهاوياً على مقعد خشبي وقلت:

- "لا فائدة، يجب أن أسريح".

ورفد هو في مكانه ساكنًا، وتبينت أنه كان قد فقد الوعي. وحاولت أن أهرزه من كتفيه، ولكن أجهالته لم تصدر أية حركة، وسررت عندما رأيت أنه ما زال يتنفس. فلو أنه مات، لكان من الصعب علي أن أفسر موقفني بأنني كنت أفعل ما فعلته في سبيل قضية الأديب.

عملت إلى الحجرة الأخرى وسببت للنفس فدحاً من البرق، ثم ذهبت فأخلفت مظاح الخزنة من جيب ينظونه، وقلعت الخزنة، لم أجد أي شيء ذا أهمية يتعلق بدونيللي الكبير، سوى بعض الظلارييف التي لا تحتوي إلا على بعض الخطابات والأوراق المختلفة، وكان هناك صندوق في الجزء العلوي من الخزنة، أخلته ونظرت ما فيه، أثار صليب أحمر على أحد جوانبه إلى أنه صندوق للمواد الطبية، وعند النظرة الأولى أكتبت محتوياته تلك الإشارة. لفافات كبيرة من الضمادات، وعلبة معدنية تحتوي على اشرطة لاحقة معقمة، وزجاجات من المواد المعقمة والمخففة، خطرت في ذهني فكرة أنه إذا استطاع دونيللي أن يحصل على من يضره مرة واحدة ككل عام فقط، لكان في حاجة إلى مخزون كبير من الضمادات والمواد المعقمة. وحينما فحصت الصندوق بعز يد من الثقة، لاحظت أن هناك بعض الأشياء التي لم يتضح لي الغرض من وجودها بشكل فوري، كان هناك عدد من الأنابيب الخضراء، وقد انصق عند شكل من أطر لها غطاء مستدير صغير تدلت منه أسلاك تعرفت عليها أنا نفسي باعتبارها هائل تفجير، ثم كانت هناك راحة من مسحوق بني اللون خشنة القوام. فحصت أحد الأنابيب، وكان مصنوعاً من البلاستيك، ذا غطاء من البلاستيك عند كل من طرفيه ويمكن تحريكه. نزع الغطاء، وحاولت أن أنظر من أحد أطرافه، فكانت في التليسكروب، ولكنه كان مسدوداً عند منتصفه من الداخل، كان الأنبوب مضمماً إلى جزئين وتحت ضوء الصباح الملحق في السقف، لاح لي أن السداة التي تقسم الأنبوب كانت مصنوعة من العنبر.

فتحت زجاجة السحوق وشملت ما فيها، وكانت لها رائحة متميزة، ولكن لم أعرف عليها، تناولت زجاجة أخرى تحتوي على سائل أصفر، وأزحت غطاءها الزجاجي. تعرفت على هذه الرائحة حين تذكرتها في أيام مدرستي، حامض مركز، إما أن يكون حامض الهيدروكلوريك أو حامض النتريك. عثرت في المطبخ على وعاء صغير يستخدم لتقديم الفيللات - ونظرت إلى دونيللي في غرفته حين مررت على بابها - فكتبت كمية ضئيلة من

السحوق التي في الوعاء، ثم كتبت بحذر كمية ضئيلة من الحامض في الجانب الآخر من الوعاء نفسه، حتى تكونت فيه بحيرة صغيرة. رفعت جانب الوعاء بحذر حتى سال الحامض بيرة. وجدنا النقي الحامض بالسحوق، حيث تفاعل عنيف بصوت قوي، وقصرت أنا إلى الحثك. تناثر شيء ما على وجهي في قطرات صغيرة، وحرق مكانه، اندفعت إلى المطبخ ودعكت وجهي بقطعة مبللة من القماش. وكان الدخان ما يزال يتصاعد في الجانب الآخر للحجرة وينتفع إلى المرء الوصل للمطبخ. وكان السحوق في الوعاء ما يزال يطلق ويصدر حفيفاً مسموعاً، وتنتقل منه شرارات ملتهبة، فتحت الباب الأمامي للممر، ثم مدت يدي بعذر إلى الوعاء، وحينما لمستته انصق إلى تصفيين. ولكن التفاعل كان قد انتهى وتوقف الصوت - وكنت قد استخدمت كمية ضئيلة للغاية من السحوق. وضعت نصف الوعاء في صحيفة قديمة، وأخذتهما إلى الخارج. كانا ما يزالان ساخنين جداً لدرجة أن أوراق الصحيفة اسودت وتجمدت. وتطلب تنقية هواء الحجرة من الدخان أكثر من عشر دقائق بعد أن تركت الباب مفتوحاً.

وهكذا حلت مشكلة حريق مخزن القش. كانت الطريق بسيطة وتبينت نوعاً من الخداع ولكن كان الضروء أن يوضع السحوق الذي في أحد قسمي الأنبوب، ثم يحمل الحامض إلى موقع الحريق في زجاجة صغيرة - وكانت هناك زجاجات صغيرة كثيرة في الصندوق. ثم يفرغ الحامض هناك بعناية في النصف الآخر من الأنبوب، على أن يصنع ثقب صغير في غطاء هذا النصف لكي يسمح للهيدروجين للتصاعد من الحامض بالخروج، وبعد ذلك يوضع الأنبوب بخرص على طرف الجزء المحتوي على السحوق، لكي يظل الجزء المحتوي على الحامض مرتفعاً إلى أعلى، في وسط الحظيرة أو مخزن القش، ومن المفترض أن دونيللي كان يعرف بالتحديد الوقت اللازم لكي يأسكل الحامض الجاهز العنبري الفاصل بين جزئي الأنبوب. وإذا خفف الحامض قليلاً لا يمكن أن تستغرق عملية التماسك ما يقرب من أربع وعشرين ساعة، وربما كان قد وضع قنبلة الحامض الصغيرة في مخزن القش في الساعات المظلمة الماضية من صباح يوم الأحد. فلا عجب إن بدا عليه السرور وهو يراهب النار، فقد كانت النيران انتصاراً للتوقيت الدقيق.

أعلنت الصندوق للخزنة، إلى جانب الأوراق الأخرى، ثم أغلقها، وأعدت المفاتيح إلى جيب ينظون دونيللي. تملكني شعور قوي بأن علي حل مشكلة دونيللي الأخلاقية مع

تهوئسه بإشغال الحراري عن طريق صنع واحدة من قنابله الحمضية. وأتركها في الحزام وسط الأوراق. حتى يمكن تدمير مخزن سلاحه السري. ولكن مثل هذه القنبلة يمكن أن تحرق المنزل دونيللي في داخله. وربما كان في هذا نوع من العدالة الشعرية التي تحتلها أرسطو. ولكنها ستكون عدالة قاسية قسوة لا ضرورة لها (أم أنه قد يستمتع بها؟).

غطيت دونيللي الرافد بأغطية الفراش. ولكنني تركته مربوطاً إلى أركان السرير. فإني إذ كنت أنوي أن أنام في هذا المنزل، فإني جدير بأن أفضل الشهور بآمان، وكانت مجموعته من الينابيع والنفحات اللامعية تصيبني بالتوتر. بعد ذلك أغلقت الباب ونمت على السرير الصغير. وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي، ذهبت إلى حجرة دونيللي، فوجدته نائماً. كان تنفسه منتظماً. خللت الفوايض عن ساعديه وكاحليه، قلب وأن. وعندما كانت الساعة السادسة والنصف، كنت أسير متجهاً إلى البلدة. عثرت على مقهى على جانب الطريق مفتوحاً، فأكلت بيضاً مقلياً، ولحم خنزير، وجذور خضراوات طازجة، ثم اتصلت بسيارة الأجرة التي جاءت بي إلى هنا. وفي الساعة الثامنة كنت قد عدت إلى الفندق الصغير، وكتبت أكثر هذه الملاحظات قبل أن اغادر الفندق لكي أتحق بمناقرتي بعد الظهر. وقد أرسلت بالبريد مخطوطة دونيللي إلى ديانا، حتى يمكنها أن تنسخها بالآلة الكاتبة قبل أن تظهر إلى "سانون" يوم الخميس. وإذا وضعت في اعتباري كمية ما شربته من الكحول في الليلة واليوم السابقين، فإني أشعر بأنني في حالة جيدة إلى درجة ملحوظة.

-٦-

٢٢ إبريل، دالاس، تكساس.

□ ووجدتني أتساءل هذا الصباح، عن السبب الذي جعلني أحصل على متعة من نوع معين من خلال ضرب دونيللي. وهل هناك مر كعب سادي خفي في داخلي، لمسة من شخصية "أوستيه"؟ ولكن، خطلت الإجابة على ذهني بعد محاضرتي هذا الصباح. فبشكل غريب، تقدم عاهات دونيللي دليلاً على حرية روح الإنسان. الحيوانات كلها تجفل من الألم وتتكس أمامه. أما دونيللي فقد "حصل" عامداً على الموقف العاكس. لقد اختار الموقف الذي يقول بأنه ينبغي أن تكون للألم قيمة. وقد جعل هو من الألم قيمة. شيئاً يستمتع هو به. أنا

أعرف أن هذا التفسير يقوم على أفكار من نوع معين. وما إلى ذلك - مثل بريدجيت والجنس والألم - ولكن هذا لا يؤدي إلى أي اختلاف. فإذا استطاع رجل أن يختار ممارسته المتعة عن طريق الضرب، فإنه يستطيع أن يختار ممارسة النشوة الصوفية لرأى شجرة أو ورقة ساقطة من شجرة. إنه ليس بالضرورة ضحية عواطفه التقلبية أو احتياجاته العسية. و"هذا" هو السبب الذي جعلني غير قادر على خيانتة. إنه يشكل مشو، يحمل سمّة من سمات القديسين. إنه ليس لا هدف له ولا غاية.

في يوم الجمعة، الخامس والعشرين من إبريل طرنا عائدين إلى لندن، ولم يعد لدي الزيد من الوقت لكثابة فقرات طويلة من المذكرات، لأسباب سوف تتضح فيما بعد.

كان في نيتنا أن نعود عن طريق البحر. ولكن المغز الأدبي، الذي جسده إيزموند دونيللي جعلني أتجمل العود. كنت أخشى أن يصل باحث آخر إلى "بالي كاهان" قبل وصولي أنا إلى هناك. ولكنني أردت أن أمضي يوماً في مكتبة المتحف البريطاني، لكي أبحث عما يمكنني العثور عليه عن دونيللي. وقبل مغادرتنا "نيوهاون" (حيث كانت ديانا تقيم مع بعض الأصدقاء) كانت مخطوطة دونيللي قد أعيدت إلى "ديتهام سريتنغر" عن طريق البريد السجل. وكانت ديانا قد نسخت منها نسختين. وكانت رحلتي بالطائرة من كينيدي إلى لندن هي فرصتي الأولى لدراسة المخطوطة.

كانت المخطوطة قصيرة بشكل فظيع. ولم أكن قد تبينت حين أطلعني عليها الكولونيل دونيللي، أن المخطوطة كانت تحتوي على مقالة دونيللي عن "رفض نظريات الدكتور هيوم". مع بعض الإشارات إلى "المجادلات الأولية" التي كتبها "دالامير". وكنت قد افترضت أن دونيللي قد اشترى المخطوطة وقد ضمت أجزاءها وألصقت بعضها إلى البعض. ولكن اتضح أن الأمر لم يكن على هذا النحو، كان "الرفض" يقع في نحو ثلاثين صفحة. أما مذكرات دونيللي فلم تزد على العشرين.

كان أكثر ما اترقي من جانب إيزموند دونيللي هو خدائة عقله. كانت اللغة هي لغة والبول^(١) أو كراي^(٢). أما الفكر فكان دائماً أكثر قرباً من غوته أو حتى ويليام بليك.

(١) هوراس والبول (١٧٧٢-١٧٩٠) اللورد الرابع لارفورد - سياسي وخطيب إنكليزي اشتهر بروايته "قلعة أوتورانتو" عام ١٧٨٤ التي تعد نموذجا للرواية القوطية.

(٢) توماس كراي ١٧٦١-١٧٩٠ شاعر إنكليزي وصديق هوراس والبول واحد رواة الحركة الرومانسية الإنكليزية تتميز أعماله بعشق الطبيعة والأملات الكئيبة والخيال المرعب الحزين.

وكانت النقطة المركزية في مناقشته ضد هيوم واللامبر بالغة البساطة، هو أنه حينما يشب الإنسان عن طوق السلطة الدينية، فإنه يصبح في العادة ضحية لتفاهته الخاصة. متى يمارس الإنسان الإحساس بالحرية، هكذا يسأل، ثم يجيب: حينما يشعر بالضجر. "الضجر هو أن يكون الإنسان حرّاً ولكن دون أن يشعر بنافع معين يدفعه إلى الاندفاع بالحرية". وبعد ذلك يستكر صورة المجتمع خرابي، على طريقة موييت^(١) لكي يصور ما يقصده من فكرته. يقول أن بين قمم الجبال العالية في بلاد التتار، يقع واد يسكن فيه شعب ينتمي إلى جنس ضئيل الأجسام ولكنه قوي ويتمتع بصحة جيدة. "منذ بداية تاريخ هذا الشعب في الأزمنة السحيقة، كان من الالتزامات الدينية لهذا الشعب أن يحمل كل فرد منهم حملين ثقيلين - على شكل زحاجنين تملآن بالماء، وتعلق كل منهما على أحد جانبي وسط الإنسان. ولم يكن بمقدورهم أن يفكروا في السير إلى ما وراء بلادهم على طول الهوليت هول. فكانوا يعلقون هذين الحملين في خصورهم من التلال إلى التوت، وكانت هناك عقوبات صارمة لكل من يخلع حمليه، ولكن أعظم متعة عند هذا الجنس كانت هي تمارين اللي. وفي إحدى الفترات أعلنت مجموعة معارضة أن القصور من وضع هذين الحملين هو جعل السر صعباً وغير مريح. وبعد ذلك، أعلن أكثر هؤلاء للتمردين جساراً، أن الإنسان ينبغي أن يكون قادراً على الطيران مثل الطائفر أو أن يطفو مثل البالون، وأن تلك الأحمال إنما فرضت عليهم بغرض منعهم من الاستمتاع بالحرية التي خلقوا من أجلها، وتستعمل الثورة، وبعدم الملك (وهذا تنبؤ جدير باللاحظة بإعلام تلك لوييس السادس عشر) ويمزق الناس أحزمة أحمالهم ويخلعونها عنهم. ولشد ما يدهشون حينما لا يحدث شيء، باستثناء أنهم يجنون السير صعباً من دون تلك الأحمال. وأن المحافظة على توازنهم تصبح مستحيلة. ولكن الأشخاص الأكثر تعقلاً ومحافظة يستمرون في حمل أحمالهم. أما الأكثر جساراً فيتدربون على السير من دونها، وسرعان ما يعلنون أن الأمر ليس سوى عادة، وأن العادة هي مرجع الوحيد. وتستبد بهم البهجة بهذا الإنجاز الجديد حتى أنهم في البداية، يمعنون في السير ليلاً ونهاراً، ويلعبون الوادي

(١) جوليان سوييت (١٩١٧-١٩٥٠) شاعر وكاتب كهكمي إنكليزي - عرف بكتيرائه وحساسيته. من أشهر أعماله مجموعة "رحلات جاليفر" التي استخدمها في خلق عوالم ومجتمعات خيالية ونقاريات كثيرة يفسدنا جانباً من قيم بورجوازية الصاعدة وتنفطرسة في عصره.

من القصور إلى الأوصاف، بل إنهم يحاولون تسلق الجبال، وسرعان ما يكتشفون أن الجبال ليست سوى جدران جرداء من الصخور لا يمكن الوصول إلى منتهائها أو اختراقها. ثم حدث أن سقط بعض ممن تغلصوا من أفعالهم فريسة لغضب جنوني. فبينفقون متهوسين من طرف الوادي إلى طرفه الآخر حتى ينهاروا من الإجهاد. ويحاول آخرون أن يشرقوا الجدران الصخرية النساء ليخرجوا من الوادي، فإما أن يسقطوا من مرتفع عالٍ حينما ينال منهم الإعياء والكلال، أو يقتلوا بأنفسهم بسبب الرعب أو اليأس. لكن مع مرور الوقت، بفضل العدد الأكبر ممن تغلصوا من أحمالهم أن يجلسوا في بيوتهم، وقد تملكهم الضجر تماماً، طالا أنهم عرفوا، بكل سر من الوادي، وكما هو بها جمون الآخرين الذين احتفظوا بأحمالهم. فيسبونهم بالخنازير التي تؤمن بالخرافات. وتكن بعد أجيال قليلة، يموت هؤلاء الذين تغلصوا من أحمالهم، لأن اقتدارهم إلى الحركة وتدريب عضلاتهم جعلهم يسمنون إلى درجة هائلة فيموتون في سن مبكرة. وأخيراً لا يبقى على قيد الحياة سوى أولئك الذين حافظوا على أفعالهم. فيقومون بانتخاب ملك جديد عليهم، وطوال أجيال عديدة لا تعود "الثورة العظمى" سوى ذكرى مرعبة. حتى تظهر فئة من الشعب تعلن أن الإنسان قد خلق لكي يطير كالطير...

تبدو القصة متشائمة إلى حد كبير، وأنها استعارة رمزية من قصة الخطيئة الأصلية. ولكنني أميل إلى رفض هذا الرأي، لأن دونيلي يقول: "لقد كان هناك نفر من بين أولئك الذين حاولوا تسلق الجبال، لم تقع عليهم أبصار أحد بعد أبداً، ومع ذلك فإن عدداً من الرعاة الذين ترعى أغنامهم تحت ظلال الجدران الصخرية العظمى التي تحف بالوادي، أكدوا أنهم سمعوا أصواتاً تنادي وتلفظ من فوق ارتفاع شاهق فوق رؤوسهم، حيث كانت قمم لجبال تخفي وراء السحب". وبكلمات أخرى، فربما استطاع عدد قليل من أولئك التسلقين أن يصلوا إلى الأراضي الوعرة الواقعة فوق الجبال.

إن مايقوله دونيلي - وهذا تصور جدير بالاحترام إذا كان صادراً عن جانب صبي في السابعة عشرة من عمره - ليس هو أن "الناس يحتاجون إلى أفعال"، وإنما يقول أن الناس "في الوادي" يحتاجون إلى أفعال. إنهم أصحاء، أقوياء يحيون الفامرة (أي يعيشون اللي) والوسيلة الوحيدة التي يستطيعون بها أن يحافظوا على تلك الميزات في واديهم الضيق الصغير هي أن

يحملوا انتقالاً على الدوام. ولكن ثمة عند قليل من بينهم، عند قليل جداً، يولدون وهم يحملون روح متسلفي الجبال الجسورين.

وقت كان دونيللي متسلفاً جسوراً للجبال بالفطرة، منذ ولادته، وكان هذا واضحاً وهو ما خدعني. لقد عاش هذا الرجل حتى بلغ الرابعة والثمانين (طبعاً ذا قاله الكولونيل دونيللي)، وكان كتاباً موهوباً، ومفكراً أصيلاً، وصديقاً لروسو وويلكز. فلماذا إذن لم يترك سوى هذا الأثر الضئيل على التاريخ؟ فإذا كان "رفض فلسفة هيوم" ومذكرات الرحلات المنشورة، هي كل ما أمكنه لكي أبداً عملي، فإني قد أجبت لزاماً علي أن استنتج أن أمامنا موهبة أضاعت نفسها مكرراً، مثل رامبو أو وولف، ولكن للمذكرات غير المنشورة لا تترك مجالاً للشك في أن موهبته ظلت دون أن يلحقها الفساد. إذن، لماذا خلت؟

ولابد لي أن أثير وإشكك، في شكل جملة اعتراضية، أن الجزء الفلسفي من "الرفض" والذي يضم بعضاً من أكثر صفحات هذا القال أهمية، يتميز بنوع من العمق والرصانة النفسيتين سبقتا زمانهما بقرن كامل على الأقل - ولا يمكنني أن أفكر في وجود شيء مماثلها ظهر قبل ظهوره. هـ برادلي^(١)، إنه يقتطف مقالة كاملة لهيوم هي "تجريد لرسالة في الطبيعة البشرية" بنيت فيها أن فكرة العلة والنتيجة عند هيوم مرتكزة على عاداتنا، وأنها لا تمثل "علاقة ضرورية". يقول هيوم: "لنفرض أن رجلاً مثل آدم قد خلق وهو يستمتع بالقدرة الكاملة على الفهم، ولكن دون تجربة" أفلا يكون من المستحيل بالنسبة له أن يرى ضرورة الارتباط بين العلة والنتيجة؟ وعلى سبيل المثال، إذا كان يراقب مكررين من كرات البليارد وتصطدم إحداهما بالأخرى، فإنه من المحتمل ألا يستطيع أن يضمن - اعتماداً على ذكائه وحده - أنهما سوف يصدران صوتاً كالفرقة الصخرة عند اصطدامهما، ثم يندفعان في اتجاهين متضادين. إنه سيظن، اعتماداً على معرفته الضئيلة، أنهما قد يلتصقان أو يقفزان في الهواء، أو يقفان ببساطة جنباً إلى جنب^(٢).

وينقض دونيللي بسرعة على العبارة التي نقول "يستمتع بالقدرة الكاملة على الفهم" ويشير إلى أنها زالة قلم.. "بتضمن كلام هيوم أن إدراك آدم لكرات البلياردو سوف يكون إدراكاً بريئاً وغير متحيز، بينما - في الحقيقة - لا يمكن لإدراك كامل المرأة - مثل إدراك

(١) - فرانسيس هيربرت برادلي (١٨٤٧-١٩٢٤) فيلسوف إنكليزي مثالي وضع فكرة بعكر هيدل.

عقل حديث الولادة - أن يستوعب الكرات على الإطلاق - أو بالأحرى - قد يدرك وجودها ولكن دون أن يستوعبها، مثلما قد انظر إلى خطاب مكتب بطة لا نعرفها، فإذا كان آدم قد سمح له بالقدرة الكاملة على الفهم، وبقدر كافٍ لكي يراقب كرات البلياردو باهتمام، إذن فلماذا أيضاً أنه قد سمح له بشيء من القدرة على معرفة العلة والنتيجة. إنه ربما لا يعرف أن كانت الكرات سوف تقفز من منفصلتين أو تمتزجان مثل قطرتين من ماء، ولكنه يعرف أن شيئاً ما سوف يحدث، الأمر الذي يعني أنه يعرف أن نتيجة ما ينبغي أن تتبع السبب^(٣).

إن رجلاً يتمكن من إيجاد هكذا فلسفة أو تصور وبهذا الشكل التميز، كان حرياً من جانب آخر أن يخلط ورائه صورة دقيقة عن الفترة التي عاش فيها، إذن فكيف تحول الأمر إلى أن لا يعرفه أي شخص حتى أني لا أكون قد سمعت به مطلقاً قبل تكليفي بهذا الأمر؟ وحتى إذا كان هو نفسه لم يكتب إلا القليل - فلا بد أن يكون الآخرون قد ذكروه - بوزويل^(٤) على سبيل المثال أو حتى كرات روبنسون^(٥). إن الإضلال الكامل الساقط فوق مثل هذا الرجل شيء لا يمكن فهمه.

كنت قد كتبت لصديق يعمل في المتحف البريطاني من دالاس، أسأله إن كان يستطيع أن يعثر لي على أي مادة ممكنة حول دونيللي. وأسرت إلى هناك فور وصولي إلى لندن في التاسعة والنصف من صباح يوم السبت، ودعاني تيم موريسون - الذي يعمل في إدارة الكتب الطبوعية - إلى شرب فنجان من القهوة في غرفة لوظفين. وكنت قد أخبرته بكل ما دار بيني وبين فليشر - وحتى عن اقتراح أن أقوم بتزوير بعض المخطوطات باسم دونيللي، إن نظرة تيم إلى الحياة وقورة ومحاذرة - وهو يعطيني دائماً انطباعاً لرجل يصدق بحذر من فوق حافة هاوية وهو يعالج موضوعاً ما بطريقته المزددة الموهقة. قال:

- "أعتقد أنك تعرف ما تفعله. أعني أنك لا تريد أن تنتهي إلى السجن بسبب الاحتيال على قراء..."

(١) - جيمس بوزويل ١٧٤٠-١٧٩٥، أشهر كتاب التاريخ في إنكلترا، أشهر بكتابه عن (صامويل جونسون).

(٢) - هنري كرات روبنسون (١٧٧٥-١٨٧٦) كاتب يوميات ومذكرات (أشبه بالواجب) إنكليزي.

واكتفت له ان ليس ثمة خطر في ذلك، وأبرزت له المخطوطة المنسوخة على الآلة الكاتبة من مقالة "رفض لفلسفة هيوم"، راح يقرأها بعناية لمدة عشر دقائق، بينما رحت أنا أحسني أهوتي وأتطلع إلى عناوين صحيفة "الجارديان"، وأخيراً قال:

"أفكاد أجزم أن هذا يبدو أصيلاً وليس هناك ما يزعجني سوى شيء واحد، لماذا أعطي هذا اللقب لروسو؟ إنه بارتنه تلك لابد كان يظن أن روسو أبله كإلهة".

"أست وثقاً من السبب. ثمة عنصر من التفاضل في شخصية دونيللي وفكره ربما تتجانب مع روسو. هذا إلى جانب أن روسو ليس بسيط الفكر كما يبدو أن معظم الناس يظنون. إنه في الحقيقة لم يقترح أبداً أنه ينبغي للناس أن يعودوا إلى الطبيعة".

قال "كلا، كلا". وبدأ عليه الشرود، سألته إن كان قد عثر لي على أي مكتب عن دونيللي، فقلب جبينه وهو ينظر إلي داخل فتح أهوته ثم قال:

"من الأفضل أن تأتي لكي تنظر بنفسك".

عندما إلى مكتبه، فتدني لا يصل إليه الرء إلا بعد مشاهدة من الثمرات وعدة مجموعات من الدرجات المحزونة. وكانت غرفة المكتب مرتبة بطريق توحي بخلوها من أي خطا أو عيب. وعلى المكتب نفسه كانت هناك ستة معجلات برزت من خلال صفحاتها قصاصات من الورق. قال لي أن أحسن أمام المكتب، ثم جلس هو على القعد الكبير الواجه لي، وأشعل سيجارة، ثم عاد إلى مقالة "رفض لفلسفة هيوم".

كانت الكتب التي عثر عليها مخيبة للآمال. وكانت هناك طبعة من مذكرات الرحلات التي كتبت قبل رثيتها بالفعل من قبل، مطبوعة في لندن عام ١٨٢١ في دار النشر الملوكة لشخص يدعى جون موري، وهو الناشر الذي كان يصدر مجموعاً بايرون الشعرية، وكانت الطبعة مزودة بمقدمة قصيرة بقلم الناشر بصفت فيها دونيللي أنه، "سيد ودارس إيرلندي" ولكنه لا يقدم أية معلومات أخرى متعلقة بحياته - ولا حتى إن كان دونيللي ما يزال على قيد الحياة عام طبع الكتاب. (والد كان حياً بالفعل يومها، فقد كان في الثانية والستين عام ١٨٢٠)، وكانت هناك إشارة قصيرة إليه في كتاب خيلين: "بوميات إنكليزية في القرنين السابع عشر والثامن عشر" الصادر في عام ١٨٧٦، ثم ألتباس من مذكرات رحلاته في كتاب عن متبعة الهندية الفه كتابت نسبت اسمه. وجاءت الإشارة الهامة

الوحيدة إلى دونيللي في خطاب مكتبه بايرون لفرانسيس هودجسون في شهر يونيو عام ١٨١١ (وجاء الخطاب في أعمال بايرون الكاملة، التي أشرف عليها برونيو وكونوريدج، المجلد التاسع من ١٢)، ويقول فيها، "قال لي شيري (شريدان) إنه لم يعرف أبداً شخصية أكثر وحشية من والذي ("جالت الجنون" بايرون) رغم أنه كان قد عرف ويلكيز ودونيللي في أيام شبابهما". ويقول بايرون في خطاب آخر إلى ويليام جيفورد (المجلد ١٢ من ١٩٢): "لقد ذهبتني وصدمتني جداً تأكيدت إيرموند دونيللي والتي أشار فيها إلى أن خلونا وخلو عالمنا نسبياً من العنق. حينما نوضع في مقارنة مع الكل القهار، الذي لسنا فيه مع عالمنا سوى ذرة ضئيلة، هو ما دفعه لأول مرة إلى تخيل أن طموحنا إلى الأبدية والخلود يجب أن يتضاعف عدة مرات".

وبينما كانت أسجل في مذكرتي مختلف اللود التي حصلت عليها - فقد كان لابد لي أن أجهز مقدمتي على نحو من الإنهاء - فكانت تبغ يفحص بعض الأوراق في خزانة قريبة. وحينما انتهيت من الكتابة، وضع أمامي ورقة واحدة، وكانت الورقة صورة مكبرة لصحيفة من أحد المخطوطات. ولم تكن قراءة الخط مستحيلة، رغم ما كان هناك من تكرار لخطا بكتابة حرف "ف" بدلاً من حرف "س". وكان نص المكتوب في الورقة:

"... كان مقتنعاً بأنه قصد إلى الوفاء بالترامه..

وحينما ذكرت عادة أكل الكلاب في أوتاهايت، قال جولد سميت أن هذه العادة شائعة أيضاً في الصين، وأن جزائر الكلاب شائع جداً مثل أي نوع آخر من القصابين، وأن مثل هذا الشخص إذا رحل إلى خارج بلاده، تهاجمه كل الكلاب.

جونسون، "ليس هذا راجعاً إلى قتلته للكلاب يا سيدي. فني أذكر قصصاً في بلدك لبشتيفيك، كان معرضاً على الدوام لهجمات الكلب للوجود في الخزل الذي مكنت أسكنه. إن رائحة الدم والقتل هي ما تثير هذه الحالة وتستفز الكلب للهجوم، مهما كان نوع الحيوانات التي قتلها.

جولد سميت، "أجل، فإن الحيوانات عموماً ترفض أي علامة تدل على الذبح أو تشير إليها وتخفر منها. فبذلك إذا وضعت وعاء صغيراً مليئاً بالدماء في حظيرة للجبياد، أصاب الحيوانات ما يشبه الجنون".

جونسون، "إنني أشك في ذلك".

جولد سميت: "كلاً يا سيدي إنها حقيقة يعترف بها المارغون".

وتلت هذه الفقرة عدة سطور كشفت بجر أسود وثقل وبغاية بالغة ثم تستمر السطور بعدها تقول:

تريبل: "كان الأفضل لك أن تهرن على هذا قبل أن تضمنه كتابك عن التاريخ الحليبي، إنك قد...".

نظرت إلى تيم وقد استبه على الأمر، وظننت أنه قد أعطاني صحيفة أخرى غير ما أراد أن يعطيني، ولكنه وضع أمامي صحيفة أخرى مصورة، غير أنها صورة لسطور مكتبة على الآلة الكاتبة وكانت تقول:

جولد سميت (مستمراً): "لقد قبلت لي هذه الحقيقة على لسان إيزموند دونيلي الذي قال لي أنه حاول تملك التحرية".

جونسون (وقد بدأ يسخر): "أه، يا سيدي، إنني لا أشك في أن هذا الرجل يمكن أن يكون قادراً على إثبات ذلك وما هو أسوأ منه".

جولد سميت: "إنه لا يفتقر إلى صفات محب الرح والعريضة".

جونسون: "بالناكيد. إنني أعتقد أنه من جماعة العنف ذوي اليول العريضة اللعنة بالشر. ونفس الشيء يمكن أن يقال عن الشيطان".

جولد سميت: "ومع ذلك فإنه يعرف الجياد".

تريبل: "كان الأفضل لك أن تهرن على هذا...".

قال تيم:

"كان من عادة يوزويل دائماً أن يكشط بالجر الأسود كل الفقرات التي يريد أن يلغيها حتى لا يمكن قرائتها. وهذه صفحة من كتابه "حياة جنسون". وقد سمحت لنا جامعة بيل بالحصول على صورة من غالبية مجموعة إيشام. وقد استطاعوا أن يصلوا إلى حقيقة أكثر ما كان مكتوباً في الفقرات اللعنة".

"منهش. كيف عثرت عليها؟"

"لم أعر عليها أنا. وإنما حدث أن ذكرت اهتمامك بدونيلي للرجل الذي كان يصنف الصور. وبالصادفة البحتة - كان قد رأى اسم دونيلي في اليوم السابق".

"وإن فريما تكون هناك أشارت أخرى إلى دونيلي في مخطوطة يوزويل؟"

"هذا محتمل، سأتصل بك إذا وجدنا أية إشارة".

امضيت بقية اليوم في قاعة المطالعة، ولكنني لم أعر على شيء آخر له قيمة. وعندما عدت إلى ميدان كينستفون (حيث كنا نقيم مع جيرمي وورثينغتون، أحد مليري شركة جون جاميسون لإنتاج قويسكي) ناقشت ما أنجزته اليوم مع ديانا ومع سو وورثينغتون. واتفقنا على أنه من الواضح أن جونسون كان يكره دونيلي، الأمر الذي لاح لنا أنه يشير إلى أنه كان يعرف شيئاً عن شهرة دونيلي كمصموم كبير. ولكن لماذا كان من الضروري أن يخبر غشبه بهذه السرعة لدى ذكر اسمه؟ لقد كان يوزويل هو الآخر مصموماً كبيراً، وكذلك كان ويلكيز، الذي كان جونسون قد وصل إلى نوع من الاتفاق معه. فلماذا اسخط على دونيلي والهجوم عليه؟ ماذا كان يعنيه حينما قال: "إنه يمكن أن يكون قادراً على إثبات ذلك وما هو أسوأ منه؟"

وقالت سو أنه من المحتمل ألا يكون قد عني شيئاً بالتحديد على الإطلاق، فتم عدا أن جونسون كان منزحاً من سذاجة جولد سميت وسهولة انخداعه. وكنت مبالاً إلى الموافقة على ذلك. وحينئذ قالت سو:

"يجب عليك أن تسأل جيرمي عن يوزويل. إنه يعرف شخصاً اكتشف مخطوطة ما ليوزويل".

وكانت هذه أخباراً هامة. كنت قد أمضيت جانباً من اليوم في قراءة مذكرات يوزويل، وقصة اكتشافها، التي كانت قرائتها من الأمور الخالصة. ولما كانت هذه القصة تمل علاقة ما بما أسرده الآن، فسوف أخصها باختصار.

مات يوزويل في عام ١٧٩٥ في منتصف العقد الخامس من عمره. ربما بسبب إصابته بتليف في النسجة الكبد. وعين ثلاثة من أصدقائه مشرفين على طبع تراثه الأدبي، الكاهن

ويليام تمبل، وسير ويليام هوريز والدمويند مالون. وكانت تعليمات بوزويل تقول أن هؤلاء الأصناف الثلاثة ينبغي أن يقرأوا مذكراته الخاصة وأوراقه وأن ينشروا كل ما يقتضونه هاماً ويستحق أن ينشر. وقرأ الثلاثة ما وجدوه من أوراق، ولكن من الواضح أنهم قرروا أن المادة كانت إما شديدة الإملال، وإما أنه تصدم الشاعر والأدباء إلى درجة أنها لا تستحق أن تنشر. وبعد مقابلة ماركولي القائلة ضد بوزويل (١٨٤٢) هبط رصيد الأخير هبوطاً شديداً حتى لقد نسي تقريباً. وكانت السيدات الفيكتوريات من أسرته، اللواتي كن من حين إلى حين يلقين نظرة سريعة على الأوراق، يشعرن بالصدمة إزاء ما رأين، حتى أنهن شعرن بما يجرر لهن ترويح الساعة تقول بأن مذكرات بوزويل قد أحرقت ويستطيع شره أن يدرك تأثير حقيرة مثل الفقرة التالية من المذكرات، (مكتبت في نوفمبر ١٧٩٢).

"التقطت هذا من شارع سترند، وذهبتا في عربة وفي نيتي أن أستمع بها منشراً أي باستخدام مانع للحمل). ولكنها لم تكن تحمل مثل هذا التمتع. فلهوت بها قليلاً. وتعمجت هي لحجم عضوي، وقالت أنني لو كنت قد فضضت عذرية أبة هذا لجعلتها تنزف. أعطيتها ثلثاً ثم أجبرت نفسي على أن أتركها تذهب دون أن أسها".

وفي منتصف سبعينات القرن التاسع، ذهب بير مكبيل هيل، ناشر كتابات بوزويل عن جونسون إلى بيت الأسرة في بلدة أوشينليك. لكي يعطى إلقاء نظرة على المذكرات، ولكنه لم يبق سوى الطرد تقريباً.

وفي عام ١٨٠٥، تلاش آخر خيط من ذكرى بوزويل ومن أسرته، وانتقلت ملكية المنزل وما يحيط به إلى اللورد تالبوت من مالاهايد، بالقرب من دبلن، وكان من بين ما انتقل إلى حوزته، الخزانة المليئة الصغيرة التي تحتوي الأوراق التي ذكرها بوزويل في وصيته. وظهر أستاذ أمريكي، يدعى شلونس شينكر، فاهته بوزويل وأعلن في المصنف الإبراهيمية ماليا أي مادة منسية له. وتسلم الأستاذ خطاباً من مجهول يقترح عليه أن يحاول البحث في قلعة مالاهايد. فأرسل خطاباً إلى مالاهايد لم يكن له تأثير. فقرر شينكر أخيراً أن يذهب بنفسه إلى هناك. وكان سعيد الحظ في هذه المرة. وسمح له اللورد تالبوت بأن يرى خانة صغيراً من مجموعة أوراق بوزويل. وبعد ذلك، ظهر ضابط أمريكي من رتبة ليوثالنت كوتونيل، يدعى رالف إنشام، وقد سمع عن الأوراق، ونجح في شرائها من لورد تالبوت في عام ١٨٢٧. وشرع إنشام من الباحثين، هما البروفيسور جيمس سكوت، والبروفيسور هيربرت بوتل، شرعاً في عملية

نشر تلك المادة الهائلة الحجم - التي تزيد على مليون كلمة وعند ذلك الحين استمرت مخطوطات بوزويل في الظهور. فقد تم العثور على صندوق قديم الملائس في قلعة مالاهايد وكان يحتوي على المزيد من خطابات بوزويل، بالإضافة إلى مخطوطة كتابه "رحلة إلى جزر الهيريلز مع الدكتور جونسون"، وفي عام ١٩٣٠، كان البروفيسور أبوت من جامعة أبردين يعمل في تحقيق أوراق السير ويليام هوريز، وهو أحد مبغضي وصية بوزويل. فاجتلف كمية كبيرة أخرى من الخطابات والمخطوطات. وكان من الواضح أن هوريز قد استعار بعضاً من الأوراق لكي يفحصها، تنقيهاً لما جاء في وصيته، ثم نسي أن يعيدها إلى أوشينليك. وفي عام ١٩٤٠، تم العثور - مرة أخرى - على المزيد من أوراق بوزويل في حظيرة كنيسة للأبقار في مزرعة مالاهايد، وكانت هذه الأوراق تتضمن كتاب "حياة جونسون". وقد جاءت الصفحة التي رأيتها في المتحف البريطاني من تلك المخطوطة. ولم يحدث أبداً أن قرر أحد مكيف وصلت بعض أوراق بوزويل إلى حظيرة للأبقار.

من الواضح أن أوراق بوزويل كانت قد بعثرت وتفرقت في أماكن متناثرة. وفي الحقيقة، فإن أول ما اكتشف من أعماله ظهر في عام ١٨٥٠ على يد اليوجور ستون في بلدة بولوني، وكان قد اشترى شيئاً ما من دكان يقال، فوجد بضاعته قد لفت في ورقة مكتب عليها خطاب موقع باسم "جيمس بوزويل" وكان في مقبور ستون أن يشترى حكومة مكاملة من الخطابات التي كتبها بوزويل إلى النفس ويليام تمبل - وهو كلهم كان بوزويل قد اعترف أمامه بأقبح أعمال حياته - ثم قام ستون بنشرها بعد ذلك بعد أن نقحها وهنئها وحذف ما كان فيها من فحش. ويبدو أن تلك الخطابات كانت قد وصلت إلى بلدة بولوني على أيدي ابنة تمبل التي كان زوجها النفس قد انتقل إليها في عام ١٨٢٥. وحينما مات، بيعت أوراقهما - أو أتعطيت إلى تاجر من تجار ورق الف باعهما بدوره للنقل.

إن الفناء آثار التاريخ تعقد لأوراق بوزويل حملني أدرك الصاعب التي قد أوجهها في طلب حقيقة إيرمووند دونسلي. فمن الواضح أنه ما لم يكن الحظ خلقي فإن أي قدر من السير والإسرار والتأثير لا يمكن أن يكون متصلاً على الإطلاق. ولكن كان من الغريب أنني كنت أملك إحساساً غريباً بالثقة، ربما كان ببساطة راجعاً لاهتمامي العميق والبالغ بدونسلي وبأشب الرحلة التي يستمتع إليها، فهو استمتعنا بملك وغوته، فإن كتاب القرن

الثامن عشر: عموماً حكايتهم لا يرتفعون إلى أن نصفهم بالكتاب. وهو واقعاً السبب الذي يقف خلف عدم دراستي لهم، فقد كانوا مغبين للأمال بشدة.

وعلى أساس ما أخبرني به سو وورثينغتون، افترضت أن جيرمي يعرف أحد أفراد أسرة تالينوت، أو ربما كان يعرف الشخص الذي اكتشف الأوراق في حفرة الأبقار. وحالاً ظهر جيرمي على باب المسكن، سألته:

«ما اسم صديقك الذي عثر على بعض أوراق بوزويل؟»

«أوي، إنه لم يعثر عليها بالفعل في الحقيقة. وإنما عثر عليها شخص يدعى أورورك في بلدة بورتمارنوك.»

«لم يعثر عليها في مالاهايد؟»

«كلا. ليس في مالاهايد، رغم أنه من المؤكد جداً أنها جاءت من مالاهايد، فعلى قدر ما أستطيع أن استنتج، كان فنس متقاعد يدعى أورورك قد استعار بعضاً من أوراق روزويل في أثناء الحرب العالمية الأولى، ولكن هذه الأوراق لم ترد إلى مكانها أبداً. وقد عثر عليها ابنه بعد وفاته.»

«لماذا حدث لها؟»

«حسناً، اسمع، إنها تحت يدي شخص عجوز غريب مجنون يدعى إيزاك جينكينسون بيتس، ويعيش في دبلين. وابن أخيه هو أحد طاقم الاختبار في مصنع التخمر عندنا وقد أخبرني ذات يوم بأمر تلك الأوراق.»

«هل رأيت هذه الأوراق بنفسك يوماً؟»

«كلا. إن الولد العجوز شديد الحرص عليها. ومن الواضح أن هذه الأوراق مملوكة في الحقيقة لزرعة مالاهايد - أو ربما كانت من حق تلك الجامعة الأمريكية التي اشترت الأوراق.»

«ولكن لا تعرف أي شيء عنها؟»

«ليس الشيء الكثير، ربما عدا أن بعض محتوياتها دأرة إلى درجة كبيرة.»

«هذا يبدو غريباً. أعني، ماذا يمكن لقسيس أن يفعل بمثل تلك الأوراق؟»

«ربما كان رجلاً عجوزاً سيئ الخلق أو قذر التفكير.»

«هل تعرف عنوان تلك الشخصية التي تدعى جينكينسون؟»

«لعمري ليس تحت يدي الآن. ولكن علي أن أطلب دبلين بالتليفون يوم الاثنين -

وسوف أسأل هيرد - وهذا هو ابن أخيه.»

وتوقفت العملية عند هذا الحد في عطلة نهاية الأسبوع. وكنت أعرف أن الفرص الناجمة من رؤية الرجل العجوز محدودة، إذا ما كان حريصاً بالدرجة التي ذكرها جيرمي، ولكن لم يكن هناك سوى أمل واحد. وهو أن يمارس ابن أخيه عليه نوعاً من الضغط.

- ٧ -

□ لم تكن تلقضي عدة أيام حتى اتصل بي جيرمي من مكتبه، وكان قد تحدث لقوة مع ابن أخيه الرجل العجوز. وقد أكد هيرد أن جينكينسون بيتس كان بالغ الحذر والحرص في مسألة اطلاع أي مخلوق على المادة التي يملكها. ولكنه من خلال الحادثة، كان قد ذكر شيئاً لآح أن فيه شيئاً من الأمل. كان بيتس شديد الاهتمام والتعلق بجرائم القتل. ولذلك فإنه قد لا يستبعد أن يكون قد قرأ كتابي "سوسيولوجية الجريمة العنيفة". والفرح جيرمي أن أكتب إليه رسالة حول موضوع جريمة القتل في أيرلندا في القرن الثامن عشر، وأن أحاول التعرف عليه عن هذا الطريق. وأعطاني جيرمي عنوان بيته في شارع باجوت في دبلين.

ولم يكن لدي ما أفعله أكثر من هذا في لندن. فأمضيت هناك يومين آخرين، قابلت خلالهما بعض الأصدقاء. وذاولت الغداء مع أحد الناشرين، وشربت الكثير من "الكوكتيلات". ولو كنت في ظروف عادية لكنت قد استمتعت بالتغيير الكامل للحج الذي عشنه أثناء جولة المحاضرات، ولكنني كنت عاجزاً عن التفكير في أي شيء باستثناء دونيللي. كتبت خطاباً إلى "ملحق التابز الأدبي" حول اهتمامي بدونيللي، وأمضيت أمسية عقيمة في الصحف البريطانية محاولاً أن أعرف إن كان إيزاك جينكينسون بيتس قد كتب في حياته أي

كتاب حول جرائم القتل، ولو أنه قد كتب مثل هذا الكتاب، فإنه ليس موجوداً في مكتبة المتحف. وفي صباح يوم الأربعاء، اصطحبنا مو وورثيلفتون في سيارتها إلى مطار لندن لكي نلتحق بالطائرة المتوجهة إلى شانون. وقبل أن نغادر المنزل بلحظة واحدة، اتصل جيمس بالتليفون وطلب أن يكلمني. قال:

"كنت أتكلم الآن لتوي مع جيم هيرد مرة أخرى، وتذكر شيئاً ربما أعانك في محاولة اقربك من بيتس العجوز، من الواضح أن الرجل العجوز يؤمن بأن هاتل "جزيرة آي" الأيرلندي كان بريئاً، فهل تعرف أي شيء عن تلك القضية؟"

"أتذكر عنها القليل، ثمة رجل يدعى مكرون".

وكانت هذه المعلومات ثمينة للغاية. لحظنا بطائرتنا في منتصف النهار، وهبطنا في شانون بعد ساعة واحدة بالضبط، وكان توم مكيني السؤول عن ماوى السيارات الذي نحتفظ فيه بسيارتنا، قد قاد السيارة القديمة إلى المطار لكي يقابلنا. وبعد ساعتين صكنا قد عدنا إلى موكوللان.

ثمة إحساس هائل بالراحة في العودة إلى البيت بعد رحلة طويلة. إنني أحب أيرلندا، الصوفي الضيقة، والحد الصغيرة القديمة، وخضرة الحقول التي لا تسبق، والسحب المنخفضة والبحيرات الغائقة. بدأت أشعر بشيء مثل الكراهية إزاء دونيللي، لأنه مكان يمنهني من الأسر خاء الكامل لمدة أسبوع أو نحو.

يقع منزلنا على بعد نصف ميل خارج موكوللان، على ناصبة حارة شديدة مبلطة بالأحجار تتحول إلى مجرى مائي في فصل الأمطار. والنزل مسكن خوري بني في منتصف القرن الثامن عشر، وشيد من الحجر الجيري الرمادي اللون، وقد غطيت الجدران بنياتي الحزاز واللبالب المتسلقين. صكنا قد اشتريناه في عام ١٩٦٢، ودفعنا ثمنه من مستحقاتي من كتاب "اليومية الجنسية". وفي أثناء غيابنا، كان زوج ديانا السابق، روبرت مكريستين، يرعى المنزل بدلاً منا. والذي كان قد أصبح منذ عام ١٩٦٠ "مؤلفاً موسيقياً مقبهاً" في عدد من الجامعات الأمريكية، وكان قد حقق نجاحاً هائلاً. وفي الخريف الماضي، قرر أنه بحاجة إلى فترة طويلة من الوحدة لكي يؤلف موسيقاه، ولذلك فقد دعوانه للإقامة معنا. وكان يسكن علينا منذ شهر بنابر، وكانت مسز هيلي، زوجة الراعي الذي يسكن إلى جوارنا،

تعلموه أنه طعامه. وكان كيرستين قد رحل إلى دبلن قبل وصولنا بثلاثة أيام، فقد كانت التان من موسيقاه تعرضان هناك وكان عليه أن يقود الأوركسترا، وكان المنزل خالياً وممتلئاً بالهدوء. وكان مسز هيلي قد أشعلت النار في مدافئ حجرة الطعام وحجرة نومنا. أأضفت النار على الحجرات بريقاً مرحاً، كان منزلنا قريباً من لعممة على النوام، لأن الأشجار العالية تحيط به من ثلاثة جوانب كما كانت جدران بعض الحجرات مغطاة بخشب الماوجي الأسود، ولولا الأسواء الكهربائية، لكان صالحاً لأن يكون مسرحاً لإحدى روايات لوفاتو^(١).

ولفت وراء نافذة حجرة نومنا - وكانت موسيقي تتقافز على السريبر، فتجعل لواليه تنثر - ورحت أنظر إلى غابة "لوف سكوير". كان هناك غيم واطل قليل بدا انقل قليلاً من الضباب، ولاحظت الأشجار، براعمها البازغة، دافئة مبلولة. إن الجزء الذي نعيش فيه من أيرلندا، يتمتع بخاصية "تأويمة"، حتى أن زوار منزلنا يجدون أنفسهم قادرين على النوم لمدة اثنتي عشرة ساعة يومياً على الأقل، ثم يظلون يتشاميون حتى الساعة الرابعة عصراً. بينما صكنا أقف وراء النافذة، وضوء النار يراقص على الجدران، شعرت باسترخاء هائل. بتناسب أو بقوى وحجم الإجهاد الذي تملكني في جولة العاصرات التي قمت بها أخيراً، حتى بدأت لي مشاعري كما لو كانت تفرق في فرائش عميق من الري، وطفى علي إحساس عظيم من السكينة والشعور بالعزلة. وخطر لي فجأة أنه من المحتمل أن يكون إيزموند دونيللي قد أطل على هذا المشهد، منذ ما يقرب من القرنين، فرأى الكثير مما أراه أنا الآن، ثم ذهبت ما أكده لي فليشر من أن دونيللي قد اغوى ابنتي القسيس المحلي غير الشرعيتين. وهو الأب ريوغان، شعرت بأنني اضطرب وأعجز عن التفكير. لو أنها كانت ابنة واحدة - فتاة واحدة - لكان الأمر مفهوماً، إنها فتاة ريفية بريئة جميلة، ربما يكون قد قام على تربيتها مزارع من الجيران أو راع للأغنام أو ربما يكون هذا الراعي من أسلاف سين هيلي)، ومن المحتمل أن تكون هذه الفتاة قد رأت دونيللي وفقاً لي دسكان البقال في القرية يطلب زحاجة من الويسكي أو الجبن فسحراها وطلب منها السيد شلبي الذي يرتدي ثياباً أنيقة. وربما يكون دونيللي قد نظر إلى الخدين التوردين المتفجرين بالصحة، وفكر في النعمة التي يمكن أن يحصل عليها لو أنه رفع طرف الثوب الطويل المنسوع من الثيل وجرى بيده على

(١) جوزيف شريدان لوفاتو ١٨١٤-١٨٧٢، كتاب رولي، أيرلندي، الشهير بروايته "العم سابلان" عام ١٨٦٥

الجسد الجميل كما لو كانت الفتاة جواناً أحسن تدريبه. لو كانت الحكاية قد خرت على هذا النحو لكانت قد أصبحت طبيعية ومبهجة، ولكن إغواء فتاتين إنما يدل على نوع من النزعة الجنسية، وخضوع مطلق للرغبة في التملك والانتصار.

فجأة قالت موبسي، "باب. أيمكنني أن أستحم الآن؟" فقطعت سلسلة تفكري. خلعت لها ملابسها، ووضعتها في حوض الاستحمام. ثم هبطت إلى الطابق الأسفل لكي افتح زجاج نبيذ بورجوندي التي جئت بها من كاليفورنيا والتي كنت قد وضعتها إلى جوار النار. كنت قد احتفظت بها طوال مدة طريق العودة حتى أتمكن من الاستمتاع بشربها في حجرة الجلوس الخاصة بي. وضعت اسطوانة موسيقية على الجاكي - كونسرتو الكمان والأوركسترا - لندليوس - ثم تركت نفسي لكي أغرق في حالة من الكابة الناعمة الغامضة. كان النبيذ دافئاً دهنًا خفيفاً للغاية. ويقول أكثر الخبراء في شؤون النبيذ أنه لا ينبغي للمرء أن يعرض النبيذ مباشرة لمصدر الحرارة، ولكنني أجد أن تعرض النبيذ العادي للنار المباشرة لمدة عشر دقائق لا تؤدي إلى أي ضرر - صيبت لنفسي كأساً كبيرة، وجزعت نصفها مرة واحدة - وهذه هي طريقي في شرب أول كأس من النبيذ في المساء. فهو - بهذه الطريقة - يطفئ الظلمة، ويمنح حاستي التذوق والشم أفضل ما في نكهته ورائحته. وينتج على الفور ومضة من البهجة. كانت حقائبنا لا تزال متناثرة إلى جوار الباب، دون أن تفتح، ولكنني أرقت أن استمتع بميزة العودة إلى بيتي. تتمتع حجرة جلوسنا برائحة متميزة ليست سيئة - تماثل إلى حد ما رائحة الكتب القديمة. وكانت ديانا هي من اشترت معظم أثاثنا في المزادات العلنية المحلية - وهي تحب حضور عمليات البيع بالجملة وبالأزلة - وليس في هذا الأثاث قطعة واحدة يمكن أن توصف بالحداثة. وإذا نظرت حولي، خطر لي أنه من المحتمل أن يكون إيزموند دونيللي قد جلس في حجرة تماثل هذه تماماً، وأنه رغم كل ما أعرفه، ربما يكون قد جلس في هذه الحجرة نفسها. لمحت يدي ففتحت إحدى حقائب السوق التي كانت ديانا تحملها في الطائرة، وعثرت على المخطوطة المكتوبة على الآلة الكاتبة لقال دونيللي "رفض لفلسفة هيوم" وفتحتها كفيهما اتفق. قرأت..

".. إنني لا انتقد منطق مسر هيوم، وهو منطق متفهم من مختلف جوانبه، وإنما أزعج أن مزاجه من نوع يمكن أن يخفي عن صاحبه صوراً معينة من الأحاسيس. يستطيع منطوقه أن يزيل من الوجود مظاهر السيميائيين وأمالهم، ولكن، ما الذي يعرفه عن رؤاهم؟..."

توقفت عن القراءة لكي أفكر في تلك الجملة. فكان من الواضح أنها تستحق "هامشاً" نقدياً، يشير إلى التشابه بينها وبين فكرة بليك،^(١)

كيف لك أن تعرف أن كل طائر يقطع طريق الهواء والريح

إنما هو عالم هائل من البهجة، مخلق أمام حواسك الخمس؟

عند ذلك بدأت أتساءل مرة أخرى متعجباً، كيف أمكن لنيل هذا الرجل أن يكون صورة ممسوخة من (كازانوفا) يتباهى بفزواته النسائية، ويطارد النساء، وأن يكون كما وصفه جونسون (واحد من جماعة العنقاء ذوي النوى العريضة للنعمة بالشر)، وأن يكون من جانب آخر يمثل هذا الفكر والفلسفة التي تنير إليها مقالة (رفض لفلسفة هيوم).

انتهت الاسطوانة الموسيقية، وذهبت لقلبيها على وجهها الآخر، وللحظة نظرت إلى الخارج من النافذة التي تطل على الغرب. كانت السحب المنخفضة معلقة فوق تلال "إياركوت"، ولكن السماء وراء التلال كانت مشرقة. وعلى الجانب الآخر من التلال، انتصب صنف من أشجار الحور مرتفعاً على صفحة السماء. للحظة علت إلى غرفة النوم في لونغ آيلاند، أتذوق النكهة الدخانية اللطيفة التي عرفتها في حلمتي بيفرلي الصغرى وما شعرت به بعد ذلك من انفجار الدخان بين الأفخاذ، بينما كنت أنظر من فوق كتفها إلى الأشجار الباسقة فوق قمة التل الصخري. أرحمت جانباً كتابتي الغامضة، وتمسكت بعطر الصلابة الذي كان يقوم ويهوم فوق أشجار الحور، وعرفت مرة ثانية في تبصر داخلي مفاجئ شامل أن الكائنات البشرية لا ينبغي لها "بدءاً" أن تقبل مقومات أو مكونات الوعي المباشر الإنشائي عن اللحظة القائمة، وأن الأفاق الأعظم والأرهب تقع دائماً هيما وراء حدود الأحكام والتقديرية الفورية المباشرة. للحظة كنت أنا إيزموند دونيللي، أتساءل عما عرفه هيوم عن رؤى السيميائيين. اخففت التناقضات، وفجأة فهمت دونيللي. فبالنسبة له، لم يكن السيميائي هو من يحاول تغيير طبيعة المعادن، وإنما هو من يحاول تغيير طبيعة الوعي، وكان الجنس هو حجر الفلاسفة الذي كان يوسعه أن يغير العادن الوضيعة للوعي العادي فيحولها إلى رؤيا.

(١) ويليام بليك ١٧٥٧-١٨٠٧ شاعر ورسام صوفي إنكليزي. درس الرسم وقرأ الحفر، تميز بأسلوبه الرمزي الذي عزله عن معاصريه، إلا أنه بات من أهم بناء النزعة التأملية في الفلسفة والفن الغربيين في العصر الحديث.

صروحت موبيسي: "أبدا، أريد أن أخرج". ناديت ديانا فأخرجتها من مطبخها وأرسلتها إلى الصابق الأعلى. سكنت أريد أن أثبت هذا الإمراك المتبحر الداخلي وأن أكتشف فضائته. لأنه كانت هناك - لا تزال - مشكلة واضحة. لا يستطيع أحد أن ينكر أن الجنس يملك هذه القدرة على رفع نوعي إلى درجة أعلى من الحد. فمئذ لورنس، أصبح هذا شيئا شاعرا ومعروفا من ضمن الأشياء الشائعة في القرن العشرين. ولكن لورنس عرف أيضاً سراً آخر من أسرار الدافع الجنسي، "إن ما تعجز نساء كثيرات عن إعطائه. تستطيع امرأة واحدة أن تعطيه". ومئذ أن بدأت حياتي مع ديانا، اضطلع اهتمامي باغواء النساء، حتى أصبح مجرد نوع من الفضول وحسب الاستطلاع. بوسعي أن أنظر إلى فتاة جميلة فأتساءل بيني وبين نفسي عن نوع جمالة الصدر والسر اويل الداخلية التي ترتديها، أو عما إذا كانت ترفد في سلبية على الفرائس أم تتحرك بعنف. ولكن هذا الفضول لم يكن من القوة بحيث يمكن أن يؤدي إلى المتابعة العملية. بل إنني في الأعوام الأخيرة، سكنت أدهش دائماً إذ أكتشف ميلاً متزايداً إلى رفض تلك الأشكال غير الضارة من الإشباع المتبادل التي تقدمها إليك علاقة ما ولكن "دون تدنية أية أوتار". وقد حدثت في إحدى الحفلات أن قالت لي فتاة ما بصراحة، "لأن لا ترفد معا في هرائس بعد ذلك هذا أفضل من مقارسة المادة السرية في فراشين منفصلين" ولكنني في الصباح، أدركت أن عدم وجود أية أوار لم يكن صحيحاً صحة مطلقة. لقد تدخلت جسدي، وبالتالي فقد تدخل عالنا أيضاً. إن عالها لم يرق لي بشكل خاص. فقد كان عالنا شديد الغموض والمضم. ومثل كوكابين تقارباً أكثر من اللازم، كان كل منا قد تسبب في نوع من الاضطرابات الأرضية عند الآخر. وأنا لم أعد قادراً على أن أتذكر، كيف كانت تبدو في الفرائس. ولكنني أستطيع أن أتذكر بوضوح حكايات معينة سرتها علي. حول فتاتها في زواجها، وهي الحكايات التي ما زالت ترعيني. ولقد كان من الأفضل لي لو أنني تركتها تدور في فلكها الخاص.

وهذا هو ما يجعلني أشك في صدق كازانوفا. إنه لم يكن غيباً ولا محروماً من الإحساس - وهذا واضح إلى حد كبير. ولكن ليس هناك سوى القليل من الأدلة في "المذكرات" التي توحى بأن تلك الاضطرابات المتبادلة قد حدثت. إن هناك ما، غاية و"مقبولة"، ترفض الحريات التي يحاول أن يمارسها معها. حتى تستطيع مجاملاته وملاطفاته أن "تبدل غضبها إلى انفعال أكثر رقة". وبعد أن تجعله بعداً بالاً بهجرها بعد ذلك، تسمح له بأن يعمل أربطة مشدداً الداخلي. وحتى إذا كانت الفتاة عذراء في السابعة عشرة من

عمرها خرجت نثوها من مدرسة النير، لا نلمح هناك أي إحياء بالصعوبات المعتادة، الجنسية والفسية، لا نجد سوى تلميحات غامضة عن تمضية "عند ساعات لذيذة" أو "نسلم أنفسنا لسوة من التمتع ثلوم حتى ابتلاج الصباح". هناك جو أشبه بجو الحلم يخلق حول جو هذه "المذكرات" بانكاملها.

- ٨ -

□ لم يكن دونيللي صورة من "السنبور حاك كازانوفا ذي سينكالت"، وكان هذا واضحاً. وكان الاحتياج إلى اكتشاف المزيد عنه قد أصبح شبيهاً بالتوتر الجسدي. ذهبت إلى حجرة الطعام، حيث احتفظ بكتبي التي تبحث في القانون وعلم الإجرام. ورجت أبعك حتى عثرت على القصة الكاملة لقضية "قتل جزيرة ألي" الإبرنسدي. وكانت قضية عادية بقدر تكبير. كان ويليام بورك كيروان هنائاً عاش في بلدة "هوت" مع زوجته في عام ١٨٥٢، وفي عسر يوم من أيام سبتمبر، استأجر ملاحاً يقاربه، لكي يجلب بهما إلى جزيرة "كي" الإبرنسدي، وهي الجزيرة الجذابة الصغيرة التي تقع على بعد ميل من ميناء "هوت"، وهي على مرمى البصر من مالابايد. كان يوماً هادئاً الحو. وفي الساعة السابع من مساء، سمعت صرخات صادرة من الجزيرة. وفي الساعة الثامنة، وصل اللاح يقاربه مرة أخرى إلى الجزيرة، فوجد كيروان ما زال مشغولاً برسومه. وهذه واقعة تثير الشكوك، فلذا إن الظلام كان قد حبط بالفعل. وقال كيروان أنه ليس وثقاً من المكان الذي ذهبت إليه زوجته - وهرض أنها كانت في مكان ما على الجانب الآخر من الجزيرة، لا تزال تسمح. وبعد بحث عثروا عليها في بركة صخرية صغيرة مسحلة، وقد امتلأ وجهها بكدمات كثيرة، وامتلات رنتاها بالداء. ورأهم وهنوح البينة على أن موته كان نتيجة لسكت عارض. فإن الظروف كانت مثيرة للساؤل للدرجة التي دفعت إلى تشريح جسدنا. وتبين مقبرون متهمه قتل زوجته على ليس الأدلة المستمدة من الظروف نفسها، وكان قد زعم بأنه لم يسمع صرخات لتي مكان من المكان أن تصيح من الفاضل. وكانت له عشيقة وضعت له طفلاً في ميلين. وقد اعتقد كثير من الناس أنه بريء، لم تستدل حكم الإعدام الصادر ضده بمحكم بالتسجين مع الشغال الدالة. وأخرج بعد هذا من السجن لكي يتزوج عشيقتة، ثم هاجر إلى أمريكا.

ذهبت إلى غرفة مكتبي، وأشعلت النفاة الكهربائية، وكتبت على الآلة الكاتبة خطاباً إلى إيزاك جينكينسون بيتس. لأقول له أنني أنوي أن أكتب عن قضية قاتل جزيرة "كي" الإبرلية في مكتب عن الجريمة وتساءلت إن كان في مقدوره أن يشرح لي سبب اعتقاده في براءة كيروان. ثم خرجت فهبطت النزل وأرسلت الخطاب بالبريد. وبعد ذلك، شعرت بما يكفي من الأسرءاء لكي أقرأ لوبيسي قصة عن الأرتبة جيز.

- ٩ -

■ استيقظت مبكراً في صباح اليوم التالي، وتمسّيت طويلاً حول بحيرة "روس" وحينما عثرت أخيراً على ديانا، اتصلت بك ميس دونيللي من جروم وترينك أن تتصل بها لاحقاً.

- هل كانت لهجتها ودية؟ -

- بشكل ما، تقول إنها كتبت لك خطاباً.

كان هناك صندوقان كبيران من الورق اللقوى، مليئين بالرسائل التي وصلت في أثناء غيابنا، ولم تكن لدي حتى تلك اللحظة أية طاقة لفحصها جميعاً، وبينما راحت ديانا تعد لي إهطاراً، من البيض والباكون، أقرعت أنا الصندوقين على أرضية غرفة الكتابة، فبدأت لوبيسي أن تخرج بنفسها كل الرسائل التي وصلت إلى ناشرتي أولاً ثم أعاد توجيهها إلي - فإن مثل تلك الرسائل يمكن أن تنتظر. فتحت صندوقين صغيرين من التسجيلات الموسيقية، وعدة كتب من ناشرين يأملون لو أنني اقتطعت منها فيستخدمون ذلك في إعلاناتهم (ولأنهم نادراً ما يرسلون إلي الكتب التي أتمنى أن أحصل عليها مجاناً، لا يرسلون سوى الكتب التي تتعرض لها القالات الصحفية بشكل سيئ) وأخيراً عثرت على الخطاب الذي يحمل خاتم بريد "لايم ريك"، وقد كتب عليه العنوان بخط دقيق واضح.

ولابد لي أن اعترف بأنني لم أكن صريحاً معها صراحة ككاملة في الخطاب الذي أرسلته إليها في نيويورك. فأنني لم أر فائدة من أن تصفق الأيوب في وجهي منذ البداية. ولهذا

فقد أخبرتها ببساطة بأنني سمعت عن إيزموند دونيللي في أثناء جولة محاضراتي، وتركت لها أن تستنتج أن شخصاً ما من بين المستمعين إلى إحدى المحاضرات قد ذكر الاسم أمامي - وبني أدت أن أكتب عنه مقالاً أو فصلاً في كتاب سأنشره في المستقبل. ثم خاطرت بذكر أنني قد تبادلنا حديثاً مع الكولونيل دونيللي وأنني رأيت عنده نسخة من مذكرات رحلات دونيللي الكبير.

جعلني ردها أشعر بالرجل من نفسي، فإنها - بشكل وفور وإن لم يكن ودياً - تقول إنها كانت سعيدة عندما سمعت بأن جدها الأكبر لم يكن قد نسي بعد شيئاً كاملاً، وإنها قد ألفت عدد سنوات في محاولة إقناع أحد الناشرين لكي ينشر طبعة جديدة من المذكرات. وأبالت لها وشقيقتها ستيفنجان لرويتي في أي وقت ذهب فيه إليهما، وفي نفس الوقت فإنهما ستكتبان للمحامي الذي يحتفظ بأوراق دونيللي في خزانة خاصة لكي يأتي بتلك الأوراق إلى المنزل...

ومرة أخرى شعرت بوخزات الضمير، وأجناحتي أحساست نايل إلى تجاهل الأمر كله ولكنني تذكرت بتظرة إلى الخطوط الذي كتبت قد نرعت عنه غلافه بالفعل، وقررت أنه سيكون من السخف أن أتخلي عن مغامرة مكانت بداياتها متمرة إلى هذا الحد. اتصلت بمرسكز التحويل الهاتفني وطلبت منهم أن يوصلوني برقم الأنسة دونيللي، أحيايت صوت هادئ جاف وإن كان إنكليزياً بقوله.

"هـ، مستر سورم. مكان عطفاً منك أن تتصل بي لقد أخبرتني زوجتك بأنك لم تعد من أمريكا إلا بالأمس، وفي وقت متأخر لابد أنك مجهد تماماً".

قلت أنني أشعر بأنني بخير، وسألته متى تتوقعان وصول الأوراق من مكتب المحامي.

"أوه، إنها هنا الآن. لقد كان سريعاً جداً، وسكنا نقرأها الآن. إنها مادة أخاذة ببساطة. كيف تتوقع أن تسافر إلى هنا؟ بالقطار؟"

وحينما قلت أنني سأسافر بالسيارة سألتني لماذا لا أقود سيارتي الآن فوراً لكي أتناول معهما طعام الغداء. نظرت إلى ساعتني وقلت لها أنني إن فعلت هذا فسن أصل قبل العصر، وقبل أن أنهي المكالمة قالت،

"أمل ألا تستاء إذا سألتك سؤالاً واحداً" وغامس قلبي في صدري بينما قالت: أمل ألا تكون مهتماً بأية قصة من الأفاصيص الرديئة التي تحكي عنه؟

"أفاصيص رديئة؟" هكذا تساءلت وأنا أشعر بنفسي وأهمل في شبكة عنكبوتية من الدورات والتصاف الحقائق، ولكنها قالت:

"لقد رأت شقيقتي واحداً من كتبك في المكتبة، إنه كتاب عن جريمة القتل، فأمل ألا تكون مهتماً بالشائعات البلهاء عن دونيللي واللاذي ماري جليبي؟"

وكنيت قادراً على أن أقول، مع إحساس هائل من الارتياح، بأنني لم أسمع أبداً شيئاً من تلك الشائعات. قالت في صوت يشبه صوت رجال الأعمال:

"حسناً، إنني سعيدة بأن أسمع هذا."

سمعت فرقة صغيرة، ثم سمعتها بصيخ: "ثيذا، هل تسمعون على الخط الآخر؟"

"أجل، يا عزيزي."

"لا أريدك أن تفعل ذلك، فهذه عادة تبغث على الضيق."

وهذا القتل الخطأ نظرت في الساعات عدة لحظات متسائلاً، ثم وضعت في مكانها.

- ٩ -

□ قبل أن أغادر المنزل، اتصلت بصديق قديم من جامعة غالوي، وهو المروفيسور مكيفين روش، وقال لي مساعدة أنه في بيته، فالتصت به هناك.

"هل تعرف شيئاً عن إيزموند دونيللي؟"

"الشخص الذي كتب كتاباً عن اقتضاض العذاري؟"

"أعتقد حقاً أنه يكتبه."

- ١٠ -

"لا أرى سبباً يمنع من الاعتقاد في ذلك. الصفحة الأولى من نسختي تحمل اسمه."

"هي لتيك هنا؟ يمكنكني أن أتى لكي أراها؟"

"بالطبع، متى تحب أن تأتي؟"

قلت: "الآن". وفي خلال خمس وأربعين دقيقة كنت في غرفة مكتب مكيفين المصلة على خليج غالوي، والتي يمكن أن أرى منها مشهداً جميلاً لغابيتي إينيشمان وإينيشمور.

كنت قد قررت أن أمضي في سياستي القائمة على الصراحة، لأن الأخبار تنتقل بسرعة في أيرلندا. وهكذا، بعد أن تبادلنا التحيات، وقيمت ككاساً صغيراً من نبيذ "باشميل"، تناولت مكيفين مخطوطة "رفض فلسفة هيوم" وقلت له أنه قد طلب مني أن أعددتها للنشر وأن أكتب لها مقدمة. قال:

"إنها قصيرة، أليس كذلك؟"

"أمل أن أعثر على أشياء أخرى، خطابات ومذكرات، التي ذاهب الآن لكي أوزر الأستاذين دونيللي في بالي كاهان."

ناولني الكتاب ذا الغلاف الورقي الذي كان موضوعاً على مكتبه، كان صادراً عن دار "أوبليسك" للنشر في باريس، بعنوان: "عن اقتضاض العذاري. تأليف: إيزموند دونيللي". وكانت هناك ملاحظة تمهيدية صغيرة موقعة باسم "هنري ف. مبلر" تكرر الحقائق التي عرفتها بالفعل عن دونيللي: تاريخ مولده ومكانه، وإشارة إلى مذكرات رحلاته، ثم يقرر حقيقة أن هذا الكتاب كان قد نشر بالألمانية وصدر عن دار نشر "بروكهوس" في لايبزيغ (وهي نفس الدار التي نشرت مذكرات كازانوفا) في عام ١٨٢٥، ثم قام ناشر هولندي مجهول بنشر نفس الكتاب - في ترجمة عن الألمانية - بالإنكليزية في عام ١٨٦٣، فتحت الكتاب على فصل عنوانه: "حول خرافة أن شكل النساء منشابهات في الظلام".

روبين، أؤسل إليك يا سيدي، أأكمل تعاليمك، لأنني متعلق بكلماتك تعلقي بمعرفة مسيري.

- ١٠٥ -

لورد سكويال، إنك تثير غروري، يا ولدي العزيز. ولكنني أجد جزائي الحق في تفاؤلك. معني على أهمية الحصول على هذه المعرفة الرقيقة. عالياً الآن أن ننظر في أمر الخرافة، التي روح لها كلود دي كوريبيون ومستر ككلياند. والتي عبر الناس عنها بالكلمات التي تقول "كل القطط في الظلام، رمادية اللون". يمكنك أن تصدقني في هذا الأمر، حينما نفت إلى الوراء نحو حياة بأسرها في معرفة النساء، لم أتمكن من أن أتذكر أن امرأتين منهما كانتا متشابهتين حينما تنفجر السفن، إنني لا أتحدث الآن فقط عن مناطق البهجة المتحفظة التي قد تكون ممثلة أو بارزة العظام، لحبيرة أو نجيفة، غائبة أو نافرة. ولكنني أتحدث عما ينبغي لي أن أعوده بالروح التي تقبم في هذا المكان. وليس هناك رجل طبيب الذهن يمكن أن يخلط بين نبيذ بروكولندي الداكن ونبيذ بورجو الأصعب، ويستطيع حتى الطفل أن يذكرك الفرق بين التفاحة والكمثرى، رغم أن ثمرة قد تكون ناعمة كثيرة العصارة، وقد تكون أخرى صلبة جافة. هكذا الأمر مع النساء. تماماً مثلما تحكم على مذاق النبيذ من خلال الجرعة الأولى، فإن النكهة المتميزة لفتاة ما يمكن أن تدرك بوضوح في حركة اللامسة الأولى حينما تستقبل الشفتان الورديتان الطوليتان الراس القطيعي بينهما. لقد عرفت خدمات كمن حاديات وطازجات، مثل تفاحة تأكلها تحت ضوء القمر، وأخريات كمن رطيبات ناعمت مثل كمثرى أو ثمرة خوخ. وأخريات ملمسهن صلب تستدير أجسادهن لحظة العناق، ولكن داخلهن كان حلو المذاق، مثل ثمرة شمام ناضجة...

وضعت الكتاب جانباً، ونظرت عبر المكتب إلى كليفين. الذي كان ما يزال مستغرقاً في قراءة مقالة "رفض لفلسفة هيوم". لو أنه قد رفع بصره إليه، لكنت جديراً بأن أقول، هذا شيء مزيف آخر. ربما يكون دونيلي هو كاتب الصفحة الأولى، لأنها تتميز بذلك الأفتحام السيكولوجي الذي أصبحت أعرفه وتوقعه عنده. ولكن الفقر، المكتوبة عين الشقيقتين تحمل نسبة من تأثير كتاب دي صاد "فلسفة في حجرة النوم". أما الجملة الأخيرة فتحمل أثراً أوباً عن النسوة التي لا يبرها حتى ما تتميز به من تبصر سيكولوجي واضح.

إلا أن كليفين رفع بصره عن المخطوطة بعد قليل، وصكت قد غرت ربي وقررت ألا أتكلم. فهو أنني وضحت الأسباب التي تدفعني إلى الظن بأن ما قرأته الآن كان عملاً مزيفاً. لكن علي الاعتراف بأنني أعرف المزيد من أعمال دونيلي، والتي نتيجة لغارنتي بأعماله التي أعرفها فإني اعتقد بأن هذه المخطوطة كانت عملاً مزيفاً. وهكذا، فقد أبيت - بدلاً من

هذا بعض الملاحظات حول ما في هذا الكلام من جاذبية. أما كليفين نفسه فكان مقتبصاً بمقالة "الرفض" وسألني إن كان له أن يأمر بنسخها، لكي يكتب مقالاً حول تطور أسلوب دونيلي.

ووعده بأن أتيح له فرصة الحصول عليها بعد أن أطلع الأتستين دونيلي على الموضوع ثم تركته واتصرف. كان النهار قد جاوز منتصفه، وكان علي أن أذهب إلى "ليمريك". وبعد أن جاوزت أورتور فقط تذكرت أنني قد نسيت أن أسأله إن كان يعرف أي شيء عن فضيحة ذكر فيها اسم لادي ماري جيلبي.

تركت ديانا ومويس في ليمريك حيث كان بإمكانهما أن يقضيا بضع ساعات في شراء الحاجيات والتجول بين البضائع، ثم ركبت السيارة عن طريق ككوراك. عبر ريف مسطح ناعس كانت خضرة كثيفة ساخنة قد جللتها تحت شمس إبريل الساطعة. توقفنا في بلدة "باللي كاهين" لكي أسأل عن قلعة دونيلي، فقيل لي إنني قد توغلت في الطريق إلى بعد مما كان ينبغي لي، وإن علي أن أعود ثانية صوب بلدة "دير" لكي أدور مع الطريق من ناحية معاكسة. وعلى هدي هذه التعليمات، تمكنت من التوقف عند باب قلعة دونيلي حوالي الساعة الثالثة.

ولم يكن البيت قلعة بالطبع. وإنما منزلاً من الطراز الذي ينسب إلى عصر الملكة آن، وقد شيد بأحجار فضية، وأحاطت بمدخله أعمدة كورينثية من سخور حفره. وكانت الجدران مكسوة بالسجاج، واكتسى المنزل بجو من الإهمال الشائع في المنازل الإيرلندية العظيمة، وبشكل خاص في مقاطعة "ككونوت، مونستر". فإني السلم اللطيف ذو الدرجات الحلزونية الأربع عشرة إلى الباب الأمامي. كانت سطوح الدرجات للحوطة غير مستوية حتى إنني تعجبت كيف يستطيع أي إنسان أن يصعد أو ينهد دون أن يلتوي ككاحله. كان نهر "ماي" يجري إلى جانب المنزل، وإطلال دير أبي تنتصب عند الأفق. وشعرت بالصدمة حين خطرت لي فكرة أن هذا المنزل كان يبدو جديداً وجميلاً حينما ولد فيه دونيلي - لأنه كان قد شيد حوالي ١٧٠٠، وأن الجدران لم تكن مكلفة بالسجاج كما هي الآن حينما كان هنا. كانت هذه "الذكري" أشبه بالفض إلى الوراء نحو الماضي، تولد عنها إحساس مزعج بحيزان الزمن السريع.

وقبل أن أبلغ قمة الترح، فتح الباب، وابت ورائه سيدة قوية تنبطة في ثياب ركوب الخيل، وكانت قد جمعت شعرها الرمادي بلون الحنيط فوق رأسها، ووقفت مياعدة ما بين ساقها مثل صورة لواء من سادة الريف في لوحة من لوحات رولاند سون، وكانت مصافحتها قوية وثابتة مثل مصافحة الرجل. قالت:

"أنا آين دونيلي، سعيدة لقايلتك".

كانت لهجتها تتطابق ولهجة الطبقة العليا من الإنكليز، مع لحة من اللهجة الإيرلندية تبتو في مخارج الحروف، ثم أضافت تقول: "يسعني، أنك جئت بالفعل".

كان المكان مقبضاً وبارداً، وبدأ في مؤخرته سلم صخيم كثير الدرجات يؤدي إلى الأقسام العليا من المنزل التي يبدو أنها لم تعد تستعمل. كان هناك قدر كبير من الرمير الذي يتنافض بغربة مع ورق الجدران الفيكتوري المتناثر في كل مكان. ولكن غرفة المكتبة الواسعة التي شادني إليها كانت تضم نأراً كبيرة في الدفأة، وكانت هناك سيدة أخرى تعمل بإيرتها إلى جوار النار، وإن لاحظت عليها سمات الرجولة هي الأخرى. قدمتها إلى السيدة الأولى باسم "ميس تينا". كانت ضئيلة الحجم، حلوة الوجه، ولابد أن الثياب النسائية كان يمكن أن تناسبها أكثر. وعلمت أن سرابيل الركوب الشفافة كانت بهدف الاحتماء من البرد. عرضها علي أن أشرب الشاي، ومضت ميس تينا لكي تعده. وقفت ميس آين أمام النار، وقد باعغت ساقها، ووضعت يديها وراء ظهرها، ودخلت معي في محاوراة عامة حول الحفص والريف وما إلى ذلك. ثم تكلمنا حول أمريكا، وبدأ عليها أنها شديدة التطلع إلى معرفة كل شيء عن أمريكا. وبعد عشر دقائق أو نحوها، قالت بطريقة عابرة أنها سمعت أن هناك من الأمريكيين من هو على استعداد لدفع مبالغ ضخمة من المال لقاء منازل من هذا النوع. قلت إنه من المحتمل أن يكون الأمر كذلك فعلاً، سألت، كم يدفعون؟ فحاولت أن أخمن قيمة المنزل بسرعة ثم قلت أن الشخص العادل من المحتمل أن يدفع خمسة وعشرين ألفاً لقاء هذا المنزل. سألت بسرعة، "جنيهاً أم دولارات؟". قلت، جنيهاً. وعند هذا بدا عليها أنها تفكر بجدية وباستغراق كاملين. وبينما كانت ميس تينا تصب الشاي، مستخدمة طاقم شاي جميل من القرن الثامن عشر من المحتمل أن تكون ككريستينا شقيقة روبين قد استخدمته نفسها، تبينت فجأة لماذا كانتا مهتمتين إلى هذا الحد، بعملية إحياء ذكرى أبرز مؤند دونيلي وإنعاش شهرته. لم يكن لهاتين الرأتين أي أطفال، فلماذا لا يبيعان هذا المنزل الضخم

عبر الريح، ثم يشريان شقة جميلة في لندن. وبدأ شعوري بالنضب: بسبب هذا البحث عن دونيلي - يتنافض. إن نشر كتاب، "مذكرات آفاق إيرلندي" يمكن بالتأكيد أن يزيد من شهرة جديهما أكثر مما يمكن أن يزيدها كتاب مذكرات الرحلات أو مقالة "رفض الفلسفة هيوم".

سألتني ميس تينا عن ككولونيل دونيلي، فأخبرتها بالقليل عن أطوار حياته في السنوات الأخيرة، وبدأ عليها الحزن الشديد، قالت أخيراً:

"يا للرجل الشكين، علينا حقاً أن نكتب إليه يا آين".

"ربما، يبدو أنني أتذكر أنه كانت هناك بعض الشائعات حوله، هل وجبته غريباً أو شاذاً يا ميس سورم؟"

قلت، "كلا، بأي شكل من الأشكال".

قالت ميس آين وقد غرقت في التفكير ثانية، "بالطبع، إنه ليس سوى ابن عم من الدرجة الثانية".

كان يوسعي أن أرى أنها تفكر في الزواج - ربما من أجل تينا. وخطر لي أن ككولونيل دونيلي ربما أعجب بآين، فقد بدت كما لو كان تملك يداً ماهرة في الإمساك بسوط الركوب القصير. وسجلت ملاحظة بامنية لكي أتذكر من بعد ضرورة خلق اتصال من نوع ما مع دونيلي.

قالت ميس آيني: "حسناً" إذا كانت زوجتك في إيريك، فإنك بالتأكيد لا تريد أن نخفي كل فترة ما بعد الظهر هنا فيما اعتقد. إن إيريك هذه بحق مكان مخيف، هناك الكثير من التهورسين اللاعين. لقد أحرقوا أحد أجدادي قديماً في عام ١٥١٠، إنه الأسقف دونيلي المعروف باسم جو القدس. لم ترق لهم مواقفه وأرائه السياسية".

قادتني وهي تتحدث إلى حجرة صغيرة ملحقة بالمكتبة. كانت هناك مدفأة كهربائية ذات قضيب معدني متوهج واحد، ولذلك فإن الغرفة لم تكن شديدة البرودة، كذلك فإن الحجرة كانت قد نالت شيئاً من دفء الشمس التي مالت إلى الغرب، على مائدة صغيرة كانت هناك مجموعتان كبيرتان للأوراق من النوع الذي يصنع بحيث يتخذ شكل

الكتاب. فتحت إحدى المجموعتين، فتسارعت نبضات قلبي وأنا أحاول التعرف على "الخط" الذي كتبت به الصفحة الأولى من الأوراق الصفراء الكبيرة الحجم. قالت من يميني:

"لقد وضعت قصاصات من الورق في الأماكن التي ظننت أنها قد تلحق أضراراً لكثير من غيرها. إنه يصيب في غاية الإبداع والجمال عندما يبدأ بالوصف. حسناً، سوف أتركك الآن مع المخطوطة، وسوف تظل تينا في المكتبة لكي تتابعها إذا احتجت إلى شيء ما".

تركنتي بعد هذا بمفردي. وبدأت أنا القراءة - بسرعة - على الفور.

"شارع جرانف شومير، ١١ سبتمبر ١٧٦٦.

(أي حينما كان دونيللي في الثامنة عشرة على الأرجح)

"بابا العزيز

كان خطاب التوصية الموجه إلى مسيو بليزيو مفيداً للغاية، وقد تناولت الغناء مع أسرته في الليلة الماضية. وهو يبحث إليك بأرق تمنياته وأفضلها. لقد عانى عمله من بعض الانعكاسات في الأعوام الماضية، ولكنه ما زال يعيش طبعاً كما تفرضه التقاليد والأوضاع المقررة تماماً. إنه يعتكف في حجرته في ساعة مبكرة بسبب إصابته بمرض النقرس، وقد اصطحبني مدام ليزيو وابتنتها اللطيفتان في نزهة على الأقدام على طول الحديقة التركية التي تبدو مقاهيها مناظر مذهشة ومتفردة إلى أقصى حد. هذه المقاهي لا تزدهم بالداخل فقط، وإنما توجد حشود أخرى خارجها وذاتة تطل من النوافذ المرتفعة أيضاً، يستمعون جميعاً في "فضول دون مبالاة" إلى مغنين وعازفين من نوع معين يمثلون على جمهورهم من ذوي المقاعد التي يحتلونها...

عبرت ما تبقى من الخطاب بنظرة سريعة. كان في مجموعه ممتعاً، يحتوي على مادة إخبارية من النوع الذي يمكن أن تتوقعه في كتابات هوراس وبلول أو آرثر بوتش، كان من الواضح أنه خطاب شاب يرغب بشدة في أن يؤكد أنه لا يضيع حياته ولا أمواله سدى ونظرت سريعاً إلى الخطابات الأخرى، ورحت أتقي خطاباً من هنا وآخر من هناك عشوائياً لكي أقرأه كله. ومن خلال القراءة، تعمق لدي إحساس بخيبة الأمل. لم يكن هنا شيء من النوع الذي لم يكن يوسعي أن أجده في "يوميات الرحلات". وفي الحقيقة، لا يمكن أن يكون

"ليس هناك في هذه الأوراق ما يشير إلى أن دونيللي كان "عضواً في جماعة المنقاء" يا ميول سريرة لا تغبو". إنما برزت من خلالها في صورة شخص المحترم الوقور".

قالت: "ووه، لا أظن أنه كان محترماً إلى درجة شديدة جداً".

"لم لا؟"

"ووه، لا أعرف. كانت هناك أقاصيص - شائعات، لا شيء مجدد تحديداً كاملاً. لقد أمضى أوقاتاً كثيراً في سويسرا وإيطاليا، اليس كذلك؟

وأنا أعتقد أن الناس كانوا انشراحاً إلى حد ما في ذلك الوقت".

قالت عبارتها الأخيرة في كتابة وحزن وهي تنظر من النافذة إلى النهر حيث كانت أشكال الشجيرات وجذوعها الطويلة منعكسة بوضوح. وبعد لحظة إضافية تقول:

"طبعاً، لابد أن الدكتور جونسون كان يقصد نوعاً من الثورية. فإن غلاف مذكرات إيزموند يحمل صورة لطائر العنقاء".

فكرت في هذا للحظة خاطفة. ثم قلت:

"كلاً، إن هذا مستحيل. لقد قال جونسون ملاحظته تلك في عام ١٧٨٢، وقد صدرت الطبعة الأولى من مذكرات الرحلات في عام ١٧٩١".

"لا أظن هذا صحيحاً، وأنا واثقة من أن لدينا طبعة تسبق هذا التاريخ. أسمح بأن تأتي لكي تبحث عنها؟ فعينان ليستا على ما يرام..

ذهبتنا إلى المكتبة. فقالت بغموض ودود تحديق:

"يبدو أنني أتذكر أن الكتاب موجود على أحد الرفوف العليا هذه.."

كانت الكتب تتصاعد إلى ارتفاع يزيد على عشرة أقدام. أخذت سلم المكتبة الذي كان مستنداً إلى أحد الجدران، وتسلفته إلى الرف الذي أشارت إليه. مضت خمس دقائق من البحث قبل أن أصل إلى عدد من المجلدات ذات الأغلفة الجلدية وقد طبع اسم دونيللي على "كعب" كل مجلد. وكان بعض هذه المجلدات نسخاً من الطبعة الصغيرة - بحجم الجيب -

من يوميات الرحلات التي كنت قد رايتها عند الكولونيل دونيلي. وكانت هناك طبعة أخرى من يوميات الرحلات تقع في أربعة مجلدات، وقد طبعت في لندن عام ١٧٩٢، ووردت فيها ملاحظة تقول: "الطبعة الثالثة". وكان هناك أيضاً مجلد أكبر حجماً، صنع علاقه الجعيل من الجلد الذي ظهرت عليه علامات الزخرفة حتى بعد قرنين من الزمان. وكان عنوانه: "ملاحظات حول فرنسا وسويسرا" تأليف إيزموند دونيلي، طبع من أجل ج. ج. جونسون اسم قائمة كبيرة بأسماء أخرى، لندن، ١٧٧١، كان الغلاف الأمامي والصفحة الأولى يحملان صورة لعنقاء تهب من بين نيرانها. وقد رسمت بالأسلوب اليهود لرسم الشعائر الذي يمكن أن نراه على أوراق الرسائل القديمة. وحينما حققت فيه خطر لي أن الريش المنتصب على صدر الطائر يمكن أن ينظر إليه أحد أصحاب مدرسة التحليل النفسي الحديث باعتباره رموزاً للمضو الجنسي للذكر. إن الريش على صدر الطائر العادي، على أي حال، لا بد أن يكون اتجاهه إلى أسفل، بينما تكون أطرافه ناعمة مستديرة، أما هذا الريش فكان منتصباً إلى أعلى، وأخذت أطرافه شكل أصابع "السحق". قلت:

"من الغريب أن أحداً لم يذكر هذه الطبعة من قبل. ولا يبدو أن الكولونيل دونيلي يعرف عنها شيئاً."

"هذا محتمل. وأنا أعتقد أن كل نسخ هذه الطبعة قد دمرت."

"لماذا؟"

"لقد شب حريق ما، وسوف تجد مذكوراً في أحد الخطابات. لقد رايت هذا الخطاب بالأسف فقط."

هبطت من فوق السلم، حاملاً معي الكتاب، وذهبت ميس تينا إلى الحجرة الأخرى، وبعد بحث استغرق خمس دقائق سلمتني الورقة الأخيرة من أحد الخطابات. كانت الورقة تقول:

"كثارت! لقد أخبرني توك الآن بأن مطبعة جونسون قد احترقت عن آخرها، والتي نسعيد الحظ لأن هذه الحادثة لم تكلفني شيئاً."

وكان تاريخ الخطاب ١١ سبتمبر ١٧٧١. إذن فإن هذا ما يفسر أن كتاب "ملاحظات حول فرنسا وإنجلترا" ظل مجهولاً دون أن يسمع به أحد. وبالإضافة إلى هذا، فإن حتى هذه النسخة، مثلما يمكنني أن أرى، لم تقرأ قراءة كاملة من البداية إلى النهاية، لأن كثيراً من صفحاتها لم تكن قد قطعت بعد. رحت أقلب الصفحات حتى توقفت عيناى على كلمة "عنقاء". قايت ثانياً إلى الصفحة السابقة وقرأت الفقرة كلها. في هايندرج انكسرت العربية التي كان من المفروض أن يستقلها دونيلي في رحلة خارج للجنة. وقال لي صاحب الفندق أنه لم يكن من الممكن أن يوهر له عربية أخرى، ولكنه أخبره بأن الخوري المحلي، القس كرايزر يملك عربية يؤجرها أحياناً للمضيوف اليرموقين. وعشر دونيلي على كرايزر في حديثه بتطلع إلى براعم الزنابق. فأخذه لكي يرى العربية التي كانت موجودة في حظيرة قريبة. وقال الخوري أن العربية لم تستخدم طوال الشتاء وإنما قد تكون مزينة مبيلة، ونظر دونلي إليها وقرر أنها ستكون عربية جميلة بعد خمس دقائق من العمل في تنظيفها، ورفض الخوري أن يأخذ نفوداً إيجاراً لعربته. وفي طريق الخروج من الحظيرة، لاحظ دونيلي صورة خشبية لطائر العنقاء ملقاة على الأرض. وقد غطى القس نصفها. وسأل الخوري عن سبب وجود هذه الصورة في هذا المكان، فقبل له أنها كانت ضمن صفقة أدات كان قد اشتراها من مزاد منذ أكثر من عام. ولما شعر بأنها شيء لا يتلاءم مع خوري محترم فقد لقي بها إلى الحظيرة. وفي شيء من الدهشة سأل دونيلي عن السبب الذي يجعلها لا تتلاءم مع قس محترم.

"بدت عليه الدهشة لجهلي، وسألني إن كنت لا أعلم إن هذا الطائر كان رمزاً لجماعة من الهرطقة المجددين، يعرفون أحياناً باسم "أخوة الروح الحرة" وأحياناً يعرفون باسم "جماعة العنقاء"، وأجبتة بأنني لا أعرف إلا أن العنقاء كانت تستخدم أحياناً كرمز يعلق على دكاكين العطارة أو الصيدليات، وأنني كنت افترض أن لهذه الصورة معنى كيميائياً من نوع ما. وهذا زاح الرجل الطيب يحاضرني في تاريخ جماعة العنقاء. فقال إنها ظهرت في أوروبا في عصر الطاعون (البوت الأسود)، حينما شاع اعتقاد يقول بأن الإغراق في اللذة الجنسية وشهوتها وقائية مؤكدة من المرض. وكانت الحجية الأساسية لهذا الاعتقاد تقول، أنه لا يمكن أن تكون هناك روحانية أصيلة من دون أن تكون هناك روح داخلية عالية الشفافية. إن الإنسان لا يستطيع أبداً أن يعرف الحقيقة بهنما هو يتطلع إلى الخارج نحو ما يحيط بروحه، مفرقاً نفسه في الأشياء الخارجية. إن الروح في ذروة اللذة الجنسية - تكون أكثر تركيزاً منها في أي لحظة أخرى. وقد اعتقد "أخوة الروح الحرة" إن "الله" كامن في

ككل مكان وفي ككل شيء. وإن ككل اختلاجة من اختلاجات البهجة إنما هي كشف من الله. ورتكنازاً على هذا الاعتقاد، راحوا يمارسون ككل لشكال الإسراف الشهواني، ويحدث هذا أحياناً فوق الذبح نفسه. وقد فتحت محاضركم التفتيش هذه التعاليم من جذورها بقسوة عنيفة، ولكن ثبت أن "جماعة العنقاء" كانت تحمل الطبيعة الأسطورية التي نسبت إلى المنيرة الذي تخلفته رمزاً لها، فبرزت من جديد، مرة بعد أخرى، من وسط رماد عمود الإحراق الذي مات عليه بعض أعضائها. وطبقاً لما قاله هيرونوتس من أن عمر العنقاء يبلغ عشرين عاماً، فإننا يمكن أن نؤكد بثقة أن هذه الجماعة سوف تستمر في الازدهار على الأقل لمدة قرن آخر.

وأخيراً، يأتي قرأت في رسالة سانت كليمانس الرماني إلى أهل كورنثيه قوله أن العنقاء رمز للبعث المسيحي. ولكن الرجل الطبيب أجابني بأن هذا نوع من الشيطنة البابوية، وأن ككل الناس يعرفون بأن سانت كليمانس قد قيد إلى مرساة سفينة والتي به في البحر كعقاب له على مبالغاته. وحينئذ عرفت عليه أن أخلصه أو أريجه من أسر هذا الرمز للانحطاط البابوي، فاتفقنا على ثلاثة تأثرات ثمناً للصورة الخشبية.

كانت هذه هي نهاية الفترة. ثم لا أنكر ما حدث لصورة العنقاء المحفورة على الخشب. نقلت الفقرة كلها بخط اليد ثم ذهبت إلى المكتبة وسالت ميس تينا إذا كانت تعرف شيئاً عن وجود صورة محفورة على الخشب لطائر العنقاء في المنزل - فقد بدا لي أن مثل هذه الصورة يمكن أن تكون رمزاً ملائماً لكي يوضع على غلاف المجلد المقترح طبعه من مذكرات دونيللي. قالت إنها لم تسمع عن وجود مثل هذه الصورة أبداً، ولكنها أبدت استعدادها لسؤال شقيقها. وقبل أن أتمكن من إيقافها كانت قد غادرت الحجرة. جلست على ذراع أحد القاعد، ورحبت أتطلع إلى "ملاحظات" دون اهتمام. انزلق الكتاب من فوق ركبتي وسقط على الأرض، هوالف على حافته وقد انفتحت صفحاته. وحينما كنت أتفحصه، أدركت أن شعرت بأن الغلاف الخلفي كان أكثر سمكاً من الغلاف الأمامي، والأكثر ثقله. كانت الورقة اللاصقة للغلاف غير محكمة الالتصاق، وعلى عكس الورقة العاقبة للغلاف الأمامي، فإنها لم تكن متصقة بالورقة الأخيرة من الكتاب. ثبتت الغلاف بخفة، لكي أرى السبب الذي جعله مفتوحاً بهذا الشكل. فبينت أنه يوجد ثمة جيب بين الغلاف المصنوع من الورق القوي وبين الورقة اللاصقة للغلاف نفسه، وكان الجيب قد صنع بالصاق

الأطراف الخارجية لهذه الورقة إلى الورق القوي. وفي داخل هذا الجيب كانت هناك ورقة غير مطوية. سحبت الورقة من مكانها وفتحتها. كانت الورقة من نوع ممتاز، شديدة البياض وشديدة الرفقة، ولم تكن تحتوي إلا على رسم رقيق لعنقاء طالعة من عنقها للذهب بالثار، وكتب تحت الرسم "relix qui potuit rerum cognoscere causas" وهي جملة لاتينية استلهمت أن أتذكر أنها مقتطعة من المعنى الذي أوردته فيرجيل: "سعيد هو الرجل الذي استطاع أن يكتشف أسباب الأشياء". أما ما أثار في حقاً فكان الطائر نفسه كان الجناحان وريش الذيل من الذهب، مثلما كان الذهب لتصاعيد من العنق. أما بقية جسد الطائر فكان مرسومًا باللثة التي تراها في رسوم بليك. وفي الركن الأسفل إلى اليمين. ويخط إيزموند دونيللي الذي لا يمكن أن أخطئه كانت جملة تقول:

"تسلمها في ١ سبتمبر ١٧٧١". ولو أن هذا التاريخ لم يكن مذكوراً لكان من العسير علي أن أصدق أن الرسم لم يكن أحدث عهداً به بكثير، لأن الورقة كانت أكثر بياضاً ورقة من كل ما رأيت من أوراق تلك الفترة من التاريخ، ولم يكن يبدو عليها أي شمة من سمات تقادم الزمن.

سمعت خطوات ميس تينا في عودتها، فدرست الورقة في الكتاب، فالت لي إنه من المؤكد أن ليس ثمة صورة خشبية لعنقاء في المنزل، إلا إذا كانت مخبأة في إحدى الغرف العلوية الخلفية. شكرتها واعتذرت لما تسببت فيه من إزعاج، ثم أهدت كتاب "ملاحظات" إلى مكانه على الرف. دخلت ميس إلى وسألتني عن تقدم عملي، ثم بدت عليها خيبة الأمل بوضوح حينما قلت أن علي أن أرحل فوراً. أهدت لها أنني وجدت عندي كثيراً من المعلومات القيمة بين الأوراق وأطلعته على كراسة مذكراتي لكي أثبت ذلك. اصطبحتني الشقيقتان معاً إلى باب المنزل، وقالتا لي أن أعود في أي وقت.

قلت سيارتي إلى ليمريك وأنا غارق في أفكار متضاربة، ربما يمكن أن يقال أن هذه الساعات قد ضاعت دون فائدة، ولكن هذا القول لا يمكن أن يكون صائباً ككل الضوابط. لقد عرفت أن شخصية إيزموند كانت ذات جانبين، الابن البار الخلفى ومكاتب يوميات الرحلات البؤس، ثم "الساغر الشيق" إذا حق لنا أن نستعير هذه العبارة من السير ريتشارد بيرتون، ولا يمكن لأي تارس يدرس المادة الموجودة في قلعة دونيللي أن يخمن وجود السافر الشيق.

ثم لقد كان هناك اللغز الصغير الذي تمثله صورة العنقاء. تحدثت بشأنه مع ديانا بينما كنا نعود بالسيارة إلى غالاوي. إن الخطابات تقرر أن كتاب "ملاحظات حول فرنسا وسويسرا" قد نُشر في شهر يوليو من عام ١٧٧١. أما حكاية هايدلبرج - حيث اشترى صورة لمناء الخشبية - فقد وقعت في شهر أغسطس من العام السابق. وليسيب ما، استخدم دونيلي صورة العنقاء كرمز لكتابه على الغلاف - ربما كانت الصورة التي طبعت على غلاف كتاب نسخة طبق الأصل عن تلك التي اشترها من الخوري في هايدلبرج. وفي اليوم الأول من سبتمبر "تسلم" رسم العنقاء الجميل الذي رأيته مرفقاً به ذلك الشعار اللاتيني الجميل عن اكتشاف أسباب الأشياء. ومن المفترض أن هذا معناه أنه قد تسلم الرسم عن طريق البريد. وعرضت ديانا فائقة أن أتعنى الأقرب أن دونيلي قد تسلم الرسم من الشخص الذي كان هو قد صقله بصنعه. ولم أوافقها على ذلك بقولي فلو كان هذا صحيحاً فلماذا صقل نفسه على كتابه، "تسلمته في ١ سبتمبر". ولو أنني تسلمت بالبريد كتاباً كنت قد طلبته، فإني بالفعل قد أكتب عليه اسمي وتاريخ وصوله، ولكنني لا أكتب "تسلمته" لأنه من الواضح أنني قد تسلمته. إننا نستخدم كلمة "تسلمته" "تم تسلمه" لكي نوضح عملية دفع قيمة المسكوك، أو للتحدث عن خطاب أو رزمة. أما نظريتي فهي أن إيزموند قد تسلم رسم العنقاء دون توقف من جانبه، أن الرسم وصله دون توقيع ودون أن يحمل اسم صانعه - وإلا لكان بالتأكيد قد كتب، "تسلمته من فلان أو فلان" أو حتى لكان قد احتفظ مع الرسم بالخطاب الذي أرفق به.

إذن فمن الذي يحتمل أن يكون قد أرسل الرسم؟ شخص ما مهتم بالعنقاء باعتبارها رمزاً أو - وأنا أعتقد أن هذا قد يكون مقنعاً أيضاً - أحد أعضاء جماعة العنقاء كان الخوري كرايز قد ذكره؟ كان الاحتمال الأخير احتمالاً مثيراً، رغم أنه لا يمكن إلا أن يكون احتمالاً بعيداً. وقالت ديانا أنه احتمال بعيد بقدر نعد احتمال أن تكون إحدى السيدات قد أرسلت إليه الرسم هدية أو تذكيراً ربما أرفقت به رسالة غرامية. تمنيت لو أنني قد فحسته بدقة أكثر. وربما كانت الورقة تحمل علامة مائية تشير بشكل أو بآخر إلى أصلها. ليس من المحتمل أن ورقة ثمينة من هذا النوع لابد أن تحمل الرمز الخاص بصانعها مدموغاً في نسجته الداخلي؟ وكان علي أيضاً بالطبع أن أقارن بين الرسم الموجود على الورقة وبين الشعار أو الرمز الذي حمله غلاف الكتاب. ولو أنهما كانا متطابقين، لكان هذا حجة مؤكدة

تشير إلى أن إيزموند قد صقل شخصاً ما يصنع رسم للطائر الخرافي الذي كان قد نشر صورته من القسيس كرايز.

وكانت هناك أيضاً تلك الحقيقة العجيبة القائلة بأن إيزموند قد كتب يقول نسخ القطعة كلها قد دمرت بعد أقل من أسبوعين من تسلم رسم العنقاء. ومن الجدير أيضاً أنه من الأمور ذات الغزى - أو غير ذات الغزى على الإطلاق - أنه ربما كان قد عاد إلى استخدام رمز العنقاء على كتبه بعد ذلك أو أنه لم يستخدمه بعد ذلك أبداً - إنني أعرف على الأقل أن هذا الرمز لم يكن موجوداً على طبعة مذكرات الرحلات التي رايت نسخة منها في لوزيانا، أو على تلك الطبعة التي رايتها في قلعة دونيلي.

ولم تكن لدي أية فكرة عن الكيفية التي يمكن بها للمرء أن يتحقق من أن مثل هذا الحريق قد حدث أبداً، كان هناك الفرض البحث عما حدث مؤسسة ج.ج. جونسون ومحاوله إفتاء آثارها. ووجدت أن هذه الفكرة لا تبعث على التشجيع، فإني لا أملك التوجيه اللازمة للقيام بهذا النوع من الأعمال البوليسية. ومن سوء الحظ أن يوزويل كان في اندرة يتلقى تدريباً على أعمال الحراسة في السنوات بين ١٧٦٩-١٧٧٢. وإلا لكان بالتأكيد قد ذكر شيئاً عن ذلك الحريق - طالما أن ج.ج. جونسون كان أيضاً هو الناشر الخاص للكنسور جونسون.

■ هذا هو ما يقدم السبب الذي جعل أيامي التالية لزيارتي لقلعة دونيلي خالية من أي شيء ذي أهمية يتعلق بهذه القصة. كانت خطابات دونيلي هي أملي الذي تعلقت به، أما الآن فلم أكن واثقاً مما ينبغي علي أن أقوم به بعد هذا. طلبت بالتليفون أو زرت كل مكتبة عامة بين ملبني كورك وسليكو. كانت بعض هذه المكتبات تملك نسخة من "مذكرات الرحلات" ولكن لم يكن لدى إحداها أي شيء آخر. وحاول كليفين روش أن يقدم نوعاً من العون، مقترحاً اللجوء إلى بعض معارفه من الأكاديميين الذين ربما كانوا يعرفون شيئاً عن دونيلي، ولكن لم يؤد أي من هذه الاقتراحات إلى شيء نافع. كتبت إلى تيم موريسون في المتحف البريطاني، وإلى كل بائع كتب قديمة أعرفه، ورغم أن تيم كان

ناجراً عن اكتشاف مزيد من التراجع التي تشير إلى دونيللي، فإنه كان قادراً على إضافة الفقرة ونجدة إلى "اللف" الخاص لدي بجماعة العنقاء وكان ما كتبه كما يلي:

"كند تباليت حديثاً مع تيد مالوري، وهو خبيرنا بالتخصص في شؤون الكنيسة في امصور اوسقنى، ودار حديثاً حول ما أسميته "جماعة العنقاء" وكانت لديه نتف مفيدة من المعلومات، قال لي إنه ليس هناك دليل يثبت أن جماعة العنقاء وأخوة الروح الحرة كانوا شيئاً واحداً فقد شكلت هذه الأخيرة جماعة من الهرطقة الجديدين، أسسها رجل يدعى لويك دي بينما كان قد طرد من جامعة باريس عام ١٣٠٤ ومات في عام ١٣٠٩، وكان أساس تعليمهم أن الإنسان يعترج في الله عن طريق العشق، وأنه حينما يحدث هذا تصبح الخطيئة مستحيلة بالنسبة للإنسان. ولهذا فقد مارست هذه الجماعة حرية جنسية كبيرة، وأحرق عدد كبير منهم على التهمة منصات الإحراق، وكانت بين هؤلاء امرأة تدعى مارغريت من ميلون، وهي راهبة مزيفة، يبدو أنها كانت مصابة بداء الشبق أو الفلمة".

أما الإشارة الوحيدة إلى جماعة العنقاء التي استطاع تيد أن يعثر عليها فوراً في كتاب سانت نيلس سورسكي (١٤٠٨-١٤٣٣) في نهاية مقالته الثالثة حول الصلاة الروحية (هذه هي ترجمتها عن الألمانية من طبعة عام ١٩٠٢، وهي ترجمة بدائية جداً وخشنة،

من الأفكار التي شاع اعتناقها في أوقات مختلفة أن المعتقدات الخارجة على العقيدة المسيحية والهرطقة لا تهدد بالخطر سوى أولئك الذين يعتقدونها، ولا أولئك الذين يتصلون بأولئك أو يقيمون تحت سيطرتهم، ولكن القديس ثيودوسيوس يقول لنا إن الله يبعثهم في حد ذاتهم، وأنهم قد يتسببون في عذاب أو معاقبة الأبرياء. وإن حالة جماعة العنقاء في مقاطعة سيمر بشتنسك لتقديم أكثر الأمثلة زعياً على ذلك. لقد آمنوا بأنه يمكن للرجال والنساء أن يحصلوا على الكشف الإلهي للقدس من خلال اللذة الجنسية بدلاً من الصلاة. وأن قديريهم (معسكرهم) بالقرب من بحيرة أسيكول كانت مليئة بالفسق والدعارة، ثم كان أن أرسل الله العزيز وباء قضى عليهم جميعاً ثم انتشر الوباء من هناك في طول بلاد إسكيتيين الشماليين وعرضها، ومن ثم في العالم كله. وكان هذا في عالم الرب ١٣٣٨".

وبهذه المناسبة، قد يكون من الأمور الهامة بالنسبة لك أن تعرف أن الأثري الروسي تفوقولسون يؤمن بأن الموت الأسود (الصاعون) قد بدأ في معسكر نسطوري بالقرب من بحيرة أسيك - كوكول في مقاطعة سيمر بشتنسك، وهي مقاطعة في بلاد القرقيز بالقرب من

حدود الصين والهند. وقد دافع عن هذا الرأي وأيد البروفسور ر. بوليتزير في مقال "الصاعون" في نشرة منظمة الصحة العالمية المصادرة في جنيف عام ١٩٥٩ في الصفحة رقم ٢٠٠

كان شكل هذا ساحرة للب بالطبع، ولكنه أثار عنداً من الأسئلة التي لا يمكن الإجابة عليها بحيث أنه كان أيضاً دافعاً إلى الشعور بالإحباط والخيبة. من الذي أنشأ جماعة العنقاء، ولماذا؟ ماذا كانت تعاليمها؟ كان القرنان الحادي عشر والثاني عشر عصراً تأسس فيه كثير من الجماعات الهرطقية، والوثنيين، والإلبيجاتيين، والخنيسقيين - وقد اتهم الآخرون دائماً بأنهم كانوا يقيمون احتفالات دينية ذات جو محموم تتحول إلى ممارسة جنسية جماعية مسعورة. فإذا كان ينظر إلى جماعة العنقاء باعتبارها مسؤولة عن وباء الموت الأسود، فلماذا لم يعثر لها على وثائق كافية؟

ولم يكن هذا بعيداً عن موضوع بحثي مثلما يبدو من مظهره. قالوا لي لم أستطع أن أعثر على المزيد من المعلومات عن إيزموند دونيللي، فإني قد أتمكن على الأقل من تقديم مقدمتي بمثل هذه المادة، أما فيما يتعلق بالنص نفسه فإنه يمكن أن يتكون من مقتطفات من كتاب "عن اقتضاض العذاري" ومن كتاب فليشر التحول، "ج.س"، بالإضافة إلى المخطوطة التي لا شك في صحة نسبتها والتي حصلت عليها من الكولونيل دونيللي، بالإضافة إلى مقالتي "رفض لفلسفة هيوم". وكان معنى هذا أن مشكلتي الأساسية ما تزال هي العثور على مزيد من المادة لمقدمتي.

في يوم السبت التالي لعودتنا من أمريكا، وقعت إحدى تلك المصادفات التي تعلمت منها أن أسلم بعض الأشياء التي تتضمن أي نوع من أنواع الهواجس أو الأفكار التسلسلية، كانت ديانا، وماري التي تأتي يومياً لمعاونتنا في شؤون المنزل، تفحصان صندوقاً قديماً مليئاً بالمخطبات، واضعتين في اعتبارهما أن تلقيا إلى النار بأكثر عدد ممكن منها. وانقطعت موبسي خطاباً يحمل علامة خاتم على شيء من اللقطة تغير طرفيه الأعلى، وتمثل العلامة صورة الحية ملتفة حول جذع شجرة التفاح، وهي تهمس لحواء. وبالطريقة التي تنصرف بها الأطفال حين يشعرون بأنهم لا يحصلون على ما يكفي من الانتباه، جاءت موبسي إلى حجرة الكتب حيث كانت جالساً أكتب وقالت، "انظر إلى ما جئت لك به، يا بابا". وظننت أن ديانا هي التي أرسلت الخطاب معها فالتفت نظرة سريعة إلى التوقيع وقرأت: "كلوس دنگلمان" ثم نظرت إلى الخطاب نفسه. كان تاريخ الخطاب عام ١٩٦٠ وكان خطاباً متعلقاً حول كتاب

"اليوميات الجنسية" الذي كان قد صدر في فترة باكورة من ذلك العام، وكان كتاب الخطاب يسألني إن كنت على علم بأعمال ويلهلم ريخ، ثم راح يسجل عناوين كتب ينبغي عليّ في رايه أن أقرأها، كان خطاباً من نوع مألوف، وحتى بالنسبة إلى الإيحاء بأن كانت لملك يملك الكثير الذي يمكنه أن يعلمني اياد لو انني عنيت بأن أصغي إليه، وإن علينا أن نتبادل الكثير من الخطابات الطويلة. وكانت ديانا قد كتبت عليه بخط مهوش:

"كنت الإجابة عليه ٦٠/١١/٩ واعتقد انني قد شكرته على قرائته، ووعظته بأن أقرأ الكتب التي ذكرها، وكنت على وشك أن أقي الخطاب في سلة الهملات القائمة إلى جوارتي حينما التقطت عيني اسم "٢. دونيلي". وكانت الجملة تقول: "من الطبيعي أن تكون أفكارك تكونر هذا آثارها كتابات مفكرين متعددين: دي سان وكرتولي و٣. دونيلي" وكراراً وبارد سيلون، الخ" من الواضح أن كورتز كان تلميذاً لريخ الذي اعتقد أن النسوة الجنسية تحتوي سر الصحة النفسية.

وكان العنوان على الخطاب هو "كوميلاين جاردنر، هامبستيد الغربية". وبدأ لي أنه من غير المتوقع أن يكون كتاب الخطاب ما يزال مقيماً في نفس العنوان بعد تسع سنوات ولكن الأمر كان يستحق المحاولة، وهكذا فقد كتبت إليه خطاباً أذكر له فيه اهتمامي بدونيلي.

وفي يوم الاثنين التالي، كان عليّ أن أفكر من جيد في المشكلة المرحجة التي تمثلها الانسنان دونيلي للقيمتان في قلعة دونيلي. وصل خطاب في ذلك اليوم، يحمل توقيعيهما معاً، ولكن يمكن أن نفترض أن كاتبته هي ميس ألين. قالت أن مقابلتها لي كانت أمراً ممتعاً، وكيف أنها كانت قادرة على أن ترى من لمحة واحدة أنني كنت جديراً بالثقة وأن سمعة إيز موند سوف تكون في أمان بين يدي، رحت أن نحدث وحدثاً شعوري بالحرج وأنا أقرأ الخطاب. كانت مسرورة من أن كتاباً له مثل سمعتي قد اهتم. في النهاية - بإيز موند-وشعرت بأنني سأكون الشخص المناسب للقيام بكتابة ترجمة ذات قيمة له.. أقيت بالخطاب على الفراش واحتسيت قدح الشاي. كان عزمي الأول أن أقي به في سلة الهملات وأن أنساه. رويدتي فكرة أنه ليس سوى نوع لعين من الضائقة وأنهما يجب أن تركباني وشأني. إن لدي أشياء أخرى أقوم بها أفضل من كتابة ترجمة معتمدة لها قيمتها. ومن الطبيعي أن يكون إحياء الاهتمام بإيز موند شيئاً في صالحهما إلى درجة عظيمة.

فإنهما سوف تكونان قادرتين على بيع أوراقه إلى إحدى الجامعات الأمر بكتابة مبلغ كبير من المال

لأن المشكلة ظلت تؤرقني. كنت قد عقلت العزم ألا أعود إلى الاتصال بهما ثانية. وعلى كل حال، فإني لم أستقد في شيء بأي جزء من المادة التي تملكها، إنني لست متبناً لهما بشيء. وعلى الآن أن أمعن في الخداع، أو أن أقوم بعمل من أعمال كبح النفس بأن أتجاهل خطابها، وهجاء قررت أنه ليس هناك سوى سبيل واحد بسيط، أن أخبرهما بالحقيقة الكاملة، ارتشيت بسرعة ثوباً منزلياً وهرعت إلى حجرة الكتب، متلهاً على الملاء من هذه الفكرة بتفكيرها. كان خطاباً طويلاً - وكان لابد له أن يكون يمثل هذا الطول، طلاً انني كنت مصمماً على التحل من حملي. بدأت بالإشارة إلى أنها لابد تعرف أن كتاب "عن اقتضاض المذاري" كان منسوباً إلى دونيلي - بل انني رأيت منه نسخة في بيت استاد في غالاوي. وأخبرتها بأمر الناشر في نيويورك، وشرحت لها أنه كان مصمماً على الضي في هذا العمل على أي حال، سواء تعاونت معه أم لا. وبيتيت لها أن مخطوطة فليشر لم تكن سوى عمل مزور، وأنه في تقديره الخاص. ليس هناك سبيل لثمنة دمة إيز موند، في ظل الظروف الحقيقية القائمة، سوى نشر أكبر عدد ممكن من أعماله الأصلية الحقيقية. وبصراحة أيضاً أخبرتها بأنه لم يكن ثمة في الأوراق التي تملكها ما يمكن أن يكون ذا نفع لي، طلاً أن خطاباته التي كان يرسلها إلى بيته كانت خالية من كل ما يدعو إلى النوم، بالفقر الذي لابد لكل إنسان أن يتوقعه.

وفي طريقي إلى صندوق البريد قلت لنفسي أنه من المحتمل أن يكون ما أفعله الآن عملاً غريباً. إنني لم أذكر ما أقوم به لديانا. طلاً أنني كنت واثقاً من أنها ستبذل جهدها لكي تمنعني له. بل أن ميس دنيلي قد كتبت خطاباً إلى الناشر وإلى هيئة حقوق المؤلفين تستنكر فيه مشروع فتحجب عليّ كل مصادر المعلومات. ولكن كانت هذه المخاطرة لابد لي من القيام بها وتحمل نتائجها، أسقطت الخطاب في صندوق البريد شاعراً بأحاسيس الرجل الذي يستند مستنداً إلى رأسه بنفسه.

وفي الصباح التالي، كنت ما يزال معتزلاً من أثر النوم حينما دق جرس التليفون رفعت ديانا السماعة بالموضوع إلى جوار الفراش ثم قالت:

"ميس ألين دونيلي تريد أن تكلمك".

كانت تملكني حالة من الضجر، وشعرت بما يقربني أن أطلب منها إبلاغها أنني لست في المنزل، ولكن ضميري تدخل وكسب الوقت، وفلت أنها لو اختلفت معي، فسوف أستطيع على الأقل أن امضي في خطتي دون أن اكدر نفسي.

جاء صوتها في التليفون: "هيللو، مسر سورم؟"

"هو الذي يتكلم".

"لقد تسلمت خطاباتك الآن، توأ، أنني شديدة السرور لأنك كنت سريعاً معي إلى هنا لهذا. هذا منتهى الرقة والدمانة من جانبك. لقد طلبت الآن لكي أقول لك أنني أفهم ما تقصده تماماً".

"انتهمين قصدي حقاً؟"

كنت مبهور الأنفاس للمفاجأة، وكنت اتساءل متعجباً عما ترمي إليه في النهاية.

"سمع. استنتج مما تقوله أنه ليس هناك الكثير الذي تستطيع عمله مع ذلك الناشئ".

"أخشى أن يكون الوضع بهذا الشكل".

"حسناً، بالضبط. إذن فإن أحسن ما يمكن عمله بعد هذا هو التأكد من أن الأمور لن تفلت من أيدينا. علينا أن نحرص على مراقبته باستمرار. لقد اتفقت أنا وتينا انعلينا أن نقدم كل مساعدة ممكنة".

قلت أنني أشعر بالابتهاج بالطبع. ولكني في الحقيقة لم أكن أعرف ماذا يمكن أن أقوله أو أفكر فيه. كنت بحاجة إلى بعض الوقت لكي أستجمع أفكاري ولكنها لم تمنحني الفرصة.

"إننا نود أن نناقش هذا الأمر معك، متى يمكنك أن تأتي إلى هنا؟"

"أي وقت ملائم لكما سيكون ملائماً لي".

"ما زلت في اليوم بعد عدة ساعات؟"

قلت أنني موافق على هذا، وشعرت بموجبة من الراحة تمسحني حينما ذهبت المكالمات وانقطع خط الاتصال.

في تلك اللحظات كانت ديانا قد أعدت الشاي وكنت قد بدأت أفهم ما حدث، إن الشقيقتين دونيلي لا تملكان ما تفقدانه بنشر "اليوميات الجنسية" التي كتبها إيزموند، وخاصة إذا ما استطاعتا أن تبعا المنزل. وقد أكتبت لهما أن اليوميات لم تكن مجرد أدب داغر مكشوف، وأنها قد تؤدي إلى خطوة حقيقية نحو بحث سمعة إيزموند، وإن في هذه الأيام الحالية حيث تسود الصراحة الجنسية لن يظرف أحد جفنه إزاء نشرها. وكنت قد أشرت إلى منكرات يوزويل وما إليها، ولابد أن ميس إلين قد قررت أنه من الأفضل لها واختها أن تدخلتا غمار هذه التجربة وأن يكونا في مقدمة المتلفهين والساعين في خوض التجربة، واكتشف عما يمكن الكشف عنه. ومن المؤكد أن الكشف الكامل عن أوراها سوف يكون نافعا في كساية الجانب التاريخي عن حياة إيزموند في القدمة. ولكنها إذا كانت تأمل في إقناع فليشر بنفع خمسة عشر ألف دولار أخرى في مقابل استخدام تلك الأوراق وما تملكه من مواد عن إيزموند، فإنها لابد ستنتهي بأمالها إلى الإخفاق والخيبة.

كنت أشعر بكآبة لا حد لها وأنا أقود السيارة إلى ليمريك بعد ساعات قليلة من منتصف النهار، وكنت قبل هذا قد فصلت بكيفين روشي واستعرت منه نسخة من كتاب "عن انقراض العذراء". وكنت أحمل معي الآن الشترات الأخرى من "اليوميات الجنسية"، ربما في ذلك مخطوط فليشر الأصلية. ولكنه مكان يوماً جميلاً كانت رائحة الهواء مازجة بوباً ككل شيء مجلبلاً باللون الأخضر حتى لقد كان من المستحيل ألا يستمتع المرء به. وحالاً استرخت اعصائي وقررت أن أنسى الشقيقتين دونيلي، أبحثني إحساس عظيم بالسلف والخصوبة، وبإمكانات واستمالات العالم الهائلة التي تعجبها ميوندا إلى البقاء محصورين في سجون دولهمنا الصغيرة. وتنبؤ هذا الإحساس لكثير حينها جلست لكي احتسي قديحاً من البيرة خارج مكان لبيع البقالة على بعد أميال قليلة إلى الجنوب من جوريت، مصغياً إلى خرير المياه وهي تنساب تحت الجسد وتجرى نحو "لوف ستورز" وهجاء أصبح شيئاً غير ذي بال سواء ذهبت إلى ليمريك أم بقيت في مكاني. سوف يستمر الماء يسيل في مجراه، وسوف يبقى على حالها هذه الشجرة بأوراقها ذات الألوان الليمونية والتي تحمل على الشجرى مكانها ترقيمه أو ترعاه. بدا لي واضحاً أنه يكمن هنا واحد من أعز وأهم ما يتعلق

بأن وجود الإنساني، هذه القدرة التي يمتلكها العقل الإنساني على الابتعاد بنفسه عن الناس والأحداث، وعلى التوقف عن تشبيه نفسه بالعواطف الإنسانية أو العنور على ذاته فيها، وعلى محاولة التعرف على ذاته - بدلاً من ذلك - من خلال اللانهائي وما لا زمان له، عالم الطبيعة، مثلاً، حدثت وفقت على حافة الجسر ورحلت أرقب الماء وهو يعكس اشعة الشمس، وبدأ لي أن نبتاً ما في داخلي يسير مع سريان الماء ويجري معه في مجراه، وينطلق بعيداً في اتجاه البحيرة. وبينما عدت إلى السيارة وبدأت أقودها، اجتأحتني إحساس غريب كأنها تحررت روحي من لحس، وكأنها كانت تطير بمحاذاتي مثل طائر مطلق يحلق أحياناً في الأعالي ثم ينقض فجأة إلى أسفل من حين إلى حين، وحينما عاد عقلي إلى الشقيقتين دونيلي، كان إحساسي بالاختناق والاضجر قد اختفى.

حينما رأيت ميس إيلين وهي تهبط درجات السلم لثقابلي، عبرت بي لاحظت فهم مفاجئة، ولكنها قضت على هذا الفهم بأن أخلت يدي في قبضتها الرخوية وراحت تقول: أحسن، حسناً، من يواظب السرور أن أراك ثانية؟ ثم دخلنا إلى قاعة المكتبة ولم تكن ميس تبتاً هناك، أفضت مجلسي على مقعد مزرب ذي مسندين وكان من مقاعد القرن التاسع عشر، فكان معرضاً لأشعة الشمس، تاركاً ميس إيلين تتولى مهمة الكلام، وكان علي أن أتعجب، بأحدها الوفاء.

كانت تقول:

"حسناً، ليس هناك ممر فيما أرى للتوقف في وجه هذا الكتاب، ومثلما قلت أنت، فإنه مكان من القبر له أن يصغر أجلاً أو عاجلاً وهكذا فإن أحسن فكرة ممكنة هي محاولة الاحتفاظ به بين يديك، وبهذه المناسبة، في أي جامعة كنت تعمل؟"

أجبتها بأنني لم أتمكن أبداً من العمل في أي جامعة، ولكنها تجاهلت ذلك وأزاحته جانباً ثم قالت: "لا أعتقد أن لهذا أية أهمية، من الواضح أنك هتي من نوع كفو ونصكي، فأنت كنت تبادي بكتابك عن إيرموند، فسوف يكون على الآخرين أن يتبعوك حتماً."

كانت تسلم بدهشة بأنني ينبغي أن أكتب ترجمة متكاملة لدونيلي، ولم أكن أحب أن أحب أملاً في هذه الرحلة، وهكذا فقد أومأت براسي ولم أقل شيئاً. وجاءت ميس تينا بالشاي والبطائر، حينتي كصديق قديم، وحينما أخذ كل منا قهقهة وضحكه، قالت:

"يجب علي أن أقول، إنها كانت مفاجأة كاملة لي أن أسمع أن إيرموند كان سير السمعة إلى هذا الحد. إنني لم أبدأ بهذا الكتاب الذي تدعوه "بافتراض العذاري". نطقت بهذه العبارة دون أي بادرة تدل على الحرج، فانتبهت أنا هذه الفرصة لكي أخرج الكتاب من حقيبتي أوراقي، بالإضافة إلى النسخة التي كتبت بالآلة الكاتبة فضلاً عن مخطوطة الكونونيل دونيلي. وبينما كانا تلتقيان عليهما نظرات عابرة، قلت:

"تري هل يمكنكما السماح لي بأن ألقى نظرة أخرى على كتب دونيلي؟"

ثم أنزلت "اللاحضات" والجلدات الأربعة لكتاب "يوميات الرحلات" من مكانها، ثم عدت فالتحنت مجلساً على المقعد القريب من النافذة. حتى لا أشعرها بالحرج، ومن حين إلى آخر، كنت أسمع ميس إيلين وهي تقفهم قائلة: "انظري!" ثم تلطف بالكتاب إلى ميس تينا، التي كانت ترمقني حينذاك بنظرة سريعة، ثم تقرأ بتعمق وأسانها يصدر أصواتاً متلاحقة كصفر كعابت.

فتحت كتاب اللاحضات، وأخرجت رسم الغنقاء. رفعت الورقة لكي أعرضها للضوء، أجل، كانت هناك علامة مائية، أخفي الرسم جزءاً منها. وعندما أمنت النظر جيداً كان علي أن أكبح ما انتابني من رغبة في الضحك بصوت مرتفع. كانت العلامة المائية على شكل غنقاء!

فأرنت بين الرسم النقيق للي، بالدوائر الدقيقة (أو ما يمكن أن يدعي بالخطوط المحفورة المتلاحقة) بصورة الغنقاء المحفورة بطريقة الضغط على الغلاف. كانا متشابهين في خطوطهما الخارجية، ولكن كانت هناك ستة اختلافات. لم يكن الرسم واحداً بشكل قاطع تماماً.

حينما رفعت ميس إيلين عيبتها لكي تنظر إلي، أطلعتها على رسم الغنقاء. نظرت إليه بسرعة ثم قالت: "أم، إنه جميل، إلى حد ما." ثم أعانته إلي، لم تكن مهتمة اهتماماً حقيقياً.

قالت ميس تينا: "هل أطلعت مسر سورم على الخطابات، يا عزيزتي؟"

"أه كلا، لقد نسيت."

ذهبت إلى السمجرة الصغيرة الجاورة، وعانت بحزمة من الأوراق حزمت بشرط، قالت، آخرتي تبنا بانك أرقت أن تعرف إن كان هناك حفر على الحشب لطائر العنقاء في الخزانة العلوية، ولذلك قمنا ببعث دقيق، ولكننا لم نعثر على عنقائلك، غير أننا عثرنا على الكثير من الأوراق القديمة - سنابق كبيرة مبلنة بها، ولا أظن أن لاكتريها غلالة بايز موند، ولكن يبدو أن هذه الأوراق كانت خطابات موجهة إليه".

حلت عقدة الشريط بسرعة، وحالا بدأت في فصل الأوراق عن بعضها سقط على الأرض شيء ما من مظهر مفتوح، التقطت هذا الشيء، كان رسماً دقيقاً محفوراً دون إطار، وقد رسم على قطعة صغيرة نحتت من فوهة مجازة ربما كانت من محارات اللؤلؤ. كان الرسم لغتة شديدة الجمال، وقد تدلى شعرها في حلقات متلاحقة حتى الكتفين، وله يكتب عليه شيء،

لم تكن الخطابات نفسها بخط يد ايزموند دونيلي، وبدا أن بعضها كان مراسلاً من شخص يدعى توماس والجريفت، وبعضها ممن يدعى ويليام استون، وبعضها ممن يدعى هوراس جليني. ولم يبدو على الأوراق أنها كانت خاصة لأي نظام أو ترتيب. وكان بعضها داخل غلفة وبعضها الآخر دون غلاف، ومن الواضح أن والجريفت مكان قساً من دبلن، أما استون فقد عاش في كوركوت، وسرعان ما تبين أن جليني كان زميلاً من زملاء الدراسة (أفق دونيلي في غوثينغين. ومن الواضح أنه كان أيضاً للورد "جليني أوف جو لساكي" في مقاطعة شابر لاند. وفي وسط هذه الكومة من الخطابات، كان هناك غلاف خاص لم يكتب عليه شيء، وبداخله، عثرت على قصاصة من الورق، قطعت أطرافها بحيث تتشابه مع الرسم المحفور على الحازقة، وكتب عليها بخط يد ايزموند دونيلي، "لادي شارلوت انجيسر، الأينة الثانية لإيرل فلاكستيد". وفي داخل الغلاف نفسه كان هناك ما ثبت أنه صحيفة من خطاب مكتب ايزموند دونيلي. وحينما قرأت هذه الصحيفة عرفت أنني قد عثرت على شيء جديد لكتابي. كانت الصحيفة تقول:

"قال فولتير في هاموسه الفلسفي أن التحزب والخطأ مترادفان طالما أنه ليس هناك مكان للرأي المتحزب في الأمور التي نعرف أنها حقيقة صادقة، كما نرى على سبيل المثال في الهندسة أو العلم، وهو يقول أن معتقداتنا الدينية ينبغي أن تقوم على أمور تثقف عليها كل العقول، ولكنه يمضي لكي يؤكد أن كل العقول تتفق على عبادة الله وعلى الأمانة

والصدق. وليس هذا صحيحاً، لأن البوذيين لا يفعلون بالله، وليسوعيين تحفظاتهم على مسألة الأمانة. فهل ثمة إذن أي أساس مشترك للاتفاق الديني؟

إن حجتي أنها الصديق العزيز تقوم على قوتي بأنه ليس هناك رجل ذكي لا يستطيع أن يقتنع بأن هذا العالم لغز غامض، أننا لا نحتاج إلا للحظة واحدة من التفكير لكي نعرف أن كل معتقداتنا التي ترفى إلى مرتبة اليقين ليست سوى معتقدات قامت على أساس من العودة لطبيعتها مثلما نطبع قواعد لعبة "البليكت" أو "الهويست" من ألعاب الورق، ولكن دون دليل يبرهن أو يؤكد صحتها.

والأديان تؤكد أن ما يقع خارج نطاق قواعد الألعاب التي نمارسها مجهول ولا يمكن معرفته، أو أن الله وحده والثلاكة يعرفه ويمرّفونه. ولكن العلم قد علمنا أن من الممكن أن نفهم أي شيء إذا كان منهج البحث متكامل بما فيه الكفاية ومنطقياً.

وقد اضيف إلى حجتي أيضاً قوتي بأن معتقداتنا التي تصل إلى مرتبة اليقين، أو أن ما نحن موثقون بوجوده ليس مما يمكن رؤيته، وإنما مما يمكن أن يحس به، مثلما أحس الآن بلفظ الشمس فوق يدي في أثناء الكتابة. وقد أقول أيضاً أن ما تعودنا عليه من محاولة الوصول إلى الحقيقة بوسائل الإبصار أو الاستنتاج العقلي، قد أعمتنا بما تحمله من طبيعتها الحقيقية، مثلما هي حالة الرجل الذي يحاول أن يعرف الفرق بين عصافير الكناري وبين الشاي البارد عن طريق حاسة الإبصار وحدها، إن لغز العالم الغامض يصبح مائلاً أمامنا في تلك اللحظات التي تتحرك فيها أرواحنا حركة شديدة عميقة أو حينما يستبد بها القلق أو يزعجها شيء ما إزعاجاً قوياً، وذلك إذا ما كانت الحركة الناتجة حركة منتظمة ومتناغمة. في لحظات الفوضى تلك تصبح كلما لو كنا قد أدركنا وجود تيار قوي يجري تحت الأرض، مثل ذلك التيار الذي سمعت صوته بالقرب من فريش، وربما نشعر أحياناً بشدة قربيه منا حتى يمكننا حينذاك أن نسمع صوت جريانه.

لني حينما أشكو من السام، فإني أصبح مثل من أصابه الصمم بسبب إصابة برد في الرأس، حينذاك لا نسمع شيئاً. وحينما أرفع بصري لكي أنظر إلى وجه شارلوت انجيسر، يخفي بالصمم، وسمع صوت جريان الماء تحت قدمي.

ومن المؤكد أنه إذا كان الذين هو ذلك الإحسان بعموض العالم والخطيئة، وبضخامة
واعتداد ذلك اللغز الغامض، إذن فإنه ليس هناك من شيء يمكن أن يدلنا على الطريق القدس
للنيل من النساء والرجال؛ لذا لا ينبغي أن يكون...".

تنتهي القصة هنا، في منتصف الصحيفة، كما لو كان الكاتب قد قاطعه شيء ما.
ولكن كلمات "بها الصديق العزيز" بدت لي، كما لو كانت توحى بأن دونيللي إنما كان
يكتب مسودة أولية لخطاب، وأنه قد قرر فجأة أنه قد يكون من الأفضل أن يشرع في نسخ ما
كتب في الخطاب نفسه وأن يكمله بعد هذا مباشرة دون حاجة إلى مسودة. فمن الذي كان
سيتلقى هذا الخطاب؟ كان العلاف الذي احتوى القصة موضوعاً وسط حزمة الخطابات
الواردة من هوراس جيليني، وكانت خطابات جيليني إلى دونيللي تكثر من الاقتطاعات من
مكتبات فولتر وهو ساندويل والامبير، كان الاقتراض المقبول إذن أن يكون جيليني - وهو زميل
دونيللي في الدراسة بالكلية العليا في غوتينغن - هو من يتلقى خواطر دونيللي الخاصة
وإنما لاته الدينية.

كانت ميس إيلين قد وضعت نسخة المخطوطة جانباً، وراحت تنظر من نافذة
نظرة غائمة. سألتها،

"هل حدث أن سمعت عن سيدة تدعى اللادي شارلوت أنجسر؟"

حفلت الأختان معاً لدى سماعهما هذا السؤال. وكانت ميس تينا هي التي قالت بعد
أن رمت أختها بنظرة سريعة:

"لماذا أجل. كانت ابنة إيرل فلاكسفيلد..."

ثم توقفت عن الكلام، كما لو كانت قد شعرت بالحرج، ولكن ميس إيلين أنهت
كلام أختها بقولها: "وشقيقة لادي ماري أنجسر التي أصبحت فيما بعد ماري جيليني".

لم تكن بحاجة إلى من يذكرني بهذا الاسم الأخير، فقد ظل الاسم عائداً بذهني منذ
الأسبوع الماضي حيناً ذكرته ميس إيلين أول مرة في الهاتف. قلت،

"هل حدث أن عرفت أن إيزموند كان يحب اللادي شارلوت؟"

قالت ميس تينا، "يقولون إنه كان يحب الثلاث".

"الثلاث؟"

"لادي ماري ولادي شارلوت، ولادي مورين". قالت هذا ثم نظرت إلى أختها بصيقل.
هزت ميس إيلين كتفها وقالت،

"أعتقد أنه سيكتشف حقيقة الأمر على أي حال".

قالت ميس تينا، "لقد كنت جميعاً جميلات جداً بكل تأكيد".

"هل توجه، لهن أي صور؟"

"أوه أجل. إن الصورة التي رسمها رومني" مشهورة تماماً".

"مين هي؟"

بدت عليهما إشارات الدهشة لجهلي. وقالت تينا،

"هنا، بالطبع".

"يمكنني أن أراها؟"

نهضت صلاتهما دون كلام، وقادتاني خارج الحجرة، وفي البهو، اختفت ميس إيلين
لنفاثق قليلة، ثم عانت وهي تحمل مفتاحاً ضخماً. عبرنا البهو نحو بابين كبيرين من
خشب اللاهوجني. قالت ميس تينا،

"يصر رجال شركة التأمين على أن تظل قاعة الوثائق مغلقة، فإن بعض الصور
تساوي قدرأ كبيراً من المال".

فتحت ميس إيلين الباب، فهبّت علينا هبة من هواء بارد قوي الرائحة. أضاعت الأثواب،
فدخلنا إلى "العرض الطويل" وكان بارداً كالثلج. كانت النوافذ مغطاة بالضلف الخشبية،

(١) جورج رومني (١٨٠٢-١٨٧١) رسام إنكليزي رومانتيكي أشهر بأوحاته التاريخية وبصوره للوجوه وأوجه
الشخصيات المعاصرة.

والنابض والنفاد تحت الأغصان. وكان من السهل أن أتصور أن أحداً لم يدخل هذا المكان منذ سنة واحدة متكاملة على الأقل. فالتفتي إلى صورة صغيرة نوعاً ما معلقة على الحائط الأخير. وكانت الصورة بحاجة إلى تنظيف. ورغم هذا فإن ما علق بها من أثرية لم يخف جمال الوجوه الثلاثة. وكانت الفتيات في وقفة تفهيمية تبدو ورعهن خلفية من لأشجار وجزء من نبع ماء جار. كانت شارلوت - التي رأيت صورتها منذ قليل - معروفة لدي بسهولة وعلى الفور. وكان الجمال هو الشيء الوحيد الذي تشترك فيه الشخصيات الثلاث. وكان وجه شارلوت بريئاً ذا خنيتين ورديتين. كوجه أركادي أصيل. أما الفتاة الجالسة إلى جوارها مباشرة وهي تلاعب كلباً صغيراً كثيف الشعر، فكان من الواضح أنها أكثر ذكاءً. وجهها الناعم الرقيق المرتفع على رقبة مثل رقبة البجعة. أما شعرها قصير بكاد يشبه شعر الصبيان. فالتفت لي ميس تينا أن هذه هي ماري التي أصبحت فيما بعد لادي ماري جيليني. أما موريين، والتي كان من الواضح أنها أصغرهن، فقد كان لها وجه لا بد أنه أصبح بعد ذلك بالغ الجمال. وكانت تبدو هي الأخرى رفيقة كريمة. كان من الواضح أنها فياضة العاطفة دافئة القلب. من النوع الذي يمكن أن ينفجر في البكاء عند سماع قصة محزنة. استلمت إحدى يديها لكي تلاحظ الكلب. هذه الإشارة الواضحة الرمز إلى طبيعتها للزعة العاطفية.

فالتفت ميس تينا بكبرياء: "لقد دفع إيزموند وحده ثلاثين جنيهاً لرومني في مقابل تلك اللوحة. وقد عرضت علينا خمسة آلاف جنيه ثمناً لها".

كان موسي أن أرى السبب الذي دفع إلى رواج الشائعات عن وقوع إيزموند في هوى الشخصيات الثلاث جميعاً. فبعد التحديق في صورة الوجوه الثلاثة لمدة خمس دقائق أصبحت أنا نفسي قريباً من الاقتناع بهذا الهوى الثلاثي كحقيقة ممكنة. كانت لكل واحدة منهن سمات خاصة تلوح على وجهها تبدو كما لو كانت تبرز وتطفو على سطح الوجه ككلمات أمثال لراء التحديق فيه. لقد كان موسي أن أكتب رواية عن ثلاثتهن

"الديكن صورة يبدو فيه وجه إيزموند؟"

"أوه، أجل، لدينا اثنتان. واحدة بريشة ريبورن والأخرى بريشة رسام يدعى زوفاني".

لم توح إلي لوحة زوفاني إلا بالقليل. كان الوجه جامداً لا ينم عن حركة. فالتفتي إلى أثر من شراوات الحبال. كان دويللي في الصورة يرتدي زي الضباط متكناً على شجرة كان من الواضح أنه بالغ الطول نحيف القامة. أما الوجه فكان طويلاً، بارز الفك، مستقيم الأنف.

أما لوحة ريبورن فكانت أكثر إيجازاً. لم يكن فيها أي ادعاء أو تظاهر، ولا تكاد تظهر فيها أية خلفية. ومن بعض جوانبها كانت تبدو كما لو كانت رسماً تخطيطياً سريعاً تهينة لرسم الصورة نفسها. ولكن ريبورن كان قد استطاع أن يقبض على تعبير يعلو الوجه ينم عن اللفظة، حيناً رسمه متطعماً إلى الأمام كما لو كان يصفي إلى قصة ممتعة. لم يكن الوجه من ذلك النوع الذي يمكن أن يقال عنه أنه وجه وسيم. كان الأنف ذو العظمة البائسة والخنين البارزين قد جعلاني أفكر في صورة شرلوك هولمز. ولما التفتت عن هذه اللوحة لأنظر مرة أخرى إلى لوحة زوفاني، رأيت سمات أخرى في تلك الأخيرة: حجم الصدغ الذي يوحي بنوع من السيطرة على وضع الوجه وما يعلوه من تعبير، مثلما يمكن أن نراه على وجه جود أصيل جيد التدريب وفقاً كالتمثال في ساحة العرض قبل بداية السير.

وبينما كنا نقادر الحجرة - وقد تجمعت أجساد ثلاثتنا - قلت:

"أظن أن إيزموند كان يمتلك كل المميزات اللازمة لاجتذاب حشود من المعجبين والمعلقين".

"هل تظن هذا؟" وبنت على كليتيهما سمات اللفظة إلى الإجابة.

"إن هذه الحكاية عن وقوعه في هوى ثلاث من الحسان تجعله شخصاً ملانماً تماماً للحكايات العاطفية - شخصاً "بيرونياً" تماماً. إنه شخصية أكثر إثارة للاهتمام من بوزويل نفسه".

"لقد رأيت ذات مرة فيلماً عن شويان. كانوا قد صنعوا هذا الفيلم بطريقة جيدة وكنت أبكي طوال العرض" قالت ميس تينا.

"أتخيل أنهم قد مروق لهم أن يصنعوا فيلماً عن إيزموند؟"

"يمكننا أن نريح الكثير من المال؟"

”تخيل هذا“.

قالت ميس تينا: ”أذن نقاسمناك الريح معنا“.

”هل تعرفين شيئاً عن حكاياته مع الشقيقات الثلاث؟“

”ليس على وجه التحديد، إنه أقرب إلى أن تكون حكاية عائلية“.

”وماذا عن موت نورد جليبي“.

قالت ميس لين: ”لقد أصيب بالرصاص. ولست أعرف الكثير من التفاصيل، ولكن أبي لربها مرة في مكتبة ديبلن القومية، ولذلك فإنه ليس من الصعوبة البالغة أن تراجعها. كان هناك همس حول ما أحاط بإيزموند من شكوك، ولكن أبي قال إنه ليس من المحتمل أبداً أن يكون الفاعل. أتمنى أن تتولى أنت توضيح ذلك الأمر“.

”سوف أبذل جهدي بالتأكد“.

فيل أن أغادر المنزل، صعدت معهما لمشاهدة الخزائن العلوية. كانت شديدة الظلام، بطولها تراب كثيف، مليئة بركام كثير من شتى الأشياء التي تراكمت عبر القرون: إشارات صور مكسورة، كتل وأشكال أخرى من الخشب لا يمكن معرفة الغرض منها. قطع تلك معظمه، أنية اغتسال من البروسلين، حزم من الأوراق التي يمكن أن تكون أي شيء، من حسابات الزارع إلى اليوميات المفقودة. نظرت إلى هذه الحزم نظرة عابرة وفهمت ما كان بروكيسور أبوت قد شعر به بالتأكيد في الخزائن العلوية في منزل فوربس، عندما أحاطت به المخطوطات، ولكن ذكرى أبوت منحتني فكرة جديدة.

”أليس لديكما أية فكرة عن الشخص الذي عينه إيزموند لكي يكون مشرفاً على

تراثه الأدبي؟“

نظرت إحداهما إلى الأخرى نظرة لا تنم عن شيء.

”كلا. سوف نحاول أن نكتشف ذلك“.

وفيل أن أغادر المنزل فلت أنني لأبداً أن أعود مرة أخرى في موعد قريب جداً لكي أنظر في الأوراق. وحينذاك - ولشدة دهشتي - قالت ميس تينا: ”ليس الأبسط إذاً هو أخذها معه، يا

عزيزتي؟“ فقالت ميس لين فور تردد: ”أوه، بالتأكيد“. وأخذنا في معاونتي في عملية نقل الأوراق ووضعها بشكل جيد بعض الترتيب في مقعد السيارة الخلفي. ورهقنا بشدة قبول ما عرضته عليهما من دفع نوع من التأمين. ورحلت أفود السيارة وأنا أشعر بما يشبه النقل يحط علي بسبب ثقتهما. عندما أخذت أفكر في هذه الثقة، سرعت في فهم السبب. لقد كانت وحيدتين وأقرب إلى الإفلاس رغم أنهما تعيشان في ظل هذه العظمة الفاخرة مع شح الموارد والفين، دون أي احتمال لشيء جنيدي إلا أن يتقدم بهما العمر نحو الشيخوخة. ومن المحتمل أنهما كانتا تتساءلان إيهما سوف تقبيل قبل الأخرى عن هذه الحياة. وحينما تموتان، فمن المحتمل أن ينهب المنزل مرةً واحدة لأحد أبناء الأسرة البمبيليين من الذين يقيمون في كندا أو نيوزيلاند. ولكن مكان العالم الكبير بطرق الآن يابهما. كان هناك شيء ما تحلمان به - الناسرون، تعويضات الفيلم، الدارسون التخصصيون وهم يتهاوتون جماعات جماعات لزيارتهم. وقد أريدنا أن تؤمنا بكل ذلك وأن تصدقنا، ولذلك فقد أريدنا أن تؤمنا بي وأن تصدقنا، أو تقبلاني قبولاً كاملاً، وأن تنظروا إلي بشيء من الود الكين. أما ما اعتبرته أنا أعظم العقبات - وهي سمعة إيزموند باعتباره من كتاب الأدب الداعر الكشوف - فقد تحولت لكي تصبح شيئاً لا علاقة له بالعقبات أو العوقات، منذ أن أعلن لهما عن ريف وصف كتاباته بالأدب الداعر أو عدم معقولية هذا الوصف، وصرحت لهما بأنني أنوي أن أعلن هذا الرأي في الكتاب المنشور نفسه. كانت الأجزاء التي حصلت عليها من مذكرات دونيلي - عن طريق الكولونيل دونيلي - صريحة من الناحية الجنسية، ولكنها لم تكن أكثر صراحة من مذكرات بوزويل، وكانت قبل كل شيء، مكتوبة بأسلوب جيد.

جعلتني هذه الاعتبارات أشعر بأنني في حالة أفضل. كنت قد ظننت أنه ليس هناك فرصة معقولة لإحياء ذكرى دونيلي حينما أعطاني هليشر مخطوطة ”المذكرات“. ورغم كل شيء فقد كانت هذه نظرة مرضية.

حينما فحصت حزمة الخطابات الجديدة، عرفت أننا قد حصلنا على كتاب، سواء ظهرت أم لم تظهر أية مخطوطات أخرى لدونيلي. فإذا استبعدنا مخطوطة دونيلي، كانت هذه الخطابات أكثر ما حصلت عليه حتى الآن جانبية وإثارة للخيال.

من الصعب أن تتخيل ثلاثة أشخاص يتبادلون الرسائل ويكوشون ذوي شخصيات أكثر اختلافاً من توماس والجريف وويليام أستون وهوراس جليبي، إلى جانب أنهم قد

كنفوا عن تعدد شخصية دونبيلي نفسه. كان والجريز رجلاً من دبلن اهتماماته الرئيسية هي الفلسفة والرياضيات، وكانت خطباته إلى دونبيلي تهتم أساساً بهتيموس بوسوعين. أما استون فكان يدرس اللاهوت في إحدى المدارس البروتستانتية في عام ١٧٧٢، وهو تاريخ الخطاب الأول. وأصبح فيما بعد قسيساً في بالينكولج. بالقرب من مدينة مكورك (حيث كان يقع منزل عائلته). وقد أزعجه إلى درجة كبيرة ما ظهر أنه ميلان متناقض في شخصية دونبيلي، تجاه عدم الإخلاص وتجاه "الحماس" (أي التعصب أو الإيمان الغيبي). حينما كان دونبيلي يقضي من هولشر وبابل ومونسكيو، كان استون يجيبه بحجج مستمدة من مواضع جورجين ولوجتين، وتيلوستون وسمارلينج وشيرلوك. ولقد وجدت مثل ذلك حشواً لا لزوم له وكنياً إلى درجة لا تصدق - المناقشات الطويلة المملقة دقة من يريد أن ينسج شعره بالطول إلى نصفين، حول موضوعات التناسخ والحرية ومقدار ما في أناجيل من حقيقة الخ. ولكن كان من الواضح أن أيزموند لم يكن يرى أن هذه المناقشات قد تكون مضجرة، ذلك لأن إجابات استون كانت طويلة مطبقة، مما يشير إلى أن رسائل دونبيلي مساوية لها في الطول والإطناب.

ولكن خطابات جليبي كانت هي التي تلامت مع ما كنت أعرفه بالفعل عن أيزموند دونبيلي. فبعد أن قمت بترتيبها طبقاً لتسلسلها الصحيح (مع قدر معين من التخمين - فقد كان الكثير منها غير مؤرخ) اتضح أنها استمرت من شهر مايو، عام ١٧٦٧ حتى عيد الميلاد عام ١٧٧١. كان جليبي وأيزموند معاً في غوتيفين أغلب تلك الفترة، ولذلك لم تكن مراسلاتهما مطولة كما كانت الحالة في مراسلات استون. ومن الواضح أنهما كانا يتبادلان الرسائل حينما كانا يفرقان لمدة طويلة، ولكن هذا الافتراق لم يتكرر كثيراً لأنهما كانا صديقين إلى حد كبير.

أما قصة علاقتهما، وهي التي أصبحت قادراً على تجميعها من خلال خطابات جليبي فكانت كالتالي. حينما التقى أيزموند دونبيلي بروسو وبوزويل في تيو شاتل، انتقل بعد ذلك إلى ميلان حيث قضى عيد الميلاد في عام ١٧٦٤. وفي شهر يناير قضى أسبوعاً في البندقية، ثم قضى أسبوعاً في مدينة عراترن. في طريقه إلى غوتيفين. وهناك تعرف على جورج كريسٹوف ليتشنيرج، الذي أصبح فيما بعد فيلسوفاً بارزاً (ولكنه كان مهتماً في الأساس في تلك الفترة بالرياضيات والفلك) كما تعرف بالفيلسوف هوراس جوردون جليبي. وكان هذا

الأخير شاباً وسيماً ذكراً البشرة، يكاد يكون يهودي اللامع، وكانت لكنته اسكتلندية واضحة في نطقه للإنكليزية، وكان أكبر بقليل من دونبيلي، ولكنه أقل ثقافة بكثير، وكان الإثن الثاني لأحد سادة الريف الاسكتلنديين جاء من المناطق غير المأهولة أو المتحضرة من تلك البلاد. كان هناك شيء واحد يشترك فيه الثلاثة، ليتشنيرج وجليبي ودونبيلي - وهو الاهتمام الدائم بالجلوس الآخر، وكانت غوتيفين مدينة مفتيات الزارع الشابات الزعجات بالصحة والعافية، وهن اللواتي وصفهن ليتشنيرج بقوله: "الخلوقات التي تتقافز مرحلة في وديان هارز أو وديان وسلينج واللواتي لم تقع أعينهن أبداً على مبلغ من النقود أكثر من ثلثي الواحد، واللواتي يتنظرن إلى قبعة السيد النبيل المزينة بالريش نظرة فزع بينما تبدو طلبات أصحاب تلك القبعات كالأوامر الملكية". وكانت غوتيفين بلدة ذات شهرة أكاديمية سامية، على العكس من هال أو بينا أو جيسين وهي المدن التي كانت مليئة بأدعياء العلم الذين كان مصط اهتمامهم الرئيسي هو البارزات. ولكنها مثل أكثر المدن الأخرى في ألمانيا، كانت منظمة تنظيمياً رقيقاً، بسودها انضباط صارم حيث اعتاد فلاحيون أن يطعموا أوامر سادتهم مع الإشارة هنا أن تلك الأماكن كانت جزء من إكلية، وكان الملك جورج الثالث دوقاً لهانوفر بالإضافة إلى كونه ملك بريطانيا العظمى، وهو واقعاً ما كان قد دفع والذي أيزموند إلى اختيارها مقر لدراسة ولدهما. وقد انتهج أيزموند وجليبي حينما اكتشفا أن تلك الخلوقات اللذيذة لم تكن بحاجة إلى الإغواء مثلما كانت الحالة مع الفتيات في الوطن. ويذكر جليبي في أحد خطباته أن ليتشنيرج اعرضه باتهامه إيام بأنه كان يسعى إلى اقتضاض كل عذراء في مقاطعة هانوفر. استعداداً لأن يقضي حياة كاملة من الجرمين حينما يقدر له أن يعود إلى وطنه لظهوري التزمت

ولكن جليبي كان أبله إذا ما قورن بأيزموند، أو أنه كان رجلاً ضيق الأفق، وقد سيطر عليه أيزموند سيطرة كاملة، ومن الواضح أن جليبي قد أثار ثائرة أستاذ لهما يسعى كاستنر حينما قال له أن أيزموند واحد من أعظم العقول في أوروبا بعد موسير مندلسون. (وبعددها، اعتاد كاستنر أن ينادي أيزموند ساخراً باسم "الأستاذ الأعظم") وكان ما سحر جليبي في شخصية دونبيلي هو ما كان يتمتع به من جمع بين الحيوية الجسدية والسمو العقلي. كان ليتشنيرج شديد الذكاء واسع الثقافة، ولكنه أيضاً كان ضعيف الجسد عاجزاً كالأحلب. كان أيزموند يملك مؤهلات كبيرة وجيدة في استخدام السيف، وكان فارساً جيداً وسباحاً ممتازاً، ومحبباً إلى النساء، كما كان أيضاً قريباً من أن يكون شاعراً وفيلسوفاً

ومنسوقاً. أما جليني فكان قد حصع لسيطرة ابوية شديدة الوطأ. وكان مبالاً لأن يكون تاسماً مقهوراً. وفي غضون شهور قليلة كان دونيللي يصفه بأنه: "نموذج للشهامة والشهوانية والإغواء والبهادة والمناذ والقسوة على الفراع المذاري". ولكن سرعان ما تملكهما الضجر من خدومات للنهضة نوقت الأجساد الضخمة، وشرعاً في توجيه انتباههما إلى نباتات الأساندة وغيرهم من المواطنين المحترمين. ومن الواضح أن النهضة قد تملكتهما وغمرتهما بالهجة لما ألباه من نجاح، وكاد أيزموند أن يتعرض لخطر كبير على أثر علاقة كانت تتحول إلى الزواج من الابنة الصغرى لشميس في بلدة نورثين هاردينغ، وهي الأنسة أولريكادوسان. ولكن حينئذ لا نفرص أن أيزموند وجليني لم يكونا يفرقان أبداً. ومن الواضح أن جليني ما كان يمكن أن يبتهج لو اتهمها الاثراء. ولكن أيزموند كان يهتم أيضاً بقراءة كتابات وبيارسة الرياضيات والفلك. ويشير جليني إشارات عديدة إلى إهمال أيزموند لسانه. ولكنه كان يعجب بأيزموند إعجاباً جاراً حتى لقد كان على استعداد لأن يقبل أي قدر من انتباه يمكن أن يوليه أيزموند له.

إن الخطاب الذي أرسله جليني إلى أيزموند في التاسع والعشرين من شهر ديسمبر عام ١٧٦٦ خطاب نموذجي حقاً. أنه يستهلك صفحة ونصف صفحة من الشكوى من أن دونيللي قد أعمل دعوته له لتخصية عيد الميلاد في منزل الأسرة بالقرب من جلوسي. وفي وصف مباحث لرحلة شمالاً في أواخر شهر نوفمبر. ولابد من قراءة وصف جليني للطعام الذي انتهج في يوم عيد الميلاد حتى يمكن للقارئ أن يصدق أن هذا هو ما كتبه بالفعل. لقد بدأ الطعام في الساعة والنصف صباحاً بإفطار من شطائر الشعير وسمالك السائون السلوفة، ولحم الخنزير، ولحم سيقان الخنزير، والحلوى والفواكه السكرية. ولكن الموضوع الرئيسي في الخطاب - بشكل حتمي - كان متعلقاً بوصف مقامراته الترامية في أثناء العطلة. "كنت قد قررت في البداية أن علي أن استحوذ على كرم فتاة تدعى ماري ماث بين، وهي ابنة أحد الفلاحين الذي يؤجرون أرضنا، والتي كانت قد أعربت عن بعض المشاعر الرقيقة تجاهي قبل أن اغادر المدينة. رغم أنها كانت قد أقسمت في ذلك الحين أنها تفضل أن تموت على أن تفقد احترامها لنفسها". وقد ثبت أن الانحياز ماري كان أسهل بكثير مما كان يتوقع. وقد تم ذلك في أحد مخازن الحبوب بعد حفلة رقص كان السيد الشاب في إنائها محور اهتمام الفتيات كلهن. (وفي مثل هذه المنطقة النائية، يحتل السيد بأجراته ومؤجري أرضه بحرية مكافئة). وشعر جليني بنوع من الإغراء يدفعه إلى مواصلة قصة غرامية مع ماري.

الأمر الذي كانت حينئذ بان اليوم به في الماضي دون أي تفكير، ولكنني في هذه المرة رجعت نفسي على ضوء مبدئك العظيم أقتل بأن الهدف الأساسي في الحياة هو تحقيق نوع من مفرحة التفرمة وحديثها، وكان علي أن أعترف بأن رغبتني في الفتاة كانت تفقد حرايتها تدريجياً، وأن رؤية قبعته الحبرية الخفيفة وإزارها الملونة لم تعد تؤدي إلى تأثيرها القديم. وقد حاولت دون نجاح أن أكرس عقلي للدراسة.

"وفي اليوم الثامن والعشرين عانت شقيقتي ماري (التي قابلتها كنت في بحث أمان كينيتكاريين. حيث كانت قد قضت عيد الميلاد مع فيونانغوتري وهي ابنة مسيحية كفيفة لأمي. وأختي كما تعرف. نجيفة ضئيلة الحجم بالنسبة لسنها (الرابعة عشرة) ويمكنني أن أقول، دون كبرياء لا مبرر له، إنها تحبني بنفسه لم أقبل أنا سوى القليل لكي أستحقه. وقد أحسست بما يشبه الصدمة حينما اكتشفت أن فيونا قد تعرت إلى لرجة عظيمة في أثناء الثمانية عشر شهراً التي انقضت منذ رأيتها لأخر مرة. إنها تمر بتلك المرحلة الساحرة حيث تبقى أفكار وأساليب الطفلة، بينما يكون الجسد جسداً امراً. إنها تملك وحياً ساحراً ورنياً. وشقة عنيا القصر بكثير من رقيقتها الأمر الذي يعطيني لمعها شكلاً بارزاً قد يظنه البعض تجهماً على سبيل الخطأ. كانت في طفولتها أقرب إلى الصبيان في ألعابها وسلوكها إذا جردنا هذه العبارة من كل ما تدل عليه من عدم تواضع أو رقة) ونظائلاً تعازكت معها وصارعتها وأمسكتها من ساعديها بقوة. أما الآن، وطالما أنها أصبحت على مثل هذا الجمال. فقد قررت أنني قد أقبل ما هو أسوأ من اتباع نصيحة مستشارين فأنشئ علاقة عاطفية معها، حتى ولو كانت من جانب واحد إلى حد ما.

(لقد وضعت أنا هذه النكاح في الأماكن التي يبدو فيها من كلامه نوع من الانحطاط في بوائمه، طالما أنها لا تؤدي إلى غرض ما. وقد ثبت أن هذا كان أكثر سهولة مما توقعته. ذلك أن كل ما كان علي أن أفعله هو أن أعاملها مثلما أعامل ماري. باهتمام كثير وبود حيوي. أنني أقول لك في أمانة كاملة أن أفكاري حتى تلك اللحظة كانت برينة إلى الدرجة التي يمكن أن يتمناها الراعي الصالح جايكس. كانت في حجرتهما ملهاة جيدة. وقد قضيت هناك ساعات طويلة أحسني أهداحاً من الشاي وأضيف لهما عادات هانوفر وأهلها. شاعراً بالعالم كله مثلما كان يشعر به عطيل الغربي. ولقد وجدت أن الانتباه الرقيق الصادر عن هاتين الطفلتين أكثر إثارة ومسرّة من دراسة هلاكوس وأقنعت نفسي في اللحظة ما بأن

منا هو ما عناه روسو وما كان يفكر فيه عندما تحدث عن النعيم الثاني الذي نهبنا إياه الطبيعة.

"ولكن للأسف، لقد لقيت مشاعري السامية هزيمتها الأولى في اليوم الثاني من العام الجديد، قبل حوالي نصف ساعة من تناول العشاء. كانت الفتاتين تلعبان حينما دخلت الحجرة، وحينما اشتركت في لهُوهُما، لم أستطع أن أنزع نفسي من ملاحظة اشتراكتي رمي فيونا حينما فُضرت فوق السرير لكي تهرب من ماري، ولا شكل سمائتي ساقبها الجميلتين حينما نعلت إلى الأمام مرة ثانية. وحينما مدحت ما طرأ على شكل جسدها من تغير، لم يد عليها الحرج، وإنما ضحكت على ما قالتها، وقالت ماري أن السبب يرجع إلى تناول الكثير من اللحم السمين. وبعد ذلك طلبتا مني أن أقرأ لهُما من كتاب "جرانيسون"، الأمر الذي قمت به تلبية لسؤلتهما، جالساً أما نار المدفأة على البساطة السميك، بينما جلسنا إلى حوار في عيتمان النوبيين الأزرقين من اللوسلين اللذين كان عليهما ارتداؤهما في حفلة الرقص التي سقام في "ستاشيفيري" في شهر فبراير. وبعد قليل، استغرقت ماري تماماً فيما كانت تسمعه حتى لقد ألقت بالنوب جانباً ووضعت رأسها على حجري مائة ساقبها لكي ترقعها على مقعد صغير قريب. وبعد لحظات قصيرة حلت فيونا حذوها ثم تحركت ماري إلى أعلى بطريقة جعلت خلفية ثوبها ترتفع فوق فخذيها، كاشفة عن أحمل ساقين رابتهما في عبيد اليلاد... وحينما دق الجرس يدعو أهل البيت إلى العشاء، انتهجت حينما لاحظت ترددها في النهوض، وتظاهرت بأن هذا الزيت كان لأنها عرفت في النوم. ولكنني أنا، الذي كان يوسعي أن أرى حركات جفونتها، أعرف الحقيقة.

"في اليوم التالي لم يقع المزيد من التقدم، لأن الوزير كان يريد أن يرد على دعوتنا، ثم أخذهما لي وأخي موراي في سزعة بالعربة لكي يطلعاها على منظر أبراج قلعة داترويين. ولكن حينما رأيت فيونا قبل أن تتناول طعام العشاء، قالت، "لقد اختلفنا هزيمتنا اليوم. عليك غداً أن تقرنا ضعف ما قرأناه أمس". جلبتها قريباً مني وتركت يدي تتجول فوق ظهرها، سائلي عما فعلته، فقلت، "أرى لكم من الأزرار غير مثبت في موضه".

"كان اليوم الثاني الأربعاء، شمساً وبارداً، وكان "اللورد" جلبي بالخارج طيلة اليوم في طلب سيدة عجوز تستكي أمر اغتنامها، وحينما أخرجني جاسي هذا الحبر، قلت له أنني ساستمر في النوم لكي أتناول طعام الإفطار، وأطلب أاء الساخن في العاشرة. وبعد ذلك بقليل،

وبينما كنت في ثياب نومي وانفأ أؤدي تمرينات الصباح، دخلت ماري وسألني إن كنت أحب أن أتجول معهم في غرف القصر الخالية. وسرعان ما حانت فيونا للبحث عنها، وأعصت الاثنين بقمماش قميص نومي الذي كان واحداً من تلك القمصان التي نشرتها في سراسوراً من سوق الحرير. وحينئذ قصت فيونا حكاية عن خادم يعمل لدى عمتها الذي كان يعبر وقد ارتد أكمام قميصه دون قميص حقيقي لكي يعد المائدة للضيوف. وقالت له إن يرتد سرته فأجابها، "بالأكيد يا سيدتي، ولكن السرة تحمل كثيراً من الأشياء الصغيرة التي تجري هنا وهناك. وقد مزعتها الآن لتوي، وأنا أكره أن أخلع سرتي وصداري، ولا أري أن متى سأظل قادراً على تحمل هذه "الأكمام" الباردة." وضحكنا جميعاً على هذه النكتة ولا حظت في رضا وكيف أنها نظرت إلي وأنا في هذه الثياب البلية دونما حرج يزيد على ما قد تشعر به ماري. الأمر الذي داني على أنها تفكر في مثلما تفكر في أخيها الشقيق. وهكذا، قبل أن استأذنها في الخروج، لكي أرتدي ملابسي، أحطت خصر كل منهما بذراع وضففتها إلى صدري، ولاحظت أن امثلاء فيونا قد يحفظ الرجل دفته دون حاجة إلى قميص للنوم.

"لبس علي هذا، يا عزيزي تيد، أن أصف الصباح وصفاً كاملاً، وإلا لأصبح هذا الخطاب في مثل طول موعظة من مواعظ مار بورثون. ولذلك قدعني اكتفي بالقول أننا قد فرحنا وضحكنا كثيراً، وانتهزت أنا كل فرصة لكي أطارد ككلامهما، من أجل أن أشعر بالدفء في ذلك الجناح البارد من القصر، ولكي أجعل فيونا تتعود على أن تالفي. وكان علي بالطبع أن أكرس الكثير من انتباهي لماري، لكي لا أثير الإحساس بالتناقض بينهما ولكي أجعل فيونا تتقبل لسانتي كشئ طبيعي. ولم التق في هذا المجال باية مقاومة، لأنهما جميعاً كانتا تتمتعان بروح رياضية عالية.. لسوف تسجل ملاحظة عن الدرس السنخلص من كل هذا يا تيد، لكي تضمنتها تاريخك. إن الموقف هنا يكشف عن حقيقة وصدق ما يؤكد ليتشبرغ من أن الشاعر والأحاسيس تتداخل وتمتزج مثل المواد الكيميائية. لقد كانت ماري شغيفتي، وقد انتهزت كل فرصة لكي تؤكد ذلك لفيونا، كما لو كنت شيئاً قابلاً للاقتراض. وقد قبلت فيونا هذا الفرض وما تبعه من أنواع الرعاية والأهتمام الأخوي، وأنا كنت الآن قد حصلت على تصريح بأن أعامل فيونا مثلما أعامل ماري، فلم يكن علي حينئذ سوى أن أعامل ماري بالألفة التي أريد أن أعامل بها فيونا حتى أجعل الأمر كله يبدو طبيعياً دون افتعال.

"ولقد ظهرت مبصرة هذا الوضع في وقت لاحق لعصر ذلك اليوم، حينما ذهبت إلى عرفتتهما لكي أقرأ لهما من كتاب "جرانديسون". كنت أعرف أنهما تتويان تجربة النوبيين الأوربيين من اللوسلين قبل القيام بحياسة الأشرطة. ولذلك فقد ذهبت مبكراً. كانت فيونا ما تزال تخطط ثوبها، ولكن ماري وقفت في قميصها الداخلي، تحاول أن تجرب شيئاً مصنوعاً من عظام الحوت. وطلبتا مني أن أقدم النصيح من وجهة نظر الرجل، الأمر الذي قمت به بسعادة بالغة، بينما كنت أساعد ماري في شد أربطة الشد. قلت لهما أن إساءة ياريس، في البلاط الملكي، يفضلن ارتداء ثياب تترك صدورهن كلها عارية...

وبعد ذلك ساعدتني في ارتداء الثوب، وتحدثت مثل مليونير عن التحاسن النسبية لكل من المواد المعدنية أو العظام في صناعة الأزرار، وعن محاسن اتخاذ بعض العزّز الذهبية فوق عروة الكرسي!

"حينذاك، كانت فيونا قد وضعت إبرتها جانباً، فسانتتهما إلى مكانت تحتاني لكي أفك أزرارها، هذه الأزرار التي كانت بين يديها هذه المرة. وبدا عليها الخجل، ولكن ماري المخلصة لي أكلت - مثل تأخير شرقي ذكي - أنها لن تغور لبدا بمثل هذا الخادم اللرب. وبناء عليه، دخلت الفتاة في جو اللعبة، فسمحت لي بأن أفك أزرارها وأن أجذب ثوبها إلى ما تحت الكتفين، وفي هذه المرة لم أسمح لنفسني بمزيد من الحريات مع الفكرتين الناعمتين اللتين كانتا مكشوفتين أمام عيني، لأنني شعرت أن ماري قد تجتاحها الفيرة. وبدلاً من ذلك ساعدتها على ارتداء ثوبها الأزرق...

"دخلت الخادمة لكي تزود النار بالخشب، فجلست على مقعد وتظاهرت بالانغماس في قراءة كتاب ما. ولكن حلماً أصبحنا وجهدين مرة أخرى. افترحت أن نعود إلى قراءتنا قبل أن يسود الظلام (الآن الساعة كانت بعد الرابعة). قالت ماري إنهما لا بد أن تبدلا ثيابهما أولاً. ولكني قلت لها أن الأمر لا يستحق هذا التعب، وأنهما على أي حال يمكن أن تعرفا أن كانت مادة نسيج الثياب من النوع القابل للتكسر أم لا. واقبعتهما تلك الحجج، فجلستا إلى جوارتي على البساط السميك، وحالاً بدأت في القراءة. عادت ماري فوضعت رأسها على حجرتي، وسرعان ما حلت فيونا جنوها واتخذت شكل منهما وصعاً لا يسمح لها برؤية الأخرى، لكنني اتخذت إجراءً ففانياً إضافياً ضد التلصص المتبادل بأن أسنبت الكتاب إلى رأس ماري بحيث يمكن أن يسقط إذا هي تحركت. ويمكنك أن تلاحظ أن هذه الحيلة تركت يدي

كانتبهما حرتين. وفي هذا الوضع شعرت كأنني مشهود "معتور" بين جرانديسون الفاسل وبين زهرتي الشائنتين. ولما كانت فتحة ثوب فيونا واسعة هابطة إلى أسفل، والظهر مفلوحاً، فلم تكن هناك مشكلة في أن أفس يدي إلى ما وراء الإبط، ثم إلى شديدا الأيمن. كنت حركات جلدها تحت ملاحظاتي أن هذا التقدم لن يكون موضع الرهش.. وحينما بدلت الضغط على الحزمة اليمنى، لم يكن بوسعني أن أحكم على النتيجة إلا من تريد معدل تنفس شهيقاً وزهيراً، وجلدت في ذلك بهجة كبيرة حتى أنني بعد قليل، حرمت يدي إلى فها وضغطت على الشفة السفلى، ثم لعبت بها قليلاً بين إبهامي وسبابتي. وأطبقت هي شديدا حول إصبع السبابة، وراحت ترضعه كما لو كان حزمة طفل صناعية تعطي له لكي بها حتى يأتيه الطعام. وحينما تعبت من هذه اللعبة، دنت يدي إلى صدرها مرة أخرى، ولكنني توغلت هذه المرة تحت الجانب الأمامي من الثوب...

"ثم قالت فيونا، "لقد ساد الظلام بدرجة تمنع القراءة، حدثنا عن غوتيفين". قلت "ماذا تحيان أن تعرفها؟" قالت: "أحك لنا مرة ثانية حادثة قتل انطاليا مع الرحالة". وهكذا تنفست عدة مرات يعمق حتى أستعيد سيطرتي على نبضات قلبي. ثم أعست عليهما الحكاية القديمة المعتادة..

"كنا نعرف جميعاً أن الجرس سرعان ما سوف يذق، وأضاف هذا إلى متعنا متعة أخرى.. وحينما قلت، "سرعان ما سيحين وقت العشاء" فقمعت فيونا نافذة الصبر. وجعلني هذا أقرر أن الوقت قد حان للتقدم إلى الأمام. سمحت ليدي التي استقرت على ردف فيونا أن تتحرك إلى أسفل، وجذبة جانباً قماش الثوب. وبعد لحظة واحدة، كانت يدي مستقرة على مؤخرتها العارية، مبهجة بنعومتها ورقة استدارتها. ومن المؤكد أنها كانت شديدة ممتع للامسة، حتى لقد كان بوسعني أن استمر في ملاحظتها حتى ذق الجرس...

"سرعنت هابطاً إلى مائدة العشاء وحينما سألني الوالد عن الفتاتين قلت أنني لم أرهما. ثم أرسلت جامي إلى الطابق العلوي لكي يدعوهما. هبطا بعد أن ارتدت كل منهما ثوباً آخر، واعتذرتا بالنوم أمام نار الموقد.

"والآن يا صديقي العزيز، وأنا أختتم هذه الرسالة الجرانديزونيانية، يجب علي مرة أخرى أن أني على ألتعاليم اللطيفة التي أدت إلى هذه النتائج الرضية. فإن الرجل الذي

يستطيع أن يمضي ساعتين متكياً على مثل هذه النشوة السامية إنما يكون قد مارس جانباً من حالة الآلهة، ولابد أن تصبح روحه أكثر بعد تلك المادبة.

ويستهي خطاب جليني بصفحة ونصف صفحة في تأملات من هذا النوع، ولن المتخط. هذه التأملات لأن في أسلوبها الكثير من العمق الناتجة عن التأخر، ولا تصل إلى مستوى الجزء السابق من الخطاب، وإلى جانب التأملات، يؤكد في النهاية أنه سوف يستفيد مما حققه من نجاحات. وأنه سيحاول استكمال العمل الذي بدأه. ولكن قبله في ذلك يظهر من خطاب مكثبه في شهر يونيو التالي، حيث يهني نفسه لأنه لم يكمل خطته، "لأن التفكير في التعقيدات التي كان يمكن أن تنشأ يجعلني أعرق وأهتز من الخوف والألم" وأظن أنه يشير بمساهمة إلى التعقيدات التي لابد أن تنشأ من وقوعه في هوى فتيات بريئات براءة كمامة ويعيدت بعداً كمكافأة عن أي ثقافة. وقد أصبح عشيماً لسبوننا في عام ١٧١٨، أي بعد تاريخ كتابة ذلك الخطاب بعامين.

- ١٢ -

□ لقد اقتطعت الفقرة السابقة على طولها لأنها توضح أشياء كثيرة، هناك أولاً، الإشارة إلى "النعاليهم للهممة" التي توحى بأن جليني يعتبر نفسه تلميذاً لأيزاموند في مثل تلك الأمور. هل يستطيع أحد، في الحقيقة، أن يقبل كل ما كتب عن عصر ذلك اليوم الثاني من شهر يناير عام ١٧١٧؟ كان مهلي الأول هو أن أرخص الكثير منه باعتباره نوعاً من الإعراب عن رغبات مكانة أكثر منه استعادة لأحداث وقعت بالفعل، وعلى أنه يشبه - بوجه خاص - مجموع تطور الفقرة التي تشير إلى ما كان للأخوين كريببيون وكيلاوند من نفوذ وتأثير. ولكن ظهر لي بعد هذا أن جليني لم يكن ذلك الرجل الناهر، بل إن بعضاً من التعبيرات اللبقة في الخطاب كانت مستعارة من أيزاموند نفسه، والحق أنه قد ينبغي للمرء، أن يقول أن الأهمية الرئيسية لذلك الخطاب هي أنه يكشف عن مقدار ما تأثر هورس جليني بطابع أيزاموند وشخصيته. كملاً بل أنني اعتقد أن ما حدث هنا كان أكثر أهمية بكثير. فقد كان جليني - مثله في ذلك مثل أكثر النبلاء الشباب في أيامه - شديد الميل إلى السعادة لحسية الشهوانية منذ سن مبكرة، وهو يذكر في مكان آخر أن زوجة أحد الفلاحين قد ألوته وهو في الحادية عشر من عمره، ويذكر في مكان ثالث أنه قضى أسبوعاً سبباً للغاية

- ١٤٣ -

حينما استخرقت الدورة الشهرية لغتاته وفقاً أقول مما ينبغي. ولكن كان شهوانياً بطريقة لا حسيال فيها، مولعاً بقصر من أهداف الخدمات، وكان سريع الضجر بالغ الكابة على الفتيات اللواتي ينتمين إلى طبقاته، وكان يحس لسانه في فمه تماماً مع النساء اللواتي يعجبهن حقاً، كان أبود يقسو عليه ثم فرض عليه حمايته من بعد ذلك، كما كان في تعب مستمر مع شقيقه الأكبر (الذي مات في عام ١٧٠٠ بالتسمم الكحولي، بعد أن أخذ يشرب الرافدي والمادريا طوال ثلاثة أيام متواصلة في رهان) ولكنه لم يكذب يعرف أمه التي كانت قد انفصلت عن أبيه قبل هذا التاريخ بعشر سنوات لأنه ضربه بسوط من سباط الركبوس. كان هورس جليني أحد سادة الأرياف المتخلفين عاطفياً، ثم حدث أن التقى بأيزاموند النحلي المتوقد، الذي ربما كان أكثر منه تضجاً بما يعادل عشرين عاماً من التجربة. ولست أظن أن هورس جليني كان شاذاً جنسياً، ولكنني أظن أن الطريقة الوحيدة للألفة للتعبير عما حدث في غوتيفين هي القول بأنه قد وقع في حب أيزاموند. لقد أخذ عنه أفكاره، وأسلوبه في التصرف، وأسلوبه الأدبي، والأشياء التي تشغل بها نفسه، كان الأمر يشبه الوضع بين "الأسطى" للعلم الكبير، وبين صبيبه الذي يتدرب عنده ويتلقى أسرار الصبغة والحرفة. كانت النساء يتنهذن ويستسلمن كما لو كان ذلك بسحر ساحر، وكانت النساء كلها تحمل طابع خاصية مذهشة أشبه بتحقيق حلم من أحلام اليقظة، وعندما عاد إلى "جلوسيني هاوس"، عاملته فتيات كما لو كان بطلاً مظلماً عائداً من الحرب، وعلى الرغم من أنه كان يعيش على بعد أربعمائة ميل أو نحوها عن "حبيبه" فإنه راح يعيش ويفكر كما لو كان لا يزالان معا في غوتيفين. وبدلاً من أن ينام مع كل فتاة يقع عليها بصره، فرض على نفسه نظاماً قاسياً، وراح يدرس هورس وأرسطو، ثم عقد عزمه على إقامة علاقة "عاطفية" - أي أنها علاقة مصعدة وعلى قدر من التباعد - مع صديقة شقيقته الجميلة - وإن كان يقيم تلك العلاقة، فإنه كان يستلهم نوفليس وبو ودوسون وعدداً آخر من الرومانتيكيين الذين وقعوا في حب فتيات في سن الطفولة. ولما ألهمته مثله العليا وأفكاره، أصبح قادراً على تجاوز حدوده الضيقة والارتفاع عنها، ولكنه عاد بعد ذلك - برهاناً على أن الآلهة ما تزال معه، وأن السحر يعمل عمله دون شبهة في الفشل كما كان أبداً - عاد فتيين أن هاتين الطفلتين تعجبا به مثلاً أعجبت به ما حي ماكتبيد والقرويات الأخريات، وأنه يستطيع أن يلعب بالنار، معرضاً حتى ليلاب قلبه للحريق، ويظل حلم اليقظة دون أن يقطعه أو يخطمه أحد. لم يكن لديه أي اهتمام جنسي بشقيقته، فقد كان يعرفه جيداً جداً، ولكنهما مثل أوراق الأشجار، سقطا في

- ١٤٤ -

لإدانة حلم اليقظة، ومن مركزه الساحق ككائنات، كان باستطاعته أن يختار ما يضعه... ولكن كان من الحكمة - من جانب والده - أن يضع الفتاتين في سرير واحد، ونقضت أيام المسلة، وفي منتصف يناير، بدأ رحلة العودة إلى نيويورك، متخذاً الطريق الطويل والشاق لئلا يلدن من أجل أن يسافر مع إيزابيل بدلاً من أن يسافر بالطرق الأقصر والأقل مشقة من "لندي" إلى "سوكسهاين".

كان باستطاعة البره أن يدرك من أن طول الخطاب وما حثني به من تفاصيل تلك الكبرياء المتفجرة التي شعر بها جليبي وهو يكتب تقريره إلى معلمه، بأن الرجل الذي كان وحيداً، من دون أن يكون معه من ينصحه أو يوجه خطأ، اجتاز الامتحان بأحسن العلامات الممكنة.

وعلى الاعتراف هنا أن خيبة الأمل كانت هي استجابتي الأولى إزاء خطابات جليبي، ظناً أن مشاعري إزاء دونيللي عادت - بتأثير تلك الخطابات - فعميت بأزمة هبوط من تلك الأزمات الدورية السابقة. ولكن من الضروري أو أوضح هنا أنني لم أرفض تلك الخطابات في البداية على أساس أخلاقي - مثلما سيعرف ذلك أي قارئ لكلامي "اليوميات الجنسية"، لقد كنت دائماً - مثل دونيللي - مسحور اللب بمشكلة الجنس، لأنها تبدو كما لو كانت تحتوي على المفتاح المؤدي إلى أسرار نوع من الوعي أكثر عمقاً، ولقد سيعثر علي دائماً شيء كالتأجيل المتسلط عن الكيفية التي تبدو بها التجربة الجنسية وكأنها تنزلق من بين الأصابع كالزئبق أو الذهب السحور في الحكايات الخرافية، ولابد لي هنا من سرد - مكرراً - عدداً من التجارب الأساسية التي تبدو لي أنها تحتوي على مفتاح هام يؤدي إلى الكشف عن ذلك الغموض.

في عام ١٩٥٥ كنت قد قضيت عموماً أحد تلك الأيام في الفراش مع فتاة تدعى سكارولين، وهي طالبة في أحد معاهد الدراما كنت قد تعرفت عليها عن طريق جيرشود كوينس. وقد كانت سكارولين - ولم أعرف لذلك سبباً حقيقياً - واحدة من هؤلاء الفتيات اللواتي يولدن عندي مستوى حاداً إلى درجة غريبة من مستويات الشهوة، أي من الرغبة الجسدية المجردة من أي شيء آخر. وقد قالت لي ذات مرة، إنني حينما مارس الجنس معها تظاهرت هي أحياناً بأنها كانت تغتصب، وإن هذا قد زاد من متعتها. وقد جعلني هذا التبرهن بطريقة تكاد تكون لا شعورية، بأنني كنت أظاهر باغتصابها، فاعاملها تماماً مثلما يعامل

رجل جائع قطعة جيدة الطهو من اللحم، فيقضم ويبتهم شهية متفتحة ككثيرة حيوان. وفي عصر ذلك اليوم بالذات، مارس الجنس معها سبع مرات. كان الأمر أشبه بمسابقة، وبعد إحدى هذه المرات عدت من الحمام، فوجدتها جالسة بسروالها الداخلي، وهي تحاول أن تربط مشبك حمالة صدرها، دفعتها على ظهرها فوق الفراش، وحسنت سابق السروال، وولحتها بحركة واحدة تقريباً، ومرت أخرى هيما بعد، وحينما كانت قد ارتدت كحل ذباها وكنا على وشك الانصراف مارس الجنس معها مستنداً على الباب. كان هناك دائماً علمبر من المصداقة والمغايرة في التحامنا.

وبعد ذلك شعرت بالإجهاد الكامل، والاسترخاء الشبه باسترخاء النعبد الهادئ النفس، كما لو كانت كل رغبة جنسية في داخلي قد قضيت تماماً وحقت، حتى استطيع أن أركز ذهني على أشياء أكثر أهمية. فتحت الباب بعد ذلك وخرجت لكي أتناول زجاجة اللبن من على عتبة الباب، وكنت أسكن في شقة أرضية في أحد المنازل، وكانت هناك فتاة تسير في الطابق الأعلى بمحاذاة سور الدرج الحديدي قريبة منه إلى درجة أنني كنت قادراً على إلقاء نظرة خاطفة إلى ساقها حتى أطراف جواربها العلوية. كان هذه النظرة مثل ضربة قوبة على أعلى المعدة، تبينت مصدوماً أن رغبتي الجنسية لم تكن قد قضيت، لم يكن قد نصب سوى فضولي المباشر ورغبتي المؤقتة إزاء سكارولين. كان من الواضح أن البدر لا قرار لها.

وتحقت من الشيء نفسه بعد عدة شهور، حينما كنت في طريقني لكي أمضي الليلة مع سكارولين والتي كانت في ذلك الوقت تشارك في شقة واحدة مع صديقاتها، دخلت معاً لبيع حاجيات النساء لكي أشري لها زوجاً من الجوارب. وفي المكان الذي وقفت فيه من الحبل، كانت ورشي مجموعة من تلك "الخانات" ذات الستائر التي تجرب فيها النساء ذباهن الجديدة. التفت بطريقة عارضة، فرأيت أن سيدة كانت داخل إحدى تلك الخانات، وقد أواني ظهرها، من دون قميص داخلي. ومرة أخرى، تملكني صدمة الرغبة الهائلة. ورغم أن المرأة كانت متوسطة العمر، كما تبين حينما التفتت، وفي ظل ظروف عالية ما كانت لأولئك اهتماماً لذاتية واحدة، وعندما هممت بمعاودة الحبل، تملكني إدراك قوي بأن ليثني مع سكارولين لن تلمس هذا العمق مع الاستجابة الجنسية ولن تبلغ أطرافه.

وقد أدّى بي ذلك إلى تكوين فكرة تقول بأن الانحرافات الجنسية إنما هي محاولة للهروب من تلك الجوع العريب الذي لا يشبع والذي يكون عنصراً أساسياً من عناصر الفعل الجنسي الطبيعي. إن "الوقوف" الخاص بالفعل الجنسي العادي هو ما يستج حيلة الأمل (وهذا قصة الطبيب النفسي الذي نصح رجلاً غنياً بأن يغمض عينيه وأن يردد شرة بعد الرد: "إنها ليست زوجتي، إنها ليست زوجتي.."). تقوم ككل أشكال الانحراف على إضافة عنصر من عناصر "الحرم" إلى الوقوف الطبيعي، على افتراض أن تسير حيلة وذهاباً وهي ترتدي جوارب سوداء، وهكذا. وقصة الكولونيل دونيللي عن قيام الخادمة بضربه تؤدي إلى نفس النتيجة. وقد تكون هذه النظرة كئيبة أو على شيء من النجيم إلى الدفع الجنسي، طالما أن أي شيء يمكن أن يكف عن أن يكون محرماً طالما أنك استلطعت - مرة واحدة - أن تقع شخصاً آخر بأن يشاركك في حلم اليقظة. عندئذ يصبح الجنس مطاردة لا تنتهي لهدف لا يكف عن الابتعاد..

وبعد خمسة أعوام، وفي دبلين تحليداً، وقع حادث يمكن وصفه بالعارض والصغير. قلب هذه النظرة رأساً على عقب كنت أسير في مكتبة ككلية ترينتي، حينما قابلت فتاة تخرج من مكان ما. وكانت ترتدي جوارب بيضاء اللون، وشيء ما في وجهها صدمني صدمة هائلة. لم أكن قد رأيتها قبل ذلك أبداً، وحاولت لمدة عشرة دقائق أن استخلص سبب تلك الصدمة من ذاكرتي، ثم تذكرت: لقد ذكرتي بفتاة تدعى هازل كانت ترعاني في طفولتي. كانت فتاة جميلة، وكانت في العاشرة أو الحادية عشرة من عمرها حينما كنت أنا في الرابعة أو الخامسة. وكنت أنظر إليها كلما لو كانت أما إضافية لي، ولم أشعر أبداً بمثل السعادة التي كنت أشعر بها حينما كانت تلاطفني أو تبدل لي ملابس أو تساعدني على ارتداء حذائي. وحينما بلغت العاشرة، تزوجت، كنت أعرف التفاصيل الجنسية للفعل الجنسي، وكان هذا الفعل يبدو لي مثيراً وشريراً إلى درجة مرعبة. وذات يوم رأيت هازل في محل البقالة، جميلة مثلما كانت سابقاً، وكانت ترتدي إزاراً أسود اللون وجوارب بيضاء. جعلني فكرة أن زوجها يملك الحق في رفع هذه الأزرار وخلع تلك الجوارب أشعر بغيرة مريبة. فكبرت في الأشياء التي لا بد أنهما يفعلانها في الظلام، ونظرت بقوة إلى وجهها، طالما أن هذه الأشياء لا بد أن تكون قد تركت أثراً ما. ربما كان أثراً من نشوة حالة، أو ربما علامة شريفة ما. تخيلت أن حباتهما، حينما يعود زوجها من العمل إلى البيت، لا بد أن تكون حفاً جنسياً

طويلاً مزعجاً بالذات. ورغم هذا فقد بلغت طبيعية وعادية تماماً، بالضغط كما عرفت دائماً، ربما كانت أكثر نحافة بقليل. ودون شريطها الوردي..

هذا التفكير في هازل - التي كنت قد نسبتها طوال خمسة عشر عاماً أو أكثر - أعاد إلي ذكريات فتيات أخريات كنت أعجب بهن حين كنت صغيراً جداً. فتاة كانت تسير على بعد منزل واحد من منزلنا وكانت تهدو لي مثل قديسة. وفتاة أخرى في الشارع فتاة لشارعنا كان وجهها الأبيض ينفخني إلى الظن بأنها أجمل شيء وقع بصري عليه في الحياة. وعمرة لي ذات روح هياصة، لم تكن تكلم هازل كثيراً، تعاونت أن تأخذني إلى السينما لمر مشرب شاي قريب.. كان شيئاً شبيهاً بالصدمة أن أتذكر حكم كان كبيراً ذلك القدر من الفتيات - وكلهن أكبر مني سناً - اللواتي نظرت إليهن نظرتي للربات المقدسات. لم يكن قد طرأ على ذهني من قبل أنني قضيت طفولتي في مجتمع أمومي، محاطاً بنساء عبيد كالآلهة، ولا أطلب من أحدهن غير ابنة، أو تربية حنون، لأنني في سنوات مرهقي كنت أفكر في النساء باعتبارهن مخلوقات تطاردن الرغبات، يمكن اليد العليا على فرح بسبب الكنز الكامن بين الأخاذن، الكنز الذي يستلحق أن يمنعه أو يهبه حسب الرغبت ووفق مشيئتهن. وكانت وظيفة الرجل عندي هي أن يحصل على الكنز، بالإقناع أو الحيلة أو بالعنف ومنذ ذلك الحين، كرس نفسي مهمة الذكر العادية، مهمة الكشف عن أكثر ما يمكن من تلك الكنوز. ومع هذا فقد ظل الليل إلى تجسدهن أو تخيلهن في صورة مثالية قويا على حاله. وبدأ هذا الليل في حالة تناقض مع فلسفة الحرب الجنسية. والآن أدركت هذا التناقض. كانت الحرب الجنسية هراء لا علاقة له بالحقيقة. ما أردته من النساء هو نفس ما كنت أريده من هازل، تعاطف الأخت الكبرى ورقتها، اللاملفات والانتباه، تلك الأشياء التي تولد الإحساس الذاتي بالأمان والثقة. لقد لاحظت دائماً ذلك الإحساس بالسكينة الذي يأتي حينما يخترق العضو الذكرى حلقة العضلات عند فتحة عضو الأنثى، ثم ينزلق إلى الأعماق الداخلية الناعمة التي تربت عليه بحنان، وقد رأيت الآن أن هذا كان ببساطة أكثر اللاملفات الرقيقة قريباً من المطلق. كانت هازل، في لحظة من لحظات الود الخالص تمد يدها فتلمس خدي برفقة، أو تضع يدها على رأسي، وكنت جديراً في مثل تلك اللحظة بأن أشعر بفيضان هوري من الرضا والإحساس بالأشياء. إن عملية ولوج جسد امرأة ليس سوى صورة متصغمة من هذه اللحظة. إنه نوع من اللاملفة، إيماء رقة، ولكنها تلاطف - في هذه الحالة - أكثر أجزاء جسدك خفاء والتصاقاً بدخيلتك وبما تخفيه حناياك - تلاطفه بأكثر أجزاء

جسدها خفاء وحميمية. إن النزعة العدوانية التي أضلق عليها لورنس اسم "الحرب الجنسية" تنمور من الجوع إلى ذلك الاحتياج، تماماً مثلما تنمور نزعة الإحرام من الفقر وحتى فكرة "كازنوها" التسلطة يمكن تفسيرها على هذا الأساس - وخاصة ذلك النوع من "كازنوها" الذي يريد أن تغفل نساؤه في حالة إخلاص كامل له، بينما يسمح له بأن يفعل ما يحلو له. إنها الرغبة في الثقة الكاملة بحب الأنتى وبخضوعها، ككل نساء العالم بحبيته، وكنهون مرغبن في منحه حبيهن، وحتى معرفتهن أنه الآن في الفراش مع امرأة أخرى لا تؤدي إلى أي فرق أو اختلاف.

فإنني كل هذا إلى معرفة السبب الذي جعلني أفقد كل اهتمام بالحرب الجنسية في الأعوام الأخيرة القليلة. لقد حصلت - في شخصيتي ديانا ومويسى - على مجتمع مكون من شخصيتين نسانيتين تعجبان بي. وتم إشباع الجوع إلى الأنتى حتى هذا متحماً. أما ذلك النوع من الثقة بالنفس الذي تمنحه النساء فقد تحقق وأصبح في وسعي أن أكرس كل انتباهي لأمر أكثر جدياً، لسائل الفلسفة والنمو الإنساني.

كل هذا يفسر عدم صبري مع هوراس جيلني، ومع ما اقترضته عند أيزموند دونيللي من فلسفة خلّاعية قائمة على "فكرة" الفجور. شعرت أن هذه الفلسفة تثلل إما على عدم التحقق أو عدم التضلع، رغبة السببان الصغار في الأمن. ولم تكن هذه الحكاية بالذات - عن ماري وفيونا - هي التي ألفتني، لأنني قدرت أنها حادثة عارضة وقعت من دون تدبير، لقد أراد جيلني علاقة "عاطفية" فتحوّلت إلى علاقة جنسية. ولكن كانت هناك خطابات أخرى أشارت إلى أنه كان قادراً على تباع أسلوب أكثر خشونة وأكثر منهجية. فقد حدث على سبيل المثال أن عاد في عيد الميلاد التالي إلى البيت عن طريق الشمال، مبعراً من أمستردام إلى جريمسي. فقرر أن يمضي عدة أيام في "روزنا بروك"، لكي يتفرج على كاتدرائيتها وقلمتها. كان الفندق الصغير مزدحماً فأعطى جيلني غرفة في الطابق العلوي تقع فوق للفصل. شاركه فيها خادمه، وهو من أهالي لندن ويدعى دوجيت. وبعد منتصف الليل بوقت كثير، هبط إلى الطابق الأسفل لينذهب إلى دورة المياه. ثم وقف برهة قصيرة مستنداً بظهره إلى جدار الفصل الذي كان دافئاً. وبينما كان يقف هناك، خرج فتاة من الفندق وذهبت إلى الفصل، ولما أصبحت بالداخل خلعت ملابسها، وصبت ماء دافئاً في أحد الأحواض، وغسلت نفسها، بينما راح جيلني يتلصص عليها من النافذة. ثم ارتدت الفتاة ملابسها، وذهبت لكي

انتماء في غرفة أخرى في نفس البناء. وكان جيلني على وشك أن يتبعها، حينما سمع صوت رجل. بدا له أنه صادر من غرفتها. وفي الصباح التالي، طلب جيلني من خادمه دوجيت أن يكتشف مكان ما يستطيع عن الفتاة، وما إذا كان من الممكن الحصول عليها ذلك المساء. وجاءه دوجيت بعد عدة ساعات وقال له إنها فتاة محترمة، وإنها ابنة أخت صاحب الفندق. وإنها مضطربة لرجل يعمل مساعداً لأحد التجارين، ولكنها لم تستطع أن تتزوجيه حتى الآن لأنه "معلمه" رفض أن يعطيه الإذن بذلك، ورفض صاحب الفندق رفضاً قاطعاً أن يقرضه ما يكفي من النقود لكي يفتح نفسه محلاً يعمل فيه أخصائه. وفكر جيلني أنه من المحتمل أن يكون صوت هذا المساعد هو الصوت الذي سمعه بصر عن غرفتها في الليلة السابقة، فقرر أن يتخلّى عن فكرة النوم معها.

وبعد ذلك في نفس اليوم، قال دوجيت لجيلني أنه سمع إشاعة تقول أن الفتاة حامل. فقد كانت تصاب بحالات غثيان في أثناء عملها. وأحسن جيلني بإمكانية اتخاذ سبيل آخر للوصول إلى الفتاة، فقال لدوجيت أن يحاول اكتساب ثقته، وأن يحاول معرفة مقدار المال الذي قد يحتاجه عشيق الفتاة لكي يبدأ عمله الخاص. "كنت على استعداد لأن ادفع المأ من الجنيئات في سبيل متعة أن أترك دفعة من ماء الحياة في هذا الرحم الفاضل". ولكن اكتشف أن العشيق يمكن أن يبدأ عمله معتمداً على مبلغ أقل من هذا بكثير، لا يزيد على مائة وخمسة وسبعين تالراً، وهو ما يساوي خمسة وعشرين جنيهاً. وقال دوجيت لفتاة أن لسيده قلباً عطوفاً وأنه قد يستحق أن تلجأ إليه - فإن هؤلاء السادة الإنكليز مبدرون ومنفقون وتبعاً لذلك، طرقت الفتاة بيجل باب جيلني في ساعة متأخرة من عصر ذلك اليوم. فقال لها أن ادخلي. ألت الفتاة "خطاباً عن حاجة حبيبها إلى النقود، وعن كيف يتعهد بدفع دينه كاملاً، وما إلى ذلك. فتح جيلني كيس نقوده وأخرج عدة قطع ذهبية. ولا سمحت حينها الفتاة وهي تحمق إلى تلك القطع، أحاط خصرها بشراعه، وهمس لها قائلاً إنها تستطيع أن تبيع تلك النقود لحبيبه بسهولة كبيرة. وحاولت الفتاة أن تخلص نفسها وأن ترحل بالحجرة، فقال لها إنه يعرف بأنها حامل. وأخافها هذا القول، فزدت، وأشار جيلني إلى النقود، وقال أن أحداً لن يعرف أبداً. وإن الأمر لن يستغرق أكثر من خمس دقائق. وإنها ستعيش في سعادة بعد ذلك إلى الأبد... سمحت له بأن يقبّلها، وأن يداعب صدرها. انغمضت الفتاة عينيها، ومن الواضح أنها قررت أن الأمر يستحق التضحية، حينما سمعاً شخصاً يتناديها. انفلتت مبتعدة، فأخذ جيلني النقود ووضعها بقوة في يدها، ثم قبلها ثانية، فاسرعت خارجاً.

وفي ذلك الساء مكانت هي التي تقدم على الباقية، استطاع جليبي أن يجعل عينيه لتتبعين بعينيهما مرتين، فأحمر وجهها في المرتين. مكانت قد أصبحت مدينة له بجسدها وكان جليبي يعرف أنه لا خطر على نفوذه معها. فقد كان دوجيت قد استطاع أن يعرف أنها أصبحت حبيبتها على لقاء في ذلك الساء، وأنها بلا شك قد حملت إليه النقود.

وفي تلك الليلة، انتظر جليبي حتى سمعها تهر الفناء وتدخل الفسل. وفي هذه المرة لم يمنع ملابسها شكلها، محتفظة بقميصها. فتح جليبي الباب وانفس داخلاً. بدأ عليها الضحك، ورجته أن يخرج. وقالت له إن خطيبها كان ينتظرها في حجرتها. همس لها جليبي إن الأمر أن يستغرق سوى لحظة واحدة. أمضى عدة دقائق في تهدئتها ولهاذعها أن تهدأ وتسكر. رجعها حتى استند ظهرها إلى الرجل الخامد، وأخذها في تلك اللحظة. وعلى الفور، وبعد ذلك، همس لها أنها إذا كانت تريد خمسة وعشرين جنبها أخرى لكي تقيم منزلها، فليس عنها إلا أن تأتي إلى غرفته في اليوم التالي. ثم ارتدى ملابسها وخرجها.

استبد به الغضب عندما لم تلب الفتاة دعوته. قابلها بالصفحة في أحد دهاليز الفندق، فنظر إليها متسائلاً، فهزت رأسها وأسرتت تبعد. ولم يتحج دوجيت هو الآخر في إقناعها. كانت الفتاة قد وقت بنصيبها من الصفحة، ولكن لاح لجليبي أنه من غير العقول إطلاقاً أن تكون قد سلمت نفسها له مرة واحدة، ثم ملعت نفسها عنه بعد ذلك "كانت على استعداد أن تفق بكل جنبه أملكه لكي تقضي ليلة في الفراش مع هذه الشيطانة الصغيرة الفاضلة". قال لدوجيت أن يحاول ابتزازها بأن يهددها بإخبار عشيقها، ولما فشل هذا التهديد راح يفكر في اختطافها وجعلها معه في غرفة خاصة. ولكن الفتاة مكانت قد نالت كفايتها، فاختفت في تلك الليلة. والفرض أنها قد لحقت بعشيقها، الذي كان الآن قد أصبح مستقلاً عن معلمه. وفي حالة مزاجية سيئة الغاية، استقل جليبي غرفة في أمستردام معزباً نفسه بفكرة أن "تلك الدقائق الخمس في مواجهة الرجل الخامد، كانت تستحق خمسة وعشرين جنبها من نقود أي رجل". هذه الحادثة تفوح منها نكهة مظرة. مكانت قد رافا عارية فأراد أن يمتلكها، كان يوسع أن ينتظر، وأن يجعلها تأتي إلى غرفته في اليوم التالي. فقد كان من الواضح أنها مستعدة للوفاء بنصيبها من الصفحة، ولكن كان من الأكثر إشارة ومنعة أن يمتلكها في الظروف التي كان قد قرر في البداية أن يمتلكها فيها - وخاصة أن عشيقها كان ينتظرها في حجرتها. ومن المهم أن نلاحظ استخدامه لكلمة "فاضلة". لم تكن الفتاة فاضلة، لأنها كانت

حاملاً. ولكن رؤيته هذه إليها هي ما جعلته يرغبها، رؤيتها في صورة الحزنة الفاضلة، تعشق رجلاً آخر. حكم يكون رتاعاً أن يخلع عنها قميصها فيضاجفها مستنداً إلى مرجل الفسل. وينظرونه متدبل على كاحليها ولكن أذاً تجز هذا، فقد أراد أن يحتل الأرض التي غزاها، وأن يكرر كل العملية المستعة برمتها. لم يكن من الطبيعي أن يبتز فتاة فيهددها لكي يأخذها إلى فراشه، أو أن يفكر في حملها عبوة في غرفة خاصة، ولكن هذه الفتاة "الفاضلة" ولدت عنده رغبة في الفوز، وفي أن يحمي من شأنها، وحتى إذا كان قد شعر بالخيبة في النهاية، فإنه يعتمد على فكرة أنه قد حصل عليها مرة، وإذا ظلت هي مخصصة لزوجها حتى نهاية حياتها، فلا شيء يمكن أن يمحو تلك الحقيقة. إن أكثر أنواع النزعة السادية عند الرجال خشونة وهظاظه هي ما تجعل الحكاية شكلها، ولكن جليبي بصفتها في خطابه إلى دونيللي كما لو كان واقعاً من موافقته على سلوكه. وكان إحساسي الخاص هو أنه إذا لم يكن دونيللي قد وجد الحادثة ونظر إليها باعتبارها شيئاً رديئاً وغير "مشرف" بنفس نظري لها، لأن فإنه لن يكون أحسن من جليبي في شيء، وإن كانا مجرد صعلوكين بحملان عقليين قذرين. ولكن لما لم أكن أملك شيئاً من خطابات دونيللي، فإني لم أكن أملك سبيلاً إلى معرفة ردود فعله إزاء مكاشفات هوراس جثني.

□ طوال الأيام العشرة التالية لم يحرز "يحيى" عن دونيللي أي تقدم. ولابد لي من الاعتراف ببعض الكسل الحبيب، أو بالأحرى بشيء من الليل العكسي، الرافض لأن استغل طاقاتي بمهمة مدفوعة الأجر أو لأن أنكب عليها وحدها دون غيرها. لقد شعرت وأنا أقرا الخطابات المختلفة والوثائق السنعارة من الأنسئين دونيللي بأنني أشبه بتلميذ يقوم بإداء واجبه المدرسي، ولقد كنت أكرر مثل هذه الواجبات؟ وبدلاً من هذا رحت أملاً صفحة أخرى من مذكراتي حول موضوعات متعلقة بظسفة الظاهراتية وحول دراسة ويتينغشتاين، الذي كان رويته "زيتيل" قد وصلت لثوها من ملاءم وبلز.

ثم حدثت بعد ذلك عدة أشياء دفعة واحدة. فقد نشرت صحيفة التايمز الإبرانية خطابي الذي أعلن فيه عن طلي لأية مواد تتعلق بدونيللي، وبعد يومين، نشر اللحق الأدبي التايمز اللندنية خطابي الذي كتبته في لندن، وأخيراً أرسل إلي كلاوس شكممان خطاباً

اعتاداً من هامبستيد، وفيه أن خطابي إليه لم يصله في موعد مناسب، لأنه ترك بلدة طويلاً على مائدة قاعة الاستقبال في علوخته القديم، حيث لاحظته أحد الأصدقاء بالصدفة، وكتب إلي رجل يدعى و. س. ل. الوريث من بلدة كورك، يقول إنه كان صديقاً للبرجومة جين استون التي ماتت في عام 1829 والتي كانت تمتلك خطابات مختلفة بخط يد دونيللي، ولكنه لم يكن واثقاً مما حدث لتلك الخطابات بعد ذلك. وأخيراً، كتب إلي كاتب م. سينس، حفيد إيزاك جينكينسون بيتس، من دبلين ليقول أن جده مريض، ولكن إذا تصادف وحدث إلى دبلين فإنه سيكون سعيداً لرؤيتي. وأضاف أن جده ابتلع لأنني أريد حول مركب جريئة قتل جزيرة الأي الإيرلندية، وأنه يود أن يناقشها معي شخصياً. ثم التفت في لحظة نيل بها الخطاب يقول، "لقد رأيت خطابك في عدد اليوم من التايمز الإيرلندية، وإني قد أكون قادراً على تقديم بعض الاقتراحات". وأثارت قلبي هذه الجملة الأخيرة بأسلوبها الحذر. فإنه لم يستطع حتى أن يذكر اسم دونيللي. وبدأ لي هذا الأسلوب دليلاً على أنه يكاد بالفعل يعرف شيئاً ما، ربما كان شيئاً أكثر حتى من أن يثق بنفسه إذ يلجأ إليه.

وكان خطاب ككلوس دنكمان طويلاً جداً، وراح يناقش مكتبي مناقشة مقبولة مستبضة. ولكن إشارته إلى دونيللي كانت مختصرة. قال إنه سمع الاسم من أوتو كورنر، تلميذ ويلهلم رايخ، الذي تحدث عن دونيللي باعتباره واحداً من أوائل الكتاب الذين لاحظوا أهمية بلوغ ذروة النشوة الجنسية كعلامة على الصحة النفسية. ثم قال دنكمان، إنه مع ذلك غير قادر لسوء الحظ على أن يزودني بالمزيد من التفاصيل فعلى قدر علمه، كان كورنر قد عاد في ذلك الحين إلى ألمانيا.

كان لدي شعور قوي برغبتي في أن اسرع إلى دبلين لرؤية كليف بيتس. ولكن كانت هناك أشياء أخرى كثيرة كان عليّ إنجازها، وإلى جانب هذا، فإن العجلة التي هي من الشيطان قد تدمر كل شيء. ولذا فقد كتبت إليه خطاباً دون توقيع، أتحدث إليه فيه عن مشروع لكتابة مقدمة تاريخية لكتابه يتضمن مذكرات دونيللي. وأضافت أنني أرجو أن أراه عاجلاً في فرصة مقبلة، ثم تحولت إلى مسألة اقتفاء آثار خطابات دونيللي التي كانت في حوزة جين استون. رغم أنني فعلت هذا دون كثير من الحماس، ولأنك أن خطابات دونيللي تلك ستكون حول موضوع جورتن ونيلوسون وغيرهما من أصحاب محافل

التنويم الغناطيسي. ذهبت إلى كورك وقابلت مسر اليريش الذي كان يوسعه أن يجري أنه كان لجين استون طارب يقيمون في بلدة بيلكوثي بالقرب من كينسيل. ذهبت إلى هناك بالسيارة لكي أكتشف إن هؤلاء الطارب قد ذهبوا إلى كورك لكي يبتاعوا حاجياتهم وأنهم سيقبضون نهاراً بأحمتهم، وهكذا فقد عدت إلى كينسيل وحجزت غرفة في الفندق، ثم عدت لزيارة مسر فيليب استون. وهو حارس شواطئ متقاعد، في الساعة السابعة مساءً. وقد كانت هذه الرحلة سدى، فالرجل لم يكن يعرف شيئاً عن خطابات دونيللي، ولكن أعطاني عنوان قريب آخر له يدعى برنارد استون في ليمريك. وفصلت هذا الأخير في اليوم التالي في طريق عودتي إلى غالاوي، وكان الرجل قد سمع شيئاً عن خطابات دونيللي، لكن لم تكن لديه فكرة عما حدث لها، واقترح أن اتصل بالطبيب جين استون، جراح أوهفرنان في كورك الذي كان يعرفها جيداً (ولاحظت مدى ارتباط عيونه وتهدئتهما عندما ذكر اسم الطبيب الأمر الذي أوحى إلي بأن تلك العلاقة مع الطبيب كانت أقوى قليلاً مما يستطيع أن يوافق عليه).

كنت أشعر بأن إحساس (كالكافوي قد بدأ يملكني، وبث لشعر يأتي دور في حلقة مفرغة من دون أي اقتراب حقيقي من الهدف المقصود، وشعرت بإغراء الاستسلام. أردت أن أقتطف نصف صفحة من حديث دونيللي عن موضوع الخطيئة والغناء، ولكن بدأ الموضوع بلوح أكثر إلحاحاً مما يستحق. وحينما وصلت إلى البيت، ودعمت عزمي بكأس كبيرة من الكلاريت، اتصلت باستعلامات هاتف بلدة كورك وسألت عن رقم تلفون الدكتور أوهفرنان. قبل لي أنه ليس هناك من يحمل هذا الاسم سوى شخص واحد، ولكنه لم يعد يعمل في المستشفى. بشعور أخذ من التبدل سألت إن كان يوسعه أن يوصلني بالطبيب الشرف، ثم أخذت كأساً كبيراً أخرى. بعد قليل جاء رجل يتكلم على الطرف الآخر، وقال إن الطبيب الشرف كان خارج المستشفى في تلك اللحظة وسألني إن كان يستطيع أن يساعدني في شيء، عرفت أنه كان من المستحيل أن أقنعهم بأن يحضوني الرقيم، ولكني رجوت أن يجعلوا الطبيب الشرف يتصل بي لدى عودته. وكان علي أن أوضح نوع العمل الذي أقوم به - وهو أنني كاتب وأنني أريد أن ألتحق بمصر ببعض الوثائق، وأنني قدرت أن الدكتور أوهفرنان يمكن أن يساعدني في تتبعها. وطلب مني السيد المتحدث على الطرف الآخر أن انتظر قليلاً، وبعد عشر دقائق عاد لكي يقول لي أن الدكتور أوهفرنان "موضوع البحث لم

يكن مسجلاً باعتباره طبيبياً. شكرته وقصصت الكاتبة. ولاح ذلك لي مكانه نهاية الخيط والعريق.

ولكن، وبعد ذلك بساعتين، وبينما كنت على وشك الاستسلام للنماس وأنا أستمع إلى موسيقى "فراصنة بينزاسة" دق جرس التليفون، فأتحت ديانا على النداء، وقالت لي إن الطبيب النحيف في مستشفى سكورك يريد أن يكلمني. وكان هو نفس الرجل، وكان قد أتى لظرة على القوات القديمة فعثر على اسم الدكتور أوهرنان، ثم استطاع بشكل ما أن يثر على مكانه. كان العنوان في كيبلازي، شكرته مصطراً إلى ذلك، ثم أخذت معه مجموعة لكي أرسل إليه نسخة من أحد كتبي، ورغم أن الساعة كانت قد تجاوزت العاشرة، فقد قمت بمهمة محاولة طلب رقم الدكتور أوهرنان. ذكرت له اسمي وقلت أنني كاتب، فأصبح على الفور ودياً جداً وقال لي أنه قد نشر عدة كتب، ولم يكن قد سمع بي قبل ذلك أبداً، وعندما سألنا الحديث إلى أن وصل إلى موضوع أيزموند، دونيلي تذكر أنه "كان قد" رأى خطابي في التايمز الإيرلندية وأنه فكر في الاتصال أو الكتابة لي. وقال إن نعم، بالتأكيد، أنه يملك عدداً كبيراً من خطابات دونيلي بالإضافة إلى أوراق أخرى. وأني سأكون موضع الرحب الكامل إذا شئت أن أخصصها في أي وقت يكون ملائماً لي. فاتفقت معه على موعد في اليوم التالي.

ليس نعمة مهرب هنا من وصف الساعات الأربع والعشرين التي قضيتها مع جورج أوهرنان، ورغم أنها تستحق الوصف بالتأكيد. إنه رجل قصير ربعة قوي البنيان ذو خدين متوردين وشعر أبيض وشارب أبيض، كان يبدو كواحد من أولئك الناس الذين يولنون سمعاً مفعمين بالاهتمام بكل ما يجري حولهم من أحداث أو ظواهر. أهداني نسخاً من كتبه، "كتلونماكنوير وفصائد أخرى"، "مانجان، وعصبتة"، "مذكرات متعمد إيرلندي". بالإضافة إلى مجموعة مترجمات عن اللغة الغالية. كان قد عرف بيتس معرفة جيدة، وأضفى عدة أمسيات مع جويس في باري، وكان تديم شرب آجو غارني. سجلت ملاحظات طويلة عن أفاصيصة في مذكراتي اليومية، ذات صورة هذه الأفاصيصة التي وردت في كتابه "مذكرات متعمد إيرلندي" أكثر تهديداً إلى حد كبير وأقل نزوعاً إلى أسلوب راسليه التكملي اللاذع من الصورة التي سردتها لي بنفسه. كان الطبيب مصيلاً كريماً، فقد دعانا إلى عشر صديقات لتناول العشاء معي فاستهلكنا عدة كائنات من الجعة المصنعة في المنزل

بالإضافة إلى عدد كبير من زجاجات ويسكي كامسون. وفي الساعات الباكرة من الصباح حينما تخبط آخر ضيقه نحو سيارته، حكى لي قصة علاقته بمسر استون في خلال السنوات العشرين الأخيرة من حياته، وكانت قد ماتت في الثامنة والأربعين من عمرها بسبب الربو. وأخيراً أخذني إلى خزنة هائلة، تمتد من الأرض إلى السقف في حجرة النوم حيث كان علي أن أنام. وأطمني على أكوام من الخطوط الملوقة والخطابات الملقطة في حزم محكمة موضوعة في إصبات سوداء ثقيلة، وقال "سوف تعثر على الكثير من تراث دونيلي في وسط هذه الكتلة"، ثم تركني لكي أبحث عما أشاء. كانت الساعة الرابعة صباحاً، والفرقة باردة كالثلج رغم وجود مدفأة كهربائية ذات مشعل واحد. كنت قد شرقت كثيراً وكتابتي صداد خفيف. ولكنني شرعت في جلب الأوراق من الخزنة اعتماداً على الصدفة في رؤية خط يد أيزموند دونيلي. وبعد أن أزعجت عدداً قليلاً من العناب وأثرت كمية لا بأس بها من الغبار عثرت على حزمة من الخطابات موجهة إلى ويليام استون. وكنت حتى ذلك الحين قد أخرجت معظم ما كان في الرف السفلي من الخزنة. ولكن في نهاية رف الركن كان هناك ملفان أسودا اللون. جنبتهما وألقيت نظرة على أحدهما. كان الخط هو خط أيزموند. نظرت إلى الصفحة الأولى، وكانت تبدأ من منتصف فقرة ناقصة من بديتها فتحت المجلد الآخر. كان يتكون من أوراق من الحجم المتوسط، ربطت أطرافها بعضها إلى البعض، وقد كتب على الصفحة الأولى: "١٨ أكتوبر عام ١٨٦٥. كنت دائماً أعقد العزم على الاحتفاظ بكتابة مذكرات يومية أسجل فيها أعمالي يوماً بعد يوم، ولكنني فشلت حتى الآن في الدومة على تنفيذ هذا العزم. لقد فقدت عدد كبير من الأحداث الهامة، حتى كان علي في النهاية أن أصمم على تنفيذ هذا القرار، مهما كان الثمن من الجهد أو الشموغ..."

خلعت ثيابي وارتديت منامتي وصعدت إلى الفراش، إلا أن النوم هارقتي. في عام ١٨٦٢ كان أيزموند لا يزال في السادسة عشرة من عمره. إذن فإن هذه المذكرات هي أقدم ما وقع عليه بصري من كتاباته حتى تلك اللحظة. كان خط اليد أكثر وضوحاً وسهولة في القراءة من الخط الذي رأيته من قبل في مذكرات لاحقة لهذه التي في يدي الآن. كان احساساً بالانقصار قوياً للرجة التي شعرت برغبة للذهاب إلى الدكتور أوهرنان في حجرة نومه لكي أطلعه على ما وجدت. ولكن لم يمنعني من ذلك إلا شكّي في أنه ينام فيها مع امرأة الشابة المتلذذة التي تخدم منزله. الأمر الذي جعلني أكتبح جراح نفسي. وكان ما أهدني هو أن أوهرنان لم يذكر لي تلك المذكرات. لقد قال لي أنه يعرف أن نعمة خطابات من

دونيللي، ولكن كان هذا هو كل شيء. فالاستنتاج إذن هو أنه لم يكن يعرف شيئاً عن وجودها. وحينما سألته في الصباح التالي، أكد لي هذا الاستنتاج، فإن منكرات رجل إيرلندي بروتستانتي إنجليكاني النزعة والذهب، من القرن الثامن عشر، لم تكن من الأمور التي يمكن أن تثير اهتمامه، لأنه كان كاثوليكيًا ووطنياً، وكانت مشاعره إزاء كروموويل أكثر غلظاً من مشاعره أي إنكليزي تجاه هنتر.

فراحت حتى مطلع الفجر. وتمت حوالي ثلاث ساعات. حتى انقضتني مفيرة المنزل بالشيء. ثم ارتبعت معطفي فوق الثامنة وعُدت ثانية إلى الخزانة. وفي خلال نصف ساعة، كنت قد "فهرزت" ثلاث حزم أخرى من الخطابات، ومجلدين آخرين من المنكرات، بالإضافة إلى مخطوطة "يومييات الرحلات" الخامسة بدونيللي. وحينما دخل الدكتور وهفردان لكي يقول لي أن طعام الإفطار قد وضع على المائدة، وجدني محاصراً بالأوراق معطى بالرب، جالساً في مواجهة الخزانة الخالي. وحينما أطلعت على المنكرات، ابتسم وقال:

"حسناً، إنني مسرور لأنك لم تقم بهذه الرحلة لقاء لا شيء."

حينئذ انتهزت الفرصة لكي أطرح السؤال الذي شغل ذهني طوال الليل:

"أعني إنني أستطيع أن أستخدم كل هذه المادة؟"

"بالتأكيد، لم لا تستخدمها؟"

"هل تفضل أن أعمل هنا، أم أن أوسعي أن أستعيرها؟"

"أوه، أي شيء تفضل، أنزل الآن معي وكل شيئاً."

ثم خرج خارجاً في خفة، بينما جلست في مكاني أغفمهم كعمجنون.

- ١٤ -

❏ ولابد لي من الاعتراف بأنني حينما درست المنكرات، بدأت في التندم على قبولي للعقد مع فليشر. كان مبلغ الخمسة عشر ألفاً من الدولارات قد لاق لي مبلغاً عظيماً في ذلك

لوقت، ولكن مع وجود كل هذه المادة التي استعصت الحصول عليها شعرت بأنني استحق أكثر من هذا بكثير. ذلك أن المنكرات الجديدة أراحت جانباً آخر من شكوكي حول خشبة دونيللي الثقافية وقيمتها الذهبية. لقد أطلعتني هذه المنكرات على سبب الذي جعل هولارس حبيبي يعجب به إلى هذا الحد. لقد كان رجلاً تسلطت عليه الطبيعة لولا أنه لتجربة الإنسانية. ولكن هل ندعه يتحدث عن نفسه.

"يقول لي ابن عمي فرنسيس أنني قوي الشعور بذاتي مسرف في القزور، ولكنني أرى السماء لكي تشهد علي أن هذا غير صحيح. إنني في الأغلب أكثر من يعيش تحت الشمس من مخلوقات لعنة وتحقير لذاته، وكثيراً ما يبلغ عدم رضائي عن ذاتي أن أشعر برغبة أن أطلق على رأسي الرصاص فأنسفه. إنني أكتب هذه المنكرات عسى أن أستطيع أن ادخل شيئاً من النظام والاستمرار على حياتي. لأنني أشعر بالانقسام حتى لباب القلب بسبب استهوائي واستنكاري لذاتي. كثيراً ما تشكو النساء من انشغال الرجال إلى الثبات على العهد، ولكني لأنا ينبغي عليهن أن التمتع بصيغة الثبات على العهد في الحب بينما نحن لا نملك شيئاً من الثبات في أي شكل آخر من أشكال الفكر أو الإحساس أو الرعاية؟ بالألمس، التي الواعظ المشهور الدكتور جيلليس موعظة في كليستنا، وقد حررتني هذه الموعظة إلى حد عظيم. فاقسمت على أن أبذل حياتي في المستقبل لكي أسير تبعاً لوصاياه فأعيش فقط على أساس من الاتفاق مع ضميري وإحساسي بالفضيلة. كان اليوم عاصفاً شديد البرد إلى درجة أكثر مما يسمح بالفاخرة بالخروج من عتبة الباب. وفي هذا الصباح فراحت في خرافات جيلليرت، بالأنانية لمدة ساعة قبل أن يتملكني سوء المزاج المعتاد مرة أخرى. فأصبحت غارفاً في إحساس وحشي من الفراغ والخواء. ومنذ ذلك الحين وأنا عاجز عن رؤية أي طريق يستطيع من خلاله ضميري أو إحساسي بالفضيلة أن يؤثر على هذا الإجهاد الذي يستهلك الحياة ويدهرها. ربما يستطيع ضميري أن يدلي بكيف أتجنب ارتكاب الخطأ. ولكنه لن يستطيع أن يدلي على كيفية الهروب من اللل والضجر. وهل يمكن أن يكون ثمة شيء أقتل للمخلوق الذي صنعه الله على صورته من نفس هذا الضجرة ذلك أن الله إله لأنه يستطيع أن يخلق. ولذلك فإن رجلاً يسحقه الشجر لأكثر المخلوقات بعداً عن صورة الله.

لقد عقد الدكتور جيلليس مقارنة شديدة الحذق والرائعة بين الجسم والعقل، فالأنا أن الجسم يملك نظاماً أو أسلوبه الخاص للتخلص من الإفراغات السيئة أو الضارة سواء كانت

مضيقية أو تتألمج المرض، بينما لا يملك العقل مثل هذا النظام أو الأسلوب. لو أصابني "دمل" لأصرف من تلقاء نفسه، ولو أصابني الإمساك فإن تفاحة خضراء ستكوني لتخفيف التقيؤ، ولكن لو أنني معتلى حسداً أو ضيقاً، فلن يدفعني لكي مظهر مهما كان، فإما أن أتيح الفرصة للتعبير عما يحترق في صدري، أو أن أسحبه عن طريق فعل مضاد، وليست هناك حياة طبيعية للتصريف، لابد لتصريفه عن طريقة تشبه ولادة "ماكلد" فإني ما كنت في مسرحية شكسبير، "أنتزع من رجلي أمه قبل أن أنزع والولادة" أو ليس يصديق هذا - وحتى أقدر منه - على ذلك "الضجر الحياتي" الذي يحلني، إنه نوع من القاموس الروح، دمل لا يريد أن ينصرف.

أعرف أنني لا يمكن أن أكون سعيداً دون الشعور بأن نشاطي موجه نحو غاية ما، ولكنني لا أعرف كيف للهم روحي فأشحنها بهدف معين أو غاية محددة. منذ نصف ساعة، تناول ديوان تومسون^(١) الذي يحمل عنوان "شئ" وقرأت فيه:

يتنزل الويل الأبيض عبر الهواء الساكن.

رفيقاً يرتج في البداية، حتى تأتي في النهاية الرفائق السميكة

تسقط في كل مكان، طولاً وعرضاً، وسريعاً ما يعم النهار

بالفيضان المستمر. الحفول الدللة الحبيبة.

ترتدي ثيابها الشتائية من أنصع ألوان المياض.

كلها ناصعة مشرقة، عدا حيث يتوب الجليد الجديد.

على طول المجرى المراوغ...

لذا تحمل تلك الكلمات سلاماً يشبه سقوط الجليد الهابط على حواصي ألا توحيد في داخل شبيه إلى السمو الجليل يفسدها الآن الإجهاد، مثلما ين جوع معدني فأشعر بالفئان إذا كانت كثيراً من الشيطان المسكرة؟

(١) جيمس تومسون ١٧٠٠-١٧٥٨ شاعر إنجليزي، له ديوان (شئ) عام ١٧٣٦، وديوان (الفصول) الذي أخذ فكرته عن استاذة في اللاهوت روبرت ريكالتون.

أولاً تستأثر تلك الشهية فتستيقظ من غمورها إذ تتذكر حفول الشتاء؟ وكذلك حين تتذكر القفحة السيوف في ملحة أوسيان^(٢) وأيضاً إذ تتذكر اشتراكات نهدين حينما تسرع فتأثر في صفود الترحات. إن لا يملك عصا تضرب بها صخرة الروح لكي يتفجر منها الينبوع دفافاً؟

هذا يريد إيرموند لوسوع الرئيسي في التذكرات، إنه ما ندعوه الآن بالطاقات والقدرة الخفية للأوعي. هذا الموضوع يتسلط عليه كالهائج السيطر، وهو يعود إليه مرة بعد أخرى. "إن قوى الطبيعة تحيط بنا طول الوقت، الاندفاع الجبار لتيار الفيضان، وقذائف مدافع الرياح، النجوم نفسها ترقص عبر السموات لكي تقول لنا إن لا شيء في العالم يمشي ساكناً سوى روح ملعون لا يعرف سوى القلق وتائب الناء". وهو يسأل مراراً عن السيب الذي يجعل نكباء الإنسان "يتفيه" بالضرورة من حياة الكون ويتسائل متأملاً فيما إذا كان هذا هو معنى قصة آدم وحواء؟ إن العرفة ذاتها، القدرة على التفكير، هي التي كانت تفقد الإنسان وتفرقه عن الله. وحتى في سن السادسة عشرة يبدي دونيللي معرفة واسعة تماماً بمقدسات ومشاكل القرن الثامن عشر، بل إنه يقتطف عبارات من جورج هيربرت^(٣). ولكن في الصحيفة رقم ٤٨ من المجلد الأول - المؤرخة في يوم يسبق عيد الميلاد بأسبوع واحد - تنقر النغمة، وأظنه قد أعاد قراءة جملته التي يطالب فيها "بعضاً تضرب بها الروح لكي يتفجر منها الينبوع دفافاً"، إنه يتحدث مرة أخرى عن اليهود المهترءة. كان النهران اللذان يفكر بهما هما نهديا عمه صوفيا، التي كانت تقيم عندهم فترة الإجازة مع والدها وواليتها، صوفيا مونتغو، ابنة عم إليزابيث مونتغو (وهي إحدى العضوات الأصلية في جماعة "الجوارب الزرقاء")، قد أصبحت واحدة من فائزات هذه الرحلة الرمقات. وحتى في ذلك الوقت، حينما كانت في التاسعة عشرة أو تكاد - فإنها قد حنيت الكثير جداً من الاهتمام حينما كانت تقيم في بيت "ماي هير" الذي أقامته الضيفة الشهيرة. وكان إيرموند يملك ما يكفي من القدرة على التحليل لكي يعرف أنه لم يكن واقعاً في جيبها، لأنه كتب يقول: "إنها بلهاء، ولكنها بلهاء جميلة تتمتع بالكثير من نقاط التشابه مع إحدى الربات"، ويكتب عنها

(١) أوسيان - شخصية تعمل وجون شارب وويلي، ففي التاريخ فكانت له شخصية أحد الحاربين الذين نالوا

تمثالاً في سكتلندا في القرن الثالث، وفي الأدب عرف كشاعر فد، نسب له ملحمة شعرية عن حروب الغالين في

فرنسا وإنجلترا وألمانيا، نشرت في العام ١٩٦٠

(٢) جورج هيربرت ١٨٦٢-١٩٣٣، شاعر إنكليزي أخلص للشعر وحده، بعد من شعراء مدرسة جون دون اليتاليفرية

ليما بعد فأنلاً، "قلت لي صوفيا إنها سمعت مسر يوزويل يناقش مع دكتور جونسون بدلاً من تعدد الأزواج، وأن مسر مونتاغو أجابت بأنه ليس هناك امرأة على قيد الحياة تمتلك حكمة متبيلة إلى الحد الذي يجعلها تريف أكثر من زوج واحد في الوقت الواحد". إن أشهر يوزويل جنودها، وقد تأملت فيما بعد، وكذلك تأملت أفكار روسو في كتابات فيليبور الجديدة" التي قرأها بالفرنسية، كما قرأ رواية ريتشارد سون "ككلاريسا هلو". ففي رواية روسو تنشأ علاقة حب بين البطلة دولي ومعلمها سانت بريو، ويدافع عنهما روسو عندما بان هذا الحب حق وطبيعي بين شخصين يحب أحدهما الآخر وتمنعهما الظروف من الزواج. أما رواية ريتشارد سون فهي أخلاقية إذا ما قورنت برواية روسو، إنها معالجة لحكاية غداء ككلاريسا الفاضلة واعتصمها على يدي الأفاق الصعلوك لفليس. وتموت ككلاريسا تحت رعاية تعليمها لنفسها وشعورها بالعار، ويقتل لفليس في مبارزة. ويكيل إيزموند صنوها من إنكهم لريتشارد سون باسم روسو. لماذا يمكن أن تنهار فتاة وتضمحل حتى الموت لأن رجلاً لم يفعل معها شيئاً مشبهياً؟ إن حضور أئمة الجميلة يحفظ موضوع الاتصال الجنسي في طبيعة ما يشغل ذهنه، وفي وقت قصير يسرع في التعبير عن آراء تدفعه على تقرير المحافظة على سرية منكراته. إنه - مثل عدد كبير من النقاد - يشك في أن موقف ريتشارد سون إزاء النصاب ككلاريسا لم يكن موقف الرافض للزنا، وإنما للتعجب السريبة الشريرة. "فمن الذي يمكن ألا يستمتع باغتصاب فتاة جميلة، خاصة إذا لم تكن متمائلة لوعيتها ولا تعرف شيئاً عما يجري لها؟" وهو يسأل عن السبب الذي يجعل ريتشارد سون يسمح باغتصاب ككلاريسا وهي تحت تأثير القدر، بدلاً من اتباع طريقة لوريس، لم يجيب على تساؤله فأنلاً، "إذا كانت الفتاة فاضلة إلى الدرجة التي تمنعها من تسليم جسدها بأي طريقة أخرى، فإن لفليس علي حق في اتباعه لهذا الأسلوب، إن جمال الفتاة، مثل جمال أنواع معينة من الطيور استوائية، قد خلق لكي يغري الذكور ويوقعهم في حياتله، فلماذا ينبغي عليها أن تشكو إذا كانت قد حققت كل هذا القدر من النجاح؟ إنها تشكو لأن هدفها هو أن تحصل على زوج في مقابل فضيلتها، ولكن نفترض أن زوجها المحتمل قد وجدها بلهاء ولم يرغب في أن يكرس حياته للدفاع عنها فهل يلزمه شرفه بأن يتوقف عن الطرد؟ لماذا لا يستطيع أن يحاول التزاوج مرة بدلاً من أن يشعري الحقيقة بأكملها؟"

ومن المهم أن نلاحظ أنه لم يجب بالفعل على سؤاله عما دفع ريتشارد سون إلى تفضيل أن تغتصب ككلاريسا وهي غائبة عن الوعي. ولكن هذا السؤال يستمر في مداعبة

تفكيره. إنه يسأل: "ليس ذلك لأن إحسان الرجل بالالتزام يقابل من منتهه؟ ليس من الحق أن استمتعنا بـ حاجة من النية يمكن أن يضيق تماماً إذا عرفت أن علي أن ادفع خضبياً من الجنهات لقاءها غداً؟" وهو يمضي إلى مناقشة فكرة يوزويل عن تعدد الأزواج، ويؤكد أن هذه الفكرة ليست سوى تعبير آخر عن رغبة الرجال الطبيعية في أن يعربوا عن ولائهم وأن يدفعوا ما قرر عليهم.. "بان يصيبوا دنائاً من عصر الخلق في الخلق الصحيح للناس".

ولم يؤد الاهتمام بصوفيا إلى شيء، ولكنه على الأقل أدى إلى بداية تفكير إيزموند في الجنس. ويؤدي هذا به إلى كتابات معالجة تقريرية ممثلة عن تجاربه الجنسية حتى ذلك الحين، وكانت هذه التجارب قد وقعت قبل ذلك بستة شهور حسب، وكانت الفتاة هي خادمة شقيقته الكبرى، جوديث، وكانت قد جاءت عائلة من لوانز. وهو يدعوها باسم مينو رغم أنه من الواضح أن "ماري" هو اسمها الحقيقي.

حينما عشت من دبلن، وكانت جوديث قد عادت إلى البيت منذ نحو ستة أسابيع، وفي المدينة لم أنتبه إلى مينو أيما انتباه، إذ وجدت أن وجهها على شيء من الشبح. كان صدغها كبيراً جداً، وكان لها أنف مثل الزرار الكبير، ولكن في اليوم التالي لهودشي، وبينما كنت واقفاً على الحقائق الحديثة التشذيب بالقرب من حافة مجرى الماء، سمعتها تضحك وتقول: "ككلا، ككلا، ليس هذا هو المكان المناسب"، ثم سمعت صوت رجل يتهكم على لكتنها فأنلاً، "ككلا، ككلا، ليس هذا هو المكان المناسب" وكان الرجل هو شون هرقاشي، الذي يسوس الخيل ويساعد على شؤون الحقيقة، وكان عملاقاً ضخماً الجثة برزت على صدغه الأيمن ننية كانت نتيجة ركلة قاسية من مهرة عسيرة. لم تكن سرويله ولا ستراته تناسبه أبداً لأنها كانت غالباً مما يستعني عنه شقيقه الأكبر، الذي كان أقصر منه بمقدار ست بوصات. لم أكن قادراً على رؤية أي منهما، لأنهما كانا والقيين وسط الحشائش الطويلة تحت إحدى شجرات التفاح. وبعد دقائق قليلة من الصمت، قالت مرة ثانية، ككلا، ليس هذا. أجبتها "لأن تعالي إلى الإصطبل" قالت "ككلا لا استطيع، يجب أن أعود لأهزم الشاي". أو كانت جوديث لابد أن تناول الشاي في العصر. عادة حامت بها من الخارج، ولكنني سمعتها تحده بان تذهب إلى الإصطبل بعد تقديم الشاي، ثم وفقت، ونفخت شعرها بينيها، وأسرت تستعد. وقف شون رافتي، وربط بنصاليه عند وسطه بقضعة حبل ثم ذهب في اتجاه الإصطبل.

كانت أعرف سمعة شون بين فتيات القرية، رغم أنني لم أكن قادراً أبداً على فهمها، ثم تبين وعينه الشوقفة إعجاباً مظهرًا مفرعاً إلى أقصى حد. كانت شقيقتي يطلن عليه اسم "سيكولوجي"، ولكنني كنت في هذه اللحظة أتعرق شوقاً وهشولاً لمعرفة ما نوى على فعله معها، رغم أن ذلك لم يكن صعب التخمين. كنت قد رأيتها وهو يرشد العضو المناسب لأحد الجنود النافذة الصبر لكي يولجه في مهرة جديدة، ولم يكن لدي شك في أنه جيد للتدريب على استخدام "الته" والسيطرة عليها، ولكنني لم أكن أعرف شيئاً من التحام الرجل بالرافة، غير أنني قررت الآن، وقد سنحت الفرصة من تلقاء نفسها، أن علي أن أعالج هذا النوع الخطير في تعليمي، وعلى هذا فقد دفعت نفسي إلى الجزء الذي يوضع فيه القش في إسمبل - لأنني خمنت أن هذا هو المكان الذي كان يقصده - ثم تساقط صاعداً إلى القسم العلوي منه، بين الكياس الفاصوليا وأجولة البذور. كانت الأرضية كلها مغطاة بالقش، والرائحة للجنة مثيرة. كان تخميني أنهما ينويان أن يتمتا بالتحامها فوق هذا البساط الخشبي القرب بكثير إلى الواقع، ولكن إذا كان قد "وضع في رأسه" أن ينظر إلى القسم العلوي، فإنه سيتعين علي أن أختبئ وراء الأكياس والأجولة في البركن.

بعد نصف ساعة دخل شون وبدأ في قلب القش بشوكة كبيرة، لم يكن بوسعي أن أراه، ولكنني عرفته من صوته وهو يغني أغنية "مولي مالون". ثم صعد بعد ذلك إلى الطابق العلوي، أحياناً معه "أحضاناً" هائلة من القش، لكي يبعثرها وينثرها على الأرضية على بعد بضعة ياردات من المكان الذي رقيت فيه. من هذا التصرف خمنت أنهما ينويان أن يخلعا ملابسهما وأن يفعلا ما يريدان هنا في القسم العلوي، وليس في المدخل السفلي كما كنت أظن.

بعد دقائق قليلة، جاءت مينو، ولم هة قصيرة لم أسمع صوتاً. رفعت جندي على ركبتي وتلصصت ناظراً فوق الأجولة. كانا واقفين بالقرب من الباب، وكانت قد أحاطت عنقه بترابيتها، تبادلاً حديثاً هامساً وأشار هو إلى السلم. خفضت جندي ورقيت. انغمضت عيني، حتى يظن أنني تماماً أن وقعت عيونهما عليّ. سعد هو أولاً، ثم استدار وعاونها على صعود السلم الذي مكان ممثداً وراء النصة العالية. كان الضوء ضعيفاً، ولكن كان بوسعي أن أراها بشكل جيد. وقف هو وظهروا إلى الجدار، فالتفت هي بترابيتها حول عنقه ومنحته أيلة طويلة. ثم أنزلت إحدى يديها ومدتها إلى الحبل الذي خلت عقولته بحذبة واحدة. سقط

بخطاله إلى ركبتيه. كان شون عن ردفين هاتلين مشعرين مكاناً في مواجهتي. تحركت يديا متجولة بينهما ولم يكن بوسعي إلا أن أضمن ما كانت تفعله في هذا المكان... رفعت وجهي فوق الأجولة، ولكن لم أستلمع أن أرى سوى القليل. لأنهما كانا غارقين وسط القش، وكان الضوء قليلاً بالقرب من الأرض. وهجاء صرخت صرخة حادة، وخشيت أن تكون قد ركني، فأخفيت نفسي غامطاً إلى الوراء من جليد. ثم سمعته يأمرها بالصمت، فصرخت مرة ثانية، ولكن بصوت أقل ارتفاعاً. همس القش وصبر كما لو كانت آلاف من الجحوش تمرح داخله، واستمرت هي في إطلاق الصرخات والأذات، كما لو كانت تتالم. ثم أصبح الصرير عالياً حتى يعني إلى التلصص من جديد، فرأيتته يحرك رقبته فوقها كما لو كان يأمل أن يصنع نقباً في الأرض... بينما انست قدماها في ثنيتي ظهره، ولو كان هناك المزيد قليلاً من الضوء، لكان في وسعي أن أرى الشهد الصحيح الدقيق للعملية. ثم حاولت أن تصرخ مرة ثانية فوضع يده فوق وجهها، بينما توقفت حركاته كما لو كان قد تجمد فجأة. رقبتي في مكانهما، ساكنين تماماً، ثم تهد تنهيدة عظيمة، وبدأ عليه أنه يوشك أن يجفل مرتداً إلى الوراء من فوقها. وحلت هي وثائق ساقها من حول رقبته، وتركتهاا تتمددان مستقبهين بينما رقد هو في مكانه فوقها دون حركة.

لا بد لي من الاعتراف بأن كل هذا قد دفعني إلى حافة قريبة من الاستنارة التي بلغت لحظة انقراضها المفاجئة قبل أن تتوقف حركاتهما ببعض دقائق. ولما كنت قد انتهيت فقد أملت أن يرتبها ثيابهما وأن يسمعا لي بالهرب من هذا الوضع القبيح. ولكن الصمت الذي أحلق واستطال القمني بأنهما قد غرقا في النوم، رغم أنني لم أجروا على الحركة لكي أكتشف إن كان تخميني صحيحاً أم لا. وبعد أن مرت عشر دقائق، شرعاً في التحرك ثانية ولكن الصرير استمر لمدة طويلة حتى أنني رجحت أنهما لم يفعلوا سوى أن كانا إلى مؤتمه. العشق الذي يعمقانه. رفعت عيني فوق الأجولة فاستكشفت أن تخميني لم يبلغ سوى نصف الحقيقة، لأنه كان راقداً على ظهره مثل فارس مصروع، بينما جثت هي على أطرافها الأربعة، وسفت كما لو كانت تحاول أن تنفث هذراً من الحياة في الجسرات الطويلة بأن تنفخ فيها بعض الهواء. وبعد قليل، أثمر جهدها ثمرته، وتأجج ظهري في الجفرت من جديد...

يمضي تقرير إيرموند في إطباق واستطالة حتى ليكون من غير المعني أن ننقل منه المزيد هنا. كانت الفتاة مصابة بالقلمة مستعرة الشبق. رغم أن إيرموند كان أقل خبرة

بكثر من أن يدرك هذا، لقد دهعت فارسها إلى مزيد من النشاط ثلاث مرات، ثم تركته في نهاية غارها في نوم بلغ من العمق أن أيزموند كان أخيراً قادراً معه على أن يخطو على أطراف أصابعه فوق جسده دون أن يشعر به.

ولكن الطور التالي كان نموذجياً ومطابقاً لما هو منتظر من أيزموند حتى أنه يجب أن يسجل هذا، أن يعترف بأنه لم يكن قادراً على رؤية ما يجري ولكن الأصوات كانت دالة ولا يمكن الخطأ في تفسيرها حتى لقد كانت الرؤية غير ضرورية. والآن، وقد رأى الفتاة عارية، فإن فكرته الوحيدة كانت هي كيفية أن يتقاسمها مع هلي الإصطبل. إنه يكرر عدة مرات أن جمال جسدها قد اندهشه، وكان قبل هذا يظن دائماً أن اثنتين الإغريق قد أسرقوا في اللذلة في جمال شكل الجسد الأنثوي. وفي طريق عودته إلى المنزل، خطر له أن الفتاة يمكن أن تمنح الأيتاز والتهديد لكي تسلم نفسها، لم يكن عليه إلا أن يهتد بأن يبلغ شقيقته بأنها تمسك هلي الإصطبل. ذهب بعد هذا إلى حجرته لكي يغتسل وينظف الثياب عن ثيابه، ثم ذهب عبر جناح الخدم إلى حجرة مينو. ولم يلح له أن ثمة أحداً بالداخل، فتح الباب وأمل برأيه في الحجرة.

"كانت حجرتها خالية، وللحظة ناقشت نفسي أنتظرها أم أعود راجعاً إلى حجرتي. ثم سمعت صوت مياه تسيل في لرحاض اللحق بالحجرة. وهو قسم صغير من الحجرة نفسها يفصله عنه حاجز صغير. فمررت أنا هناك بالداخل. أغلقت الباب خلفي وخطوت إلى الداخل على أطراف أصابعي. ولكن أحد ألواح الأرضية صر تعثني فنادت: "من هناك؟" فقلت بأكثر ما استطعت هدوءاً "أيزموند" أمطت برأسها وقالت: "أوه، سامحني، إنني من دون ثياب". وقفت في مكاني، شاعراً بأنني أبله لا شأن له، الأمر الذي نفسي، استكت بتوبيخها، الذي مكان ملقى على أحد الناعبد، ورفقته لتفطلي جسدها عند العلق وهي تسأل: "أتحمل رسالة؟" ولكنها كانت تبتسم كلما لو كانت قد وجدتني مستغافاً، وسألتني هذا على الشاطئ من توترتي. كانت أحرق فيها بقوة، محالاً أن أعرف إن كانت ترتدي قميصها أم لا، حتى أنها لم تنطق طويلاً في شك من هدي. كانت هذه هي أول مرة أعرف فيها أن تبادل في الأراء يمكن أن يحدث دون نطق بكلمة واحدة. تمسكت عيناها من قلبي إلى رأسي، وعادت ثانية. قلت: "الجو بارد هنا، أو شيئاً من هذا القبيل، ثم خطوت إلى الأمام وأخذت يديها وأمسكت بهما فرفعتهما وأطلقت تحت الذراعين. كانت ترتدي القميص، ولكنه كان متدلياً

تحت عنقها، غير أن منظر الكرتين غير الحميتين دهعتاني إلى العمل بقوة حتى أنني لم أملك الرد، وإنما أخذت الثوب منها وألقيته على الفراش. على النهدي الأسير رايت آثار صفين من الأستان وحيتا بدا عليها أنها على وشك الاحتجاج اشرت إلى تلك الآثار. هبطت بعينها نحو صدرها وقالت شيئاً بالفرنسية لم أستطع سماعه، ثم خذت رأسي إلى الحلمة الصغيرة التي وفقت الآن عارية. وبينما كانت تنظر، جذبت حزام القميص. توقفت منها أن تقفز مبتعدة، ولكنها وقعت في مكانها بهنوء وتركتني لكي أخذها بين شفتي، ثم بعد لحظة، وضعت يديها على رأسي وريشت على شعري. ثم حلت رباط حزامي. لم أضيق وقتاً أكثر من هذا. وإنما دهعتني إلى الوراء نحو الفراش الصغير، ووضعت يدي على الجزء المنخفضة التي كانت مبتلة لأنها كانت تغسلها حينما دخلت الحجرة. ودون أن أخلع متطالي أو حدثي سقطت فوقها، ولجتها دون صعوبة...

مرة أخرى يبدو الوصف أطول جداً من أن تقتطفه كله، لقد بقيا في حجرتها ساعة أخرى، ودهعت الفتاة بالدهشة إلى أن يمارس الجنس معها ثلاث مرات أخرى. وبعد ذلك تبادلوا الحميم، واعترف أيزموند بأنه قد رايقها مع شون رافرتي. وبدلاً من أن تشعر بالالفة، ضحككت ضحكة مرتفعة، وسألته إن لم يكن قد شعر بالغيرة فقال: "لم أكن حينذاك، ولكني أشعر بها الآن" قالت له إن ذلك سخف لا معنى له، طالما أن الفروض في الرجال والنساء أن يتبادلا اللذة.

من الصعب القول إن كان أيزموند سعيد الحظ أم سينه في اختياره عشيقته الأولى. حقاً إن أراءه حول الاتصال الجنسي غير الشرعي كانت قد تطورت من قبل تطوراً كبيراً، ولكن قصة حب أكثر طبيعية. ذات جانب عاطفي بالإضافة إلى جانبها الجسدي. كانت جديدة بأن تساعد على موازنة تلك الأراء، كان ما يزال غير مبرك لأن هناك شيئاً ما غير طبيعي في مطالب مينو الجنسية طالما أنه وجد نفسه قادراً على أن يمارس معها الجنس بالكثرة التي تريد. كذلك فإنه ليس من الحقيقي تماماً أن الانجذاب القوي بينهما كان محروماً من جانبه الوحيد. بل لقد كانت هناك نقطة اعترضها هو اندماجاً معها. لقد تكلف عن التفكير في كلابيسا ولطيس، أو حوالي وسات بيو، وراح يفكر في مستهتما باعتبارها قصة مينو ودي حريو. رغم أنه يعرف بأنه كان قد صرف النظر من قبل عن مسرحية بريغو باعتبارها شيئاً سخيفاً وغير واقعي.

من لأوسف أن إيرموند لا يقول لنا شيئاً عن تاريخ مينو السابق. ولا حتى عما إذا كان له بئالها هو عنه أم لا. لقد كان من المهم أن نعرف إن كانت حيوبتها الجنسية غير العادية (لمثلية أم مكتسبة)، إنها تبدو بشكل واضح في صورة حالة من حالات الغلظة الشبقية جديدة بأن ندرس في كتاب مرجعي. كانت تحب أن تعض بالأسنان وخاصة في نهديها وردفيها، وكانت تحب أن تضرب على مؤخرتها بشريط من الجلد...

وفي خلال الشهرين اللذين استمرتهما تلك العلاقة، لم تكن تخفي عنه أنها كانت تمضي أكثر مما تستطيع من الوقت مع شون والفرتي، وكان إيرموند واقعاً تماماً تحت سيطرتها حتى أنه لم يشك في ذلك. بل إنها حاولت أن تغلبه بأن يخفي في الإصطبل مرة ثانية لكي يراقبها وهي تمارس الجنس مع شون. ولكن كغرياء إيرموند - أو ربما تظاهراً لاجتماعي بروتستانت - صار ضد ذلك.. بل إنه اعترض على فكر أحبا الذي قالت فيه أنها ستعز شون عن علاقتها به هو، وأن ثلاثهم يمكن أن بشر صكوا في الأعيب الإصطبل.

في أغسطس اتخذت القصة تحولاً غير متوقع، يدفع أثره إلى أن يتساءل إذا كانت مينو (اسمها الأخير لم يسجل) واحدة من أكثر نساء زميتها تعقيداً وأبعدهن عن التقيد بالوصفات المعتادة. فقد حدث أن فتاة تدعى دلفين لانتير، وهي إحدى معارف جوديث، جاءت لكي تقيم في قلعة دوليللي. ويستطيع لور أن يستنتج من وصف إيرموند لها أنها لم تكن ذات جمال تقليدي، لأنه يقول إن وجهها كان يتمتع بنوع من الجمال الناتج عن رفاتها (عينيها الواسعتين المنبتتين. وكان من سوء حظها أيضاً أن تكون مشوهة تشويهاً بسيطاً، فقد حدث أن سقطت من إحدى العربات في طفولتها فاكسرت عظام أحد رجليها وأحد كتفها ولم يستطيع الأطباء أن يعيدوها إلى حالتها الطبيعية، فكان عليها أن تعمل نفسها على ساقها بطريقة مضطربة. ورغم أن أياها كان فرنسياً فقد سكنت أمها إيرلندية وكانت تتحدث الإنكليزية بعلاقة (ومن الأمور ذات الفز أن إيرموند يتحمل ملقة تسجيل التفاصيل عن فتاة من طبقتها، بينما هو يتجاهل تلك التفاصيل الخاصة بمينو، الأكثر تعقيداً وجنبا للاهتمام).

كان إيرموند صبيها في السادسة عشرة من عمره، رومانتيكياً، وكان ينظر في تأمل إلى شكل امرأة يقابلها. فإذا كانت ميلو صورة من مانون نيسكو، فإن دلفين كانت أقرب إلى شخصية جولي - أو ربما كانت أقرب إلى "كتير" الرقيقة الحلوة الطبع في نفس الرواية. رأى

إيرموند أنها كانت على قدر من الخجل، فتحمل مشقة أن يسليها، أعادها كتاب "ميليون الجديدة" بعد أن انتزع منها وعاد بأن تخفيه عن الأنظار. (والسبب في هذه المشقة من السرية ليس واضحاً، لأنه يذكر في مكان آخر أنه لم يكن موسع أبه ولا أمه أن يتحدداً لفرنسية وربما كان يريد أن يقيم مع الفتاة نوعاً من العلاقة الخاصة). ولكنه كان يحس أن شون مينو بالغيرة، فحاول ألا يكون اهتمامه بالفتاة الجديدة شديد الوضوح. ولكنه كان يتنصص مينو قدرها البعد عنه أيام، وكان قد قضى معها ساعة في فراشه، قالت له أنها تظن أن دلفين والفتاة في هودو قالت له أنه غبي لأنه لم يلاحظ ذلك، وقرر إيرموند أن يكتشف الأمر بالأساليب العادية، وهي أن يجعل يده تحتك بيدها وهي تمر أن جنبه، وأن يلمس بياضاً أو وسطها حينما ينفرد بها، لكي يرى إن كانت متقبل مثل هذا النوع من الألفة. وقد قبلته فعلاً، فهي أثناء سزهة وسط خراشها النهر تمسك بها في أحد الأركان وقبليها، فالتفتحت في البكاء. المتعد هو مترعباً وقد اختلط عليه الأمر، لكي يسأل مينو رأيها. قالت له مينو أن دلفين كانت أكثر جدية إزاءه منه إزاءها، وأن دموعها كانت لأنها حسنت ذلك، وهذا تحليل جدير بالاحترام. وهكذا حينما انفرد بها في ليرة الثانية سأله إيرموند، "ألا تعبين أن القبلت؟" وأصك لها أنه لن يفعل ذلك ثانية إذا هي اعترضت. احمر وجهها، وقالت عدة حمل لا ربحاً بينها، وحينما ضغط عليها، اعترضت بأنها لا تعرض على ذلك، دعاها إيرموند لجملة أخرى بين اضلال النهر، وأمضى عصر ذلك اليوم وهو يقبلها، وفي عودته، كان لابد أن ينطلق إلى حجرة مينو لكي يمتلكها، كانت سيطرته على نفسه طول النهار أكثر مما يحتمل، قالت له مينو إنه عاشق بلذ، وأن ما يحتاج إليه هو الرقة والتألفات، إن عليه أن يربت على وجهها وذراعها، وأي جزء من جسدها يتصادف أن يكون مكشوحاً، أي أن يعودها أن تستجيب باستمتاع للمستته. ثم يتقدم بحذر نحو المناطق المحرمة. ويستغرق وصف إيرموند لتلك الحملة تسع صفحات من الكتابة الضيقة الحروف والمساحات. كانت دقائق عملية الإغواء تسحر له، وبعد أسبوع سمحت له بأن يكشف تهيئها لكي يلاطفهما، وأن يقبلها فوق الرصبتين. رغم أنها كانت تمسك بقوة بطرف الثوب بكلاً يديها لكي تمنع أي مزيد من التقدم. تناقشا في شخصيتي جولي وسانت بربو، ووافقت نظرياً على أن شخصين في وضعهما لابد أن يكونا عاشقين، ولكنها - في التطبيق - وضعت خطاً فاصلاً حاداً بين التألفات وممارسة الحب.

غير أن مينو الفريدة في نوعها قدمت الفرحاً لدار رأسه. وكانت مقتنعة بأن دلفين كانت فاضلة. (الفضيلة نظرية بسبب عدم الخبرة) - حسب تعبيرها - ولكنها كانت تعلمت أسلوباً شافياً. قالت أيزموند أن يأتي يدلفين إلى الإصطبل في عصر اليوم التالي، وأن يؤكد عليها ألا تنسب بأي صوت حينما يدخل شون رافرتي لكي ينخر القش استعداداً ليلورتها. المعادة من ممارسة الجنس: "إذا رفضت أن تنظر، فإنها فاضلة حقاً، ويكون من الأفضل لك أن تهرب قبل أن تتزوجك، وإذا نظرت، فإنها ملكك بالفعل".

وبينما كانت الساعة الفاضلة تقرب، أصبح أيزموند عصيباً، وفرو عدة مرات في تخفى عن شكل هذا المشروع للاستحصال اللذي للمطبعة والمعل. وانتباه شك في أن الفتاة التي تستطيع أن تضع خطأ فاضلاً يمثل تلك الحدة، حذيرة بأن تهدم اللعبة شكلها بأن تكشف عن مكان أخشيتانها، وأعلنت شقيقتها عن رغبتها في القيام بزيارة لبعض الجيران عصر ذلك اليوم، فقالت دلفين أنها تود أن تذهب معها، وأطلق أيزموند تنهيدة الزئاج عظيمه. ولكن دلفين - في اللحظة الأخيرة - عادت فقالت أنها تشعر بصنع، وقالت أمه أنها ستذهب بدلاً منها، وبدأ أيزموند يلعب لعبة أشبه بالرويت الروسي ضد القدر، لقد أراد للمشروع أن يفشل، ولكنه كان راعياً في أن يمضي في تنفيذ شكل خطوته - باحثاً بلهفة عن أول عذر يبرر له لتخلي عنه. ذهب إلى حجرة دلفين في الساعة الثالثة والنصف، وسألتها إن كانت تشعر بالرغبة في الشيء معه قليلاً، خرجت معه فاتخذتا طريقتهما المحب صوب بلدة دار، ثم عادتا سائرين إلى جانب للجري اللاتي وهما يلتقيان الحمى في المستنقعات المفضلة. وتحدث أيزموند عن طفولته، وعن الساعات التي أمضاها في قراءة الكتب المتنوعة في الإصطبل، ولا يبدو أن في هذا شيئاً أسوأ مما جاء في كتاب "الراهبة" لسر أفر، بيهن، أو في كتاب "فردينا" أو "الكوندات فتوم" (اسموا تليينس). وبينما كانا يعبران هناك الزرعة، فترحت دلفين أن يلتقا نظراً على الإصطبل. كانت الساعة الآن النصف بعد الرابعة، وكانت هناك فرصة لاحتمال أن يكون شون بالخارج بالفعل، ولكنه لم يكن هناك. فأتتها أيزموند فوق السلم إلى القسم العلوي لتبنيه بالكلية، ثم ذهب إلى المكان الذي كان قد أعدده بالفعل في الركن - وضماً أحولة نظيفة على الأرض - ثم ألقى بنفسه عليها. فعلت دلفين نفس الشيء دون تردد - ولاشك أن هذا مكان هو ما كانت تفر منه بينها وبين نفسها.

سمعنا قليلاً من الوقت في الحنية، ولكننا غرقنا على الفور في القبلات واللامفات الناعمة التي عبرت بسرعة إلى النقطة اليهودية من الألفا. لم تكن ترتدي أية مشدات، ولذلك كان سهلاً أكثر من المعتاد أن لكشف نديها. وأن أبدا الهجوم بشفتي. وكانت قد لاحظت من قبل أنني أستطيع أن أزيد متعتها بأن أعطي الحلماتين برفقة شديدة، ولحظتها كانت تشبك ككاحليها وتضغط بشدة في حركة تلقائية، الأمر الذي استلجيت منه أن النقطة التي تنضغط بينهما كانت مستعدة لتقبل مزيد من الاهتمام، ولكن حينما تحركت الشفتان فوق رصبتها، أسرعت تفرس أصابعها في شعري وتمسكني بقوة، كنا في هذا الوضع حينما سمعنا صوت الخطوات القادمة صاعدة على السلم، فأسرعت من فورها تسوي ذيل ثوبها، وكانت على وشك أن تجلس حينما وضعت إصبعي على شفتي وهزرت رأسي محذراً. جلست في مكاننا، لا تكاد نتنفس، ثم سمعت حفيف القش بينما كان شون ينزله ويرشه فوق الألواح بشوكته الطويلة، ثم هبنا إلى أسفل، وعاد حاملاً "حضاناً" آخر من القش، وهمست لها أن تظل صامتة وأن كل شيء سيكون على ما يرام، لأنه لم يكن سوى قش في الإصطبل، وهو صديق خاص لي. ولكن حينما حاولت أن أقبلكا ثانية هزت رأسها ودهمتني بعيداً.

سمعنا شون بهبط ثم يخرج من الباب، فقالت: "سرع هذا هو وقت الخروج، ولكن حينما وقفنا سمعنا صوت مينو في الطابق الأسفل، فجلست بسرعة مرة أخرى دون أن أحتيا على الجلوس. كانت قد رتبت الأكياس المليئة أمامنا بحيث تستطيع أن تنظر من فقرة بين الشتين منهما دون حاجة إلى الوقوف. انزعجت دلفين وهمست تقول: "ماذا إذا كانا سيجبنا إلى هنا؟" ولكنني طماننتها، مشيراً إلى القش. أضلت أنها في تلك اللحظة بدأت تشك في القرص الذي كان شون يرب القش من أجله بهذه الطريقة لأنني رأيت وجهها بصطليح بالحمرة.

سمعت شون أولاً ووقف هناك، وما إن لاحظت به مينو حتى ألفت ذراعها حول عنقه ومنحنه قبلة بالغة الطول، عرفت طبيعتها لأنني كنت قد خبرتها بالفعل، فقد كانت ماهرة بصورة رائعة في إشعال النار في الدماء بحركات جريئة من لسانها، ثم حلت الحبل حول وسطه حتى ساقها سرواله حول ككاحليه... لاحظت حينئذ باهتمام أن دلفين كانت تتابع شكل حركة بأكثر ما يكون من الفضول والتأكرت ما فأنته مينو من أنها أصبحت بالفعل ملكاً لي. حينئذ معدت يدي وجذبت كتفني ثوبها إلى أسفل، ومددت ككلاً من يدي تحت أبطنه لكي أضع ككلاً منهما فوق أحد نهديهما. لم تبدل أية محاولة لنفي، كان يوسعي

أن أحس بقلبها يضرب ضرباته الثقيلة السريعة تحت أصابعي. كانت مبنو الآن دون ثيابها
 راضعة أمام شون. وكنت أكثر اهتماماً بالبحث عن الكيفية التي قد يمكنني بها أن استفيد
 من موقعي الحالي مما كنت مهتماً بمتابعة تطورات مباحثها الحارة... وعدت إلى ملاطفتي
 فرفعت ذبل ثوبها فوق مستوى ركبتيها، وسمحت ليدي بأن تصفط على فخذه. وفي
 هذه المرة لم تأتي بأية حركة لكي توقفني. ولكن حينما حاولت أن ادس أصبعي هزت رأسها
 وصفطت فخلعها بإحكام أكثر. كان تنفسها الآن ثقيلاً حتى أن صرير القش وحده هو
 الذي منع الآخرين من سماعه... غيرت وضعي، وبنات اعض ثيابها. ثم قبضت أصابعها
 على شعري... وانطلقت من صدرها تنهيدة طويلة، ثم هوى جسماً إلى الأمام، وكانت على
 وئك السقوط بكل ثقلها لو لم أتمكن على استعداد لتدعيمها بيدي. كانت الأصوات القادمة
 من ناحية القش قد بلغت الآن مرحلة الصراع ولكنها كانت غير مبالية كما لو كانت تلك
 أصوات عاصفة تهب في الخارج، تركت نفسها تسقط على الأحولة، وأنغمست عينها، وهي
 نمد وتفرّد وتسوي ثوبها لكي تستعيد رونقها. هبات من نهفتي بشيء من الصعوبة، وأنا
 لاحظ عودة تنفسها إلى انتظامه، ولكنني بعد خمس دقائق أو نحوها، وخشية أن تفرق في
 النوم تفقدت ما أحرزته من تقدم. فرفقت إلى جوارها وقبلتها. رفقت في مكانها كما لو
 كان نائمة، فوضعت يدي على ركبتيها، ثم زحفت بها... وكانت الأصوات القادمة من
 الناحية الأخرى للحاجز قد توقفت، وكان كل شيء قد صمت الآن حتى كان يوسنا أن
 سمع حركة فار صغير. ولذلك لم أبذل أي محاولة أخرى لتحسين وضعي، وإنما رفقت في
 مكاني، وبدي فوق قفصها الداخلي الليل... رفقت في مكاننا هناك لمدة تقرب من ربع الساعة، ثم
 سمعت همس مبنو، فعرفت أنها قد جددت طاقاتها، وأنها الآن قد عزمّت إلى إثارة خنزيرها
 لنانم الذي كانت إجابته مجرد زمجرة... وانطبقت ذراعها بقوة حولي، فغطيت قفصها
 بقبلة.

تمنحنا لهجة هذه الحادثة كلها انطباعاً بأن إيزموند كان قد أصبح بالفعل
 ككازنوا لا يترك شيئاً للظروف أو للمصادفات. ولكن الأحداث تكشف عن عدم صحة ذلك
 الانطباع. إن كازنوا كان حذيراً بأن يتناهب الثعب من الفتاة قبل أن يستعد عنها، أما
 إيزموند فقد قرر أن يحبها، وأنه سوف يتزوجها، ومن المحتمل أن يكون قد شعر بالخجل من
 الخطة التي اتبعها والتي تخلفت على مقاومتها. وكان بالتأكيد يدرك الضرر الذي قد ينزل
 بها إذا أبدى أي تناقض في رغبته إزاء اهتمامه بها. كانت بالفعل تشعر بالخجل منه لسماعها

له بأن يطلع على استنارتها الجنسية، ولكن خجلها كان أكثر لأنها سمحت له بأن يستفيد
 من هذه الاستنارة. ولو أنه قد هجرها فكيف بعد استسلامها، لكان هذا قد بدا لها في صورة
 الجزاء الذي تستحقه فعلاً. ولكن إيزموند صمم على أن يثبت أن هذا لم يكن حقاً، فقد تردد
 بها - بعد أن غادر شون ومينو الإسمطيل - وهيا صرير القش مرة ثانية - فقال لها أنها قد
 أصبحت مخطوبين. وفي تلك الليلة، حينما أدركت مبنو مقبض باب حجرته، وجدت أن مزاج
 الباب مغلق من الداخل. وفي الصباح التالي، بحث هو عنها وأخبرها أنه مخطوب وأنهما يجب ألا
 يكونا عاشقين من تلك اللحظة. ويبدو أنها تقبلت هذا الموقف بطريقة فلسفية، بل إنها
 كانت متعاطفة معه إلى الحد الذي جعلها تحذر من أن يحتفظ بسر هذه الخطوبة بعيداً
 عن والده. فعمل بتسويتها. ولكن دلفين لم تكن بهذا القدر من اللباقة، لأنها أطلعت جوديث
 شقيقة إيزموند، على السر، الأمر الذي ثبت أنه أسوأ أنواع التقدير. كان من الواضح أن
 جوديث مغرمة بدلفين، وربما كانت تستطيع أن ترحب بها كزوجة لأخيها في ظل
 ظروف مختلفة. ولكن دلفين كانت كانت كاتوليكية رومانية، وكان آل دونيللي من
 البروتستانت. وكانت هذه هي أكثر العقبات جدية، لأن الكاتوليكي في أيرلندا كان متبوعاً
 سكان سادة الريف من البروتستانت، أما الكاتوليك فكانوا مطرودين من الخدمة الاجتماعية
 وكانت دلفين ابنة لارستراطي فرنسي ولكن هذا لم يؤد إلى أي اختلاف، طالما أنهم كانوا
 في أيرلندا. وأشارت جوديث إلى هذه الحقيقة، وكانت دموع ومناقشات طويلة. وبدأ
 إيزموند يشعر بأنه ارتكب غلطة جسيمة. كان أمراً لا أهمية له عنده على الإطلاق سواء
 تحولت دلفين إلى البروتستانتية، أو أصبح هو كاتوليكيّاً، أو أصبحا كلاهما يوديين. لقد أراد
 أن يتزوجها لأنه مدين لها بالحب والحماية، ولأن إغوائه لها قد منحها إحساساً قوياً بالرضا
 عن نفسه. وقد أصبح الآن "مخطوبين" وكانت هي ترفض حتى أن تذهب إلى الإسمطيل.
 وهو يقول بسخرية في مذكراته أنهما كانا جنديين بأن يكونا أكثر سعادة لو أنه لم
 يذكر كلمة الزواج أبداً.

واستمتعت جوديث بدورها باعتبارها حاضنة وموقفة بين الرؤوس في الحلال.
 ونصحت إيزموند بالأقول لوالديهما شيئاً حتى يتمكن من إعلان أنها ستتحول إلى
 البروتستانتية، وبعد ثلاثة أيام، رحلت هي ودلفين إلى دبلن لكي يعرضا القضية على والديها.
 وكانت هذه هي آخر مرة يراها إيزموند فيها. فقد عادت جوديث إلى فرنسا على الفور مع
 عائلتها.. وأطلق إيزموند تنهيدة ارتباك، وتسلل عائداً إلى فرنسا مبنو، ولكنه فقد مبنو هي

الأخرى بعد شهرين، حينما ضيقها السيد دونيللي الكبير في الإصطبل مع صبي الإصطبل الجديد. وكان السيد يتمتع بما يكفي من سعة الأفق، ولكنه كان مهتماً للفضائل ولله وإله أرسلت مينو في عرب الريد إلى ليونز، في الدرجة الثالثة، حاملة مرتب شهر وعدداً من ثياب جوديث القديمة. وأهداها إيرموند عشرين جنبها كان قد أهداها للتزينة والاستمتاع. وقال لنفسه أنه أصبح سعيداً بقدرته على أن يقول أن روحه - وأعضائه الأخرى بالتأكيد - قد عادت إليه، ملكاً خالصاً له من جديد. ولكن بعد رحيلها بشهر واحد، بدأ إيرموند يومياته بقوله: "إنني غالباً أكثر من يعيشون تحت الشمس لينة وتعلبياً للذات...". كان قد تدفق من شياخ ما هو أكثر جداً من أن يسمح لنفسه بعدها بالتنوع لهذا الوجود الداجن الساكن لأحد السادة للزارعين. لقد اقتسمت تجربته مع مينو ودفن مناهج تعليمه الكامل في مجال فن الحب. كان قد خير بهجة الغزو الذكري، وإحساس السيطرة على عواطف امرأة، بالإضافة إلى التخلص من كل مكبوتاته الجنسية. كان يتوق إلى الجنس مثلما يتوق مدمن الخمر إلى دنانيره، ولكن لم يكن هناك من تقدمه إليه. ومضى يتخفف من إحساسه بالإحباط في يومياته، محاولاً أن يعيش ساعاته مع مينو مرة أخرى، وأن يستفيد لحظات إغوائه لينو. وحاول أن يقرأ، ولكنه وجد أن روسو صار مضجراً، وهولثير ضحلاً، وشترين مزعجاً دون مناسبة. ولم تستطع سوى مكتب جونسون، "راسيلاز" و"أمير الحشرة" أن ترضي توفه إلى الجدية، وراح يقرأ الكتابين ويعيد قراءتهما حتى حفظهما عن ظهر قلب، إن جونسون يثير مسألة غربة الإنسان في شيء "أكبر من" السعادة، وأكثر من مجرد القناعة والرضا. قبل ذلك بستة شهور، كان إيرموند جديراً بأن ينتظر إلى هذه الرغبة باعتبارها رغبة في الإشباع الجسدي، وفي النعمة، ولكنه كان يعرف الآن معرفة أفضل من ذلك.

بعد ذلك، نأتي إلى ما كان بالنسبة لي أكثر أقسام البوميات أهمية، حينما كان ديسمبر الماطر يخلي مكانه ليناير، غرق إيرموند في أزمة من الانقباض العصبي الحاد، ضاعفها الزعاجة على وقلة الذي حدث في أواخر ديسمبر أن هاجمته وهزيمته بقسوة عصابية من التشرمين يبدو بشكل غامض أن دولفهم كانت سياسية. وقصت هذه الحادثة في الظلام، حينما كان الأب عائداً من منزل خاص محلي غير محبوب، ضرب جواده بحجر، ثم أصابه على الفور حجر كبير آخر فوق عينه اليسرى، فسقط عن جواده فاقد الوعي. وحينما لم يعد إلى البيت عند منتصف الليل، خرج إيرموند وجماعته من الأتباع وسط عاصفة لكي

يبحثوا عنه، فوجدوه يجرح نفسه على هطول الطرق نصف عار، وما زال يثرثر دعاءه بملء مكان منظر الجراح مخيفاً أكثر من حقيقتها. فبعد عشرة أيام في الفراش، عاد إدوارد دونيللي معافى قوياً كما كان. ولكن أحداً لم يستطع أن يعثر على أثر للمعتلين الذين من المحتمل أن يكونوا قريباً من البحارة كانت سيفنتهم تحت الإصلاح في ميناء كاربوت على مصب هر شانون.

صدم الإقليم كله بسبب هذا العنف، رغم أن إدوارد دونيللي لم يكن بالرجل محبوب، فقد كان هناك الكثير جداً من الفاقة والبؤس في إيرلندا، من نصيب الفلاحين وحدهم، لدرجة تمتعهم من الشعور بأي تعاضف مع مزارع بروتستانت على شيء من الثراء، كانت السرفة شائعة، وكانت هناك أعداد من عصابات قطاع الطرق تساوي ما يوجد منها في كورسيكا. ولكن شريف حتى عام ١٧٦٠ كان هادئاً نسبياً ويسوده السلام. ثم بدأ المشاكل مع بداية حكم جورج الثالث، كان هناك اضطراب في الأمور الزراعية، وبدأ سادة شريف الكاثوليك في استعادة شعاعتهم بعد إخضاع اليقافية. ولم يكن إدوارد دونيللي مؤيداً لجورج الثالث، ولكن باعتباره بروتستانتياً كان ينظر إليه كمكمل للمفتصبين الإنجليز ولكن إيرموند كان قد شب في جو من الأمان، ولم يكن يوسع الفلاحين أن يكونوا أكثر خنوعاً وذلة، فكان دائماً "سبياً لطيفاً وسيماً يستحق تقدير الشرف" وما إلى ذلك... ولكنه الآن، وفي حالته العصابية من الانقباض، بدا له أنهم معاصرون من قبل جيران معانين، ينتظرون جميعاً الفرصة للناسبة للضرب في الظلام.

بعد ذلك بوقت قصير، تلقت جوديث أخباراً عن دلفين. وكانت مخطوبة وعلى وشك الزواج من محام محلي. ولم يذكر اسم إيرموند في الخطاب الذي من المحتمل أن يكون قد كتب تحت إشراف أم دلفين. ولكن كانت هناك جملة تقول: "لا أستطيع أن أصف اليهجة التي أشعر بها حينما أتذكر ساعات حوارنا السعيدة في الإصطبل القديم" ولم تفهم جوديث معنى هذه الجملة، فإنها لم تنهض أبداً إلى الإصطبل القديم مع دلفين، ولكن إيرموند أدرك المعنى. غير أن الضحك هو أنه كان قد نسي دلفين قريباً، ومن المؤكد أنه لم تكن لديه أية رغبة في أن يكون زوجها، ورغم هذا فقد ملأه الخطاب شعوراً بالبؤس والفيرة. وعرف ما يتصلف به هذا الإحساس من سخط، وأنه لم يحبها، وأنه كان سعيد الحظ إذ تجنب الوقوع في شرك الرشايات أكثر غوراً، ولكن معرفته لكل هذا لم تؤد إلى أي فرق، فكان كلما فكر

في ملاصقاتهما وسط خزانة الدبر أو في مخزن القش، اجتاحه إحساس بالخسارة الفادحة،
وبنصاعته هذا الإحساس إلى درجة لا تطاق لأنه كان يعرف أنه نتيجة لعدم وجود ما يفكر
فيه عبر هذه

في فبراير كان مريضاً لمدة ثلاثة أسابيع بتأثير حرثومة معوية. وترسخت أفكاره على
للقيام حول الموت وحول معوية الضير. قرأ صلوات جونسون، وتامل في كتابات روسو، ثم
احتجاب فجأة لمحة من "الحقيقة" التي كانت تروغ منه على الدوام. لقد قال روسو إن ما
كان طبيعياً فهو خير، وإن الشر ينبع من تعقيد الإنسان الذهني، ومن تدخله في شؤون
الطبيعة. ولكن ليس العقل نفسه تدخل في شؤون الطبيعة وقطعاً لساها، نتاجاً مصطنعاً
لها؟ إن الحيوان لا يحتاج إلى أي قدر من العقل يزيد عن القدر الضروري للتغلب على
مشاكله اليومية. وقد طور الإنسان ذهنه لكي يخدم كسله. لكي يخلق حضارة مريحة
دهنة. ثم لما خلقها (ومن الهم أن نتبين هنا أن إيزموند قد ظن أن القرن الذي عاش فيه هو
الكلمة النهائية في التعقيد الذهني الحضاري) لم يعد لديه ما يفعله سوى التفكير. وكل فكرة
تبتعد خطوة أخرى عن الطبيعة.

ولكن الشيء الذي يثب الذعر في قلب إيزموند أن هو شكه في تلك الفكرة قد فسرت
إجهاده العصبي وضجره. إن توفقه الذهني قد حكم عليه بأن يملكه إحساس بالحقيقة.
ووقف الدكتور جونسون أمامه باعتباره مثلاً حياً لما يمكن أن يحدث حين يكون الإنسان
منوقد ذهن أكثر من اللازم. سيعيش حياة بكاملها من اليأس وتعذيب الذات. مع ومضات
فسرة من الإحساس بالارتياح. وبدأ إيزموند يفكر حيناً فحيناً إذا لم يكن من الأفضل له أن
يموت، "ككل شيء انظر إليه بذكركني ببؤسي. فمثلما تعبد أي ذكرى لعشيق مفقودة
إحساساً مقبضاً باليأس، كذلك فإن أي شيء طبيعي تقريباً بذكركني براءتي لفقودة
تذكركني أطلال الدبر بالموت، وسجري الماء للوجل يجعلني أفكر في الغرق، والأشجار العارية
تذكركني بالمشاقق، ونباح كلب يصرني بأنني أسير في حجازة ميتة. أما الأشياء التي لا تثير أي
تذاعبات خاصة في ذاتي - حذاء ركوب، كتاب - فإنهما يمكن أن تخلقا يأساً خانقاً يشبه
الحزن".

وذلك ليلة مطيرة في أواخر فبراير، جلس إيزموند في فراشه وواجه هذا الإحساس
بالعجوبة والفضاء الأمل. إلا أن جسده لم يشعر بأي امتنان حقيقي لوجوده في حجرة دافئة، في

الوقت الذي كانت الرياح في الخارج على أشد ما يمكن، فهل يمكن أن يكون هذا الإحساس قد
ثار كاستجابة للمطر نفسه؟ نهض وارتدى ملابسه، وأخذ محطفاً ثقيلاً، ثم خرج من المنزل
وبدا له أن أسوأ مخاوفه قد تحققت. ملأته الريح إحساساً بالبرودة، ولكنه استمر في إحساسه
بالامبالاة لأنه التفت سار إلى الدبر، وجلس مستنداً ومحتنياً بأحد الجدران. ورغب أن قلبه
كانتاً مبللتين، لم تلمح فكرة سار دافئة في أن تمنحه ومضة من شئمة. كانت بعض
البخيرات تحتل بالذات. حسنها لأنها يمكن أن تقدر قيمة ما تقدمه لها حفرة دافئة حارة
من مأوى. وتساءل عن مقدار ما يجب أن يواجهه من برد وتعبد لكي يستطيع أن يخرج من
حالة سباته اللامبالي.

سار عائداً إلى المنزل، وعمر أمام الإصطبل، وفجأة تذكر مينو ودفين - قفصت
ومضة من الشئمة. دخل الإصطبل لكي يستعيد راحتته. صهل جواد عجوز وأخذ نفساً عميقاً
وثقلاً. تساق صاعداً إلى النصة العلوية، فوجد هناك كومة من القش ما تزال حركتها إلى
ما وراء الأجنحة، ثم خلع ثيابه ليللة، وغطى نفسه بالقش الخشن الجاف للتكسر. وكان هذا
هو الوضع الذي رقد فيه بين فئتين دافئتين. وحينما رقد في مكانه، يعيش التجربة من
جديد مرة ثانية. غلبه التعاس، الفرق في النوم. وكان آخر ما سمعه من الأصوات هو شعر
الجواد العجوز وثقلته القبل أسفل الإصطبل.

كانت ليلته في الإصطبل نقطة تحول حقيقية في حياته وهو ما يظهر في محطات
حياته اللاحقة. في أوائل مارس، أصبح الجو أكثر دفئاً على حين غرة. وهذا ما أفرى
إيزموند بأن يتمشي في الحقول الوحلة، ليحيد نشاطه تحت أشعة الشمس التي بدأت تعد
الشيء بختة بالحياة. وقف على ضفة نهر (مربع) الوحلة، وتساءل عن السبب الذي جعله
عجزاً عن ملاحظة مقدار ما كانت الأمواج الصغيرة عليه من جمال. كان صحيح الجسد
وكان في السابعة عشرة تقريباً، وبعد شهور قليلة سيكون على وشك الضروع في الخروج إلى
"الوحلة الكبيرة". ولابد أن تكون هناك الكثيرات من مينو ودفين. وفي يومه في يوم ٢٢ مارس
عام ١٧١٥، يكتب قائلاً:

"إن ما أجد نفسي عاجزاً عجزاً مطلقاً عن فهمه هو السبب الذي يدفع الكائنات
الإنسانية إلى الفضل في رؤية التصميم الجميل المبارك الذي ينسج في الطبيعة في شكل مكانة
أية سكارنة غريبة اعتمد عيوننا عن رؤية أعظم الحقائق وضوحاً وحيدة باللاحظة؟ أي رب

يهدم فوق متاهة مصورنا البشري، يزالنا لكي يضيئ على عمق ذلك الذي قد يكتشف
بأسئلة سريته إلى بساطة الطبيعة السامية؟

قبل أسبوعين من رحلته إلى ميلين، ومن ثم إلى باريس (في أبريل عام ١٩٦٥) كان قد
انغمس في قصة حب قصيرة أخرى. ففي زيارة قام بها مع والده لأحد السنسكريتين من
الفلّاحين، رأى ليلة إحد الرجال ذات الثلاثة عشر عاماً التي كانت تعيش معه. وكانت الفتاة
ولادة الجمال. وأعطى إيزموند ليلة متكاملة يحمل بها متسائلاً عن الطريق إلى رؤيتها مرة
أخرى. ولكن الانتصار كان سهلاً مما توقع. لقد خابت الفتاة في اليوم التالي حامله بعض
البض. وسار إيزموند إلى البيت معها، واتفق معها على موعد في مساء. وكانت الفتاة مسحورة
به ولم تبهل إلا الحد الأدنى من الطقوس، ورغم أنها كانت غريبة، فإنها كانت ذات تجربة
جنسية سابقة. في هذا المساء الأول، سمحت إيزموند بأن يكتشف نهديها وفعلها. وفي عصر
اليوم التالي قابلها في الإسطبل، واستولى على عذريتها في نفس المكان الذي فقدتها فيه بلجين
في خلال الأسبوعين التاليين تلقيا كلهما كان ذلك ممكناً. وأعطى المزيد من الساعات في
الإسطبل على الأحوال، وألصقا على الإخلاص الأبدى. ولكن إيزموند في هذه الحالة كان
يعرف أنه ليس واقعاً في الحب. لقد دفعته سهولة الانتصار إلى ما يكاد يكون خيبة أمل فورية.
كانت الفتاة جميلة جداً لا يضارع، ولكنه حينما أعاد قراءة بداية يومياته حول رؤيته لها
للمرة الأولى، بدت له فكما لو كانت فكاهة ساخرة أخرى من فكاهات القدر يرثاها آخر
على وقوع الكائنات الإنسانية في شرك الشهادة التي يبدو إليها في صورة أعظم الهلاكات الحثالين.

في صباح يوم ١٧ إبريل، استقل عربة ليمريك - دبلين. وغمره إحساس عميق من
لربما بينما كانت خلال مونستر وحولها تراجع إلى الوراء. في هذه المرة، على الأقل، كان
إليه المذاهب قد هزم، فإن قصة الحب قد انتهت قبل أن تسبق الفرصة لمرارة ما بعد التذوق بأن
تنتقل إلى اللسان. وقد حدث حينذاك، في أثناء رحلة الست والثلاثين ساعة من ليمريك إلى
دبلين (١٢٠ ميلاً) أن صاغ إيزموند واحد من أفكاره للحورية. إن الحياة معركة ضد اله
للشاهة، ولأنه يفتكر في هذه الحرب فكما لو كان صليبا مرسوماً بين عنكبوت هائل ورجل
سمين ذي اثنين مشرعتين. وإن اللينان الذي يجب أن يختاره للمواجهة هو ميدان الجنس ..

إن فرامتي لما كتبه إيزموند عن رحلته إلى دبلين قد تذكركم في الحياة بكلية بيتن.
خفيد إيزاك جينكينسويد بيتن. وألصقا على الرغم من أنني قد حصلت على أقصى ما أمله

من مادة لاستكمال المقدمة لطبعة هليشر لكتاب (مذكرات أفاق إيرلندي)، وكنت قد
ربحت مبلغ الخمسة عشر ألف دولار، إلا أن هذا كله لم يعد له أدنى أهمية تذكر غلبي
كان هناك الكثير جداً مما أردت معرفته عن إيزموند. وحينما يتم طبع الكتاب لابد أن
سيكون هناك الكثير جداً من الناس الذين سيملكهم مثل ما تملكني من فضول. ولابد أنه
سيتمنى اللينان بالباحثين. وقد أردت أن أعتبر على شكل ما يمكن المتور عليه قبل أن يسا
الانتفاع والرحام. كان إيزموند قد بدأ بسطر علي كتابها جس التسلط. وقد انتهى الجلد
الثاني من المذكرات حينما كان قد غادر لندن متجهاً إلى بولوني في ٢٨ مايو عام ١٩٦٥. ولكن
من المؤكد أنه مستحيل أن يكون قد كلف عن مكتابه يومياته بانتظام بعد ذلك. كانت
هناك أسئلة كثيرة أردت الإجابة عليها. ماذا عن جريمة قتل هوراس جيلبي، وعن الشائعات
حول إيزموند ولاندي ماري؟ وماذا عن "القصة" مع الشقيقات الثلاثة؟ ماذا بكرة تكتن
جونسون دونيلي؟ وماذا عن "جماعة العذراء" تلك، التي لم أتحصل بشائنها إلا على إشارات
مشرقة للشبهة؟

بعد عودتي من منزل الدكتور أوهفرنان بيومين، تسللت بطاقة بريدية من ميس
تينا، وكانت تقول: "إلين مصابة بنزلة برد قوية، ولكنها طليبت مني أن أخبرك بأن الشرايين
على تنفيذ وصية إيزموند الأدبية مكانا هما النفس ولبها استون واللورد هوراس جيلبي
الخلصة تينا دونيلي". اللحظة تملكني الارتباك. استون؟ أجل. كنت قد علمت هذا من
قبل. ولكن كيف يمكن أن يكون هوراس جيلبي منفذاً لوصية دونيلي الأدبية بينما هو قد
سبقه إلى الموت؟ شعرت بأغراء قوي بدفعني إلى القفز في السيارة والذهاب إلى قلعة دونيلي
لأن فرامتي لليوميات جعلتني شغوفاً بأن أراها مرة ثانية. ولكنني كنت قد كتبت بالفعل
إلى كليف بيتن لأخبره بأنني أؤوي الذهاب إلى لندن في اليوم التالي، وشعرت بالانقباض لرا
الفكرة هنا السفر. رفعت سماعة التليفون وأردت رقم قلعة دونيلي. أحياتني ميس تينا. وتم
توضيح مشكلة هوراس جيلبي في لحظة واحدة. إنها كانت تشير إلى هوراس جيلبي الابن، من
صديق إيزموند، قالت ميس تينا،

"أعتقد أن هذا مما يمكن أن يتركه لره بالبداهة، أعني أننا نعلم جيداً بأن إيزموند
قد وقع في حب ماري جيلبي".

"ولكن هل أنت ولادة من ذلك؟"

"لست واثقة تماماً بالطبيع. لقد قال والدي لإيلين ذات مرة شيئاً عن هذه. ولكنها لا تستطيع أن تتحدث الآن".

١٣- تعرفين - اتفاقاً - أين أطلق الرصاص على لورد جليبي؟

"أعتقد أن هذا حدث في بيته، في اسكتلندا".

شكرتها ووضعت السماعة، إن القدر حقاً يقف إلى جانبي، وقد أوصلتني هذه المكالمات إليهم وإدراك نهاية القصة التي تقول بأن أيزموند قُتل هوراس جليبي، فهو كان هناك حتى شك في مثل هذه الواقعة، فهل كان يستطيع أن يطلب من ابن جليبي أن يقوم على تنفيذ وصيته الأخيرة وأن يكون مشرفاً على تركته من المؤلفات والتذكرات؟

- ١٥ -

□ كنت أشعر بابتهاج وتفاؤل شديد حينما شرعت في قيادة السيارة متجهاً إلى دبلين في صباح اليوم التالي، ولم يكن هذا مرتبطاً بكل الارتباط بدونيلي. كنت قد عزمت مسبقاً أن أسافر بالقطار، حتى نستطيع ديانا أن تستخدم السيارة، ولكنها في اليوم السابق رأت إعلاناً عن سيارة "لاندروفر" مستعملة. وشعرت بأننا نستطيع الآن أن ندفع ثمن هذه السيارة، وهكذا فقد اشتريناها على الفور. كنت أعرف أن هذا تصرف سخيف، ولكن هذا السخف نفسه سحرنى، وبدأت غرائزي الخلافة في الانسياق. أبهجني أيضاً انطلاقي نحو الشرق، وذكرني بأول مرة جئنا فيها للإقامة في إيرلندا فقضينا أيامنا الأولى في اكتشاف البلاد والريف. خطر لي في تلك اللحظة أن كل ما بهم في الوجود الإنساني هو اتساع معين في الوعي، وفي المعنى، وإذا يجب أن نكتشف الحيلة. حينما اشتريت هذه السيارة، كانت ذات ناقل سرعة أوتوماتيكي، وكان هذا الشيء اللعين ينقل السرعة تقريباً في نفس اللحظة التي أسرع فيها في تشغيل المحرك. أو بقطع التشغيل حتى كانت الآلة تتوقف عند أول تل في طريقني إلى البلدة. ولذلك فقد ركبت محل الإصلاح القريب فيها ناقلة يدوية بدلاً منها. وعلي الآن ألا اشغل الناقلة الأصلي حتى تشحن الآلة بالدرجة الكافية لكي تصمد التل في راحة كاملة. ولكن إذا حدث أن استيقظت في الصباح بعقل بارد مكتئب، فإنني لا أملك "ناقة

يدوية" أستطيع أن أضعها حتى يسخن العقل إلى الدرجة الكافية. إنني كثيراً ما أضيئ الساعات، وأحياناً الأيام، محاولاً أن أدفع عقلي رغماً عنه إلى حالة من الاتساع، محاولاً تشغيل الضغط الداخلي لكي يصبح مناسباً للكتابة. وإلى حد ما أستطيع القول بأنني اكتشفت الحيلة: عشر دقائق من التركيز الكئي الكئيف الذي يضمن الكائن كله - عضلاتي بالإضافة إلى عقلي. وحينما أقوم بهذه، وإذا لم يقاطعني أحد، فإنني أستطيع تقريباً أن لاحظ صفدي وعي وهو يرتفع، حتى تكف الأشياء عن التماثل في صورتها الكينية المحايدة. إنها حيل تشبه بالضبط شريك أول يكافئ لك في النساء - تلك الموضحة المائلة التي لا تستقر في العدة - وإنما في الوعي".

إن البحث الحديث عن وعي. أدخلني في الواقع في حدث فيه الشيء الكثير من الغربة. لغربته لن أتمكن من إيصاله إلى القارئ، إلا أنني سأحاول أن أستطع أن أصفه، لقد شعرت هكذا بأن هذا هو الشعور الذي انتاب أيزموند عندما بدأ خروجه في "جولته الكبيرة" في عام ١٩٦٥. وحينئذ امتزجت في ذهني صورتان. الأولى كانت لأيزموند جالساً في العربة المرحلة إلى "لايمريك" - وكانت صورة كئيبة حملت به في أثناء الليل - والثانية كانت صورة الأشياء في "لونغ أيلاند" تبدو حياة كما لو كانت قدت من الترويز النطلي بالفوسفور، بينما يدفعني شعني فوقى. كانت هذه الصورة الأخيرة قوية جداً، كان بوسعي أن أتم راحة بيغري، شاعراً بنفسه نهديها العاري على صديقي. ومع هاتين الصورتين انفجرت في داخلي نواير المبهجة. إن ما تريد الكائنات الإنسانية أن تحققه لهي تلك اللحظات من الطراحة والاتساع. ولا يفقدونها في كل مرة يضيق فيها إنتاجهم بين الأشياء دون تركيز على شيء محدد. أنهم يريدون "استمرارية الوعي" ولنفترض أن رجلاً قال لنفسه: "من الواضح أنه لا شيء، هاما مثل هذا، منذ هذه اللحظة سأكرس حياتي للبحث عن هذا الاتساع والاستمرارية...؟" وقد عرفت دون أن تخالجي ذرة من الشك أن شيئاً مثل هذا قد عبر بعقل أيزموند في تلك اللحظة ذات صباح وهو في طريقه مسافراً من لايمريك. كيف؟ لأنني غفقت مع أيزموند طوال أسابيع، حتى عرفت كيف كان يعمل عقله.

لحظتها، ومن دون أي تغيير مفاجئ، من دون أي إحساس برؤيا أو بالهام، انتابني إحساس كالهلوسة بأنني "أنا أيزموند". كان إحساساً قوياً إلى درجة بالغة السخافة، كنت أعرف أنني أسير بالسيارة عبر مزرعة صغيرة تدعى "فار دزام". على بعد أميال قليلة وراء

لثوب، وأني كنت أنوي أن أتوقف أمام الحانة عند بلدة مونت، لكي أتناول شطيرة باللحم وطوباً من عصير العنب البري. في نفس الوقت كنت جالساً إلى جوار سائق عربية فوق صندوق العربية المتقافز. أله عرق الجراد القلوي والهواء النظيف لصباح يوم من أيام إبريل بالإضافة إلى رائحة دخان الأذرة والتبغ الصادرة عن ثياب السائق.

كان هناك شيء بالغ الغربة متعلق بمقدار ما كان في هذه الصورة من حيوية. إنها لم تكن "خيالية" بالمعنى العادي لأنني لم أكن "أعمدها" بشكل ما. وإنما كانت مكانها أن شيئاً ما قد تحركت بالقرب مني، مثل قطار يمر إلى جوار القطار الذي تصانف أن كنت ركباً داخله فيمطيني لمحة قريبة مفاجئة إلى داخل عربة عابرة. ولم يدعشني كل ذلك. وإنما بدا كجزء طبيعي من تصاعد نافورة البهجة. مكان ضفطي العنقي مرتفعاً. وكانت السماء قرب إلى أن تكون مساحة زرقاء باردة، وشعرت بها كما لو كانت صفحة شاسعة من لباد الباردة. بدا لي بثقة يقينية كنيّة مفاجئة، أن الزمن وهم. إنه ليس حالة مطلقة. إنك لا تكمن حشرة جالسة على ورقة شجر يجرفها تيار نهر، فإنك قد تظن أنه من المحتم أن تظل الأشجار تمر بك وتتوارى من خلفك، وأن الأشجار، بطبيعتها، لا تعيش إلا لحظات قليلة، وأن الحقيقة الوحيدة الثابتة دون تغيير هي انتشار الماء وسقسقته. ولكن الضفة حقيقية، وإذا أمكنك أن تغادر ورقة الشجرة التي تجلس عليها لتنهط على الضفة، فإنك جدير بأن تكتشف أنها مبلية تماماً ودائمة بالقيّة.

وإذا ثبتت لي هذه الصورة للزمن باعتبارها شيئاً وهمياً، ولحقيقة العالم الذي يمر خلالها، رأيت طفولتي كما لو كانت شيئاً استطيع أن أمد يدي فأنسه، تماماً مثلما استطيع أن ألقي كتاباً على صفحة قرائتها منذ ساعة مضت. أو مثلما أجعل شريط تسجيل يعود إلى الوراء نحو الجزء الذي كنت قد سمعته منذ قليل. وطراً لي أن حياة إيزموند لم تكن أكثر تملأ من هذه مجرد قرنين مضياً، أي ما يساوي مقدار حياتين بشريتين. إن مشكلتنا هي ضعف الوعي الذي يتردد مثل التيار الكهربائي الصادر عن بطارية مستهلكة. فإذا كان بوسعنا أن نستبدلها ببطارية جديدة لاستطاع العقل أن يسير بخطوات واسعة عبر القرون.

توقفت عند حانة "مايك كابللي" لأشرب كعوب العصير. إنها حانة هادئة على طراز القديم ذات دعامات خشبية وطينة، ومذاق أشباب أسفل الجدار. طلبت شطيرة باللحم، فألقت لي أئمة صاحبة الحانة التي ساحصل عليها ساخنة بفوح منها دخان الفرن، وفي

الحقيقة، كان البخار يتصاعد من القطع الضخمة من اللحم الطري. وبعد أن فطمتني طلباتي، خرجت وتركتني بمفردي. نظرت حولي، وباغتتني فكرة في سرعة الضوا الكهربائية. إن هذا المكان ربما كان يبدو بنفس الشكل الذي كان عليه في أيام إيزموند دونيللي. وحينئذ، وبشكل أوضح من ذي قبل، انتابني الشعور بأنني "صحيح" إيزموند دونيللي، أو أنني أحتي فوق وأنظر إلى داخل وعيه بينما هو ينقلت عابراً أمامي. وفي هذه المرة، وقد هويت حوسي برائحة اللحم ومذاق العصير اللخمر، بذلت مجهوداً لربما لكي استفي ذلك الإحساس وأمسك به. لحظة زرعني. ثم حينما استرخيت ولم أحاول أن أرغمه على البقاء، عاد ثانية، مزيج من الروائح، والأحاسيس والأفكار. ثم فجأة تماماً، بدا أنه "بتركت" أصبح كل شيء أكثر وضوحاً. بشكل ما تطابق وعي إيزموند مع وعيه. حتى أصبح بوسعي أن ألفت أنا فأنظر إلى ماضيه، إلى دفين ومينو، وإلى الفتاة الفلاحة الجميلة التي كانت تدعى إيللي (وهو تصغير إيلين). والأكثر من هذا أن هذا الاسم الأخير كان حينها بالنسبة لي، فإن إيزموند يشير إليها في يومياته بحرف "أ" - ربما خضية أن يفضح هذه تعيش قريباً منه إلى هذا الحد. ولأترني هذا. لم أكن بالساذجة التي تجعلني أهمل ببساطة بأنني بشكل ما قد "أصبحت" إيزموند. إنني أعرف أكثر جداً من الاعيب العقل الشبيهة بالأحلام لا استطاع مثل تلك الفروض أو الاحتمالات. ومن الذي لم يؤلف موسيقى أو شعراً في أحلامه، أو خلق مواقف من الغربة بحيث تبدو من اختراع شخص آخر؟ لو أنني استطعت أن أتأكد من أن اسم الفتاة كان إيللي - ولم يكن هذا من الاستحيل. من خلال العنور على المزيد من مذكرات إيزموند - إذن لكان في وسعي أن أتيقن من أن هذه التجربة الغريبة كانت نوعاً من الحاسة السادسة، وليست حلماً من أحلام اليقظة.

قاومت الإغراء بشرب المزيد من العصير اللخمر - عازراً أنه يمكن أن يدفعني إلى النعاس. وقمت لتشفيل السيارة حالاً انتهيت من تناول طبق اللحم. لم أكن أريد أن استرخي. إن ما أردته كان هو أن أعمق هذا الشعور بالتبصر العميق، بالوصول إلى العنى. وبعد عشرين ميلاً من السير خارج دبلين بذلت تخطيطاً، ونسيت كل شيء عن تركيزي. مستمتعاً فجأة بحركة زحف مساحتي الزجاج الأماميتين، وبطرافات القطرات الضخمة الدافئة. وحينئذ، ومرة أخرى، دون أي مجهود، أصبحت "إيزموند" فجأة دهشتني منازل بلدة "ماي نو" ومساكنها، كما لو لم أكن قد رأيتها من قبل أبداً. ولكن حينما ألحقت من سكاتون وعبرت بها، ورأيت للنزل الضخم من القرن الثامن عشر الذي لا ذات مرة إلى دوفات لاينسر.

تحدثت من اني كنت اعرف المكان، واتي كنت داخله ذات مرة، بالطبع لم يحدث لي "ثأر" ان دخلته، لقد كان ليز موند هو الذي دخله ضيقاً على صديق دراسته روبرت ايسر كير الله، مار كير كليلار.

سؤال الوقت، وبينما كنت اقود السيارة إلى داخل دبلن، وعلى مسار شارع ستيفهام، كنت أسمع بتأخير هذا "الوعي المزدوج". وتو ان احداً كان معي في السيارة، كنت قد قلت له، "كان هذا هو شاعر شاميليزود في عام ١٧٦٥، وهذا هو قد أصبح شارع باراك". وكان قبل ان ادخل شارع باراك القديم، كنت اسير بالسيار على طول شارع وولف تون كوي، فانتابني دهشة بسيطة إذ أجيد نفسي بالفعل إلى جانب نهر الليفي، في عام ١٧٦٥ كان علي ان اتقدم من شارع شاميليزود المزدهج إلى شارع باراك، بينما أرى النهر عبر حديقة ألونج مينورز" إلى اليمين، ثم على طول شارع كرافل دوك، الذي يكون علي عند ناحيتين ان استدير إلى اليمين نحو شارع أزان كوي - التي كان في ذلك الوقت أقصى أطراف ضواحي دبلن الغربية. عبرت الشارع الواقع إلى يميني - الذي كان دونيلي قد نسيه - والذي يؤدي في نهاية إلى جسر بلود، وعند جسر كرافل شعرت ياغراء يدفعني إلى الاستدرة يميناً ناسياً انه كان يوسعي ان استمر في نفس الشارع حتى أكون في هفي أيام دونيلي، كان جسر مكران (الذي كان يدعى جسر سكس في ذلك العهد) هو آخر نقطة يمكن للمرء عندها ان يمر نهر الليفي. كنت متيقناً باتجاه نهر شيلبورن في وادي "سانت ستيفانز جرين"؟ ان دونيلي حينها ذهب إلى دبلن في عام ١٧٦٥ قد تطلق إلى حانة "الكلب والبطة" في شارع بودنج رو (الذي يسمى الآن وودكوي) وكان المحل تحت إدارة الأسطى فرانسيوز ماجين. وهناك أكل عشاء من أسماك السلون الواردة من بوين، ولحم حمل مشوي، وغسل ذلك بكمية صغيرة من البيرة الطوة ذات النسبة القليلة من الكحول، ثم غرق في النوم في حجرة مريحة بالطابق الأول مصغياً إلى صيحات "نشرتي جلد أرنب الخابة وأرانب البيوت"، "سكك البوري من خليج دبلن". كان كل ذلك حياً أمامي حتى انني وجدت نفسي اتجه تجاهها خاطئاً عند كولينج غرين، فيكون علي ان افور دورة وسعة لكي اصل إلى شيلبورن.

في حجرتي، فتحت زجاج من نبيذ هولندي كنت قد جئت بها معي - رغم ان الساعة كانت في الرابعة والنصف - ووجدت نفسي أقل شراً عاجاً بسبب تلك المؤثرات الغربية ذات لوجهتين للمزدوجتين، وحتى في تلك الحالة، لم يكن علي الا ان اغمض عيني لكي أرى صوراً

واضحة للدبلن التي كانت من مراح عديدة شبيهة بتلك التي كان يوسعي ان اقام نالغني (زعم انه في تلك الأيام، كان وادي ستيفن غرين محاطاً بسور مصري وحللي وليس بسياج من الضبان الحديد) - ولكن تلك الـ "دبلن" البعيدة كانت أيضاً مزدهجة وصاخبة ولكن شوارعها كانت سبلة بقطع حجرية صغيرة في الغالب، وبمازنها أكثر نظافة ووقاراً وكانت أيضاً تفوح برائحة البهارات والسكك وخاصة في منتصف الصيف والغبوب ذات الأشعة المنخفضة التي ملئت نهر الليفي وولدت تأثيراً لم يكن بعيداً عن بقنوات الهندسة الكبيرة بعد مكاني الثالثة من الحديد، كان "الكشف المزدوج" قد خاض ناحيتين، وطرا لي انه من المحتمل ان يكون شيريدن لوفانو قد كتب قصة قوية وكتبت محزنة عن عقل إنسان ذي طيقتين، يشغله رجلان من قريتين مختلفتين، بل لقد كان يوسعي ان أرى - إذ النظر من خلال مزاج بيه مزاج لوفانو - انها كانت يمكن ان تكون تحربة مخيفة. ولكن في ذلك الحين، كانت نظرة لوفانو الأساسية نظرة مهزومة وسلبية، وهذا هو السؤال الجوهرى الوحيد.

□ اتصلت بلدينا لكي أخبرها انني وصلت بسلام، وفي نفس اللحظة التي كانت انحد هبها السعادة إلى مكانها، جاءتني مكالمة من كليف بيتس وكانت قد كتبت إليه لأخبره بانني سأنزل في فندق شيلبورن. سألته ان كان يحب ان ينضم إلي في تناول الطعام، فقبل واخرج ان انذهب إليه لكي نغرب كأساً أولاً. كان يقيم في راسيلاغ رود، في مواجهة النهر، فسرت إلى هناك في حوالي الساعة الخامسة. كان شيئاً ممثلاً الحسد له صوت ممتد مثل صوت النارسين في نو كسفورد، وكانت شفته مريحة، وقد امتلات خرفة لشروبات بالكثير من الأصناف. كانت هناك أعداد كثيرة من الكتب، بعضها حول النرج والباليه، كان من الواضح ان كليف بيتس يعمل دخلاً خاصاً أو وظيفة حسنة، أو كليهما. كان كل شيء في حجرته يتم عن انه رجل مفرم بأساليب راحته. وكان يتمتع بعذوبة عظيمة وأسلوب سهل في التعامل والسلوك، ولكن شيئاً ما لاج على فمه أو حتى لي بأنه قد يكون بالغ المشوبة أو عصبي المزاج إذا فشل في الوصول إلى ما يريد أو في شق طريقه إليه.

حينئذ كنا نشرب كوكوس الفودكا والارتيني. كان الحوار عاماً، ثم انتقل الموضوع إلى هفتي وإلى أعمال مكتبتي عديمين قابلهم بكل هذا. كان قد عمل في وزارة الخارجية لمدة من الزمن. بعد التخرج من ليتون وباليول - وقابل عدداً كبيراً من الشخصيات المسرحية والأدبية في لندن. أما علي، فإنني دائماً ما كنت أتجنب الكتاب الآخرين. وكانت يمازيت المحترفين تضمجرتني، ولم أكن أعجب إلا بالأعمال عدد قليل منهم. وهكذا فسر علي لنا تلك المسحور من هذا الحديث. وبعد نصف ساعة أو نحوها حاولت بلقاءه أن أوجهه إلى موضوعات أخرى. سألته عن صحة حديثه.

"ووه، أجل. أوالد العموز يريد أن يراك. كنت قد أخبرتته عن عملك."

نظر إلى ساعته وقال:

"عادة ما يكون بمفرده في هذا الوقت تقريباً. هل نود أن نذهب إليه قبل أن نأكل؟"

قلت: "نعم". محاولاً ألا أبدو متلهفاً بالقدر الذي كنت أشعر به.

لحقنا إلى شارع باجون. رغم أننا تأخرنا قليلاً في الوصول بسبب إغلاق الشارع. كان كليف بيتس يملك سيارة من طراز "بورش" وطنية لدرجة أن الثاني إحساس بأن أرناني يجلس على ارتفاع بوصة واحدة من أرض الشارع وفي الطريق قال بيتس:

"إنك بالطبع، تقوم بكل ذلك في مقابل بعض المال."

للحظة واحدة لم أستطع أن أفهمه، وبدأ علي عدم الإدراك. قال:

"هذا الشخص دونيلي. أعني أنه من الدرجة الثانية تماماً، ليس كذلك. كنت أنتظر أن كتابه عن "افتراس العنقاء" منذ أيام. إنه شيء فح إلى حد كبير."

هممت بأن أقول لنفي أظن أن هذا الكتاب مزيف ومنحول للرجل. ثم لسبب ما، التزمت سكوت. وبدلاً من هذا شرحت له حكاية هليشر والهمة والتي أوكلها إلي.

أوقفنا السيارة في شارع باجون. قال كليف بيتس بشكل عارض:

"بهذه المناسبة، هل سمعت عن جماعة العنقاء؟"

نظرت إليه. ثم حدثت شيء غريب. فجأة كنت أرمز مرة أخرى. كان أرمز
بمثل عليه من عيني.

قلت:

"بعموض. كم تكن هذه يوماً من العبادات السحرية؟"

"بشكل أو بآخر كان دونيلي عصواً فيها."

"كيف عرفت ذلك؟"

"هذا مسجل في أوريق جدي. لقد كان مهتماً دائماً بهذه الجماعة السماة "جماعة العنقاء". وإن قد سمع عنها من ساحر يدعى ماك غريغور ماثرو. ربما كنت قد قابلته؟"

"بالطبع. لقد حصلت على ترجمته لكتاب الظهور."

لم يكن هناك وقت لزيد من الحديث. كنا نديق حرس الباب. وبعد لحظات قليلة فتحت الباب معرضة شابة. دعاها بيتس باسم "عزيزتي بيتي" وفرسها من مؤخرتها. بنت مسرحية لوجودي. سمعنا إلى حجرة نوم في المطابق الأول. وكانت حجرة ممتمة. رغم أن الضوء كان منتشرًا بالخارج. كانت الستائر نصف مسددة. ونواصة صغيرة تشتعل فوق الفرائش.

كان يراك حينئذ بيتس هزياً نحيفاً كلما كنت أتوقع من خلال وصف حميدته. عجزاً سنبل الحجم أطلع الراس جلد مثل رفق قديم مجعد. حيناً رفع يديه من فوق للسند لكي يصالحني اهتزنا ولا نعشنا رغماً عنه. فأعادهما سريعاً مستويين فوق الفرائش مرة أخرى. سألنا إن كنا نود أن نشرب شيئاً. فرفضنا صلاتنا. ولكنه أصر وقال: "أعرف أنكم أيها الشباب تحبون أن تشربوا سكاساً في مثل هذا الوقت". وقال فلمعرضة أن تصب لكل منا سكاساً من الشيري. تحدث إلى رجل العموز لدهانق القليلة عن تاريخ الشيري. وعن تخرينه حول السبب الذي كان الشيري لأجله يدعى "سك"، أي حفيدته. لأن ثمرات العنب كانت تعصر من خلال أنوية كالحقائب. ثم، وفي نصف حصة لم يكملها - حول حديثه إلى موضوع جزيرة أيرلندية. كانت قد أرادت بكل ما استطعت العثور

عليه قبل أن أهرج البيت، ولكن ثبت أن هذا لم يكن ضرورياً، فقد راح الرجل يتحدث في
سبب بمعدل ثابت لمدة عشر دقائق أو نحوها.

وحينما توقف للحظة القصيرة، قال كليف بيتس:

"لقد سمع مسر سورم عن جماعة العنقاء".

"وه، أجل، حسناً، بالطبع، لقد كان دونيلي عضواً في تلك الجماعة، لقد كانت
شيئاً بغيراً من نوع لا يثير اليهجة أبداً، أجل، بالطبع، ينبغي أن تعرف أنها نبتت من اعتقاد
بأن بله بأنه إذا تضاجع رجل وامرأة فإنهما يصبحان غير قابلين للعوى بأي مرض. وبذلك
أصبحت هذه العقيدة في زمن الموت الأسود مريراً لكل أنواع الفجور، ومع حلول عصر دونيلي
أصبحت مجرد عصبية شبه سحرية تضم جماعة من الهوسيين الصعاليك. هل تعرف كتاب
دي صاد "مائة وعشرون يوماً من أيام سدوم؟" إنني واثق ثقة كاملة من أن دي صاد كان
يسفر من جماعة العنقاء في ذلك الكتاب - أتعرف الصعاليك العواجز القدرين الأربعة الذين
النوا نوعاً من العرض الجنسي في أحد منازل الريفية؟ لقد ظن يوم ويز المعجوز دائماً أن هذا
هو السبب الذي جعل دي صاد يمضي أكثر حياته في السجن، لقد كان يعرف الكثير جداً
عنهم".

تدخل كليف قائلاً: "توماس، ج. ويز، المزيف الأدبي، إنك تعرفه".

"حسناً، ربما كان كذلك وربما لم يكن، إنهم يقولون ذلك ولكنني لست واثقاً إلى
هذا الحد. غير أنه كان دائماً صديقاً جيداً لي إلى حد بعيد. مثلما أقول، فإنه كان على
النتاع بكامل بأن جماعة العنقاء هذه، كانوا يسعون وراء دي صاد".

عمر لي كليف بعينه

"ولكن لماذا ينبغي أن يطارده إذا كان مثلهم في سوء؟"

"إنه لم يكن، كلا، لقد كان يسخر منهم، تفهم؟"

يجب علي أن أوضح أن تفسيرات الرجل المعجوز لم تكن بمثل الوضوح الذي جعلتها به
هنا. فكان حديثه عن النوع الذي يصعب تتبعه، تقطعه وتراقه غمهمات وأصوات انفية

غريبة، لم أحاول أن ألتصق أو أناقش حديثه الغريب عن دي صاد، ولكن أملت في الحصول على
أية معلومات مفيدة راح يخبرني ويتلأس، سألته عن كيفية بداية اهتمامه بجماعة العنقاء

"لقد رأيت نسخة من تلك النشرة النادرة، وكانت هذه هي بداية معرفتي بوير (في
الحقيقة".

"أية نشرة، يا سيدي؟"

"نوه، النشرة الشهيرة، التي كتبها هنري مارتل وجورج سميثسون، كليف، انظر (في

الدرج العلوي هناك، أسمع؟"

لم تكن النشرة في الدرج العلوي، ولكن بعد عشر دقائق - راح بيتس في أنفاسه بعد
الانتهابات القائمة على رأس العالم كله بشكل عام، وعلى رأس ممرضته خاصة - تم إلقاء
عليها في خزانة أخرى. احتفظتها بلهفة، فكانت موضوعاً في شائعات خارجي من أكثر
أحمر، وكانت في حالة الحزن إلى الفساد.

فضح المؤامرة الشريرة، المعروفة باسم جماعة العنقاء

بقلم هنري مارتل، م. أ. جورج سميثسون، د. د.

طبعها للمؤلفين ج. روبينسون، ضفة النهر القديمة، ١٩٧٣

كان كليف يسأل بأكثر ما يملكه من نعومة وفطنة على الإقناع،

"لا أهتم لماذا تظنها حقيقة مع أنها جاءتت من رجل مثل ويز؟"

تتفحص الرجل المعجوز الشقائق وأصبح لاهماً حاداً

"سوف أشكرك إذا أنت لم تتحدث بهذه الطريقة عن ويز، إنه لم يكن مريضاً أبداً

مسر، لقد كان يحاول أن يدافع عن زمكري صديقته هنري باتكستون فوراً من"

قلت

"على أي حال، من المؤكد أن الشخص الأصلي لأي عمل مزيف فكان على الفور

حقيقياً، لم يكن الأمر سوى نوع من الفاريح المعجزة على الشرافة؟"

- تماماً، قال الرجل العجوز، ثم التفت إلى كليلف وقال: أترى؟ إنه يعرف عن المسألة

أظن مما تعرف أنت؟

تركتهما يتناقشان، ورجعت اقرأ بسرعة عاصفة. اتخذت النشرة شكلها نغمة
الداخلية مرتفعة، وتهمت جماعة المعتناء بأنها السبب في سقوط لويس الرابع عشر ملك
فرنسا، وطالما أن هذه النشرة سوف تطبع كاملة في ملحق خاص مع مذكرات دونيللي،
فإنني لن أقتبس الكثير منها هنا. إذا كانت هذه النشرة هي المصدر الوحيد لمعلومات بيتس
العجوز عن الجماعة، فقد كان يوسعي أن أرى لماذا كان ينظر إليها بعين الفرض، وجئت
ببسي لتذكر عندما مبعداً من نشرات والفتايات التي صدرت عن راسبوتين بعد مقتلته في عام
١٩١٧، وكانت مليئة باتهامات غامضة، صعبة التصديق عن مؤامرات وحشية، وعن جرائم
الاعتصاب والعهر، والاحتمالات المفزعة، وعلينا أن نأله كتابنا النشرة، كانت الجماعة أساساً
سليماً من السحرة لممارسة أعمال السحر، وكانت الفقرة التي أثارت أكثر المناقشات - بعد
نشر مقالتي عنها في مجلة "تلاتينيك منتلي". كانت هي تلك التي تصف الطريقة التي يتبعها
"السيد الأعظم" أو أي واحد من أتباعه الصغار لكي يتمكن من استبعاد الفتيات عن طريق
جمع ثلاث من "سراويلهن الداخلية للوثة بالدم" بعد دورتهن الشهرية، ثم يقطع رقبا في
وسط بقعة من الدم متخذة شكل العضو التناسلي الأنثوي، ثم يرتدي هذا السروال فوق
ذمطرة العاري لمدة سبعة أيام وسبع ليال. وبعد هذه الفترة تصبح الفتاة مجبرة على تلبية
طلبات السيد الأعظم لكي تسلم له عنبرتها، ثم تستسلم له بعد ذلك في أي وقت، حتى ولو
كان على بعد ألف ميل، وتتلو ذلك، القصة الغريبة عن "ديلي كريسبين" التي امتلكها
السيد الأعظم في ليلة زفافها "في نفس الوقت" الذي كان زوجها يمتلكها فيه، والتي كان
مطبقها يعمل ملائح السيد الأعظم - شعر أسود، وبشرة صفراء، وما إلى ذلك (كان السيد
الأعظم في ذلك الوقت هو الفارسي عبدالله يحيى، الذي تفاخر بأنه قد ترك بثرته في رحم
كل امرأة جميلة من المجتمع الروماني الإيطالي. ويشم المؤلفان إلى هذا التفاخر باعتباره مثلاً
على الفسق الأخلاقي أو جنسي بدلاً من أن يكون صورة للكذب الخيالي المخلوق). وقد قتل
عبدالله يحيى ومزق جسده في عام ١٥٩١ على يد هنريكت فان جريس - الهولندي الشهير
بالوحش. والضرر أن فان جريس كان بزن أكثر من ثلاثمائة رجل إنكليزي (١٥٠) مكبلو
بأرامل، وأنه غالباً ما كان يفتقد ضحاياه الوعي، بل يقتلهم، بمجرد أن يترك وزنه الضخم
يسقط فوقهم، وأصبح فان جريس سيداً أعظم لمدة لا تزيد على عامين، أصيب خالتهما

بمرض الزهري الذي نقلته إليه سيده البلاط الرومانية مازيا غرينكا التي قيل أنها كانت
ذات طبيعة فائقة، حتى أن فان جريس حينما جاء عام ١٧٩٤ كان قد أصبح جبالاً لا ملامح
له من اللحم للزهر، وفي "مجلة التحليل النفسي" الصادرة في شهر يوليو عام ١٩٦٨، نشر
البروفيسور إرام روث القصة شكلها على أساس التصوير الفرويدي - بدلاً من التناقضات
الفيتشية (التي تقوم على الولع الجنسي بالأشياء ذات العلاقة أو الدلول الجنسي) المرتبطة
بالسراويل للوثة بالدم - ورفض القصة - أو رفض تصديقها - على أساس أنها نتاج لخيال
القوطي الذي بالأسرار الوحشية، وفي عدد سبتمبر من نفس المجلة، أشارت ميس ماركسكوب
بوندبسون إلى أنه لم تكن ثمة حاجة إلى الاختراع، طالما أنه من الممكن العثور على أفكار
الطقوس الوصفية في كتب السحر الأسود العربية والفارسية في القرون الثامن عشر، وتبر
أيضاً إلى أن ستيف دي لايرميتون قد وصف شخصاً ما يبدو شبيهاً بفان جريس (تحت
اسم كوكوبيير - بالميزو) في كتابه "ليالي بارييس في عام ١٧٨٨) واصفاً إياه بأنه "الشرع
الأسطوري". وكنت أنا من لفت انتباههما إلى الفقرة المتعلقة بريستيف.

قال الرجل العجوز، "لقد كانوا مجرمين، هؤلاء الناس، مجرمين منخطين، رأيت من
الذي جاء بالجماعة إلى فرنسا؟"

كنت قد رأيت ذلك حقاً، قال مؤلف النشرة أن جبل دي ريز قد أصبح عصواً في
الجماعة في السابعة عشرة من عمره (١٨٢١) بعد أن رشحه لها كاهن مخلوع، كان مارتن
وسميشسون على اتفاق مع سانت نيلوس سورسكي من أن الجماعة لم تكن أكثر من تصور
لتعاليم "أخوة الروح الحرة". فبعد أن رفضوا كل قانون أخلاقي هدفه تحقيق أكمل تعبير
عن "أعضاء النعمة"، ويقول المؤلفان، كان أعضاء الجماعة يرتدون ثياب الرهبان،
ويتخصصون في الاعتصاب أو في مضاجعة الجنت. كانوا يتقدمون للتطوع لحرمان جنت
الفتيات الصغار - والنسبان، وينتفرون حتى بنام الجميع ثم يفتصبون الجنت جنسياً، شيء
الوحيد الذي يمكن أن يقال في صالحهم - في الحقيقة - هو أنهم حاولوا، ربما أن يتجنبوا إزال
أي ضرر جسدي حقيقي بضحاياهم. وقد حدث أن فتاة من بانعات الذين لفتصبيها شان
منهم ثم تركها مقيدة مكبمة تحت حكومة من أوربي الأشجار - حتى عشر عليها بعد ذلك
ببومين. وحدثت أخرى بأنها ستجد نفسها حاملاً بجمين صالوا حتى إذا هانت بكلمة وأحدث
وبذلك حكمت السر حتى طمانتها دورتها الشهرية التالية - ولما كانت القاعدة التي يتبعونها

في لا يفتكوا ضحيّتهم أبداً حتى يتجنبوا عمالية التعرف عليهم فيما بعد. "وكان كثيرون منهم يحملون صناديق مليئة بمختلف الأدوات (باروكات الشعر والأظفار والعنسات... الخ) من كوان مختلفة حتى يكون بوسعهم أن يغيروا ألوان كل شيء، حتى عاداتهم نفسها". وكان جيلي دي ريز هو أول فكري يمتنق آراءهم، وكان قد استقبله وتلاه كعضو في الجماعة شخص يدعى حيل دي ميسي. كان الحديث عن السيمياء في معاصمته ضرباً من السر في طريق مظلم مسدود، طبقاً لما جاء في الشرقة. وكان قتل الجماعي للأطفال - بساطة - تعبيراً عن "الشهوانية الشيطانية" التي اهتمت بها قلوب جماعة العنقاء.

هناك ثبت أن ريز كان عضواً في جماعة العنقاء، إذن لأقدام مارتل وسيمبسون قصبتهما على أساس أنها مكان منظمة سريرة ومروعة، ولكنهما في الحقيقة لا يقدمان أي دليل على اعتدلهما في أنه كان عضواً في الجماعة، شعرت بالليل إلى أن أشير إلى ذلك للرجل المعجوز، ولكن كان من الصعب أن تعترض الطوفان الجارف من الذكريات. وأخيراً استطعت أن أسأله أن كان لديه المزيد عن جماعة العنقاء.

أجل إن لدي أهم خطاب يمكن أن تتصوره كان قد وصني من نوم ويز. كانت ترأس فيه بشأن هذه الجماعة - أليد أن هذا كان في عام ١٩٠٥، كليف نظرت في هذا الدرع الخوي مرة ثانية.

أعرض كليف بوجهه، ولكنه راح يبحث - طائفاً - بين أكوام من الأوراق القديمة. دخلت الممرضة حاملة إزاء يحتوي على سائل ساخن يتصاعد منه بخار له رائحة نفاذة وشمعته في إظهار معني معلق بالسرير. وحينذاك غطى بيتس المعجوز رأسه بكيس من البلاستيك وراح يستنشق البخار. واعتقد أن هذا كان نوعاً من العلاج للربو، عرضت أن أساعد كليف بيتس في البحث عن الأوراق، فقال "أتوقع أن تعثر على شيء هام" والنقط الشرقة التي كانت اقراها، أقيمت نظرة على حكومة من المحطات القديمة، ولكن لا لم تكن لدي فكرة عما كان من الغروض التي أبحث عنه، فقد شعرت بعدم جدوى هذا العمل كله وعقته. حثيت أعضائة سوداء من فاع للرجة ونظرت إلى ما بداخلها، وحفظت ما رأيته انظر بسرعة إلى الرجل المعجوز، ثم إلى حبيبته، ولكن لم يكن أحدهما منتبهاً إلي. فكانت الإسماعية تحتوي على اثني عشرة صفحة أو نحوها من مخطوطة مكتبت باليد، تعرفت على الخط، كان خط بورويل، كان أول سطر من الصفحة الأولى يقول: "سيت، أول فرغز"

وان شخص ما قد أضاف عام ١٩٦٦ بالقلم الرصاصي. مرة أخرى نظرت إلى كليف، كان منغمساً مكثبة في قراءة الشرقة. وكان الرجل المعجوز يستنشق بصوت خشن ويشكو حلة للممرضة التي كانت تصيد كرنيب. القرائن، حثيت مقعدي قريباً إلى الدرع، وحسب لكي اقرأ المخطوطة. في لحظة ما، نهض كليف ونظر من فوق مكثفي. سألت صامتاً إن كان يمكن أن يسألني عما كانت أقمته بحق الشيطان. ولكنه ذهب وجلس في مكانه ثانية واستأنف القراءة.

كان التقرير يصف مغامرة بورويل ليانيس في سحبة تريز لوفاسور، عشقة رومن "وهي التي كان بورويل قد وصفها في يوميات أخرى - اكتشفتها فيما بعد - بقوله: "كها فرنسية خالصة مليئة بالحياة". وكان الاثنان في طريقهما إلى إنكلترا، وقد سافرا معاً رمت عن نوانسة. وفي الليلة الثانية قررا أن يشركا في فراش واحد في أحد الفنادق الصغيرة. ولتد مهانة بورويل، فشل في أداء واجباته الرجولية، فتنفجر باكياً، وقال: "يستطيع من يقرأ هذا الكلام أن يجد آثار بكائي على الصفحة السابقة". ولكن تريز أعادت إليه ثقته بنفسه في الليلة التالية بأن انت إليه الخدمة التي كانت مينو تؤديها لعاشقها معاً. وهي الركونوع على ركبتيها أمامه وملاصقته بفمها. "جمني منظرها وهي متكومة أمامي في هذا الوضع لهن أشعر بالشفقة الأمر الذي أعاد حيويتي إلي بقدر عظيم حتى أنني أوقعتها على ظهرها فوق البساط وأقيمتها في النو والساعة مثل عجل بري. وأظن أنها رصيت تماماً عن "حجمي" لأنها شغقت بدهشة، ثم تركت نفسها المحتبس في صدرها ينطلق في تنهيدة طويلة". أنني لنقل الآن من الجمل القليلة التي استطعت أن أنقلها بسرعة بالقلم الرصاصي في منكرة صغيرة كانت في جيبتي. عرفت أنني كنت انظر إلى مخطوطة بورويل التي استطاع إيزاك جينكلينسون بيتس أن يخلصها بشكل ما من المأهيد. ومن الواضح تماماً أنه لم يكن له أي حق في امتلاكها. ولذلك فقد عرفت انعدام أي فرصة لسماعه لي بأن أسترها أو حتى بأن أنسخها في منزلي.

قال كليف بيتس: "هل عثرت على تلك الورقة عن دونيالي؟" جففت وقلت: "لا" ثم نظرت إلى الرجل المعجوز. كان رأسه مختفياً تماماً، وكنت واقفاً من أنه لم يسمع، قال كليف.

"أرجو أن تقرأها، إنها مضحكة بشكل مرعب"

غمطت بشيء ما، أملاً ألا يطرا على ذهن بيتس العجوز أن يسألني عما كنت أقرأ، أو ما إذا كنت قد عثرت على خطاب وايز. ففزت صفحتين من الكلام الذي يحاول فيه بوزويل ليجوز نفسه، مخالطاً ذاته بكلمة "أنت" متاملاً في مميزاته من الجاذبية والحبية الأخلاقية. في يومه الأحد ٩ فبراير، عثرت على الاسم الذي كنت أبحث عنه، وصل بوزويل وتيريز إلى منزله وسعد عاصفة معطرة. ونزلاً في فندق يقول عنه ببساطة أنه فندق مدام دو تشيزن، حيث نزل هو وتيريز في غرفة واحدة كبيرة في الطابق الأرضي. بدل بوزويل ملابسه وهيمما يتسنى في اللبنة. "وبالقرب من رصيف انبهاء، ربت شخص ما على كتفي، والتفت لكي أرى إيرموند دونيللي الذي كان قد وصل إلى هذا بعربة البريد القادمة من دانكيرك". وذهبنا عائدين إلى فندق بوزويل، حيث كان يوسع دونيللي أن يحصل على حجرة لنفسه. ومن الواضح أن بوزويل ودونيللي كانا قد اتفقا في دريسدن، أمرا لأنفسيهما بطعام وقبينة بقيمة من النبيذ الجيد، وتحدثا عن ويكنيز وهوراس والبولك اللذين كانا قد قابلاهما في باريس. ودخلت تيريز - ولم يكن بوزويل يعرف أنها كانت قد قابلت دونيللي وهي مع روسو في بوشاتل - ويقول بوزويل، "علي أن أعرف بأنني شعرت، بفصحة لحرارة تحببتها، والطريقة التي ظلت تردد بها أن هذه كانت مفاجأة ممتعة". فرروا أن يتناولوا العشاء معاً، وأخذهما إيرموند إلى منزل خاص لتناول الطعام. "وعلى سائدة العشاء، تحدثت كثيراً حديثاً فاحشاً، ولما لم يبد على الأنسة أنها تضررت من ذلك فقد انشركت في الحديث، وشعرت باختفاء ضائقي وبمحرف مزاجي". ثم عادوا إلى فندقهم، وقال بوزويل مازحاً أنه يأمل من إيرموند أن يسلطنا إلى لقائهم نظرة بريئة إذا حدث، واتفق بروسو في لندن، وحينئذ، وبالصرحة غير القولية التي عرف بها بوزويل دائماً، مضى فأخبر إيرموند عن فشله مع تيريز. وعن كيف شعر بالانزعاج في مناسبة تالية حتى أنه شرب زجاجة كاملة من النبيذ قبل أن يذهب إليها إلى الفرائش. وأصبح الحديث أكثر وداً وكله جو من الصداقة الحميمة، وتحدثت تيريز عن غلظة الإنكليز وغبائهم فيما يتعلق بفن ممارسة الجنس. وحينئذ صدم بوزويل حينما عرض إيرموند أن يعرض استأذنيته في هذا الموضوع في التو والحظفة. ثم خطر له أن إذا استحوذ إيرموند على تيريز فإنه سيحصل على سبب معقول بشعره بالراءة إذا التقى بروسو فيما بعد، وهكذا فقد عبر عن موافقته على هذه الفكرة. وجاء دور تيريز في إظهار الدهشة وما أصابها من صدمة، وراح إيرموند يلومها ويسخر منها منها إياها بالتصنع وعدم الصدق. وعند ذلك، قررت أنه لن تكون هناك جدوى من إخفاء ميلها الحقيقي، ووافقت على أن تكون

عملياً رأيها وتقتديرها لقوة إيرموند في فن المشق. قال إيرموند لبوزويل، "هيا تا سيدتي، هيا لكي نتبت لها أن الكلت هم دم الحياة لأوروبا". ففهمت تيريز، وكان بوزويل مصمم على أن يهلك في صورة لا تقل عقلانية وثقافة عن سابقه الشاب (أو كان إيرموند يصغره بتعارف سنوات) فاستطعهما إلى حجرة النوم.

وما حدث بعد ذلك يتخلص في أن بوزويل وإيرموند ساعدا تيريز في خلق ليالينا وحيلنا أصبحت في ليالينا الداخلية شرع الرجال في ملاطفاتها، ونبت حكل منهما فمه على أحد نهديها (...)

إن وصفه لظفر إيرموند وتيريز وهما يمارسان الجنس سوف يكون - دون شك - نموذجاً كلاسيكياً في مجاله... وهذا الوصف يستمر لصفحتين أخيرتين. ولكن كان هذا حكل ما استطعت نقله في ذلك الوقت القصير. كانت المرأة تساعد بيتس العجوز لخلق حقبية البلاستيك، ولذلك فقد أصرعت في القراءة حتى أصل إلى النهاية، حيث يصف بوزويل بعد فاشله الأول، وكيف استطاع أن يسكن نفسه بمضا جعلها بقوة "باسلوب شعرت بالأسف لأنني لم أكن قادراً على مشاهدته بنفسه". وشعر بالرضا الكامل عن نفسه حينما غمطت تيريز فاشله، "أه، إنه أصغر محزن أن أكون عشيقه رجل عجوز". وأمضى بوزويل وتيريز وإيرموند الليلة في نفس الفرائش - الذي كان كبيراً بما يكفي لثلاثتهم - ونظر الثلاثة إلى الموقف بطريقة طبيعية حتى أنهم كانوا يفرقون في إغفاءة قصيرة يستيقظون بعدها لاستئناف ممارستهم للجنس. وأخيراً غرق بوزويل في النوم بينما كان إيرموند يحاول إقناع تيريز بأن باتيها من الحظف. ولكنه في النهاية قطع بأن يطلبها على ظهرها ثم يصعد فوقها مرة أخرى. وفي هذه المرة، شعرت حتى رغبة تيريز التي طال كبتها في حواد قوي شاب، فرفقت مستسلمة في سلبية، وهي تشوق بضعف، بينما كان بوزويل يمارس الجنس للمرة السادسة "كنت أفر من استلكتها تلك الليلة" كذلك يقول مفاخرة، ولكنه يضيف، "ولكن علي أن أقول - للأمانة - أن دونيللي سجل سبع مرات مقابل الست التي سجلتها". وفي الليلة التالية، مرض بوزويل بسبب التهاب في معدته، فأمضى الليلة في فرائش إيرموند، ويعترف بأن قلبه كان قد انصرف تماماً عن الاستمرار في تلك المناسبة الرياضية. "رغم أننا كنا قد رأينا هتة صغيرة في نحو أربعة عشرة من عمرها في دكان الفرائش، كانت جديدة بأن تلهمني الحياة طوال ما تبقى من أيام الأسبوع". وفي اليوم التالي قال لهما إيرموند إن لديه عملاً لابد

أن يبقية في مكانه عدة أيام أخرى. وبينما تحرك بهما القارب عن رصيف الميناء إلى السفينة التي كانت ستقلهما إلى إنكلترا، نظرت بوزويل خلفه فرأى إيزموند واقفاً على رأس الرصيف مع اثنتاء ذات أربعة عشر ربيعاً. ولحسن الحظ فإن تريز لم تلحظهما. "بعد العودة إلى دوفر في اليوم التالي (٢ فبراير) تفضي يوميات بوزويل المنشورة قائلة: "ذهبت صباح أمس إلى ليدز في ساعة مبكرة جداً، وقمت بواجبي مرة واحدة، لكي تبلغ أهدافي ثلاثة عشر في مجموعها، وكنت حقاً متفعلًا بها في ود صادق". ولكنه لا يسجل كيف أصبحت أهدافه أصبحت تماثل عند أهداف دونيلي.

التقت عينا بيتس بعيني فهر رأسه محذراً. كانت الممرضة قد خلعت الحقيبة سنوية من البلاستيك. أغلقت الخطوطة التي كنت قد أنهيت قراءتها لتوي، ودست كرسيه منكراتي الصغيرة في حبيبي. التقطت كتاباً صغيراً من تاليف روسكين، وحينما سألني الرجل المعجوز عما كنت أفرا قلت أنني وجدت هذا الكتاب وأنه سحرني. قال حميدة إن علينا أن نرحل لأن، وبدا أن الممرضة وافقت على ذلك.

"هل سألني صديقك كل الأسئلة التي كان يفكر فيها؟"

قلت بتردد، "هناك سؤال واحد آخر، يا سيدي. عن إيزموند دونيلي."

"دونيلي؟ من ذلك؟"

وضّح كيف من القصده. قال الرجل المعجوز،

"أجل، أتذكر الآن، لقد كان عضواً في جماعة العنقاء."

"كيف عرفت؟"

"تدعي أنك تذكر. كيف عرفت؟ أجل. أخبرني وإيزموند. قال ذلك في الخطاب الذي أرسلته أن تراه. هذه النشرة التي كتبت تقرأها. إنها ليست بقله. أيا كانت أسماؤهم. بها بقلم شخص آخر، صديق لدونيلي. لا أستطيع أن أتذكر اسمه. إن له لقباً."

"لا يمكن أن يكون هوراس جيني. يمكن ذلك؟"

"أجل، هذا هو الرجل. نوره جيني."

"ولكن كيف عرف وإيزموند؟"

لسوء الحظ، تدخل مكلي بيتس لأنه فسر هذا الكلام على أنه هجوم آخر ضد وإيز، وشرع يشن دفاعاً طويلاً عن صديقه القديم. قررت أن أترك المسألة عند هذا الحد، إلى جانب أنني كنت جائعاً، شكرته ووعيته بأن أزره مرة أخرى وغادرت المكان. وفي الخارج قال كيف بيتس معتزلاً،

"أترى. إن الولد المعجوز ثرثار كبير."

"هل قرأت الصفحات التي كتبها بوزويل والتي كتبت المراهات؟"

"أه، هل عرفت أنه بوزويل؟ أجل. بالطبع، لقد قرأتها. أضفتها قطعة رائعة من أدب العمارة. لقد ظللت أحاول طويلاً أن أقنعه بإرسال نسخة منها إلى ذلك الرجل الذي يشرف على نشر منكرات بوزويل. ولكنه لم يوافق."

"بالطبع. إنها ليست مثله."

"أنت واثق؟"

لخصت له قصة أوراق بوزويل. قال،

"إنه يزعم دائماً أنه اشترها مقابل خمسة جنيهات، ويقول أن لادي كالبوت راتها بالصفة ذات يوم وطلبت من زوجها أن يجرها. فقال أنه سيفعل ذلك، ولكنه وافق على بيعها إلى جدي مقابل ورقة بخمسة جنيهات."

"ربما كان هذا صحيحاً. هل لديك المزيد من أوراق بوزويل؟"

"كلا على قدر ما أعلم. هذه هي الأوراق الوحيدة التي راتها."

كان النظر قد بدأ بهطل حينما توقفنا بالسيارة في مقابل فندق شيكسبورن. قلت بصوت رقيق تقليدية:

"شكرك لا صطحابي إليه. إنه رجل عجوز لطيف."

"أوه، إنه على ما يرام. إنك لا تعرفه."

عجبت لهذه الإجابة، ولكنني قررت ألا أضغط عليه، فلم تكن هناك حاجة حقيقية إلى ذلك، وحينما جلسنا في البار وحنا نحسني بعض التوبيخ الأحمر، قال:

"يحق لي أن أتخيل أن جدي واحد من الشخصيات التي تمثل أسوأ تركيبة من الصفات للتضاربة التي يمكن أن تجدها في دبلين في هذه الأيام، إنه - أولاً - كذاب لقد تظاهر بأنه لم يعرف اسم دونيللي، هراء، إنه يعرفه مثلما تعرفه أنت...

"لكن لماذا.."

فاطمني قائلاً: "وهو ثانياً، ربما كان أصغر رجل في إيرلندا... وطوال النفاق الخمس التالية راح يضرب لي أمثلة على حقارة جده ووضاعته فكانت بالتأكيد مقنعة تماماً، وربما كان الرجل نموذجاً من التماذج الإيرلندية، لأن مانسيورين، يصف شخصاً يماثله في بداية روايته "ميلموت الجوال"، ويرجو هذا الشخص متوسطاً وهو يلفظ انفاسه الأخيرة، أن يلقاه في مقبرة من مقابر الصدقة المخصصة للفقراء. ثم تلت ذلك قصص عن عدم أمانة جده، "ثم هنالك تلك الفتاة المسكينة التي ترعاه، إنها ما تزال طالبة في معهد التمريض، ولذلك فإنه لا يكاد يدفع لها شيئاً، ولكنه يقنعها بأن تنام معه مقابل وعده لها بأن يترك لها مالاً في وصيته، هو بالطبع ما كان يحلم بهذا".

دهشت وسألته: "أنت واثق من هذا؟ فإن الرجل لم يكن يبدو علي صحة كافية لكي ينحو من آثار حلم جنس".

"بالطبع، إن الفتاة تنام معي في ليلة عطلة".

كنت قد بدأت أشعر بالانقباض. كان كليف بيتس يصف خطأ جده وأخطاءه في تشفٍ حقد شعرت بأنهما على شيء من الوحشية.

"لماذا لم تخبرها بأن الرجل لا ينوي أن يترك لها نقوداً في وصيته؟"

غمز بعينه وقال: "لها قد تركه، وهذا لن يفيد ولن يفيدني".

أفكرت أن نأخذ نبيذنا معنا إلى حجرة الطعام. قال:

"هل تمانع في تناول الطعام في البار الطويل بالطابق الأسفل؟"

"كلا، إذا كنت تفضل".

وجدنا مائدة على جوار النافذة للطلقة على الشارع، سألته:

"من هو وارث جدك؟"

"اعتقد أنني وارث".

"لكن لماذا تحقره إلى هذا الحد؟"

"ليس لهذا علاقة بذلك، إنه خنزير عجوز، وأنا على أية حال لست بحاجة إلى نقود، إنه ميسور الحال تماماً، وربما كان هذا هو السبب الذي سيدفعه إلى أن يجعلني وارثه، ابن حبيب، ابن أخيه، حبيب هيرد، يحتاج إليها أكثر مني.

فلمع كلامه فجأة وأطل من النافذة، كان المطر لا يزال يهطل، وكان أمامنا خلف النافذة طفلة صغيرة، كانت تنظر إلينا، وهو ما دفعنا كلاً منا للنظر إلى بعض نظرة تساؤل ثم ابتسم كليف لها. سألته:

"تعرفها؟"

"كلا"، ولكنه مع ذلك كان يشير إليها بإصبعه، هزت رأسها رافضة، قام وخرج إليها، توقعت أن أراها تختفي قبل أن يصل إليها، ولكنها وقف في مكانها، بدت وكأنها خائفة وباردة ومبتلة، وكانت ملابسها رثة إلى حد كبير، قال لها شيئاً ما، هزت رأسها علامة الرقش، ثم أخذها من كتفها، وأجرها على السير أمامه. بعد لحظة كانا قد عادا إلى مائتنا، قال:

"إنك لن تترجع إذا انضمت إلينا، اليس كذلك؟"

قلت إنني لن أترجع، ولكنني كنت أكثر اهتماماً بما ستشعر به إدارة المحل، كانت أكبر سناً مما بدت عليه من وراء الزجاج، أربعة عشر، أو خمسة عشر عاماً، تقريباً، كان شعرها مرفوعاً على شكل ذيل فار، وكان انفها برشح من الرد، وترتدي سروة قصيرة ذات كتفين مستقيين وليس فيها سوى "زرار" وحيد، كان المطر قد رسم خطوطاً على ما تأصل فوق وجهها من أوساخ، وكانت تبدو كمن لم يغتسل منذ أسبوعين، ولكي أكون

أينما، فقد لاحظ لي أن الطائر كان سبياً فيما فاج منها من روائح انكبت تلك الحقيقة. سألتها
كليف.

"ما اسمك؟"

"كلورنس".

"هل يدعونك كلور؟"

"أجل".

كانت لهجتها لندسية فحة Cochsey جلست في مكانها، تحك يديها الباردة بين
أصابعها الأخرى، فتعلمو كصورة مجسمة لليوس. كان النادل ينظر إلينا في استمرا
رغم، وظننت أن مدير التحل كان على وشك أن يأتي إلينا ليطلب منا مغادرة المكان فقد
كان يميل إلينا بقوة. قال كليف،

"أودين أن تأكلي بعض السمك والبطاطس القليلة؟"

أومات برأسها، ولكنها ظلت تبدو مخدرة من البرد فألقت الحياض. نادى كليف على
النادل، وأمره بأن يأتي بما أودته الفتاة بطريقة ظهر عليها الافتعال وتسمع الكرياء. كانت
متاعري مختلطة غير واضحة. إذا كان قد دعاها إلى الدخول بدفع الشفقة أو العطف إذن
كنت أوافق، رغم أنني كنت سأفضل اصطحابها إلى مكان أكثر هدوءاً وعممة. ولكنه كان
شخصية من نوع غريب ومعقد حتى إنه كان من الصعب التأكد من دافعه. ظننت أن
الفتاة بدلت غير مسرحية غريبة عن المكان الذي دخلته. وأخيراً أقرحت أنه من الأفضل أن
نصعد إلى حجرتي، على أن نطلب إرسال طعامها إلى هناك.

"كلا، كلا، ولماذا يجب علينا ذلك؟ إننا على ما يرام هنا".

كنت جائساً إلى جانب الفتاة ملاصقاً لها، وكنت أفضل لو أنني كنت أقل قرباً.
أخذت سرتها منها لكي أعطيها على الشجب، ففاحت منها رائحة جعلتني أفننها قد وجدتها في
كومة من القمامة بعد أن كانت قد استخدمت في تجفيف بعض السمك. إن لي أيضاً حساساً

إلى درجة غير عادية، ولكن حتى رغم ذلك، فإن السيرة لم تكن شيئاً عادلاً بالنسبة لجيرالدا
على اللواتي القريبة.

كانت الوحبة واحدة من أكثر ما عرفته بعداً عن الراحة أو المتعة، فطليت راحة
أخرى من الشراب في محاولة لنسيان ما شعرت به من حرج. لم استطع أن أفهم السبب الذي
جعلها توافق على الدخول. كانت تجيب على الأسئلة بكلمات مفردة في خشية واضحة من
أن ترفع صوتها، وقد جلست في وضع متجمد مقيد، كما لو كانت تتداخل في نفسها
لحساسها المستمر بالبرد. وبدأ كليف كما لو كان مسرياً لهذا الجو. راح يتحدث بصوت
مرتفع وباستعجال واضح، وهو يقص علي حكايات عن مهر جان كان السيمفاني، وعن آخر
أفلام بر كمان، وهي حكايات لم تستطع أن تثير لدي أدنى قدر من الاهتمام. حاولت أن
أنتقل إلى الفتاة، ولكن كان واضحاً أنها تفضل لو تركت لسانها. شعرت بمراحة أكبر
حينما غادر جيرالدا على اللادة الجاورة لنا. حينما وصل سفكها وبطاطسها القلي، أغرفتهما
بالخل والحماطم المحفوظة، فأصبحت رائحتها أقل ظهوراً. رففت الفتاة أن تتناول شيئاً من
الحلوى. الأمر الذي شعرت أنه بالراحة والقبطة. كنت قد نويت أن أضيف الوحبة ككلها إلى
حسابي في الفندق، وبدلاً من هذا دفعت الحساب نقداً وتركت للنادل هبة كبيرة. لم أصر
بالرغبة في الظهور بمظهر تزيل الفندق.

قال كليف بأقصى ما يملكه صوته من ارتفاع وأرستقراطية،

"حسناً، إذا لم تكن ستتناول المزيد، فيمكننا أن نذهب إلى مسكني لتتناول شيئاً من
الشطائر بالجبن".

كنت بالغ السرور بانتهاء تناول الطعام، فلم أعرض. إلى جانب أنني توقعت أن
ترتكنا الفتاة بعد هذا. كان منظر وجهها التبعس يجعلني كئيباً، ولم تكن سعادة النادل
بالهبة الكبيرة سوى نصر ضئيل.

وفي الخارج قال كليف: "حسناً، إنني لا أعرف كيف سنحضر جميعاً في سيارتي ذات
القعدين".

ظننت أن هذه الجملة كانت إيحاء مؤدباً للفتاة بالتصرف، ولكنها ظلت واقفة في
مكانها. قال.

"أود، حسناً، سترتب هذا الأمر - تعالياً - وجلب ذراعها بقوة. قلت

"ألا يتوقع ولذلك عودتك إلى البيت؟"

هزت كتفها بلا مبالاة وقالت: "لا"

في السيارة البورش جلست على ركبتني في هذه الزخزعة الثقيلة. وقد طلب مني كليف بيتس ألا أفتح النافذة. كانت الرقعة السمكية أكثر قوة. كان عليها أن تضغط بظهرها علي لكي تدخل ركبتها في مساحة الفراغ الضيق. ربت كليف على ركبتها وهو يقول "سنكون في البيت حالاً - أو هو - هناك ثقب... هذا -" وكان يشير إلى جواربها، ثم غمز لي بعينه وقال: "حسناً". نظرت إليه بدهشة قليلة. من المؤكد أنه لم يكن يستطيع أن يرى في هذه الطفلة البقلة ذات الأنف السائب موضعاً للرغبة الجنسية؟ ربما لم تكن لديه حاسة للشم؟

بدت لي سلبيتها نوعاً من الشذوذ. حينما توقفنا أمام شقته توقعته منها أن تبدي شيئاً من المعارضة. فكيف لها أن تعرف على أي حال أننا - نحن الاثنين - لا ننوي اغتصابها؟ ولكنها وفقت في مكانها دون أن تبالي بشيء، حتى أخذ كليف يذراعها وقادها نحو الباب.

بدت أكثر غربة وشذوذاً في هذه الغرفة الجديدة الثانية. القت بسرعتها فوق الأريكة، ثم ذهبت فقبعت متداخلة بجانب الدفء، وبدت غير مهتمة على الإطلاق بكل ما يحيط بها. قال كليف:

"فلنسمع بعض الموسيقى، ما رأيكم؟ هل تعرف كانانتا جيمس أو زوالد السماعة عربية الراب؟ عليك أن تعرفها. إنها ممتعة". تساءلت بيني وبين نفسي إن لم يكن في هذا الاختيار تعريض ساخر بالفتاة. ولكنه أخرج اسطوانة موسيقية تحمل هذا الاسم بالفعل، ووضعها على الحاصلي. عرض عليها أن تشرب ككاساً ولكنها رفضت. أخرج الجبن والشطائر والزيتون المحشو إلا أنها رفضتها أيضاً. غير أنها حينما قدم إليها علبة كبيرة من الشطائر الجاهزة المحشوة أخذتها دون أن تبس بكلمة واحدة، وجلست لتلتهمها. وقد باعدت ما بين ساقيها أمام النار، وراحت تسقط نثار الشطائر فوق مقعده الحديث ذي الستينين وعلى البساط الأبيض الفاخر. اتخذت مقعداً على الجانب الآخر من الدفء، وكان كليف قد جلس بالقرب منها. بدت أتساءل إن كانت قد سكرت. ولكن وجهها الصغير الحاد ظل على لامبالته

الكاملة. ولم يكن حتى يتم عن الكاية. وحينما كان يتحدث إليها كانت تجيبه إما بكلمة مفردة، وإما أن تهز رأسها أو تومي به. وبعد أن التهمت علناً هائلاً من الشطائر الصغيرة ملئت شيئاً تشربه. ذهب إلى المطبخ وجاءها بـ حاجة من الكوكاكولا وأنبوبة لامتصاص الشراب. حينما انتهت كانتا "عربة الراب" قالت دون أن يبدو في صوتها الاهتمام الشديد: "كأن لا تضع شيئاً من الموسيقى اللطيفة". أخرج اسطوانة من موسيقى مانتوفاني وهرفته، وبدلاً هذا الاختيار قد أرضاها، ثم إنها لم تقل شيئاً.

فكرت في أنه كان ربما يأمل أن أقوم أنا فأنصرف لكي أتركه معها بمفرده، ولكن حينما قلت أن الوقت قد تأخر - عارضني على الضوء، وأضاء جهاز التليفزيون لكي تشاهد نشرة الأخبار. جلست في مكاني، ارتشف ككاساً من الشراب، عارفاً بأنني سرعان ما سأسفر بالسكر، ومع ذلك فقد كنت أشعر كما لو كنت لم أشرب سوى الماء طوال النهار.

بعد نشرة الأخبار كان هناك برنامج عن الاضطرابات السياسية في شمال إيرلندا ربت كليف على ذراعي وأشار إلى الفتاة. كانت نائمة. قال برفقة:

"لها لطيفة. ألا تظن ذلك؟" وجدت أنه من العصب أن أعثر على إجابة مناسبة. وأخيراً قلت: "إنها بحاجة إلى حمام حديد؟"، بدا عليه الحزن بشكل غير متوقع، وعض بصره وقال "جبل، الشكينة..."

"ألا تظن أنه يجب عليك أن تأخذها إلى البيت؟ ألا يمكن أن يشرح والدها بعض المشاكل؟"

"أود. لا أظن ذلك. يمكنها أن تنام هنا إذا أرادت ذلك."

سلمت دون مزيد من المعارضة. كان يعرف ما يفعله خيراً مني.

كانت قد غرقت في النوم واضعة إحدى ساقيها فوق أحد مستدي المقعد، وملت الساق الأخرى أمام النار. غمرت وصعها قليلاً فالتزلق ذيل ثوبها فوق ركبتها. ابتسم كليف في وجهي، ونحني إلى الأمام وصوب نظره قريبة فوق ذيل الثوب. توقعت أن تستيقظ ولكنها لم تتحرك. التفت إلي وقال "نخلر" ولكنني هزأت رأسي قائلاً: "كلا. أشكر". تظاهر بأنه يريد أن يطلعتني على شيء هام، فغيرت وضعي ونظرت إلى ما فوق ذيل الثوب. كان الجوربان

اسميكان مليئين بالثقوب والشقوق. كانت ترتدي سروالاً ملوياً مصنوعاً من القطن، ولكنه كان مصقّق "الحجر" بشكل سيئ حتى إنه لم يكن يخفي شيئاً، أعدت عيني سريعاً - ليس بدافع الرفق أو اللامبالاة، وإنما لأنني كنت سأشعر بخجل جليل لو أنها فتحت عيناها في تلك اللحظة. قلت:

"ماذا في ذلك؟"

يبدأ عليه الحزن والتفكير مرة ثانية.

"من أوضح أنها تنتمي إلى أسرة فقيرة، فلا عجب أنها ليست نظيفة جداً."

لمس كتفها وقال: "أتريدين النوم هنا". جففت ولكنها لم تفتح عينيها، وفجأة أصبحت عاجزاً عن معرفة ما إذا كانت تتظاهر بالنوم. تحسس قمائش ذوبها وقال: ستصاب بنزلة برد إذا ظلت بهذه الملابس". نهضت وقفاً ووضع يداً تحت ذراعها ويده الأخرى تحت ركبتيها، برز لها حركات رأسها وقالت شيئاً. خطر لي الآن أنها إما أن تكون تتظاهر بالنوم أو أنه قد وضع شيئاً في الشراب الذي تناولته، فإذا كان ذلك قد حدث، فلأبد أنه استخدم مادة فايدريت الكحول، فهي وحدها القادرة على إنتاج هذا الخدر الكامل.

تبعته إلى حجرة النوم - وكان من الغباء الكامل أن أسأله عما كان يفعله. كانت الحجرة مريحة ودافئة، وضعها على حافة الفراش الكبير، ثم خلع حذاءها، ثم بحث حول الخصر حتى عثر على الزمام. سألته: "هذا تصرف حكيم؟" قال: "إنني لا أنوي أن أضعها في فراشي بهذه الملابس. لقد قلت بنفسك إنها متعفنة". عثر على الحزام فجذبه وفتحه بعنف، ثم جلب الثوب النصفي فخلعه من قدميه. لم تكن ترتدي قميصاً داخلياً. لا شيء سوى الجوربين المسوكنين بزوج من دوائر اللطاف، والسروال الداخلي الذي كان يربطه اللطافلي بعمية تقريباً عن خصرها. قال: "جسد صغير جميل" وكان في هذا شيء من المبالغة. كانت لحيفة، والبطن الصغير كان مسطحاً لدرجة أن عظمتي الرافين برزتا بوضوح. أمسك بطرف العنار الصوفي الخفيف، وكان ذا لون أخضر شابه لون الطين والتراب - ورفعه، ثم حركتها فقلبتها على جنبها حتى يستطيع أن يجذبه من فوق رأسها. كانت ترتدي حمالة صدر كانت بيضاء ذات يوم، وكانت الشريطة الحمالة على ظهرها موصولة بقطعة من

اللطاف الأسود إلى بقايا القماش بطريقة خشنة، وقطع شريط اللطاف بإظهاره. كان التهنين الصغيران مسطحين ولم يكتمل نموهما. نظرت إلي وقال:

"هل سننالها؟"

قلت على الفور: "كلا، دعها وشأنها".

مد يده فجاء ووضعها على مقدمة بطني ففكرت إلى الخلف كما لو كان قد ضربني. ابتسم وقال:

"لا يمكنك أن تتظاهر بأنك غير مستثار."

كسبت رغبتي في ضربه وقلت: "لأن لا تضعها على الفراش ثم تتركها لكي تنام؟"

"كلا، سيخيب أملها".

كانت مشاعري مختلطة وغامضة. كنت وثقاً من أنها مثبقة. ولكن إذا لم تكن فإنني كنت سأعثر شريكاً في اغتصابها. كنت سأعثر شريكاً على أي حال، طالما أنها لم تبد أي نوع من الاستجابة. انحيت إلى الأمام وفرصت كنتفها. لم تتحرك. كان كتف بيئس في تلك اللحظة بتهقه بطريقة غير عاقلة. قبض على نهديها بأصابعه وقال: "قولي له أنك مستيقظة يا حلوة". انحني إلى الأمام كما لو كان يريد أن يقبلها، ولكنه أخذ شفتها السفلى بين أسنانه وعضها (...)

الشرب متي وأمسك ذراعني. وما زال انتصابه ظاهراً، ووجدت أنه من الصعب أن أبتعد عيني عنه. قال مثملاً:

"لقد أديت لك خدمة اليوم. اسمع، حينما يموت الرجل العجوز، سوف أرت كل ما لديه من مخطوطات. وسوف أسمح لك بأن تأخذ ما تشاء.."

"ذكركني الموقف فجأة بالكولونيل دونبيلي، وكان هذا أكثر بكثير مما يمكن أن أحتمل، قلت:

"اسمع، إذا كنت تريد أن تنالها، فانهب وافعل ما تشاء. إنني لن أمنعك، ولكنني لا أريد مشاركتك في هذا. وأنا لا أريد أيضاً أن أحميها."

قلت ذلك بسرعة لأنني استطعت أن أدرك أنه كان يرمي إلى إقامة حفل جنسي لأني الأطراف.

"إن تنصرف؟"

"كلا. سوف أنظر."

"سأترك الباب مفتوحاً". ثم اندفع إلى حجرة النوم، فرائته يخلد بنفسه فوقها مرة أخرى (...) ذهبت فعمرت على راحة من النيد في خزانة مشروباته فملئت لنفسي كأساً كبيرة. ولم تترك لي الأصوات القادمة من حجرة النوم مجالاً للشك في أنه كان يستمتع بها. وكانت تتخللها أنات وتعليقات مثل: "أود، أود، أينها العاهرة الصغيرة...". وأخيراً توقفت الأصوات. مضيت في تناول الجبن والزيتون، مع قراءة نسخة من كتاب وايت: "أخوة الصليب الوردي" وجنيتها على أحد رهوف الكتب. بدأت أشعر بالنعاس. سوف يكون من الكتب أن أقول اسمي لم أكن مستثاراً جنسياً إلى حد ما. كانت سلبية الفتاة المطلق قد أثارت فضولي، وإن ما شعر به من الفضول إزاء فتاة لقريب جداً من الرغبة في أن تخلع لها ملابسها، وإذا جلست على المقعد ذي السندين الذي كانت تجلس عليه، تذكرت سرورها الداخلي المرفق وأعضائها التناسلية المكشوفة وتجديد الشبق. كنت حديراً بأن أمارس معها الجنس في ظل مشروف مختلفة. ولكن ما أضعف من عزيمتي كانت شخصية كليف بيتس، ومحاولته لدفعي إلى مشاركته في عملية بدت لي كالاعتصاب.

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل وفكرت في العودة إلى هندية، ولكنني سمعت صوت حركات صادرة من حجرة النوم، ولم أرفع عيني لأنظر ما يجري. ثم رايت كليف بيتس واقفاً على بساط صغير عند باب الحجرة، عازياً، حاملاً الفتاة بين ذراعيه مرة أخرى.

"لقد جهنتك بها مرة أخرى."

"هذا عطف منك، ولكن علي أن أرحل."

"أود، لا، لا ترحل" ركع على ركبته، ووضعها على البساط المتنوع من جلد حيوان أبيض عند قدمي. وكانت هي الأخرى عارية كما وليتها أمها الآن. ثم خرج من الحجرة.

انحنيت فوقها ولمست ذراعها. قلت: "أنت مستيقظة؟". لم تصدر عنها حركة، كان صوت المياه الجاري يأتي من الحمام، وبعد دقائق خرج كليف بيتس من هناك، حاملاً إناء من البلاستيك الأحمر يتصاعد منه البخار.

"ماذا تفعل؟"

كان إناء معطراً. أخذ منه إسفنجة استحمام، وعصرها، ثم دلكها بصابونة كبيرة معطرة بعطر الليمون، وبدأ بفسلها بعناية، متجاهلاً ما جرى على البساط من ماء، ثم أخذ منشفة وجففها (...). ثم رفع عينيه نحوي وقال: "هالك هي، لا يمكن أن تكون أنظف من هذا...".

"إن كل ما تحتاجه الآن هو بعض الثياب النظيفة."

"أود، أظن أننا نستطيع أن نرتب ذلك."

نهض واقفاً وقال:

"هالك هي، إنها ملكك...".

استدار وذهب خارجاً من الحجرة، وأغلق وراءه باب حجرة النوم. كان هذا نوعاً من الإغراء، كانت مراقبتي له وهو يلاطفها بالإسفنجة قد جعلتني انتصب. انحنيت فوقها ولمست نهديها. كانا باردين. خطوط فوقها واتجهت إلى خزانة الكتب، ثم خطوط على أطراف أصابعي نحو باب حجرة النوم وجذبتة فافتح. سمعت صوتاً خافتاً ووجدت كليف بيتس جالساً على البساط، وأد بدأ عليه الانزعاج. قلت: "معذرة، إنما أردت أن أخذ شيئاً أغطيها به". واتجهت إلى الفراش، وأخذت معطاء ثم عبت ثانية إلى الفتة الرافدة على البساط أمام الدفء. وبينما كنت أغطيها ظننت أنني رايت ابتسامة على شفتيها.

سمعت صرير ففاضات السرير في الحجرة الأخرى. جلست وفتحت كتاب وايت على فصل "الصليب الوردي". ثم غلبني النعاس ولابد أنني نعست فعلاً استيقظت حينما أنزلني الكتاب من فوق ركبتي. نظرت إلى الساعة، كانت في الثانية والنصف. هجاء، جلست فلورنس، ونظرت إلى الغطاء الذي غطيته به.

"كان هذا شيئاً لطيفاً مثلك".

"عموماً". وكنا نكلمنا نتحدث بصوت منخفض.

قالت: "حسناً، أظن أن من الأفضل لي أن أرحل".

"بهذا الشكل؟"

"ككلا".

عبرت الحجرة واتجهت إلى صندوق الثري مليء بالأدراج في أحد الأركان. وحذيت أحد الأدراج ففتحت. بدأت في إلقاء الملابس الداخلية على الأرض. فتحت الدرج الأخير، وأخرجت زوجاً من الأحذية

قلت: "لقد جئت إلى هنا من قبل؟"

"أخذ حماماً مرة واحدة في الأسبوع، في المتوسط".

ودون أن يبين عليها الحرج ارتدت مشدداً حزام. وقد بدا هذه المرة جديدة ومن طراز حديث. ثم ارتدت جوربين. ارتدت بعد ذلك سروالاً داخلياً، ثم حمالة صدر، فلبيت مخي أن أربط خصلاتها. زحفت نحو باب حجرة النوم ونظرت داخلياً، ولكن لم يكن هناك شيء في هذه المرة في أن كليف بيتس كان عارفاً في نوم عميق. كانت فلورنس قد ارتدت قميصاً داخلياً دون صدر صنع من النايلون من نفس لون حمالة الصدر والسروال الداخلي، وقد بدا عالي الثمن لعمري غير الخيبرتين. ذهبت إلى خزانة قريبة من الباب وأخذت حقيبة طويلة من البلاستيك كانت معلقة على مشجب في الخزانة، انصاح أنها كانت تحتوي على حلة خضراء اللون كالكليمون مكونة من قطعتين. توجهت إلى الثلاجة فوق النفاة ومسحت شعرها بفرشاة أخذتها من الدرج. كان شعرها في ذلك الوقت جافاً، وبعد أن مسطته بدا اللون الأحمر الذهبي نفسه الذي رأيته في مكان آخر. زينت وجهها بضربات قليلة من أحمر الشفاه وبعض البودرة التي نثرتها بقطيفة صغيرة على صدغها. حينما التفتت إلي لم أكند أعرف عليها. كانت ما تزال تبدو صغيرة السن، ولكن كان يمكنني الآن أن أقدر عمرها بعشرين عاماً. كانت قد ارتدت اللابس الجديدة التفصيل كما لو كانت معناه عليها.

"مستعد؟"

"أجل... أجل".

من خزانة البهو أخرجت معطفاً كان متناسباً تماماً مع الحلة، ومظلة من نفس اللون.

وأخيراً وضعت حقيبة حمراء صغيرة على رأسها، أطفأت اللقطة الكهربائية، ثم أطفأت النور. وخرجنا، وأغلقنا الباب وراءنا بهدوء.

سألتها: "بين تقيمين؟"

"نوه، لن أعود الآن إلى البيت، أنت تقيم في شيلبورن؟"

"أجل".

"سأعود معك إلى هناك لأرى إن كانت لديهم حجرة لي. لا يمكن أن تعمل منطقة الخروج إلى مالاهايد".

كانت لهجتها ما تزال نندنية بوضوح، ولكنها لم تعد لهجة الكوكيني (سوفة لندن) كان النظر قد توقف، فسرقنا في الشوارع الخالية. سألتها إن كانت تعرف جد كليف بيتس.

"نوه، أجل. إنه كان يعيش في مالاهايد. وهناك قابلت كليف. والولد العجوز لا يقل عنه سوءاً".

"بأي شكل؟"

"إنه يحبهن صغيرات. كان من عاقبته أن يتأوسني حينما كنت في العاشرة".

صبت رغبة تماماً في الحديث، وتكلمت بطريق تلقائية، وأحياناً بطريقة قضيه أسلوب رجال الأعمال، وليست كمن تبوح بدخيلتها أو تكشف عما بنفسها. كان كليف قد أغواها عندما كانت في الثانية عشرة. حيث كان قد عرض عليها أن يعطيها ما يكفي من النقود لكي تشري دراجة غالية إن هي جاءت إلى حجرته بعد نصف ساعة من انصرافها من المدرسة لعدة أيام. كانت ابنة غير شرعية لامرأة تعمل سائقة سيارة عامة، وكانت ترتدي ثياباً

لاح لي أن كاتيب الفندق كان يعرفها. أخذت منه الفئاح، وصعدنا إلى الطابق العلوي معاً وفي الطابق الثاني، حيث كان يجب أن نضرب، قالت: "هل أتى إليك وأتحدث معك؟" عرفت ما كانت تعنيه قلت:

"ظن أن عليك أن تنالي قسطاً من النوم. لقد قضيت ليلة متعبة".

استمتت في وجهي وقال:

"إنك لطيف، لن يهمني التعب".

وقفت على أطراف أصابعها وأحاطت عنقي بذراعيها. قبلتها وشعرت بنفضة شيق مفاجئة.

قالت: "ليلة سعيدة". ثم سارت مبتعدة في الدليل، كبحث رغبتي في متابعتها، وذهبت إلى حجرتي. وقبل أن أدخل الفراش، تناولت ستة أقراص من فيتامين "ب" وشربت مكاساً من الماء. ولكن هذا لم يؤد إلى النتيجة المرجوة، استيقظت في الصباح بفم جاف ورأس يرق

وباب كالمرح أو مولد الكهرياء

قدحان من القهوة وبعض قطع الخبز الجاف بالزبد جعلتني أشعر بمزيد من الإنسانية. جلست في الفراش، أقرأ صحيفة الصباح، وأتساءل إن كانت الرحلة إلى قلعة مالاهايت يمكن أن تساوي ما سوف يضيع فيها من وقت وجودة، ولكن الإغراء كان أقوى بأن أضع الورقة التي كتب عليها "لا تزعجني" على باب حجرتي من الخارج ثم أنام ما تبقى من ساعات الصباح. دق جرس التليفون، فكان مثل محركات دافري يغوص في تربة تركيزي الهشة. تساءلت بيني وبين نفسي وأنا أرفع السماعة إن كان التكلم هو كليف بيتس. وشعرت بإغراء يدفعني إلى وضع السماعة في مكانها دون أن أجيب. دق الجرس ثانية، فرفع السماعة. سمعت صوت رجل يقول:

"مستر سورم؟"

"إنه يتكلم".

"أنا الستير جليوني هل كتبت إلي رسالة؟"

سنة ولا تتناول ما يكفي من الطعام. كان من الواضح تماماً - رغم أنها لم تصرح بذلك، بوضوح - إن ما جلبت كليف إليها هو تفقها السائب وثباتها المزقة. كان فقدانها لعذريتها صدمة مؤلمة. وإن كليف يعاملها معاملة طيبة جداً، فلاطفها وهادئاً، وجعلها تشعر بالثقة والأمان. وذات يوم، بعد أن خلع ثيابها بجمالية ودلكتها بزيوت الزيتون، نقض عليها بكل قوته وإزال بكاريتها بضربة واحدة عنيفة. صرخت وبكت لمدة نصف ساعة. حتى خرج من المنزل واشترى لها المراحيض التي كانت تريدها منذ وقت طويل. واستمرت مواعيد لقائها معه في حجرته، وسرعان ما اشترك معهما الرجل العجوز، كانا يدفعنا لها نقوداً كثيراً، وتحدث لرجل العجوز مع أمها عن تبنيه لها. كانت الأم تعرف ما يجري بالطبع، ولكن النقود كانت أكثر من أن ترفض.

كان اعتراض كليف الوحيد هو أنها تنفق على الملابس أكثر مما ينبغي. كان جزءاً من خياله الجذاب أنها يجب أن تظل مشردة مهلهلة الثياب. وكان قد اعتاد أن يتسكع أمام محلات الثياب المستعملة لكي يشري لها ثياباً مهلهلة قذرة. وكانت هذه الثياب تصلها بالتريد، مع بطاقة صغيرة يحررها فيها أين ستقابلها، وفي أي وقت. كان عليه أن يمثل دور من يلتقط فتاة من الشارع. وكان عليها أن تتصرف كما لو كانت لم تره من قبل أبداً. وكلما كان في مقدوره، كان يأتي معه بشخص آخر، ثم يقوم بتمثيل مشهد اغتصاب العجيب التي شاهدته بنفسه. سألته إن كان أصداقاً له قد قبلوا أن يمتلكوها بناء على دعوته بينما تكون هي غائبة عن الوعي بشكل واضح. قالت:

"أوه، أجل إنك الثاني - الذي يرفض ذلك".

"فماذا يحدث حينذاك؟"

"لا شك أنك ستدشن تماماً عندما أقول لك بأنهم أحياناً كانت تبلغ بهم الاستنارة جداً كثيراً حتى أنهم يستمرون في تبادل الفرحة طوال الليل. فإذا كنت سعيدة الحظ، تنفل الرجلان أحدهما بالآخر وتركانني وشائي".

"إن فإن كليف شاذ جنسياً؟"

"أوه، إنه ككل شيء".

قلت: "يا رحمة السماء، كيف حالك؟ جميل منك أن تطلبني".

"أخبرني زوجتك بأنك تنزل في فندق شيلبورن. اسمع، ما الفرص المتاحة لقدومك إلى لندن؟"

"هذا ممكن. ما الذي تفكر فيه؟"

"هذا شيء أطول من أن شرحه في الهاتفون، ولكنني مسحور اليك تماماً بكل هذه الحكاية عن دونيلي. وأن لدي فكرة عن احتمال قدرتي على مساعدتك. هل تعرف أن قصر جلوسبي قد بيع؟"

"كلا. لم أعرف بذلك".

"أخشي أن يكون هذا هو ما حدث منذ عامين. لقد تسبأوا بخطابك. كان أخي الأكبر قد قتل في سويسرا - غرق في حادث قارب. وكتشفنا أن أوضاعنا أكثر تعقيداً مما كنا نظن - ضرائب الشركات وما إلى ذلك - مع أننا قررنا أن نبيع قصر جلوسبي استراة رجل من كندا يدعى ميللر. أعرف أن هناك ادراجاً ضخمة مينة بالأوراق. وهي ما تزال ملكي بالطبع".

"هل حاولت الاقتراب منها؟"

"أوه، أجل. هذا الرجل ميللر، شخص لطيف تماماً. لو استطعت المجيء إلى لندن لأمكننا أن نذهب معاً إلى هناك".

فكرت بسرعة ثم قلت:

"متى ستكون خالياً من العمل؟"

"أي وقت. إنني لا أعمل الآن".

"لو أنني أخذت طائرة إلى لندن اليوم، هل ستكون خالياً؟"

"أوه، أجل. بالتأكيد. سأسعد لرؤيتك".

أخذت رقم تليفونه، وقلت له أنني سأتصل به ثانية، وأنهيت المكالمه. اتصلت أولاً بانتظار عرفت أن طائرة من شركة "إير لينجوس" ستنطلق إلى لندن في الثانية عشرة وخمسة وثلاثين دقيقة، وأن علي أن أكون في المطار قبل ذلك بثلاث ساعات لكي أحصل على تذكرتي، فإكملت لهم أنني حجزت التذكرة لنفسني، ثم اتصلت بمكتب الفندق ليعلموا قائمة حسابي. اتصلت بديانا بعد ذلك ولكنني لم أجد غير موسى التي كانت في رعاية المرأة التي تأتي لتنظيف المنزل بينما خرجت ديانا لتصفيف شعرها. قلت لها أن تقول لأمها أنني سأسافر إلى لندن وأنني سأتصل بها فيما بعد. ثم اتصلت بالستير جليبي مرة أخرى، وقلت له أنني سأكون في مطار هيثرو في الواحدة وخمسة وأربعين دقيقة. كنت في عجلة من أمري، وراح رأيي يندق معنراً، ولكنني اتخذت موقفني النهائي، وصعدت إلى الطائرة قبل خمس دقائق من إقلاعها، أخذتني سكرة انعاس قليلاً خلال الرحلة، فنامت وعندما صحت ووجدت الطيار يعلن هبوطنا.

في مبنى المطار أعلن صوت في مكبر الصوت عن اسمي وعن طلبهم لي أن أذهب إلى مكتب شركة "إير لينجوس" للطيران. ذهبت إلى هناك، فوجدت في انتظارني شاباً طويلاً أشقر الشعر.

"مستر سورم؟ أنا الستير جليبي".

كان أصغر سنّاً مما توقعت - لا يكاد يكون قد أنهى عقده الثاني. كان شعره طويلاً، وكان بنمطه "البلوجينز" وسرته المصنوعة من جلد الحمار أبيض ما كنت أتوقع أن أجد عليها، وإن كان في نطاق هذا العمل. كان وسيم الطلعة إلى أقصى حد، وإن كان شعره أقصر قليلاً لاستطاع أن يجمع ثروة إذا ما كان قد عمل "موديلاً" للرجال.

قلت أنه لطيف منه أن يقابلني فقال:

"عفوا. لو أنك لم تات إلى لندن، لجئت أنا إلى إيرلندا".

سرنا نحو ميل حتى بلغنا المكان الذي ترك فيه سيارته من طراز "مبتي مايتور"، في الطريق إلى حيث يأخذني مضيق، سرد علي بالتفصيل ما كان قد أخبرني به في الهاتفون. كان أخوه غوردون قد مات في الثامنة والعشرين من عمره، بعد عام واحد من زواجه. وكانا آخر من تبقى من عائلة جليبي، وأصبح قصر جلوسبي ملكية مشتركة بين الستير

وبين زوجية شتيقة، وكان الستير ما يزال يدرس في كلية سانت أندروز. وكانت الضرائب الشروخ على التركة قليلة، وحينما تمت عملية تصفية حسابات الستير لم يكن قد بقي له إلا القليل بالإضافة إلى قصر جلوسي (زعم أن الستير كان له دخل مستقل ورثه عن جدته لأنه). كان قصر جلوسي نادراً مثل قبل أبيض، ولكنه أيضاً كان متهاكاً فقد أكد لهم الوكيل أنه لم يكن يساوي مئاة بيعة، وأن الثمن المحتمل لن يكفي لتغطية الرسوم القانونية للبيع. ومع ذلك فقد قرر هو وزوجة أخيه أن يبيعا. وفي خلال أسابيع قليلة تسلما عرضاً كبيراً إلى درجة لا تصدق من رجل أعمال كندي كان يريد "قلعة اسكتلندية" لكي يستخدمها كمقر له في إجازاته. أبرما صفقة بسرعة، وقررا الستير أن هذا هو الوقت المناسب لتحقيق أمله في تكوين فرقة للفناء "البوب" فانتقل إلى لندن. ولكن مشروع الفرقة لم يتحقق، فاصبح يعيش يهدوء في هولنديبارك ويدرس فن التصوير على أمل أن يصبح مصوراً صغيفاً.

سألته كيف أصبح مهتماً بدونيللي.

"أظن أنه من الأفضل أن أترك أنجيلاً لكي تشرح ذلك. إنها زوجة شقيقي غوردون. وهي تنظرنا في الشقة.

يجب علي أن أعترف بأنني شعرت بنوع من خيبة الأمل. كان الستير جليبي شاباً لطيفاً يبحث على البهجة بشكل واضح، غير أنه كان من الصعب أن يبدو في صورة تلاءم ويحني عن دونيللي. ولكنني ظننت أنه من الممكن أن يكون لسة باخرة في مقدمتي لكتاب "مذكرات أفان إيرلندي" إذا أنا ذكرت أن لورد جليبي الحالي معني "بوب" فاشل وأنه يلجأ في الدخول إلى عالم الصحافة. ولأخ أنه - على الأقل - مهتم بتاريخ أسرته، فقد نخص لي ما حدث لهم في القرن التاسع عشر، وكيف حدث أن تزوج اللورد اسكنلر جليبي - جده - وارتبة أمريكية في عام ١٨٠١. فاستعاد بذلك ثروة الأسرة. ولكن والده عاد بهم إلى الفقر بإقامته في لندن واتخاذ نصف "دستة" من العشقات.

وصلنا إلى شقته في حوالي الثالثة والنصف. كان عصراً باعماً ذهبياً، واجتاحني هجاء إحساس بالرخاء وسعادة الحظ وأنا ألق على رصيف الشارع في "هولنديبارك" أراقبه وهو يخلق سيارة. وكانت فتاة تقف في النافذة وتنظر إلينا، وتلوح لنا، فقال لي: "هذه هي أنجيلاً".

صلت أولاً
بـ عشرة
صل على
في لعبوا
بأية المرأة
أما أنتي
قلت له
ن امري
خمس
وجدت

هب إلى
هوليلاً

هوليلاً.
أجده
شعره

في
ون
جه
شير

كانت أنجيلاً جليبي "اسكتلندية" جداً بشكل ما، نحيفة، جميلة، حيوية، ذات شعر متموج في تجمعات صغيرة ووجه مخدوب قليللاً. كانت ترتدي ثوباً صوفياً كان أن يبلغ ركبتيها، وينتالاً من التيل.

"أتود شرب الشاي؟ أم مشروباً آخر؟"

قلت إنني أفضل الشاي في هذه الساعة، فذهبنا معاً إلى الطبخ ورحلت أنظر إلى الكتب على الرفوف وإلى الصورعلقة على الجدران. كان من الواضح أن الستير قد جاء بكل تلك الكتب من غوردون. فقد كانت هناك مجموعة جيدة من كتب سكوت وجون جالتر في طبعتها الأصلية، ولعدد كبير آخر من الكتاب الإسكتلنديين الذين لم أسمع بهم من قبل. كانت ظهور الأغلفة الخلفية للكتب تحمل اسم هوراس جليبي. ولكن التواريخ المضاحية للأسم دللتني على أن هذا لابد أن يكون هوراس الابن، منفذ وصية دونيللي.

في ركن رف الكتب رأيت كتاباً يحمل اسم "خطابات من أحد الجبال" تأليف ريفراند سميتسون. لم يكن على الصفحة الأولى اسم الناشر ولا تاريخ نشره، ولكن أحدهم كتب تاريخ "١٧٨٠" على ورقة ملصقة بالعلاف. كان هناك رسم على الصفحة الأولى - يمثل جبلاً تعلوه شجرة جرداء وظيفياً طويل القرنين. شعرت فجأة بأن فيه شيئاً مألوفاً لي بصورة غريبة. أحسست فجأة بالدوار، وجلست، وأغمضت عيني. بدا لي أن صداعني ما زال مستمراً. حينما أغمضت عيني أصبح الدوار عنيفاً كما لو أنني سقطت في دوامة، ففتحت عيني ثانية ونظرت إلى الكتاب. وحينئذ وفي وضوح كامل عرفت ما كان يحدث. كنت "قد أصبحت" أيزموند مرة أخرى. ولكنني في هذه المرة لم أكن أرى العالم بعينيته. وإنما كان الأمر كما لو كنا نقسم رأسي. فنرى الأشياء بصورة مزدوجة وبمعنيين مختلفين. ولكنني عرفت الآن لماذا كان الكتاب مألوفاً لدي. كنت قد رأيت من قبل، فأنا لذي إحساساً بالتفوق. كان شيء متفر غير ساز مرتبطاً به.

نظرت في الكتاب، وإلى ما وراءه شاعراً بصعوبة متفاجئة. فتح الباب، ودخل منه هوراس جليبي حاملاً صينية. نظر إلي وقال:

"أنت بخير؟"

اختفت الرؤية المزدوجة، ولعزفت إلى التكلم وكان الستير جليبي. قلت:

"أجل. إنني أعاني من صداع خفيف. هذا كل شيء".

نظر إلى الكتاب على حجري:

"أوه، أعترف ذلك الكتاب؟"

"كلا".

دخلت أنجيلاً، فقال:

"ليس هذا مذهشاً يا أنجي؟ لقد عثر على كتاب "خطابات من أحد الجبال" ألا ذهبت هذا شيئاً ما؟"

كانا قد أعيدنا بعض الشطائر، فتبينت أنني كنت جائعاً. وبينما كنت أتناول الشطائر واحدة بعد الأخرى، اختفت آخر آثار الدمار. كنت قد أصبحت "نفسى" تماماً هذه المرة. واكتمل العلاج بثلاثة أقلام من الشاي الساخن. وفي أثناء الأكل سألتني عن السبب الحقيقي وراء اهتمامهم بأيزموند دونيلي. فبعد موت زوجها، قررت أنجيلا أن تكمل دراستها الجامعية التي كانت قد هجرتها لتتزوج، فدرجت اسمها في جامعة أدنبرة، وكان أستاذها هو البروفيسور ديفيد سميثلي، وكانت ترجمة جيس هوج، وحينما اكتشف سميثلي أن أنجيلا هي لادي جيليني، سر وثارت حميته العلمية. كان يكتب تاريخاً عن مجلة "آدنبرة وريفيو" وكان جيليني واحداً من كتابها الأصليين، ولكنه كان قد أبعدها عنها على يد الدكتور جيلبرت ستيوارت، وهو رجل كانت سمته الميزة الأساسية هي الحقد والضعف، كانت حدة اللهجة سبباً في أن حققت مجلة "الريفيو" نجاحاً هورياً منذ صدور عددها الأول في شهر يونيو عام ١٧٧٢، وكان جيليني قد كتب في العدد مقالاً نقدياً ممتازاً عن لورد موميلونو، كما كتب عرضاً فيه شيء من الخشونة لكتاب في التاريخ من تأليف الدكتور هنري، وهو واحد من أكثر الكتاب الإسكتلنديين نجاحاً في ذلك الوقت. وأخيراً، وبشكل واضح، بدأ جيليني يشعر - مثل عدد كبير آخر من الناس، بأن كل هذه الرارة والسخرية لم تكن لتبلغ أي هدف، فكتب إلى ستيوارت خطاباً طويلاً - في أكتوبر ١٧٧٢ - موضحاً إحساسه بأن على مجلة "ريفيو" أن تهدف إلى أن تكون أكثر قوة وبناءً، وأنه لا شك في أن كلا من هنري، وروبرتسون وبلير يتمتعون بقيمة حقيقية، مثلهم في ذلك مثل عدد كبير آخر من الكتاب الذين حقر من شأنهم على صفحاتها. وكتب ستيوارت رداً ودياً ومعقولاً، ولكن يبدو

أنه شك في ذلك الوقت من أن جيليني قد وقع تحت تأثير هنري أو بلير، فكتب خطاباً ثانياً وصف فيه جيليني بأنه "مكتب حراسة كهلوتي" (أو كان هنري (كاهناً) مسيحياً).

ويمكن أن يعثر القارئ على ملخص لهذه القصة من كتاب إيراك ديزراني "خصومات المؤلفين ومعاركهم"، وفي شهر نوفمبر، نشرت مجلة "سكوتس مغازين" وهي مجلة مناقسة، دفاعاً قوياً وذكياً عن هنري وروبرتسون، اختتم الهجوم ماهر معيت صد ستيوارت، ويشتطف ديزراني هذا الدفاع كله. وعلى صفحات مجلة "ريفيو" أكد ستيوارت أن كتاب الهجوم - الذي وقع بحروف "أم د" - كان هوراس جيليني، وأجاب جيليني بمخاطب على الفور، يقول فيه لستيوارت أنه بينما يوافق على كل ما جاء في الهجوم، فإن كتابه الحقيقي كان صديق أيزموند دونيلي. وكانت نتيجة هذا الخطاب نقداً عنيفاً لكتاب دونيلي "ملاحظات عابر في فرنسا وسويسرا" في عدد فبراير من مجلة ستيوارت، ويقول ديزراني أن جيليني أراد أن يتحدى ستيوارت بما يمتلكه من أدوات، ولكن دونيلي منعه من ذلك ونبط من عزيمته.

استمرت المعركة، حتى بعد أن انهارت مجلة ستيوارت، ذهب ستيوارت إلى لندن، وسأهم بانتظام في الكتابة لمجلة "جنتلمان مغازين". وفي هذه المجلة، وفي يونيو عام ١٧٨١ تحليلاً، حدث أن ظهر عرض قصير وإن كان فيه شيء من سوء النية للفصوص لكتاب "خطابات من أحد الجبال" وصف فيه الكتاب بأنه: "أخرة عقل مختل بسبب الشهوات للرئاسة والحماس الهوائي، وفي العدد التالي من المجلة، أعلن أن مؤلف كتاب "خطابات من أجل الجبال" كان في الحقيقة هوراس جيليني.

مات ستيوارت بعد ذلك بخمسة سنوات، في سن الرابعة والأربعين، مليئاً بالرارة، يemor صدره بالكر لفة، مقتنعاً بأن أعداءه قد قاموا لكي يحطموه.

كانت هذه هي القصة التي سردها علي أنجيلا جيليني. وكان من الممكن أن تثيرني أكثر مما فعلت بالفعل. لو أنني كنت أقل تعصباً في كل مرة ذكرت فيها اسم هوراس جيليني، كنت أنظر إلى استير جيليني، والتعجب أن كان حقاً يشبه جده كل هذا الشبه الذي خيل إلي. فإذا تحققت من ذلك، لحصلت على برهان يثبت أنني كنت على اتصال نفسي (أو روحي) بأيزموند. وحينما انتهت من كتابتها، سألت إن كان هناك صورة لهوراس جيليني في جلوسني.

"أوف، أجبل".

"كيف يبدو؟"

نظر أحدهما إلى الآخر وضحكا قالت أنجيلا:

"إنه يشبه الستير إلى حد مذهل. وهذا هو السبب الذي يجعله مهتما به إلى هذه

الدرجة؟"

وبذلك لم يكن هناك أي احتمال للشك. وبدلاً من أن أحس بالاستنارة لهذا الكشف، شعرت بالانقباض.

التفعلت كتاب "خطابات من أحد الجبال" وقلت:

"ما موضوع هذا الكتاب؟"

"أود، إنه عمل معقد متشابك. يظن دكتور سميثي أنه متأثر بكتاب "لواظن العالي" الذي كتبه غولد سميث. إنه في الحقيقة قريب الشبه بالروايات القوطية - أقرب نسخاً برواية "قلعة لوترانتو" التي كتبها والبول. إنه كتاب مذهل حقاً بالنسبة لعصره - حينما تضع في الاعتبار أن مسر رادكليف وماتيورين لم يكونا قد شرعا في الكتابة بعد".

"إمكانك أن تسردني علي ملخصاً لقصة الكتاب؟"

"القصة تدور حول صديقين اسم الأول كونيارد والآخر رودلفو. إنهما يشبهان داود وجوناثان في الكتاب المقدس. حينما يقعان في حب نفس الفتاة، يحاول كل منهما إقناعها بأن تقبل الآخر. ينهبان إلى الجامعة معاً ويقسمان علي الصداقة الأبدية وأخوة الدم - أنت تعرف مثل هذه الشعائر - وذات يوم، بينما كان رودلفو واقفاً في إحدى المكتبات، يقرب منه مراكشي غامض يدعى عبدالله صباح، يعرض عليه أن يقرأ له طالعها. يقول له أن من القدر له أن يكون واحداً من حكام العالم، ثم يدعو للمجيء إلى بيته. ويذهب رودلفو - رغم تحذيرات كونيارد - فيقع في حب فتاة تدعى نوري - من المفترض أنها ابنة عبدالله صباح..."

عند هذا، فاضلها الستير قائلاً: "من المؤكد أنه لا يريد أن يسمع كل كلمة جاءت في هذا الكتاب".

أكملت أنه أنني أريد هذا. استمرت أنجيلا في سردها بشرط المراكشي رودلفو في احتفالات طقوس سحرية تتضمن فكرة من البلوز. يقفان في أثنائها فوق قمة برج مرتفع تحت ضوء القمر المكتمل وينظر رودلفو إلى الكرة البلورية. يرى فيها شعباً ضخماً ينظر إليه بعينية الصفراء ومن ثم يبدو أنه ينقض عليه. وتنفذ نوري رودلفو من السقوط من فوق النرج، ومن ثم تصبح عشيقته وتغده بأنها ستزوجه إذا وافقت أسرته على ذلك. وتعرف له بأن عبدالله ليس والدها، وأن القملية شكلها مؤامرة تهدف منها ضم رودلفو إلى جمعية سرية فرعية تخطط لتدمير أوروبا

وفي اليوم التالي يكتشف أن نوري و"باباها" قد رحلا. يمتلكه اليأس ويبعث عنهما في كل مكان. وذات يوم، وفي كنيسة قديمة يرى تمثالاً للنعيان ضخم مصبوب من البرونز هشاريه بعدة قليل من الكرويات. ثم يكتب كتاباً في أمب الرحلات، يصف فيه الأماكن التي زارها في أثناء بحثه عن نوري، ويصطب على الغلاف صورة النعيان. وبعد بضعة أسابيع يتلقى رودلفو مظهرها مغلفاً يحتوي علي رسم للنعيان. وأمر بأن يحرق كل نسخ كتابه. وينفذ رودلفو الأمر بأن يشعل النار في مخزن يشاره في لندن. ويموت عنه من الناس في الحريق، الذي انتشر حتى اشتعل في المنازل المجاورة. وحينما يتم ذلك، يتصل به المراكشي مرة أخرى، فيصبح في مقدوره أن يرى حبيبته وسيدة أحلامه. وبذلك يصبح عضواً كاملاً في الجمعية الشريرة العروقة باسم "أمر النعيان". ويشعر أعضاء الجمعية بأن لنوري تأثيراً سيئاً أو بالأحرى طيباً - عليه، فيأمرونها بالابتعاد عنه ولكنها ترفض فيقتلونها. ولا مكان رودلفو قد أصبح خاضعاً تماماً لأوامر النعيان فإنه يقبل بدلاً منها عشيقه جليلة تدعى فاتيما، وهي الأخرى ساحرة...

قد يكون من الممل أن تلخص بقية القصة المضطربة والبلوودية، ولا يمكن أن يكون ثمة شك في أنها تدوين بالكثير لرواية "قلعة لوترانتو" وأنها بدورها قد أثرت في كتابات مسر رادكليف وماتيورين. إن رودلفو يقع فريسة الإغراء بالقيام بأعمال أكثر شراً باستمرار، على الرغم من محاولات كونيارد إنقاذ حياته. وأخيراً يؤمر بأن يقتل كونيارد، ولكن هذا كان أكثر مما يحتمل. إن الرابطة التي تربطهما والتي تشبه علاقة داود بجوناثان قوية إلى درجة كبيرة رغم تعاقب السنين. وفي اللحظة الأخيرة يرمي رودلفو بالخنجر ويتعاقق هو وكونيارد. ويمتلك اليأس رودلفو بسبب أعماله الشريرة، فيقرر أن الذهاب إلى جبل آشوس

تكني بطلها الغفيرة. وفي الرحلة الأخيرة من رحلتها، يستيقظ رودلفو في الليل على صوت نوري الميتة، فيمشي في أثر الصوت الذي سمعه، ولكنه يسقط من فوق قمة الصخرة. وحينما يحتر على جنته. يكون الوجه قد تشوه تشوهات فظيعة حتى ان رهبان جبل أتوس رفضوا دفنه في ارضهم المقدسة، معلنين انه من الواضح ان هذه جثة شيطان. ويقوم سكوتوراد بنفسه بدفنه في وسط منطقة جرداء، ثم يذهب إلى جبل أتوس، حيث يكتب قصته على شكل خطابات إلى القسيس الكاهن الذي يتلقى اعترافاته.

بينما كانت انجيلا جليبي تلخص حبكة الرواية، اختفى ما كنت اشعر به من التعب. عرفت في تلك اللحظة ان بحلي عن دونيللي قد دخل مرحلة جديدة. ان اكثر اجزاء امر المضبوط للتناوبة أهمية قد كتبت عن مكانه الصحيح. كنت اعرف ان ايزموند كان قد تلقى - في الحقيقة - رسم العنقاء بعد طبع كتابه "ملاحظات" عام ١٧٧١ بوقت قصير، وكنت اعرف ان الطبعة كلها كانت قد دمرت في حريق أتى على مخزن الناشر في لندن. والان كان من المستحيل ان أتك في ان ايزموند قد تلقى رسالة اتصال من جانب جماعة العنقاء في عام ١٧٧١. إلا انه في ذات الوقت، لا يمكن النظر إلى بقية القصة بجدية. فان ايزموند لم يشترك في أية خطط شريرة بعد ذلك التاريخ. وظل هو وجليبي على صلة ودية وثيقة بعد تلك طوال سنوات، والمقالة المنشورة في مجلة "سكوتس مكايزين" في عام ١٧٧٢، قد كشفت عن انه كان ما يزال هارثاً مخلصاً لكتب الصلوات. ولم يحدث ان كتب جليبي رواية "خطابات من أحد الجبال" إلا بعد ذلك بعشر سنوات.

إنني مدين بهذا المفتاح الرئيسي لكل من الستور وانجيلا جليبي. ولذلك، فقد كان من الواضح أنني أدین لهما بحكاية القصة الكاملة لبحوثي الخاصة. وهكذا، فعندما سألتني انجيلا: "والآن، ما الذي اكتشفته عن ايزموند دونيللي؟" افترحت ان تشرب كأساً من الويسكي، ثم سردت عليهما القصة الكاملة، بالصورة التي كتبتها بها هنا. استغرقت عملية السرد ثلاث ساعات، وانتهت منها في مطعم في نوئينج هيل ونحن نتناول طعام العشاء. كنت احمل معي مذكرات ايزموند، بالإضافة إلى خطابات جليبي. كنت سعيداً بهما لأنه كانت هناك أوقات لاح لي الأمر كله سحيفاً لدرجة انه كان من بواعث الراحة ان افزع نفسي بأنه لم يكن حليماً متشاكب الأطراف انتابني وأنا غارق في النوم. اصغت انجيلا دون ان تنس ببيت شمة، ولم تصرف عينيها عن وجهي طول الوقت. وظل الستور يردد: "يا إلهي" وهو يتمشى في

الغرفة حينة وذهاباً. وبينما كنا نسير متجهين إلى الطعام، قال: "هل تعرف ان هذا هو الستور اكتشف أدبي منذ اكتشاف أوراق المعر ثبت؟". وكان فكاهياً فقد شرعت أنا وانجيلا على الفور في الضحك.

ولكنهما لم يشارا حقاً إلا حينما أخبرتهما بأن ايزموند كان قد اعيد إليه هوراس جليبي منفذاً لوصيته الأدبية ومتصرفاً في تراثه الأدبي. كانا ياملان في العثور على بعض ما تركه جليبي من مواد في جلوسي، فاصبح من الممكن الآن ان يعثر أيضاً على بعض من أوراق ايزموند هناك. وأشارت انجيلا إلى انه من الممكن ان يعثر الستور منفذاً لوصية ايزموند الأدبية ومتصرفاً في تراثه الأدبي طالما انه حفيد مباشر لهوراس جليبي الابن. ولم يكن هناك من بقي على قيد الحياة من أسرة استون. وهذا يعني انه إذا نشر المزيد من أوراق ايزموند فان الستور وانجيلا يمكن ان يشتركا في الأرباح. وكنت قد حصلت بالفعل على أكثر مما يكفي لطبعتي الخاصة من كتاب "مذكرات أفاق إيرلندي".

جلسنا حتى الثانية من صباح اليوم التالي نتبادل الحديث عن ايزموند وهوراس جليبي. وكان ندمهما الرئيسي بالطبع صادراً من ان أحداً منهما لم يهتم بحياة جليبي قبل بيع قصر جلوسي. وتذكرت انجيلا ان زوجها كان قد اطلقها على حجرة في قصر جلوسي حيث وقعت في الناضي جريمة قتل - إذ عشر على رجل ميتاً في ظروف غامضة. وظن الستور انه يتذكر شيئاً من هذا النوع هو الآخر. ولكنها حين وصفت الحجرة، لم تكن هي التي تذكرها الستور باعتبارها "حجرة القتل".

نمت ليلتي على أريكة في حجرة الجلوس، وكانت انجيلا تحنل السرير الموجود في حجرة الضيوف. وكان الستور يريد ان يرحل إلى اسكتلندا في صباح اليوم التالي، ولكن انجيلا قالت انه ما يزال عليها ان تقوم ببعض البحوث في مكتبة المتحف. وقررت أنا انه من المناسب لي ان اذهب معها. قضيت الصباح هناك، وعثرت على نسخة من نشرة "مارتل وسميثسون" التي كتبها عن جماعة العنقاء. شعر تيم موريسون بالحرج حينما اشرت له إليها، وقال انه لم يلفت إليها في بحثه لأن عناونها كان "جماعة العنقاء". ولكن أقارن بينها وبين النسخة التي رأيتها معه من قبل، طابعت منه ان يصورها لي لكي احمل الصورة معي.

تناولت أنا وانجيلا طعام الغداء في مطعم يوناني بالقرب من سرك كامبريدج. قلت لها فجأة انه كان غصفاً من جانبهم ان يثقوا بي بكل هذه الثقة، فنحن على أي حال

منذ انسون من الناحية التكنيكية. فقد كان من المحتمل أن يقوموا - عاجلاً أو آجلاً -
بأكبر احتمالاً أن يكون ذلك عاجلاً - بالبحث عن أوراق حليبي في عصر جلوسبي، وأن
الاكتشاف في تلك الحالة - إذا افترضنا أنهما حققا أي نوع من الاكتشافات - كان سيفرأ
اليهما بشكل كامل. قالت:

- "كلا، إني سعيدة بانضمامك إلينا. إننا نثق بك".

قلت لها شكراً لك، قالت:

- "في الحقيقة، إني متهيجة لمجيتك. أعرف أن الستير كان بعيد أخاه غوردون. وكان
الستير هو الذي ألتعني بالزواج من غوردون في الحقيقة. كان مصراً على التحدث عن
فضائله والإسراف في إبرازها لكي يقنعني بأن التقى به.

وينبغي أن تعرف إني كنت صديقة الستير في البداية".

- "لم يجرحه زواجك من غوردون؟"

- "أوه، كلا. لقد ابتهج بذلك. انظروا ذلك؟ هذا الزواج قريبه من غوردون أكثر - كان
معنى هذا أنه قد منح لغوردون شيئاً ذا أهمية حقيقية. على أي حال، إنما أردت أن أقول لك
في البداية إني أظن أنه مال إلى أن ينظر إليك بنفس الطريقة التي كان ينظر بها إلى
غوردون".

- "ولكنه لم يعرفني إلا منذ أربع وعشرين ساعة".

- "لا يؤدي هذا إلى أي فرق. والشئ الغريب هو أنك على شيء من التشابه مع غوردون،
من الناحية الجسدية".

توقفت عن الكلام، وظننت أن وجهها علاه شيء من الاحمرار. شربت جرعة كبيرة
من الحبة الممتدة لكي تغطي احمرار وجهها. أدركت ما كانت تفكر فيه، وهو أنه إذا كان
الستير قد أهدأها إلى غوردون، فإنني يجب أن أعتبر صاحب المكان التالي من بعده. عرنا
الوضع ونحدثنا عن دوليلي. وعين ذلك تذكرت شيئاً كنت قد نسيت ذكره من قبل،

الخطاب الذي جاءني من كلاوس ديكمان. كنت أحمل عنوانه ورقم تليفونه في كراسة
العناوين التي أحملها. قالت:

- "إذا لا تتصل به؟ قد يكون على شيء من الأهمية؟"

- "أعتقد أنه يجب على ذلك".

ذهبت إلى تليفون المعلم. أجابني امرأة ذات لكمة أجنبية، وأح على صوتها شيء من
العداء حتى ذكرت لها اسمي، فأصبحت ودية للغاية، وقدمت نفسها باسم أنثيلاً ديكمان
وشرعت تتحدث بإسهاب عن كثير. وأخيراً جاء زوجها لكي يكلمني بالتليفون؟ سألتني إن
كان بوسعي أن أزورهما وأتناول معهما طعام الغداء. قلت إني سأتي إليهما في اليوم، فاتفقنا على موعد في
ولكنني سألت إن كان بوسعي أن أذهب في وقت متأخر من عصر اليوم، فاتفقنا على موعد في
الساعة الرابعة.

لم أكن سعيداً سعادة كاملة بهذا التطور، وبدأ لي أنه لن يؤدي إلا إلى طريق مسنود.
ولكن أجبلاً قالت: "جيد جداً، إنه يبدو على شيء من الأهمية. ليرجيك أن تني معك؟"

أمضيت ساعة أخرى في المتحف، ولما كان عصر اليوم دافئاً ومشمساً فقد قررنا أن
نتمشى حتى هامبستيد. سرنا عبر حدائق بلو مزيري على طول كامدن تاون، ثم أخذنا
سيارة عامة إلى بلزي بارك. كان عنوان أسرة ديكمان في كيتس حروف.

فتح الباب فظهر وراءه رجل طويل نحيل يرتدي نظارة سمكة جداً جعلت عينيه
يبدون بعينين وغريبتين، مثل الخطبوط ينظر من وراء حوض زجاجي كبير. بدت عليه
دهشة ضئيلة حيناً رأى أجبلاً، دعانا للدخول بطريقة مهذبة. تبعناه عبر ممر طويل حتى
قاعة عمل (أستديو) تسطع بنور الشمس. كانت الأرضية مغطاة بزاب الأحجار المنحوتة.
وكانت هناك تماثيل هائلة الحجم لنساء أمازونيات ذوات أهداء وأرداف هائلة. تقدمت إلينا
لتحييتنا امرأة ضخمة الحجم رمانية الشعر بعد أن وضعت على المائدة مظهرها وأزميلها.
سألتني بحماسة بقبضة مثل قبضة مصارع. وتوسلت في لا ميلاداً ميكانيكية إلى أجبلاً
كانت قبل ملولاً من زوجها، إلا أنها كانت تملك نبضة مصارع حقيقي، وبدأ أن دراعها
الكشوفتين تحت الكمين الشعرين إلى ما فوق لرفقتين - قادرتان على الإصاحبة بأي واحد منا

بضربة واحدة. وكانت لكنتها الألفية أوضح من كنة روحها، ولكنني لن أحاول إبرازها هنا. ولن أحاول إبراز تكوينات جملها القريبة. وضعت يداً على كتفي وقالت:

- "حسناً، لقد كنت أنتظر نافذة الصبح تماماً. فعند أن فرات كتابك "اليوميات لجلسية" أردت أن أقبلك. هل لك أن تأتي معي قليلاً إلى حجرتي الصغيرة الخاصة؟ ثم انتقلت إلى النجيلة وبتسمت وقالت: أسمحين أريد أن أتحدث إليه على انفراد، ككلاروس سيفر جاك على الحقيقة".

كانت ذهنية النجيلة أقوى من أن تسمح لها بالاعتراض. أما السيدة دنكمان فقد جلبت دراعي بقبضة من حليد، ودفعني لصعود بضع درجات. التفت عينايت بعيني النجيلة للحظة، فرفعت حاجبها وغضت على شمتها السفلى.

فأنتني أنا - اسمها الأول الذي أصرت علي أن أدعوها به على الفور - إلى غرفة صغيرة مريحة كانت تفوح منها رائحة التبغ. في الخزنة الحديدية المفتوحة، وكانت هناك ثلاث رجايات سعة ككل منها "غالون" تحتوي بالنفالي على مشروبات الجن والويسكي والبرندي. فرضت علي أن أأخذ ككاساً، ولكنني قلت أن الوقت مبكر جداً على الشرب، صبت لنفسها ككاساً ضخمة من الجن، ثم ملأته حتى الحافة عصير الليمون الحامض، ثم أشعلت سيجارة وضعتها في "ميسم" للتدخين لا يقبل ضوله عن قدم، وأتقت نفسها على مقعد مريح ذو مسندين وقد صالبت ساقها، وفي نفس الوقت، شعرت بالقلق وعدم الراحة لقدرتي على رؤيتها تفعل الكثير من الأشياء، ورؤية جزء كبير من جسدها في مثل هذه اللحظة الخاطفة والنظرة القصيرة، ذلك أن الأزوار القصير المصنوع من صوف الثويد لم يكن يبالغ الطرف العلوي لجوربها الطويل إلا بحسوبة وهي واقفة. أشارت إلي للجلوس على المقعد المقابل لها الذي لم يترك لي فرصة سوى النظر إليها وتأملها.

٣- أجل، إنك تتمتع بقدرية على النفاذ أكثر جيداً مما يسمح به لثاب صغير. كم عمرك؟ حقاً؟ إنك تبدو أصغر بكثير. حينما فرات كتابك قلت لكلاوس: "أه، لقد ما أسف لأنه لا يعيش في لندن. هناك الكثير الذي تستطيع أن تعلمه أباه". وهالنت الآن هنا لمدة يوم واحد يا له من أمر شنيع! ماذا يمكنك أن تفعله في يوم واحد؟

قالت لي أن كل كتبي تلهد بانني أمثلت قنراً كبيراً من الذكاء، والعهدس العظيم، ولكن التجربة هي ما ينقصني "يجب ألا تشعر بالغضب إذا قلت لك أنك غير ناضج في جوانب كثيرة". قلت إنني لست غاضباً، حينئذ، ودون أن تكلف نفسها مشقة تفسير تحول مجري الحديث، بدأت تتحدث عن مؤهلاتها الخاصة التي تسمح لها بتعليم الشباب. وكان المفروض أن أصبح مدرسة مثل أمي. ولكنني لا أمثلت صراً مع الأعداد الكبيرة من الطلبة. إن ما أريد فيه هو اثنان أو ثلاثة من التلاميذ النجباء. إنني خلاقة مبدعة، التفهيم لأبد لبيدي من تشكيل الحجر والطين، ولابد لعقلي من تشكيل الأرواح".

نظرت في عيني بطريقة غافدة وقالت: "والآن أريد أن أسالك سؤالاً صريحاً. حينما تمارس الجنس مع امرأة ما، هل تستطيع أن تسيطر على ذروة نشوتك فلا تيلفها إلا بعد أن تعطىها كل ما تحتاج إليه من متعة؟"

فكرت في ديانا، ثم قلت إنني أظن أنني أفعل هذا.

- "كلا، كلا. ليس هذا ما أردت سماعه. إنما أردت إجابة مخلصة صريحة. يجب أن تفكر في اعتباري طبيببة - كما لو كنت طبيبتك النفسية..."

أخلفت جرعة طويلة من الجن، ومدت يدي لتأخذ سيجارة جديدة، وفكت تصالب ساقها. كان من الصعب أن أحتفظ بعيني مركّزتين على وجهها. صرفت نظرها عني لحظة، ثم رمقتني بنظرة سريعة، وكان من الواضح أنها تأمل أن "تضبطني" وأنا ألتفحص جسدها، ثم ألفت برأسها إلى الوراء فاستندته على وسادة للفقد، وأصبح وجهها مصوباً إلى السقف. وأغمضت عينيها، تساءلت إن كان في هذا الوضع نوع من الاختبار. كانت ترتدي سروالاً داخلياً ربما كان مصنوعاً من السيلوفان القرميز، وكانت تواجهني بقدميها اللتين رافعهما على وسادة جلدية عن الأرض، وقد افترج ما بين ركبتيها... كانت مؤخرتها وساقها جميلة. لكن الذراعين القويتين والكتفين العريضتين والشعر الرمادي، جعلتها تبدو كما لو كانت وحشاً أسطورياً، نصفه الأعلى من جنس يختلف عن نصفه السفلي. نظرت عامداً إلى ناحية اللقاة الخالية، وركزت نظري هناك. كانت تقول:

٢- أحسن أنك شخص بالغ الخجل يحاول أن يخفي تلك الحقيقة. في هذا أنت تشبه كلاوس إلى حد ما. إن كلاوس هو ابني بالطبع.

"مينك؟" صدمتني الدهشة تسماعي ذلك.

"ليس حرقياً، أعني أن علاقتنا هي علاقة أم بابنها، إنني أطرف الخلاق في العلاقة. الأرض الأم، مثل "أردا" عند هكسندر. علاقتنا قوية جداً، إنني مدرسته، لو أنك سألته لقال لك إنه قد أصبح شخصاً مختلفاً منذ أن عرفني، أكثر عمقاً وأكثر حساسية. إنني أملك تلك القدرة على نقل مواهبني إلى أولئك الذين أحبههم، وحينما أقول "الحب" أعني بالتطبيع حب المدرسة للتلميذ، لأنه ليس هناك ما هو أعمق من هذا الحب.."

صقلت بقي عليها نظرة سريعة من حين إلى آخر، لكي أكتشف أنها قد غرقت في مقدمتها أكثر، حتى أنها كانت تجلس في وضع الجماع على الظهر، ولكنها ظلت تتحدث دون علامة تدل على العرج، كما لو كانت تقف في مواجهة صف من التلاميذ تناقل رسماً تومسيهياً على اللوحة. لاح لي أن ما كانت تسأل عنه - بطريقة معقدة وملتبسة - هو ما إذا كانت أود أن أنضم إلى سكلاروس كواحد من تلاميذها، لكي أمتص برصاتها معرفتها وموهبتها الخلقة. كانت تشرح لي الفرق بين ذهن الأنثى وذهن الذكر، وذكائهما، حينما سمعنا طرفة رقيقة على الباب تجاهلتهما واستمرت في الكلام، توقعت منها أن تضم ساقها، أو أن تمسك قليلاً في جلستها على الأقل، ولكنها ظلت في وضعها دون حركة على الإطلاق. أصل سكلاروس من الباب لينظر إلى الداخل.

"هل ستأتين إلى الطابق الأسفل يا شارز؟"

"بعد لحظة".

كان منظر ساقها النمر جثث من المكان الذي نظر هو منه أقل قريباً إلى عيني - فقد كان يوسعي أن أحنى إلى الأمام فأس إسبياً - ولكنه كان يستطيع أن يستوعب هذا النظر كاملاً. لم تلح عليه الدهشة، قال:

"ربما أرايت السيدة الشابة أن تتناول كاساً هي الأخرى. وهذه الحجرة صغيرة جداً. حينئذ سمعت خطوات "السيدة الشابة" وهي تصعد الدرجات، كان علي أن أعجب بتوقيتها المناسب. للحظة، ظننت أنها كان تعني أن تظل ساكنة في وضعها لكي تسمح لأنجيلا بالانضمام إلى التفرجين، ولكن قبل وصول خطواتها إلى الباب يتوان قليلاً، تهايت، وضمت ساقها واعتدلت جالسة وقالت:

"إن، هلنذهب".

واتجهت إلى الباب، وتناولت سكلاروس ضربة مداعبة ولكنها فاسية على مؤخرته. وأشارت إلي وهبطنا إلى الطابق الأسفل في "ملايور" واحد. حينما وقعت عيناها على أنجيلا قضيت تقصيبة خفيفة، كما لو كانت تجد صعوبة في تذكر من تكون. ثم لاح عليها تعبير من استطاع أخيراً أن يتذكر وهو يقول لنفسه التعجب:

ذهبنا إلى حجرة أكبر وأوسع. أثارها أكثر طبيعية، قبلت كاساً صغيرة من الشراب. وحككتك فعلت أنجيلا. ولدهشتي، أصبحت السيدة ذلكمان الآن وديعة جداً مع أنجيلا. وربما كان ذلك لأن أنجيلا قالت إنها لم تقابلني إلا بالأمس فقط. سألتها كم من مكثني فرائد. وحينما اكتشفت أن الإجابة كانت إلا أصاد أكون فرائد له شيئاً على الإطلاق. أشارت إليها بسنابقتها اليمنى وقالت: "عليك أن تبدأي فرائدتها على الفور". وبذلك كانت أنجيلا قد تغيت القيول في الفطيم بوصفها تلميذة، وسمعت محاضرة عن الفرة على الإبداع والخلق. جلس سكلاروس في أحد الأركان، وهو يرشف ماء الصودا ("ليس من السموح له أن يشرب فالشراب يجعله مسرف العاطفية") ودون أن يبدل أية محاولة للتدخل في الحديث. وحينما توقفت أنا عن الكلام لكي تأخذ كاساً آخر، طلبت منه أن يقص علي شيئاً عن سكلورلر. قال بسرعة:

"إنني لا نصحك بأن تهتم به أو تنزعج بشأته. إنه "شارلتان" مهرج حتى "المنحاح".

قالت زوجته: "ليس هذا القول عادلاً تماماً. إنني أوافق على أنه قد أصبح مهرجاً ولكنه لم يكن كذلك دوماً". ثم وجهت كلامها إلي: "هل تعرف شيئاً عن رايخ؟"

"ليس الكثير".

"كان علاماً سيكولوجياً عظيماً - في مثل عظمة فرويد. وقد آمن بأن الطريق الوحيد الفردي إلى خلق مجتمع صحي هو الحصول على إناس لا يعانون من أي شكل جنسي".

"هذا يماثل ما جاء به فرويد".

"بالتأكيد، إن الكاري الأساسية تشبه تلك التي جاء بها فرويد إلى حد كبير، وخاصة مساهمته العلمية العظيمة في مجال معالجة الأمراض العصبية، لقد آمن بأن أنواع الكبت تشكل نوعاً من الصلابة أو الحرارة الصلبة فوق الشخصية، مثل السلخانة، أتعرفها؟"
لوت وجهها النوازة شبيحة ورسمت بيديها حركة تشير إلى الطرح التي تحملها السلخانة أشارت إلى زوجها وقالت:

"حينما التقيت به أول مرة كان وجهه يشبه القناع - كانت شكل عضلاته متوترة مشدودة. كان من الضروري أن أعلمه كيف يسترخي استرخاءً كاملاً وأن يحب أعضائه التناسلية"

جذبت أنجيلا لسماعها التعبير الغريب، سألتها بجنون:

"ياي شكل؟"

"ياي شكل؟"

"إن يكون صريحاً وواضحاً في كل ما يتعلق بوظائفه الجنسية، كان من عادتنا في ستوكهولم أن نعقد اجتماعات للعلاج النفسي الجماعي. كان علينا أن نجلس دون أي بقطاعات أو ثياب، وندير مناقشة فيما بيننا، نشرب القهوة، ويشجع الرجال على أن يلعبوا بأعضائهم التناسلية. تماماً مثل الأطفال. كان هذا رائعاً."

قال كلاوس بوفار:

"لعبت أن تأتي فتجلس إلى جوارتي، ثم تجلب لي عميرة بينما نحن نناقش مشاكلنا. كان في هذا تخفيف عظيم لكل التوترات. أن تعلم ألا أحجل من اللعب بالأعضاء التناسلية، حينما كنت صغيراً، كان من عادة مربيتي أن تضربني إذا لست عضوي. وقد علمني رايخ أن العضو التناسلي ليس سوى أداة للتواصل الاجتماعي، تماماً مثل اللسان أو اليد."

نقد صرخا لكل هذه المقاطعة، فضربت ذراع المقعدة بقبضتها وقالت:

"لو فهم الناس نظريات رايخ فهماً صحيحاً، لكنت الحرب الأخيرة مستحيلة لقد استخدم هتلر الكبت الجنسي كسلاح سياسي إن الألمان هم أكثر الأمم كبتاً في العالم وهذا هو السبب في عدوانيتهم الشديدة."

سألتها: "وماذا من أمر كورنر؟ إلى أين وصل؟"

"إنه هو الذي نظم جماعات العلاج النفسي في ستوكهولم. إنه هو مبتكر فكرة الكبت الجنسي الجماعي وليس رايخ. كان رايخ ما يزال تلميذ نجيباً صغيراً. أنت تعرف هذا النوع وفي ذلك الوقت كان ما يزال مصراً على تلك الأفكار المجنونة حول الطاقة الأصلية العضوية، قائلاً أنها زرقاء اللون. وقال أن الطاقة العضوية الأصلية هي التي تجعل النساء زرقاء."

قال كلاوس بكابة:

"في هذا الوقت، أمنا بأن كورنر وحده هو الذي يحفظ التعاليم الحقة في نظائنا الأصلي. ولذلك فإنه حينما جاء إلى لندن، جئنا معه."

"وهل مضيت في عقد اجتماعاتكم للتعبير الجنسي الذاتي؟"

"أجل. أكثر من ذي قبل. وكانت هذه هي المشكلة. كان رايخ قد حذرنا من أننا إذا لم ننسبه بما فيه الكفاية، فإن هذه الاجتماعات لن تظل ذات قيمة علاجية، فنتحول إلى احتفالات جنسية صاخبة. ولكن كورنر لم يلق أنشأ صاغية لهذا التحذير. كانت تسيطر عليه فكرة معينة مؤداها أن يظهر الدافع الجنسي كان هذا هو تعبيرة عن فكرته. قال أن الجنس يجب أن يتخلص من كل خجل وعلى أي حال، فإن أكثر الحساسين من الناس مصابون بالخجل الاجتماعي. فإذا كان عليهم أن يقفوا على منصة مرتفعة وأن يخطبوا في جمهور محشد، يصابون بما يسمى "الخوف من النصة". إلا أنهم بسهولة يستطيعون التغلب على هذا الخوف. وحينما يتغلبون عليه، يهرون عن أنفسهم بحرية، دون خوف. لقد أراد كورنر أن يغلب الناس على خوفهم الجنسي من النصة"

كان قائل هذا الكلام هو كلاوس. كانت الكبريتة أكثر طلاقة بكثير من إنكليزية زوجته. كانت أنجيلا تقطع حاجبها قالت:

"ولكن ألا يكون من نتيجة الحرية الجنسية الزائدة بكثيراً عن الحاجة تدمير كل ما فيه من متعة؟"

"كلا!" كذلك صاحبا في لحظة واحدة. أسكتت لنا روجها بلحظ صارمة، ثم استمرت تقول في تصميم:

"بالعكس، إن الخجل الشديد الذي يملك الناس هو الذي يمنعهم من أن يتعلموا كيفية الاستمتاع بالجنس، برأيك ماذا شكل هذه حوافز الاغتصاب وجرائم القتل الجنسية؟ لأن هناك جذراً سميكة بين الجنس. يركب رجل سيارة عامة، وتكون هناك فتاة جميلة، فيصبح مثل الثعلب مع الدجاجة. إنه لا يفحصها لأنه ليست هناك فرصة لذلك، وربما كان خائفاً من القانون. هذه ليست علاقة طبيعية بين الجنسين. المجتمع كله خائف جنسياً في مجتمع صحي. يستطيع أن يجلس إلى حواشيها، وأن يقنعها بأن تجلس معه عمرة، دون أن يولي أي إنسان الأمر أية اهتمام. لم لا أنت؟" انطلق يصيحها فجأة نحو العجلا، التي كانت تجلس منحنية إلى الأمام وقد وضعت معصمها على ركبتها - "ماذا تجلسين في هذا الوضع؟ لأنك تظنين أنه وضع طبيعي. ولكنه ليس كذلك. إنك ترتدي "تنورة" قصيرة لأنك تظنين أنها جذابة. ماذا لا تفتحين ركبتك في جسارة؟"

استسكت العجلا - وقد تراجعت قليلاً إلى الخلف - وحاولت أن تحول الأمر إلى نكتة وقالت:

"إذا فعلت هذا فأنتي قد اغتصب."

"كلا ليس هذا منطقياً! ماذا ترتدي النساء "تنورات" قصيرة؟ لكي يثرن اهتمام الرجال. إنك تلعبين مباراة مع نفسك لكي تنظري إلى أي حد يمكنك أن ترفعي "تنورتك" إلى أعلى. ألا ترين ما يعنيه هذا؟ إنك تريدان استعراض أعضاءك التناسلية. ولكنك خائفة. إنك تريدان أن تجعل الرجل يحذقون فيك، ولكنك خائفة من الاغتصاب. ليس هذا دليلاً على أن ثمة خطاً في مكان ما؟"

بشكل تلقائي استسكت العجلا بحرف "تنورتها" وحذبتها إلى أسفل. استكملت الأخرى تقول:

"أترين؟ ماذا ترتديها إذا كنت تريدان أن تلذذوها إلى أسفل؟ ماذا لا تجلسين هكذا؟"

انحنيت في مقعدها إلى الوراء وفتحت ركبتها، حتى استطاعت العجلا أن ترى نفس النظر الذي كانت قد رأيته في الحجرة الصغيرة الخاصة بالطابق العلوي. غضت العجلا من بصرها، دون أن تضم أتا ساقيها ثانية، مضت تقول:

"كلا! إن علينا أن ننمي وجود مجتمع متحرر تماماً من مخاوفه الجنسية ودون رغبات محبطة مكبوتة. إذا أراد الشاب الذي يركب السيارة العامة معك أن يعرف إن كنت ترتدين سروالاً أو مشدداً، فإنه يجب أن يسمح له بإلقاء نظرة ليذاكدا."

تدخلت لكي الفت الأنظار عن العجلا:

"ماذا تقولين أن كورنر أصبح مهرجا؟"

"لأنه بنظرية مثل تلك، يمكنك أن تجلب كل الناس غير الناسيين الذي تدفعهم كل الأسباب غير المناسبة، هذا هو ما فعله. إنه يقول بأن غرضه هو أن يعلم الناس الوصول إلى النشوة الصوفية عن طريق الجنس. ولكن كل ما يفعل هو تنظيم حفلات للفسق."

كان من الصعب إيقاف هذا الفيضان من الكلام الذي استمر على هذه الصورة لمدة نصف ساعة أخرى وبدا لي ما قالته في صورة فهم جيد إلى حد ما لبعض المشاكل النفسية. فمن الحق أن أكثر الناس يسيطر عليهم هاجس جنسي من نوع ما بطريقة سلبية. ولكنني حينما فكرت في ديانا وفي موبسي، وفي مكتبي التي تحيط بها الكتب على الجدران من كل جانب، طرأ لي أن هناك أشياء كثيرة أكثر أهمية من الجنس. ليست الطريقة المثلى لمعالجة رجل يسيطر عليه هاجس الجنس هو أن أقول له أن يجلس عمرة في السيارات العامة، ولكن أن أدفعه إلى أن يتعلم كيفية الاستمتاع بالموسيقى والأفكار والشعر. وحينما أفكر حث ذلك لأسرة بشكمان، وجهت بانفجار من الاحتقار العاصف.

"ليس هذا سوى ما دعاه فرويد بالإعلاء. إنه رفض لمواجهة المشكلة الحقيقية. إنك تكبت مصدر المشكلة، ثم تتظاهر بالاهتمام بشيء آخر."

بدأت أشعر بنفاد الصبر. كانت الساعة - على أية حال - قد قاربت الساعة - وكان لابد أن يبدا السهر في التساؤل عن مكاننا. قلت إن علينا أن نرحل. حاولا أن يقنعانا بالبقاء.

لتناول المساء، ولكننا اتحدثنا بغض الأعداء. قالت أنا أنها سوف تكتب إلي خطاباً طويلاً، وأني ربما أجد الفرصة لمساعدتها في إنجاز تأليف كتابها حول الحرية الجنسية للجميع.

وحينما وقفنا استعداداً للانصراف، سألت أنجيلا:

"بالنسبة، هل تعرفان شيئاً عن جماعة المنقاء؟"

هزت أنا كتفها وقالت:

"وما تلك؟ جماعة مهووسة جليلة من الشبان؟"

كان من الواضح أن الاسم لا يعني شيئاً بالنسبة لها، لم تلح أنجيلا على طريقي لأوضح. وعند الباب، قال دانكلمان:

"إنك مغادر لندن اليوم، صحيح؟"

"نعم."

"أمل أن نلتقي حينما تأتي إلى هنا في المرة القادمة."

اعني الحناءة يابسة، قلت.

"يجب أن تكتب إلى البروفيسور كورنر."

قالت أنا، لن تكون هناك أية فائدة من ذلك. لقد أمرته بشرطة بمغادرة إنكلترا فعاد إلى ألمانيا.

"أوه، إنني أسف لذلك، ولكن، ماذا؟"

قال ككلأوس، لم يكن أكثر من صاحب بيت دعارة محترف.

في سيارة الأجرة، وفي طريق العودة إلى هولنديبارك، قالت أنجيلا:

"من المؤكد أنك تبدو كما لو كنت قد قابلت إناساً يبيعون على الدهشة. من المؤسف حقاً أننا لا نستطيع أن نقابل الدكتور كورنر."

"ولكن من المحتمل جداً أن تكون هذه طريقاً مسدوداً. علي أن أعترف بأن دانكلمان قال لي أن كورنر كان أول من ذكر أيزموند دونبلي، ولكنني أفترض لمساعدة أنه كان قد هرا كتابه "عن افراق العذري"

تحدثنا عن أسرة دانكلمان. قالت أنجيلا:

"لا أظن أنك على صواب في النظر إلى ككلأوس باعتبارها زوجاً ضعيفاً تسيطر عليه زوجته. لقد اجتاحني إحساس غريب جداً حينما نظرت إلي أول مرة."

"بأي شكل كان هذا الإحساس؟"

"أحسست إحساساً فكاهياً بأنه كان يريدني أن أفتح ساقي. لقد رأيت الوضع الذي كنت أجلس به - حتى زوجته لاحظت ذلك."

"إنني أظن - على أي حال - أنها نصف شاذة جنسياً."

"ما كنت لأدهش من هذا. لم يسبق أبداً أن شعرت بمثل هذا الشعور السيئ الذي اجتاحني وأنا أتحدث معهما. هل لاحظت ذلك؟"

"أي نوع من المشاعر السيئة؟"

"حسناً - إنهما "قبيحان" جداً، وهما حقاً منفران جداً حينما يتحدثان بكل هذا الحديث عن الجنس. ومع هذا فقد كان لحديثهما - من جانب آخر - سحر من نوع خاص."

كنت أعرف ما تعنيه. فحتى ذهبتنا إلى أسرة دانكلمان، كنت قد نظرت إلى أنجيلا ككونها شخصية تبعث على السرور إلى حد كبير، ولكن دون مزيد من الاهتمام الجنسي الذي يزيد عن شعوري إزاءها لو كانت شقيقتي. أما الآن وأنا أجلس إلى جوارها، فقد وجدت نفسي أنظر إلى استدارة نهدا تحت الصندار الصوفي الأسود، وأشعر بأن علي أن أكتب رغبتي في مداعبته. كانت أنا دانكلمان قد دفعتني إلى هذا الشعور بشكل ما، بتوجيه الانتباه إلى أنجيلا باعتبارها موضوعاً جنسياً.

قالت فجأة، "أنا سعيدة لأنك كنت هناك"، وارتجفت وهي تتحرك لتصبح أقرب إلي. كان من الطبيعي أن أضع ذراعي حول كتفها. بعد لحظة، ارتفع وجهها نحو وجهي.

وكننت أقبليها بأنفعالي عما ظني حفلت أنا لقوته. وكان الأمر مثل التهام ملء فم من الطعام. ثم تكتشف بعد هذا أنك جائع جوعاً وحشياً. تعانقنا بقوة متعلقين أحداً بالآخر. ولستني داخل فمها، ويدي تسحق التهد الذي كنت أنظر إليه منذ لحظة واحدة. لم تكن هناك مجرد رغبة بسيطة في ملاطفة جسدها، ولكن كانت الرغبة هي جرحها. عصرها، انتهاها وامتناعها. كانت متعانة لي في استسلام كامل. وحينما تركت يدي إلى أسفل، ضاعطة بقوة على ضلوعها، ثم على معدتها، انفرج ساقها (...) كنت في حالة حادة من التعب في جلستي. بعد أن وصلت إلى هذه النقطة، كان الأمر الطبيعي أن أخلع ما تبقى من ثيابها. وأنا كان ذلك مستحيلاً فقد تحول جسدي إلى قضيب حديدي من الشهوة.

انحرفت السيارة مرتين متتاليتين لكي تتفادى سيارة أخرى كانت تندفع ناحيتنا بأضواءها الباهرة. انفصل أحداً عن الآخر مثقلاً بالإحساس بالإثام.

قالت: "سفة".

- "لماذا؟"

"كانت هذه غلطتي. لقد كنت أريدك أن تفعل هذا منذ غادرتنا منزل دانكلمان".

كنا ما نزال متعاقبين، وكان قلبي ما يزال يضرب بعنف حتى كان من الصعب أن أتكلم. قالت:

"لم أفعل هذا أبداً من قبل. ليس بهذا الشكل. لا أعرف إن كنت ستصدقني ولكنني ظاهرة متميزة تماماً من الداخل".

قلت: بطريقة نصف تهكمية: "لقد نومتنا مفضاضياً".

نظرت إلي بجدية وقالت: أظن أن هذا يمكن أن يكون صحيحاً. أنني وثقة من أن لهما قوة غريبة من نوع ما. سوف أقول لك شيئاً يصدمك من الدهشة. لو أنني هناك بمفردي، لانتبهت إلى أن أمتح نفسي لهذا النمر ككلوس".

قلت ضاحكاً: "ولو أنني ظلت وحيداً في تلك الحجرة الصغيرة لمدة عشر دقائق أخرى، لانتبهت إلى ممارسة الجنس مع أنت".

"ولكنها متفرة إلى حد مروع؟"

أخبرتها بما كان من جلوسها وقد فتحت ساقها، وكان صحيحاً ما قلته من أنني لو بقيت جالسا أمامها بمفردي لمدة خمس دقائق أخرى، لانتبهت إلى الأمام لكي أراها (...) ومن المؤكد أنه كان من البهامة أن أرفض ذلك.

توقفت سيارة الأحجرة خارج المنزل. قالت:

- "من الأفضل أن أرتب ثيابي".

أدركت ما كانت تعنيه. فقد كنت اتوهم أنا أيضاً أنني مهووش الشعر والنياب كما لو كنت قد نهضت من الفراش لتوي. دفعت الحساب لسائق السيارة بينما مرت بسرعة على شفاها بإصبع الأحمر وحزرت الشط في شعرها على عجل.

فتحت أنجيلاً الباب لفتحها، ودخلنا إلى الشقة. كان كل شيء ما يزال على حاله كما تركناه في الصباح. نادى هائلة: "الستير". ولكن لم تسمع إجابته. هزت رأسها وقالت: "لا" وعرفت أنها لم تكن تعلق على غياب الستير. وضعت يدي على صدرها. قالت: ليس هناك وقت. ولكنني أدركت أنها لم تكن جادة. كنت ما أزال ساخناً مفعماً بوهج الشهوة الغريبة العنف. التي كانت تكون كالحمى. جذبت طرف الصدر الصوفي فنزعت من تحت وسط الأزرار ودمست يدي تحت الصدر. كانت ترتدي حمالة صدر، وبحركة جذب بسيطة عريت الثديين. أخذت الحلمة بين سبابتي وإبهامي ودعكتها. اندفعت إلى حضني وفتحت فمها مرة أخرى (...) وهدتها إلى غرفة النوم...

ناثراً ما وجدت الجنس مدهشاً كالبوران بهذا الشكل. وأظن أنه لو ظهر في تلك اللحظة حشد كامل من الصوريين عند الباب بالأت تصويرهم ذات الأضواء الخاطفة، لظلنا على ممارستنا للجنس، عاجزين عاجزاً مطلقاً عن الفصل بين جسدينا. كان الإحساس الشبيه بالحمى ما يزال قائماً مضافاً على الغرفة جواً غير واقعي. بدونا كما لو كنا قد غرقنا في مياه العرق والإفرازات الرطبة... فكرت بأن الستير قد يدخل الآن في أية لحظة، ولكن كان هناك نوع من التمتع من التفكير بأن يرانا شخص ما، ثم أصبحت اللذة أكثر حدة من أن تكبح أو تمنع من الوصول إلى ذروتها...

بعد عدة دقائق، رفلنا جنباً إلى جنب، وبدأ العرق يبرد. فتحت عيني ونظرت إليها، وتبينت مصدوماً أن أنجيلا هي التي كانت بجانبني، الفتاة الإسكتلندية الرزينة المحتشمة التي بليت لي في صورة الفتاة "اللطيفة" ولكنها ليست من النوع الذي أحبه. فتحدثت عينيها، ولاحظ أنها جعلت عندما رأتني، وفجأة تذكرنا معاً أن نصف ملابسنا ملقاة على الأرض في الحجرة الأخرى، وأن الباب كان مفتوحاً، نهضت وذهبت إلى الحجرة الخارجية لكي أحضّر الملابس. وحينما عدت كانت واقفة تشد سروالها الداخلي إلى وسطها. ذهبت إليها وقبلتها أعطتني فهمها بطريقة الية، كما لو كان تمنحني قبلة ما قبل النوم بشكل عادي كل يوم. ثم، كما لو كانت تتأسف على ذلك، وضعت ذراعها حول عنقي. قالت

"ما الذي حدث لنا؟"

أدركت ما كانت تعنيه. لم يكن ذلك جنساً "عادياً"، الجنس الذي يمارسه شخصان فرراً، إن أحدهما يروق للآخر وأراد كل منهما أن يكتشف جسد صاحبه ويرناده لنفسه. إنما كان نوعاً من النوبة العصبية، كما لو كنا زوجاً من الحيوانات. ولكنني كنت الآن "مسر سورم" مرة أخرى، وكانت هي قد عادت فأصبحت لادي أنجيلا بجانبني، وكنا شخصين راق كل منهما للآخر، ولكن لسنا عاشقين. بالطبع، فيما عدا أنه كان من المستحيل بالنسبة لنا ألا نكون متركبين أن كلاً منا قد ألقى نفسه في جسد الآخر منذ قليل.

قالت فجأة: "يا إلهي، لقد نسيت. هذه أسوأ فترة من الشهر."

وضعت يدي برفقة على معدتها، قلت: "إذن فمن المحتمل أن يكون هناك سورم صغير هنا بالداخل."

"هذا محتمل."

"هل يزعجك هذا؟"

ضجعت فجأة.

"كلا. لا أظن ذلك."

دق جرس التليفون. كان الستير هو المتكلم. ليقول أنه يعتسي ككاساً مع بعض أصدقاء دراسته، وأنه لن يعود إلا بعد ساعة أخرى.

دخلت أنا وأنجيلا الحمام وتحممنا معاً. أحسست بالتي منتعش رطب الحسد بشكل غريب. مسروراً تماماً. وفي كل مرة نظرت إلى أنجيلا، تعاليت صدمة وأهنة كما لو كان ما حدث مجرد خيال جنسي حدث داخل رأسي فحسب.

بعد نصف ساعة، وبينما كنا نجلس متقابلين أمام جانبي النافذة نحتسي مكووس العود، قالت:

"أظن أنهما وضعنا لنا شيئاً في مكووس الشرب."

"أعني عقاراً مثيراً للشهوة الجنسية؟ لا أظن هذا. إن للذبابة الإنسانية تأثيراً مزعجاً ومنبهاً للعصاة للعوبة - وقد ذقت شيئاً منها في الجزائر."

"ولكنك بالتأكيد لا تعتقد أن الله هنا كان نفسياً، أعتقد ذلك؟"

قلت: "سأقول لك ما اعتقد. اعتقد أن ككلوس أراد أن يمارس معك الجنس، وأنها أرادتني أن أمارس الجنس معها، ولو أننا تناولنا العشاء معهما، لانتهى كل هذا إلى الفراق مع صاحبه. ولكن ما حدث، وأيا كان ما فعله بناء، هو أنهما جعلانا نرغب كل منا في الآخر."

وحينما عدت بذاتكرتي لكي أفكر في عنف وسخولة ممارستنا للجنس، عرفت أنه كان على شيء من الغرابة.

قالت: "إن هذه الغرابة تجعلك تتساءل عما إذا كان هناك حقاً شيء ما في تلك القصص التي تحكي عن تمانم الحب. مثلما قبل في أسطورة تريستان وإيزولده، وما إلى ذلك؟"

"لقد عرفت رجلاً بوسعه أن يقول لك، رجلاً يدعى كاريوت كنتينفهام."

"أجل. إنني أسمع عنه، لقد قرأت كتابك. ولا أظنني أحب أن أقابله."

حينما جاء الستير بعد نصف ساعة، كانت تطهو وجبة طعام، وكانت الشدة مفعمة برائحة الحل والنوم. قال:

"أرجو ألا تكونا قد سئمتما من الضجر بدوني"

فانت تجيلا، "كلا، لقد وجدنا الكثير مما نفعل".

"تفعلان؟"

"أعني بما نقول ونتحدث عنه".

كان ينكت بالطبع؟ كان يعرف أنه لا تجيلا ولا لنا من النوع الذي يمكن أن يقع في

حب الآخر في خلال ساعات من اللقاء الأول.

- ١٧ -

□ في الليل، انتابتني أحلام مزعجة لا أستطيع تذكرها، ولكنني حينها استيقظت كنت أيزموند مرة أخرى. كان هذا هو أغرب ما أحسست به حتى ذلك الحين. كنت قد شررت قديراً كبيراً من عصير التفاح المخمر بعد العشاء، ورغم أنني لم أسكر أو أفقد وعي الحقيقي، إلا أنه انتابني ذلك الإحساس بالانفصال البسيط عن الواقع، وبالأماني ومن الجانب الآخر، كان أيزموند مستيقظاً بقضبة كاملة. بالنسبة له، بدت هذه الحجرة ذات السقف المرتفع مألوفة بشكل كاف، وكان العنصر الذي يسبب له قديراً بسيطاً من عدم الفهم هو صوت سيارة ركوب أو شحن عابرة تجري على طريق هولاند بارك. كان إحساسي بالعودة إلى القرن الثامن عشر أكثر قوة مما كان في دبلن، ربما لأنه لم تكن هناك عناصر تشتت في وسط الظلام. عرفت في النوم مرة ثانية، وغصت في أحلام مشوشة عن هوارس والبول، وليتشيتيرج وبوزويل وجونسون. وعندما استيقظت في الصباح، كنت أذكر جونسون بوضوح تام وهو يقول مؤكداً بقوة: "وهو ينشر الرائد بشفته السفلى الكبيرة التلنية،" إن الرجل منتشر محتال وغد شرير يا سيدي، ولموقف تحسن صنعا لو أنك تجنبتة تماماً".

أخيراً طائفة في الحادية عشرة والنصف، فوصلنا أبنيرة بعد ساعة ونصف. تناولنا طعام الغداء في غرفة خلفية بإحدى الحانات مع الدكتور ديفيد سيمبلي، أستاذ تجيلا، وهو رجل ضئيل الحجم له وجه كوجه كلب صيد صغير. كان قد كتب ذات مرة

عرضاً شريفاً بشكل خاص لأحد كتبي، ولذلك فقد اتسم بمجنون وهو يقدم لي، ولكنه حينما أشار إلى الموضوع إشارة متعمدة، تظاهرت بأنني لم أر الفأل وأن علاقتي طيبة بشكل كاف. لم تكن بي حاجة إلى أن تحدث كثيراً. فقد أراد كل من استر وتجيلا أن يقرأه بكل ما يتعلق بأيزموند دونيلي وباكتشافاتي. انصت بأدب لبرهة، ثم قال:

"أخشى أن أقول لي لا أرى السبب الذي يجعلك تنظر إليه بكل هذا الاهتمام. إنه يبدو لي كما لو كان اتفاقاً نموذجياً من أواخر القرن الثامن عشر. هل حدث أبداً أن فكر في أي شيء آخر باستثناء الجنس؟"

نظرت تجيلا لي، وأظن أنها كانت تميل إلى التوقف. قلت:

"بمعنى ما، كلا. وبمعنى آخر، فإن الجنس لم يكن يهمهم على الإطلاق".

قال بخت، "ليس هذا هو ما يدعى بالتجاذب الشرعي على القوانين؟"

لم يكن متعاطفاً أو لطيفاً. ولكنني فررت أن أحاول الشرح. قلت:

"كلا، إنما أرى أيزموند كمرجل تملكته وسيطرت عليه مشكلة الغنى".

"بمعنى ماذا؟ الوجود الإنساني؟" تذكرت أنه كان قد كتب عدداً من التعليقات الحادة المرفقة بشرة في مقاله عن كتابي حول ما دعاه بأنه "هاجس العجز الديني المتسلط علي". ولكنني أرت أن أوضح الموقف للذين الآخرين. قلت:

"بها مسألة إما أن تفهم أو تعجز عن الفهم. بالنسبة لي، إنها مشكلة واضحة في حد ذاتها. أحياناً تبدو الحياة ميرة للاهتمام بشكل واسع وعميق مفعم بالوعي. فيبدو هذا الوعي حقيقة موضوعية، مثل ضوء الشمس. وفي أحيان أخرى تبدو عقيمة خالية من الوعي مثل الريح. إننا نقبل هذا الخواء من الوعي. هذا الانهيار في وجوده، مثلما نقبل تقلبات الطقس. أنني إذا استيقظت مضطرباً بالصداع أو بنزلة برد سيئة، فإنني أبعد كما لو كنت غير قابل لإدراك أي معنى. والآن، إذا استيقظت وأنا مضطرب بصمم حقيقي أو وأنا نصف أعمى حقاً، فإنني ساحس بأن ثمة خطأ ما في جسدي وسوف أذهب لاستشارة طبيب. ولكنني إذا كنت غير قابل لإدراك أي معنى، فإنني أقبل هذا الوضع كما لو كان شيئاً طبيعياً. ولكن أيزموند لم يفهمه كشيء طبيعي. وقد لاحظنا هو الآخر أننا في كل مرة نستشار فيها

حسباً، يعود إلينا العنى، يمكننا حينذاك أن نسمع من جديد. هكذا فقد ألح في طلب الجنس باعتباره سبباً لاستعادة العنى.

سألت أنجيلا: "وماذا من أمر هوراس جليبي؟"

"كلاً، إنه لم يكن مهتماً يبحث أيزموند عن العنى. لقد أعجب بإيزموند، ولكنه لم يفهمه".

ظل سيميلي على عدم الاقتناعه وقال: "أني وقد قرأت كتابه "عن الفراع العذارى" فإنني لم أجد شيئاً يمكن فهمه". قلت:

"إنني لا اعتقد أن أيزموند كتب هذا الكتاب".

"لم يكتبه؟ إذن من كتبه؟"

"لا أعرف، ولكن أسلوبه ليس أسلوب أيزموند".

هز كتفيه كما لو كان يقول أنني استطيع أن أغرق في أي نوع من الخيالات يروق لي، ولكن هذا ليس من شأنه. قلت:

"هل حدث أن رأيت التاريخ المكتوب على الطبعة التي قرأتها؟"

"بالطبع، كان ١٧٩٠".

أثارتني هذا، وكانت الطبعة التي رأيتها في غالوي قد طبعت في لايبزيغ عام ١٨٣٠.

"من الذي طبعتها، وأين؟"

"لم يذكر اسم الطابع، ولكن قائمة الجامعة تقول أن الكذاب طبع في مطبعة خاصة في أدنبرة".

"أنت واثق من هذا؟"

"ليس من عادتي أن أخطأ بين ما أقوله من حقائق". تذكرت أن هذه كانت واحدة أخرى من لرائته القارصة لي، وهكذا فقد تجاهلت الموضوع. ولكن الأدب والجامعة اللذين

أدبتهما وأما أصابعه منذ نصف ساعة مضت لم يكونا قد وهنا تماماً. هكذا اتضح جزء آخر من الغرر وطرح سؤاله الجديد. وبدأ أحد الشكوك التي كانت قد روتني من قبل يظهر في صورة أقل عبثية لأنه إذا افترضنا أن كتاب "عن الفراع العذارى" كان مزيفاً ومنحولاً، فمن يمكن أن يكون قد كتبه؟ من الواضح أنه شخص كان يهتم بأن يظهر أيزموند في صورة الأفاق كاتب أدب الدعارة. من السهل أن نفترض أن الكاتب هو جيلبرت ستيوارت، الذي كان على علاقة ودية مع هوراس جليبي، والذي كانت له مصلحة في أن يطلع سمعة أيزموند بالوخل. ولكنه كان قد مات في عام ١٧٨٦. وهذا يدفعني إلى التفكير جدياً في مرشح واحد فقط لتأليف الكتاب وهو جليبي نفسه. وإذا كان كتاب "الفراع" قد طبع في أدنبرة، فإن التفكير يصبح قوياً إلى أقصى حد.

كانت الساعة قد تجاوزت الرابعة بعد الظهر عندما غادرتنا أدنبرة أخيراً في سيارة استأجرناها وشرعنا في مسيرتنا الطويلة نحو الشمال - وهي مسافة تكاد تبلغ المسافة بين لندن وأدنبرة نفسها. قطعنا السير في مدينة بيشلو شيري، وغادرتنا في ساعة مبكرة من الصباح. وفي الرابعة من بعد ظهر ذلك اليوم كنا نقطع الرحلة الأخيرة من رحلتنا، وهي المسافة من بلدة دورنوش إلى جلوسي. كانت الروح البرية الواسعة ومناظر البحر الفاجئة شديدة الواقع. ولكن الشيء الذي شغل افكاري حقاً هو المجهود الخالص الرامي إلى استعادة نفس هذه الرحلة في عام ١٧٧٠، في عربة متارجعة، فوق طرق كانت أحسن قليلاً من "الدهانات" الرابية القذرة. من المحتمل أن أكثر فاضلي جلوسي لم يسافروا إلى أبعد من دورنوش أو أيفرنغيس. فلا عجب إن كان هوراس جليبي موضع كل هذا الإعجاب بعد عودته من رحلاته الأوروبية. توقفنا في القرية للاتصال بفراكلين ميلر - المالك الجديد لمنزل بوسبي - ثم اتجهنا إلى الشمال الشرقي. يقع قصر جلوسي فوق منحدرات جبل بين هورن، مغطلاً على بحيرة نوش برورا. وبينما كنا نقطع هذه الرحلة القصيرة الأخيرة من الرحلة، حاولت جاهداً أن استرخي، وأن أراها بعيني أيزموند. ولكن لم تكن شعة جدوى، كان الأمر كله بالغ القربة. سقطت ومضت من التعرف كالدكرى وأنا أنظر إلى الميدان والمنزل الرمادي. ولكن كان من الممكن أنني أخدع نفسي.

كان هناك عدد كبير من الدعامات الخشبية مرتفعة أمام واجهة المبنى. ومن الواضح أن ذلك الجديد كان يصلح المنزل. كان الطريق الخاص المؤدي من الشارع العام إلى

البني قد أعيد رصفه، وبنت أحواض الجديقة في حالة جيدة، وكان من الممكن أن يكون
فندقاً فخماً عالياً.

كان هراتكليف ميللر رجلاً ضخماً جسدياً ودوداً جداً، كما لو كان قد ولد لكي يكون
مالكاً من ملاك الأرياف. وبدا مبتهجاً حقاً لـ "حصوله" علينا ضيوفاً في منزله الجديد. فأتينا
إلى المكتبة الضخمة، حيث كانت مدفأة ضخمة - تعمل بكتل الخشب - مشتعلة بنار كبيرة.
قبلنا مكوّنوس الشراب. وقابلنا مسر ميللر التي رجّتنا أن نبقي عندها أطول مدة ممكنة. بعد
أن تمشيئنا حول الجديقة وهبطنا إلى جانب النحدر الملحق بالفصير، سألت إن كان يوسفنا أن
تعضي ساعة قبل العشاء لتلقي نظرة على الطابق العلوي الخلق (السقيفة) حيث كان السّير
قد رأى رزماً من الأوراق القديمة. قال لنا مضيقنا أن تعامل المنزل كما لو كان مالكه لم
يتغير أبداً، وخرج لكي يرى ما كان عماله يفعلون.

قال السّير، "إنني أعرف ابن يجب أن تبدأ. يجب أن نلظر إلى كتاب العائلة المقدس. إنه
يضم قائمة بتواريخ ميلاد وموت كل من عاش من أسرة جليبي في جلوسبي".

كان الكتاب المقدس في المكتبة، موضوعاً فوق رف مرتفع - كان مجلداً فخماً، ذا
غلاف من الجلد اللامع، وكان وزنه ما لا يقل عن خمسين رطلاً. كانت نسخة من "الكتاب
القدس العظيم" - طبعة غرانمر التي صدرت في ١٥٢٩. وخطر لي أنها يمكن أن تساوي مثلما
دفع في منزل جلوسبي نفسه، ولكنني لم أحب أن أقول ذلك. كانت الصفحات الست في نهاية
الجلد مغطاة بكتابات صفحة بعد أخرى في خط كاتالخرينشة لا يقرأ. كتب بحر ذوق لونه
ويبهت. بدأت باسم إسكندر جليبي، الذي مات في عام ١٥٧٩ (قبل أن يصادف شكسبير بلدة
سزاتفورد أون أفون) والذي كان من الواضح أنه نال مرتبة هارس من الملك هنري الثامن.
كانت أسرة جليبي قد رفعت إلى مرتبة النبالة على يد جيمس الأول. وفي بعض الأحيان
كانت تتلو الأسماء أسباب الموت: "حمى"، "تسمم كحولي"، و"خضر مكسور" (أيما كان
معنى ذلك). كانت هناك بطور تعليقات عديدة بخط تعرفت فيه على خط هوراس
جليبي. كان اسمه متبوعاً بتاريخين، ١٧٨٧، ١٧٩٦، ولكن لم يكن هناك ذكر لسبب الموت. مات
والده في عام ١٧٧٨، فأصبح أخوه موراي هولورد جليبي. وقتل موراي بسبب "السقوط من فوق
ساري"، (هل كان يقصد "ساري" المؤخرة في سفينة؟) في عام ١٧٨١، مما أدى إلى أن ورت أخوه
الأصغر لقب الأسرة.

كان في هذا بعض العون على الأقل. فقد عرفت ساعتها تواريخ ميلاد وموت هوراي
جليبي على وجه الدقة. ولكنني لم أعرف سبب موته. سألت السّير إن كان يستطيع أن
يتذكر الغرفة التي قيل له أنها "غرفة القتل".

"أوه، أجل، بالطبع." فأتاني إلى خارج المكتبة، وصعدنا السلم الرئيسي، وعلى طول ممر
بين بعض الحجرات. طرق الباب، ثم فتحه. كان من الواضح أن الحجرة الآن هيئت لتكون
غرفة نوم الضيوف. كانت تطل على النحدر، وكان أحد العمال يصفر على "السقالة" خارج
النافذة.

قالت الجيلا: "بالتأكيد لم تكن هذه هي الغرفة التي أطلعني عليها غوردون كانت
الأخرى في جناح الآخر".

وبعد بعض التردد عثرنا على الغرفة الأخرى. كانت تطل على القسم الخلفي من
المنزل، وكانت النافذة تؤدي إلى مسقط عميق يؤدي إلى فناء صغير. كانت حجرة عازية
باردة، ولم يكن أحد جدرانها يحمل أي شيء من الزخرفة أو التجميل. كان حجر الجرانيت
قد سحج حتى أصبح مسطحاً ناعماً. أشارت الجيلا إلى أثر طولي بني اللون جرى فوق ذلك
السطح حتى بلغ الأرض وقالت: "قال لي غوردون أن هذا الأثر كان لبعض الدماء - وفي
القتيل كان يرفد على السرير حينما أطلق عليه أحدهم النار من النافذة".

كان هذا ممكناً. وقد بدا الأثر كما لو كان أثراً للدماء فعلاً. ومن جانب آخر، بدا
لي أنه من الأمور البعيدة الاحتمال أن ينام سيد المنزل في حجرة بهذا الشكل. وكان الأمر
احتمالاً أن أثار الدم هي التي أدت إلى خلق قصة عن جريمة قتل.

ثلاثة منعطفات أخرى من الدرجات فأتينا إلى السقيفة العلوية التي وجدناها مظلمة
ومعزبة حتى اضطر السّير أن يهبط ثانية لكي يستعر مصباحاً. حلست أنا والجيلا فوق
صندوق ادراج قديم، بعد أن نفخت النراب بمنديلتي. كنا متعبين، فقد كانت الرحلة
طويلة وكنا بحاجة إلى راحة طيبة تلك الليلة. وضعت ذراعي حول كتفيها، فمالت برأسها
وأسندهت على كتفي. تركت خدي يسفرخ على شعرها وأغمضت عيني. كان المكان بالغ
الهدوء، ولم يكن ثمة صوت سوى هسيس الرياح إذ تصطدم بجواري الجدران العليا بالخارج،
مصحوبة بسقسقة طائر بعيد. كان إحساسي بدفئها ملاصفاً لي إحساساً ممتعاً وهجلاً.

وبدون مقدمات، تذكرت، أو بالأحرى، تذكر أيزموند. كانت رائحة التراب مألوفة، كذلك طعنت رائحة شعر التجيلا. تحققت من الخطأ الذي لم أتبينه من قبل. فإتينا حينما نرى أياكن جديدة بالنسبة لنا، يجدها العقل غريبة، هيندل "مجهونا" لكي يحميها بها من أجل أن يتواءم معها ويقبل بوجوده داخلها. وهذا التجهود هو ما يدمر الألفة الفريزية للذاكرة. كنت سليم التلهف إلى دخول حزانة هذا المنزل، لكي أتذكر، حتى إنني كنت أحتلق لطباعاتي عنه اختلافاً. والآن، للحظة، سكفت عن النظر إليه باعتياري غريباً، استرخيت بتعرت كما لو أن صورة قديمة قد طبعت نفسها بقوة فوق طباعاته الجديدة عن المنزل. ثم امتزجت معها. كنت أعرف هذا المكان، كنت أعرف النحدر والتلال ومنظر البحر البعيد تحت الوادي. وكنت أعرف أيضاً أن التجيلا كانت على صواب. لم تكن الشجرة التي رأيناها منذ لحظات هي الشجرة التي قتل فيها هوراس جليبي. ولكن التجيلا كانت مخطئة في نقطة واحدة، إنه لم يطلق عليه الرصاص. لقد طعن بفضل حاد شعرت بيفين عجيب من هذا

عاد الستير بجر وراءه حبلاً طويلاً من السلك الكهربائي وواحداً من تلك الأقفاص المعدنية المزودة بمصباح في داخلها والتي يستخدمها مصلحو آلات السيارات. وصلنا طرف السلك بنقطة توصيل كهربائية في الطابق الأسفل، وعلقتنا الصباح داخل قفصه فوق دعامة خشبية منخفضة في سقف السقيفة. ثم أخذنا في مسح المكان. لم يكن ثمة شيء واضح أكثر من أن هذا المكان لم يطأه إنسان منذ سنوات. ولم يستطع الستير أن يتذكر أنه قد بحث فيه عن شيء حتى في طفولته. كان كل شيء غارقاً تحت عدة بوصات من التراب مع نوع من الرغبة المندوف، وكان نصف السقيفة مغلفاً بواسطة سلسلة متتالية من نسيج العنكبوت التي جللها التراب حتى صنعت ستارة كثيفة عازلة. (وكننت دائماً أتعجب من كيفية بحافظة العنكبوت على حياته في الأمكنة المغلقة)، ولكن كان هناك الكثير - بوضوح - الذي لا بد من استقصاء حقيقته، بما في ذلك كومة من الفلابين الكبيرة الحطمة. مع كل خطوة نحر كناها كان التراب يقرؤ أنوثنا. حطمت نسيج العنكبوت بمحركات مدبنة معدني قديم. ونظرت إلى القسم الثاني من السقيفة. كانت هناك كل أنواع الصناديق والعلب الورقية والأكوام من دفاتر الحسابات وحزم الأوراق. حاولت أن ألق أحدى تلك الحزم، فبدأت الأوراق تنهشم تماماً كما لو كان الورق الذي صنعت منه قد جفف بالنار. وكانت حزم أخرى غارقة في نوع من الطلاء الزيتي جعلها مستحيلة القراءة.

بعد نصف ساعة من هذا البحث أصبحنا جميعاً في غاية العطش ورحنا نعطس مرة بكل دقيقة. صعد أيتنا هرمكلين ميللر لكي يستقصي أمرنا، ونظر حولنا لمدة دقيقة أو اثنتين ثم انصرف وهو يقول: "الأفضل أن تبحثوا أنتم. لا أنا". وأخيراً قال الستير: "ظن أنني سأهبط إلى الطابق الأرضي لأشرب زجاجة من البيرة. هل يأتي أحدكم؟" قالت التجيلا: "أنا أتية معك". ولكنني فكرت أن أبقى هناك لفترة أخرى، ولكن خمس دقائق كانت كافية بدأت أفكر باشتياق في ألدح من الجمعة الكبيرة وبارد في الحانة المحلية. كانت عيناى تدمعان. وكان صبري ينفذ بسرعة، حتى إنني كنت كلما تحركت اثرت معي قدراً من الغبار والتراب لا ضرورة لزيد منه. شعرت كما لو كنت بحاجة إلى حمام جيد. وكما لو كان شعري قد امتلأ بعناكب صغيرة خرجت لتوها من بطن أمها. وبعد أن جذبت درجاً هائل الحجم من قلب خزانة، وكافحت من أجل أن أصل شريطاً جليداً ربطت به إحدى الحزم وتجمدت حتى صار في صلالة الفولاذ. تحركت إلى الباب الواطئ لكي أستشيق بعضاً من الهواء النقي. جلست عند الباب، أتناوب، وأفكر في أنه إذا كان أيزموند ينوي أن يساعدي فإن الآن هي اللحظة المناسبة لتلك المساعدة. سار عنكبوت فجأة على عنقي، فوقفت على قدمي محفلاً حتى أنني ضربت رأسي في إحدى الدعائم الواطئة. فجلست على الأرض وراحت الأضواء تراقص ملتمة وخائبة أمام عيني جلست في مكاني محفلاً بانزعاج في العنكبوت التي تعلق غريبة بخيط طويل متدل من فجوة صغيرة ثنت فيها شيء مثل توصيلة كهربائية قديمة علفت في السقف بمسمار كبير. تسلفت السلم هابطاً، وجسدي يحثك بالحاجز هابطاً نحو الأرض وأنا أنظر بجدس إلى رجل يصيد السمك من قارب في البحيرة القريبة.

مددت يدي إلى أعلى لكي أقطع التوصيلة الكهربائية التي كانت تضيء السقيفة، حينما خطرت الفكرة فجأة على ذهني. إذا لم تكن هناك إضاءة في السقيفة، لماذا كانت هناك تلك التوصيلة الكهربائية التي تعلق بها خيط العنكبوت؟ صنعت السلم ثانية وتناولت منقضة، ونفضت نسيج العنكبوت الذي كان يغطي مساحة الورق الفروود. ونظرت نظرة أكثر تدقيقاً، فعرهنت السبب الذي جعلني أخطئ فأطعن الشيء الذي رأيتة توصيلة كهربائية. كانت مساحة الورق مسندوها كبيراً رسمت على ظهره رسوم دقيقة، ويحتوي على عدد كبير من الصناديق الصغيرة التي ربط بعضها إلى البعض بخيط واحد. كان على كل مسندوق حروف كتبت فوق ظهره، وعلى أحد جوانب كل مسندوق كانت هناك

قائمة أخرى من الحروف الأبجدية التسلسل. وهناك مكتابة أمام كل منها. ثم أكن أعرف ماهية تلك الصناديق وأنا أحملها إلى أسفل. كان حنسي يعمل مرة أخرى. كان أقرب كثيراً عليها حتى عجزت عن قراءتها في هذا الضوء للعتمة هبطت إلى الطابق الأسفل. ونهضت عنها الترف بعناية مستخدماً منديلاً. وأخذتها إلى قرب النافذة. وقد كانت "رسماً" توضيحياً للسقيفة نفسها. ولو أنني فكرت فيها بعناية منذ رايته، أو لو أنني فكرت في السقيفة نفسها منذ القيت عليها نظرتي الأولى، لكنت قد لاحظت أن الخزانات المختلفة والمعززة الموجودة في السقيفة كانت موضوعة بطريقة مرتبة ومنظمة توحي بأن شخصاً ما قد وضع هذا النظام، وأياً كان الشخص الذي رتبها فإنه قد صنع أيضاً هذا الرسم كدليل لمن يريد البحث عن أي شيء فيه.

سمعت أستير ينادي: "أين تهيض الآن يا جيرارد؟ سيبدأ العشاء بعد نصف ساعة".

قلت: "من كان الشخص الذي اسمه ج. راليون؟"

"جورج راليون؟ كان شيئاً كالساعد العام هنا في زمن جدي. وقد عاش حتى بلغ الواحدة والتسعين وهو يسكن منزل البوابة لماذا؟"

أرسته الجانب الآخر من الرسم. كان التوقيع الواضح يقول: "ج. راليون". حريث بأصبعي حتى توقفت عند حرف "ك". "أوراق، لـ، حتى ٩. لورد جليبي" كان هذا هوراس جليبي. قلبت الورقة إلى الزاوية المقابلة. كان "ك" موجوداً في الركن القصي من السقيفة.

تبييت أن "ك" كان خزانة ضخمة من الصفيح أو الصاج، وكان القبض قد علاه الصدا حتى أصبح فتحه عسراً. فتحناه عنوة بالاستعانة بمحراث اللهاة. كان مزدهماً مشوشاً بكراسات الحسابات، والخطابات والأوراق الستية. فاما أن أحداً قد عبث به منذ عهد "ج. راليون" وإما أن محتوياته قد وضعت دون محاولة لترتيبها بالداخل. فتحت خطاباً وكان يبدأ "عزيزتي ماري" وبدأ من الضموم أن الخطاب كان حول مشكلة عائلية عن بيع أحد المنازل في كليفورد. دفعت يدي في الخزانة، وفتحت عدداً آخر من الخطابات عشوائياً. كان أحدها موجهاً إلى ميس فيونا غوثري. وكان يبدأ "عزيزتي ميس غوثري" وينتهي بعبارة، "الخلص الذي يحترمك". كان هذا مؤرخاً في أغسطس عام ١٧٦٦، وموجهاً من

غوثريين - وهذا معناه أنه أرسل قبل شهر قليلة من الأحداث التي وصفها في خطابه إلى أبر موند

حاولت أنا وأستير أن نحمل الخزانة لنهيض بها السلم ولكنها كانت ثقيلة جداً. فقررتنا تركها في مكانها. وسرنا شاعرين بالانتصار فهبطنا إلى حجرة الطعام للإعلان عن الاكتشاف، فأثرتنا من الانفعال ما كان مكافأة معقولة ومؤقتة لي. تركتهم بعد قليل وصعدت ثانية لكي أحمس الخزانة. بينما كنت أحتسي كاساً من الحصة الثلجية، ثم ذهبت لكي أستحم. وحينما عدت إليهم، كانوا قد كوموا حزماً من الأوراق واللفات على بساط النفاذ، وكانوا ينظرون إلى ما فيها. نظرت إلى ما تم العثور عليه، ولكنني لم أجد شيئاً ذا أهمية.

تأخر العشاء نصف ساعة. فأكلنا كميات كبيرة من شواء الحجل وطيور الغاية وشربنا نبيذ بوجوليه، الأمر الذي جعلنا جميعاً نشعر بالنعاس، فذهبنا إلى الصالون لكي نشرب القهوة ونشاهد التلفزيون. في التاسعة والنصف سالت إن كان بوسعي أن استخدم التليفون، وأني لم أكن قد اتصلت بيدانا منذ تركنا لندن.

كان الخط التليفوني جديداً، فكان بوسعي أن أسمعها كما لو كانت على بعد ميل واحد. آخرتها بما جرى - عن أنني قد عثرت على شيء من أوراق جليبي، ولكن لا شيء يمكن أن يُعد بشيء كثير. سألته إن كان لديها أي أخبار.

"كيس الكثير. هناك خطاب من فتاة تريدك أن تذهب لكي تعيش معها في ميامي. وخطاب آخر من رجل يريدك أن تؤلف كتاباً تحمل فيه على العقول الإلكترونية. وهناك خطاب قصير من رجل يدعى كورنر يقول أنه يجب أن يراك حينما تذهب إلى لندن في المرة القادمة"

"كيف تتجهزين هذا الاسم؟"

"ك- و- ر- ن- ر-"

صحت: ماذا؟ ما اسمه الأول؟

"لا أتذكر. هل البحث عن الخطاب؟"

"أجل، أرجوك".

عادت بعد دقائق قليلة، وفكرت لي الخطاب. كان المرسل هو أوتو كورنر، الرجل الذي قالت لي أسيرة دانكمان أنه أبعد عن البلاد. كان يعيش في ويست هامبستيد. قال أنه قرأ خطابي عن إيرمون دونيلي في الملحق الأنبي للتايمز، وأنه يود أن يتحدث معي بشأنه، وكتب رقم تليفون في النهاية.

حينما أنهيت ديانا المكالمات، اندفعت إلى حجرة الجلوس، صائحاً وأنا أرقص ملوحاً بالورقة التي تحمل عنوان كورنر. شعرت بأن هذه الخطوة ستكون انطلاقة كبرى إلى الأمام - ليس لأنني توقعت من كورنر أن يعرف شيئاً عن دونيلي لم أعرف أنا به بعد، وإنما لأنني شعرت بأن هناك من يقف إلى جانبي. كاد سرور ميللر بهذه الأنباء يعادل سرورنا، كان قد شرع يقع في شبكة "البخت عن إيرمون دونيلي". قال، "لماذا لا نتصل به الآن على الفور؟" ولم أكن بحاجة إلى مزيد من الحث أو التشجيع فبعد خمس دقائق، كنت أسمع صوتاً مثل صوت ممثل كوميدى يقف استاذاً المانياً عجوزاً، يقول:

"جميل جداً أنك تكلمت، يا زورم. جئنا (عندنا) الكثير الذي يجب أن نناقشه".

قلت، "لقد رايت دانكمان وزوجته في لندن منذ يومين. ولقد قال لي أنك عنت إلى ألمانيا".

"ماذا إنهما يعرفان أن هذا غير صحيح؟ يجب ألا تتق بهما..."

استمر يتحدث طوال عشر دقائق عن دانكمان وزوجته، مستخدماً كلمات من الألمانية من حين إلى آخر. وانتهى إلى أن نصحتني بقوة ألا أعود إلى رؤيتهما مرة ثانية. حاولت أن أكتشف السبب الذي يجعله يعاديهما إلى هذا الحد، ولهذا قلت له إنهما يبدوان كزوجين لا ضرر منهما. صاح يقول:

"ماذا لا ضرر منهما؟ وكيف. إن هذا الرجل قاتل".

"كنت وأنت؟"

"وأنت تماماً. إنه قاتل. لقد تزوج فتاة ثرية في سويسرا ثم سلق جسدها في وعاء صنع الفراء. كان في هذا الوقت يمتلك مصنع للفراء - واختفت بعد زواجها منه بأسابيع قليلة. وقد قام طبيب بتحليل عينة من الفراء الذي أنتجه في تلك الفترة وقال أنه كان مصنوعاً من نظام دمى. ولكنهم لم يستطيعوا إثبات أي شيء. وأنه جنير بأن بسجن ثلاث سنوات بتهمة تعدد الزوجات".

بلت لي القصة مثيرة إلى درجة تجعلها غير قابلة للتصديق. أوفي الحقيقة، اكتشفت فيما بعد أن كورنر لم يسرد علي أكثر التفاصيل رعباً - وهو أن كلاوس مزق جسد زوجته السويسرية قطعاً صغيرة بشفرة حلاقة، وأطعمها السمكة البريئة التي كانت تعيش في منزلها. تحدثت مع كورنر لعدة دقائق أخرى، ووعنته بأن اتصل به في طريق عودتي إلى برلين. قال "حسناً. أرجو أن تعضي في لندن عدة أيام. إن لدي الكثير الذي أود أن أكونه لك".

لاح لي الأمر وكأنه محملاً بالوعود الطيبة. عنت لكي أخرج إنجلترا بالتفصيل الجديدة عن كلاوس دانكمان، وانتهينا إلى سرد حكاية زيارتنا بالتفصيل لخسيفنا ومضيفتنا، ولكننا جلدنا ما حدث بعد ذلك.

- ١٨ -

□ كنت بالغ التعب حتى أنني ذهبت مبكراً إلى الفراش. ولكنني استيقظت في الساعة من صباح اليوم التالي. فارتبعت مصطفاً فوق سريري، وحسنت على مقعد صغير واصل في السقيفة، ورحلت أحمل بعناية ككل حزمة أو ملف من الخزنة، وأضعا الأوراق السالبة في حكومة مستقلة مرتبة. كان قد مضى علي نصف ساعة من البحث قبل أن انتهي بأول اكتشاف منمض للأمل. حزمة من الخطابات بعثت بشرط جميل، وقد كانت العنوان على ككل منها بخط يدي مستعير: "السيد هوارس جليبي، فريدريك ستراس رقم ٩ (منزل فون هير بوليش) غويتغن" كانت كتابات تلك الخطابات هي هيوفا غوتري. وأرسلتها إلى هوارس جليبي وسنت في فبراير عام ١٩٣٧. بعد شهر من حادثة اغتياله من إغوتها. كانت الخطابات

- ٢٤٨ -

- ٢٤٧ -

من فتاة وقعت في الحب، والأكثر من هذا، كانت خطابات من فتاة شعرت بانها مرتبطة
وبخطوبة. كانت الخطابات مثيرة بما يدور في بيتها من إشاعات وهمسات، وعن شقيقته
ماري، وعن كلب كان قد أعضاه لها. وجدت قراءة تلك الخطابات منيرة للشفقة، لأنها
أعطت لكائناتها مساحة من الحقيقة الواقعية - تلميذة تضع في الحب لأول مرة، فتاة ملحت
حبيبها شيئاً من الحرية في التصرف معها لأنها لا تستطيع ان ترفض له أي طلب، وتظن أنه
يفكر فيها باستمرار بنفس الطريقة التي تفكر بها هي فيه. كانت هناك ملاحظة من ماري
في أحد الخطابات تقول: "أرجو ان تكون الفتيات عندك في مثل قبح العمر" ويبدو ان هوارس
قد أجاب عليها إجابة مطولة، وراح يذكر إيرموند بحماس كبير. لأن فيونا تقول: "أنا
والدة من ان صديقك إيرموند دونيلي طالب متقدم (أذكى) ولكنني (أنا) لا أستطيع حقاً
ان أعجب به دون ان أقابله... يعني أفضل ان أسمع تفاصيل عن أعمالك أنت". فمن الواضح
ان هوارس قد استهلك الكثير من الوقت في الثناء على إيرموند.

في عيد الميلاد التالي (١٧١٧) يبدو أنهما تشاجرا بسبب إحدى الخدمات "التي لمضى لو
أستطيع ان أقدم لها أحب ان تأمس مثل هذه الخلفة للوثة بالذهب" الأمر الذي يفسر دون
شك السبب الذي جعل فيونا تحافظ على عذريتها عاماً آخر. ولابد أنه كان عيد ميلاد
ملياً بمواهب الإحباط بالنسبة لجليني بعد فشلها في محاولة الإغواء للخصلة التي قام بها في
لوزنا بروت.

وضعت خطابات فيونا جانباً لكي أتمكن من دراستها فيما بعد دراسة أكثر دقة،
ومضيت في عملية إقراغ الخزنة. بالفرب من القاع، بدت لي الحلويات أقل فوضى وأكثر
ترتيباً. وقد حكومت دهائر الحسابات في ركن واحد. أخرجت شكل هذه الدفاتر، وحينما
أزحت آخرها، رأيت صندوقاً معنياً أسود اللون مدفوناً تحت حزم كثيرة من الأوراق.
آخر جته بجهد، ووجدت أنه يبلغ حوالي ثمانين عشرة بوصة طويلاً، وأن عمقه يبلغ حوالي
تسع بوصات. لم يكن مغلقاً، فتحتة. هو جيت نفسي انظر إلى الصفحة الأولى من مخطوطة
كتاب كتبت بخط اليد، وتقول: "خطابات من فوق أحد الجبال" تأليف "جورج سيمشسون،
د.د." عثرت على الكراسة الصغيرة التي استخدمها لجمع مادتي عن دونيلي، وكان الأمر
كما قدرت هو أن الطبعة المنشورة من كتاب "خطابات من فوق أحد الجبال" كانت من
تأليف ريفنالك سيمشسون. ولكن النشرة المكتوبة حول "جمعية العنقاء الشريفة" كانت من

تأليف هنري مارتل وجورج سيمشسون، د.د. وكانت هذه النشرة قد صدرت بعد عشر
سنوات من صدور الرواية. ومع هذا فإن جليني قد غير الاسم الأول للمؤلف. وتفسير ذلك
عندي أن جليني كان قد كتب النشرة قبل كتابة الرواية، وقد غير الاسم للوجود على
الرواية لكي يتجنب تكرار ذلك الاسم الذي وضعه على النشرة.

تناولت حفنة من الأوراق بطريقة عشوائية وألقيت عليها نظرة فاحصة، وعلى الفور
تأثرت وأضحت عيني على عبارة "جماعة العنقاء". قرأت النص لم يكن هناك احتمال للشك
في المخطوطة الأصلية - وقد وضحت التصحيحات والتغييرات أن هذه المخطوطة كانت هي
المخطوطة الأصلية حقاً للرواية - كان جليني قد أشار إلى "جماعة العنقاء" وليس إلى "أمر
العنقاء". من الواضح أن كان قد قرر أن يغير اسم الجماعة. أخرجت المخطوطة شكلها من
الصندوق. لم تكن الأوراق التي كتبت عليها موحدة الحجم، ولكن تلك التي كانت في قاع
الصندوق من حجم أصغر. ثم رأيت أنها لم تكن جزءاً من المخطوطة. وأنها كانت مكتوبة
بخط إيرموند دونيلي. وقد بدأت الصفحة الأولى كما يلي:

جليني العزيز

أرجوك ان تصدقني حينما أؤكد لك، مقسماً على كلمة الشرف الأكثر صدقاً من
أي كلمة، أنك مخطئ في خوفك على سلامتي، وأستطيع أيضاً ان أؤكد لك أنك مخطئ تماماً
في تصورك عن طبيعة جمعيتنا، إنها ليست "سرية" بالمعنى العادي لهذه الكلمة، هل يمكنك
أن تقول أن الجمعية للكتابة سرية؟ ومع ذلك فإنه إذا حدث أن تسلسل شعاع إلى اجتماع
للجمعية للكتابة فإنه سوف يعتقد أنهم يتعلمون بلغة غريبة لكي يخفوا عن الغرباء،
أغراضهم الحقيقية.

- ١٩ -

■ تملكنتي نشوة للبهجة، وأنا أحصل على الاكتشاف الكبير الذي استطعت الوصول
إليه اليوم، وهو الاكتشاف الذي كنت أحلم به في لحظات يقظتي طوال الأسبوع الماضي،
وهو حصولي على دليل حاسم ومؤكد على انضمام إيرموند إلى جماعة العنقاء. وهكذا

رجعت إلى غرفة نومي وأنا أحضن صندوق الصفيح الأسود الذي وجدت فيه المخطوطات والأوراق والخطابات. استخدمت التليفون الموضوع بجانب الفراش - والذي أدخلته مضيقاً بناءً على فكرة صائبة - لكي أسأل للطبخ إن كان من الممكن أن يرسلوا إلي إهطاراً خفيفاً في حجرتي. لم يزعجني أحد أو يقطع علي وجعتي. رغم أنني سمعت الستير يمر أمام باب حجرتي في طريقه إلى السقيفة. وفي خلال الساعة الثانية عرفت عن إيرموند أكثر مما عرفتني في خلال أسابيع البحث السابقة.

لن أنقل هنا تلك الخطابات كاملة، لأسباب صيق الساحة، فإنها قد تحتل خمسين صفحة. كانت القصة التي جمعت أجزاءها من الخطابات كالتالي، كان إيرموند قد عرف بوجود جماعة العنقاء من مصدرين: روسو ورستيف دي لا بريتون. وكان الأخير عضواً فيها، مثلما اكتشف إيرموند فيما بعد. وكان إيرموند قد وصل بنفسه إلى أفكار هريئة من أفكارهم مثلما رأينا - ومثلما وضحت تلك الخطابات توصيحاً كاملاً. عرف بوجود الجماعة، ولكن لم تكن لديه فكرة عن كيفية الاتصال بها. وهكذا فقد أصدر كتاب "ملاحظات على فرنسا وسويسرا" ورسم على الغلاف صورة العنقاء، وأضاف إلى الكتاب قصة مختصرة تحكي تاريخ الجماعة وعزاها إلى الراهب اللوثري (الوهمي) الذي لم يكن له وجود.

ونحن نعرف ما حدث بعد ذلك. فقد وصلته بالبريد صورة العنقاء الجميلة المرسومة. ومن كان أول شخص يصله بالجماعة بصورة فعلية؟ من الضحك والسخيف معاً أن تكون هي أول فتاة أدخلته عالم مباح الحب خادمة سقيفته ماري، أو مينو. كانت مينو قد ستانفت حياتها القهمة بالفلمة الجنسية في باريس، وأصبحت عشيقته أحد أعضاء الجماعة الذي رأى في عبادتها الخالصة من أي هوى لأعضاء الذكر التناسلية جوهر التوهم الحق بأفكار الجماعة.

كان جليبي وإيرموند صليقيين حميمين. ولكن جليبي يستقر إلى الميزة الأساسية اللازمة لعضو الجماعة، السعي الذي لا يكل وراء الجنس باعتباره تجربة تسمى على أي تجربة شخصية. ورشحه إيرموند لكي يكون عضواً، وأمضى جليبي يومين في باريس بصحبة إيرموند، وعبد الله مؤمن (الذي يظهر في رواية "خطابات من فوق أحد الجبال" باسم عبد الله الصباح. وقد اختار جليبي هذا الاسم بعد أن استعاره من الأستاذ الأعظم لجماعة

العشاشين^(١). ولكن ما حدث في خلال هذين اليومين ليس واضحاً، فيما عدا أن إيرموند تشارك مع جليبي في حل جليبي غامضاً. وبعد شهرين التقى بإيرموند مرة أخرى في لندن. فتصالحا وسويا خلاهما، وكان ذلك بمبادرة من جليبي فيما هو واضح. وخلال هذه الزيارة، حدث أن أليلا ماري شارلوت تجسست، بعني إيرل فلاكستيد، اللتان مكانتا تقيمان مع ابنة عم إيرموند، إليزابيث مونتاخو، وعقدتا اتفاقاً فكهياً (إيتروجان بمقتضاه من الفتاتين على أن يقتسماهما فيما بينهما). وفي أحد الأيام طلب جليبي من إيرموند أن يخرجه بما يعرفه عن جماعة العنقاء. وفي لندن أليلاً رستيف أيضاً مرة أخرى - وكانت النتيجة مشاهدة أخرى، أو بالأحرى، انفجاراً غامضاً آخر من جانب هوراس جليبي (الذي أكد بكل ذلك تخميني السابق من أنه مكانت في هذه العلاقة، من جانب هوراس جليبي، قبول شاة جنسية). واستأجر جليبي منزلاً صغيراً في شارع جراب ليقيم فيه ببعوته، وكتب نشرة "حول جمعية العنقاء الشريفة" ووصلت أخبار هذه النشرة إلى إيرموند، فاقنع جليبي ألا ينشرها. ووافق جليبي، فكرس حريف عام ١٧٧٢ لإغواء ماري تجسست، بينما التقى إيرموند حصاراً ناجحاً حول شارلوت، ولكن وقعت في نوفمبر مشاجرة أخرى. وعاد جليبي إلى اسكتلندا وكتب هناك رواية "خطابات من فوق أحد الجبال" في الفترة بين ديسمبر وفبراير التالي. كتب إلى إيرموند لكي يقول إنه بينما بقيده وعده ألا ينشر النشرة التي كتبها، فإنه شعر بأن هذا العمل الرويخي الخيالي كان شيئاً مختلفاً بكل الاختلاف. (وقد كان هذا التصرف محاولة لجذب انتباه إيرموند لكي يضمن؟) وكانت النتيجة ذلك الخطاب الطويل الذي وصل من إيرموند وهو الخطاب الذي وجدته في نهاية المخطوطة.

لقد كنا صليقيين - لنا واثت - سنين عديدة - ولا القول شقيقيين. كثيرة هي الزجاجات التي أفرغناها معاً، وكثيرات هن الخدمات اللواتي حررناهن من - فضيلتهن بملاطفتنا وأرجحاتنا المتبادلة. فلماذا، إذن، تختار هذا الوقت بالذات لكي تنهمني بأني أتعامل على الوجهين؟ ما الذي حدث لتلك الأخوة التي قسمنا عليها في الفندق في هالينبرج، حينما مرقت ذراع شخص سافل، وضربت أنت سافلاً آخر على عينيه حتى أعماهته؟

(١) العشاشون - جماعة أسسها الحسن بن الصباح في القرن العاشر عشر في شمال العراق وإيران، وكان من الصياع من الفاضليين الإسماعيليين، وسعت حوزته وجماعته الفيلاد من الأساطير. وذلك بسبب سرية تنظيمهم وأفعالهم بقلعة الموت، والتي اعتبرها أتباع ابن الصباح حجة الله الحقيقية. كانت لابن الصباح وجماعته العشاشين وراء مشاطرة خاصة انتهت بها حجة النبوة الفهزية والموتية في نشر حركتهم رغم سرية الحركة في مراحلها الأولى.

تبدو هذه الذكريات عن الصداقة القديمة، عن وجبات الطعام التي تناولوها معا والنساء اللواتي اشتركا في اغوائهن، تبدو شيئاً لا قيمة له وتصرفاً لا جدوى منه من جانب ايزموند. كان هوراس جليبي مجبولاً من عنصر أكثر خشونة، كان هو يعرف ذلك. وكان ما يقوم به في تلك اللحظة شيئاً اقرب إلى ابتزاز ايزموند، وكانا - كلاهما - يبرهان ذلك. كانت علاقتهما علاقة استاذ يتابعه، لقد التقيا حينما كان التفوق، ايزموند - قد اكتشف مباحج الجسد الانثوي، فراح يعض حواريه الجديد عن موضوع اغواء النساء بحرارة ثوري وحماسته. ولقد راينا كيف استجاب جليبي لهذه الواعظ - في قصته عن فيونا وماري. ومن قائمة الاسماء التي ذكرها ايزموند، يمكننا ان نستخلص انها اشتركا بما في عدد كبير من العشيقات في غوتيفين. ولكن ايزموند لم يكن مهتماً بصورة اساسية بالجنس في حد ذاته. بالنسبة اليه كان الجنس مفتاحاً لحل لغز معين، وكان هذا اللغز هو ما يثير اهتمامه. ولكن هوراس جليبي - من ناحية تكوينه الزاجي - كان يتشابه في كثير من الجوانب مع كازانوفا، الذي كان قد قابلته ذات مرة في أوترخت، كان يحب طيبات الحباة، وقد احب من بينها النساء. ولم يستطع ان يفهم لماذا لا يستطيع ايزموند - استاذ في فن الاغواء ان يعيش في لندن عاصمة تكثراً ليشترك في نادي غيران الجحيم الذي كان السير فرنسيس داشوود قد ترك رئاسته. بالنسبة لجليبي كانت لندن هذه - مدينة شريدين وويلكيز وداشوود - هي أكثر مكان في العالم سحراً وجاذبية، صراع الديوك وسباق الخيل ومباريات الملاكمة بالقبضات العارية (رياضة كانت جديدة تماماً) وليالي دروري لين، وصحبة النساء الجميلات، هما الذي يريده ايزموند أكثر من هذا! لماذا أصبح مفسداً لجمال اللعبة إلى هذا الحد؟ وقد كشف اغواؤهما المشترك للشقيقتين انجسر عن ان زماتهما كانت قوية كعهدهما ابداً. فمن كان هذا العربي الذي لا يقاوم والذي يتحلف الفرسية بطلاقة كاملة والذي لا يبدو ان من الممكن ابعاده عن ايزموند؟ وحينما اعترف ايزموند اخيراً بأن الرجل ينتمي إلى جماعة العنقاء، بهت جليبي. كان ايزموند ما يفعله يحدث عن هذه الرابطة الأخوية التي تربط اعضاء الجماعة، فقد سحرته منذ حدثه عنها روسو. ولكن جليبي لم يصدق أبداً بوجودها. وهاهو ايزموند. الآن يصبح عضواً فيها! لقد قرر "ذلك" كل شيء. ان ايزموند لم يعد مضطراً جراً للنساء لأنه وقع بين أيدي جمعية - سرية يديرها بعض الأحياء، كان هذا العربي العملاق ذو الندبة الواضحة نموذجاً لأعضائها، كان رد فعل جليبي مزيجاً من الخوف والاشتياق والغيرة - مع غلبة هذه العاطفة الأخيرة. فراح يتحدث

بصرامة في كل مكان زاره في لندن عن جماعة العنقاء - ولابد ان جونسون التقط في أحد هذه الأماكن ما كان يقال عن ايزموند همساً وفي الشائعات - فكتب نشرته. ولو ان ايزموند كان أقل إخلاصاً لصديقه لكان قد عاد إلى برلندا وقطع علاقته به. ولكنه بدلاً من هذا حاول ان يهدئ ثأرته. وربما كان الاصدق ان نقول انه حاول ان يفهم جليبي ما طرا عليه من تغيرت منذ أيام وجودهما معا في غوتيفين.

"كنت أؤمن دائماً بالرأي القائل بأن هذا العالم في قرارة عالم سحري، وأنا إذا لم تكن سحرة فإن الخطأ يقع على عاتقنا نحن. ان ديلرو يجعل دالامير يقول، لماذا اكون على ما أنا عليه؟ لأن هذا يبدو لي في صورة أكثر الأشياء تحكيمية وإطلاقاً في العالم" انني قد اكون أي شيء أو في أي مكان. قد لا يكون شكلي أكثر ثباتاً من قبضة دخان تتصاعد من نار مشتعلة في صباح ساكن الهواء، قد تبدو قبضة الدخان ساكنة ثابتة مثل عمود من الرمر، ولكننا نعرف ان أقل هبة هواء يمكن ان تغير شكلها وان تبددها في الفضاء دون نهاية. لقد جلست ذات صباح على أحد الجسور ورحت انظر شلال المياه الذي يسقط بالقرب من مونت بلانك، وتملكتني فجأة فكرة ان الناس تحاصرهم هوى يعجزون عن فهمها، ومع ذلك هبائهم يتوهمون أنهم باقون بقاء الصخور في العصور التي عاش فيها الناس ككسبيادين ومحاربين لم يكن لديهم من الوقت ما يكفي للتوقف والركود، لقد ادركوا طبيعتهم الخاصة، ولم يظنوا قبضة الدخان عموداً من الرمر. وفي هذا الجانب يمكن ان نقول أنهم فهموا العالم بشكل افضل من فهم مسر ديلرو أو مسر فولتر له. ولكن الأبله وحده هو من يجب ان يعود إلى الحياة التي عاشها التوحشون الرعاة، وبالنسبة لنفسه، فإني لست بالصياد ولا بالحارب ولكنني طالما لاحظت اني حينما يفرق مهري النطلق في بيته الذي كان ينتظره، سواء كان ذلك البيت بين فخذي سيده ذات لقب رفيع أو خادمة في اصطبل، فإني كنت أرى لحظتها ان العالم ثري دون حاجة إلى برهان، وأنه دافئ ولا نهائي. تسقط الغمامة التي تعميني عن عيني، وينزاح الثقل الذي يكبل حواسي. أأرى في لحظة واحدة وعلى التو ان الإنسان قد ترك ما كلفه له ميلاده من حقوق نهياً للسارقين والناهبين. ولكن إذا كانت هذه الرؤية السحرية هي حقي بحكم الولد، فلماذا ينبغي علي ان اتقبلها في شكل شذوذة متفرقة غير موصولة، مثل كلب يختطف سراً من اللحم يلقها إليه على الأرض سيده؟ إنها ملكي، ان أمسكها وأقبض عليها باليمين؟

هذا ما أمنت به دائماً، وأنا أعرف الآن ما يكفي من اللاهوت لكي أعرف أن حق اللول
هذا هو ما فقدته البشر بسبب خطيئة آدم. ولكن كيف لنا أن نأمل في العثور على ما فقدناه
"بالبحت النهجي النظم؟ لقد أمنت دائماً بأنه لا بد أن يكون ثمة سبيل لاستعادة تلك القوة
الضائعة. ولقد اكتشفت الآن أن هناك رجالاً سكرسوا حياتهم للبحث عن هذا السبيل، وأنه
يمكنهم أن يعلموني شيئاً من أساليبهم فهل يمكنك حقاً أن تصبني أن مثل هؤلاء الرجال
يمكن أن يكونوا أسراراً، وأن هدفهم هو أن يستولوا على روحي الخالدة؟ وما الذي يمكن أن
يعنيه هذا حتى ولو كان صحيحاً ما تقوله عنهم؟ لأنني، ولا أنت، أصلق أن الروح يمكن أن
تسلم رهينة أو سبية، إلا إذا أسرتها البلادة والغفلة وكثرة الاهتمام بما لا أهمية له.

مكلاً، إنني أسمى وراء شيء أكثر أهمية بكثير من بكاريت المتبات اللواتي لم يسهن
بشر قلمي.

ولكن ما الذي كانت جماعة العنقاء تفعله بالتحديد؟ يعر إيرموند عن هدفها
أساسي في جملة واحدة، "ليس هدفنا هو تلويت الأحاسيس الدينية، أو الانحدار بها عن
طريق التلذذ الحسي، وإنما هو الصعود بالتلذذ الحسي إلى مستوى الأحاسيس الدينية". ولكن
كيف كان من المفروض أن يتحقق ذلك؟ يعتمد إيرموند أن يكون غامضاً في هذا الصدد.
كان لديه السبب الذي يدفعه إلى عدم الوثوق في جليبي. ولكن كان من الواضح أنه حينما
جاء إلى غلوسين - في إبريل عام ١٧٧٢ - أخبر جليبي بالتفصيل أكثر بكثير مما كان على
الاعتماد لأن يسجله كتاباً، وكتبت جليبي بنورة بعضاً مما أخبره به إيرموند، بلية أن
يستخدمه كمادة في كتابه الروائي الذي أزمع كتابته. وظن أنه من المستحيل أن نشتك في
أن جليبي كان يخوي دائماً أن ينشر الكتاب، وأنا شخصياً مجرد في أمر إدانته. إن الكتاب عمل
جليبي بالإعجاب، رغم كل ما يحتويه من سخافات عابثة. وقد يكون من حق الرء أن يقول
أنه يكون ما توكله هوراس جليبي من مهام إلى الأجيال القادمة. فهل يمكن أن يوجه التوم
إلى كتاب لأنه لم يدمر أحسن أعماله بيده؟

من خلال مذكرات جليبي - التي سوف الخصها أكثر مما اقتطفها كاملة هنا -
يبدو واضحاً أن جماعة العنقاء تشارك في الكثير مع جماعة "الصلب الوردي" أو الماسونيين
الأحرار. كان هناك أستاذ أعظم، لديهم آليه بالبابا، تنخبه لجنة تعرف بـ "لجنة للشرقيين"،
ولسبهم بالإنكليزية The dominoes جاءت ربما من كونهم كانوا يرتدون عباة ذات

أشعة تغطي رؤوسهم، من النوع الذي يرتديه الرجال في الحفلات التذكيرية. وكان لكل بلد
مشرف واحد. في فرنسا كان الشرف هو الكاتب شوميرول دي لاسكوا، مؤلف رواية العلاقات
الغرامية الخطيرة" وقد أصبح إيرموند فيما بعد هو المشرف في إيرلندا.

والشيء الواضح تماماً، من مذكرات جليبي ومن كتابه "حجابات من فوق أحد
الجبيل" هو أنه كان هناك دائماً نوع من الخلاف الأساسي في الرأي داخل الجماعة حول
نقطة جوهرية من نقاط القانون الأساسي. كانت الجماعة تؤمن بأن الإنسان ينظر إلى
معنى العالم باعتباره "لفراً سحرياً" بصورة أكثر دواماً من خلال الفعل الجتسي مما يحدث
من خلال الدين أو الفن. (والكلمة الهامة هنا هي كلمة "النوم". إن أحداً لم يفكر أبداً أن ما
تحققه التحليات الصوفية من أنواع النشوة يمكن أن تبلغ أعماقاً أعظم من أي أعماق يمكن أن
يبلغها الإنسان عن طريق الجنس. ولكن الإنسان من ناحية أخرى، يستطيع أن يقرب من
أسرار الجنس بكل يوم.)

وقد لاح لي أن كل أعضاء الجماعة وافقوا على أن مجرد الاتصالات الجنسية غير
الشرعية، دون سيطرة، ستؤدي إلى الضجر واللال. ولكن كان هناك اختلاف كبير في الرأي
حول العلاج المفترض لذلك. كان التقليد الذي تبنته الجماعة - منذ أربعة قرون - هو أنه
لا بد أن ينظر إلى النساء باعتبارهن أوعية تحتوي سر الأعظم الغامض. وقد دفع آباء
ورهبان جنوبي روسيا بهذه الفكرة إلى اكمل تطور لها في القسم الأخير من القرن السادس
عشر. ومن جانب آخر، فإن الهولنديين، وهم جماعة نشأت بين قبائل الأمان (استمد اسمهم
من اسم ربة الزواج التيوثونية)، كانوا أقرب إلى أولئك "الرهبان" الأوائل الذين ارتكبوا
جرائم الاغتصاب كلما أمكنهم ذلك، فقد آمنوا بأن الجنس يصبح أكثر إشباعاً ووصولاً إلى
السر الغامض كلما كان عنيفاً ومفاجئاً. وفي القرن الثامن عشر، كان الانضمام إلى جماعة
الهولنديين، يعني أن العضو يحاول ولوج أكثر عند ممكن من الأعضاء الأنثوية، والأفضل
أن تكون لعنراوات. وكان هوراس جليبي هولندياً دون أن يعرف ذلك، وكذلك كان
إيرموند في أيامه الأولى. وكان لاسكوا هولندياً، وكذلك كان الأستاذ الأعظم، عبدالله
يحيى، وخلفه هندريك فان جريس، أما الرجل الذي كان مسؤولاً عن انضمام إيرموند،
عبدالله مؤمن، فقد كان ينتمي إلى تقاليد آباء الكنيسة الروسية ورهبانها الهيگومونيين
Hegumenos.

وكان الهيكومونيون الأوائل (الذين أخذوا اسمهم من قائد لهم الأول) الأب الرهبان
 لثيود من البير، والذي كان عضواً راهبياً بين جماعة من رهبان الأبراج) قد اختاروا فترة
 صغيرة جميلة كنوع من الكاهنة الأولى. واختاروا اثنتي عشرة فترة أخرى بوصفهن وصيغات
 لها. وكانت هؤلاء الأخريات كاهنات أيضاً، وغلبت النسوة بوصفهن مكانات مقدسة.
 ولكن الأعضاء الذكور في الجماعة كانوا يتمتعون بقدر معين من الحرية مع هذه الكائنات
 الهندسة، وهي الحرية التي كان من الممكن حتى أن تصل إلى مرحلة الجماع الجنسي الكامل.
 ومن أجل الوصول إلى هذه المرحلة، كان على الذكر أن يصوم ثلاثة أيام من كل أسبوع
 طوال عدة شهور قبل أن يتم الاتصال، ثم يمر بسلسلة من المراحل المحددة بدقة يقرب فيها
 من السر بالتدريج. فإذا استطاع أن يرقى عارياً على درجات "العبد" الحجرية في ليلة شتائية،
 من الفسق حتى الشروق - فإنه سيسمح له بأن يقوم بدور الخادم لثلاث من الكاهنات لمدة
 ساعة مثل يوم، فيحمل البهن الطعام وينظف حجرتهن. وكان يسمح له بأن يأكل بقايا
 الطعام. وبعد مزيد من الاختبارات، تتضمن غرس شظايا من الخشب تحت أظفار، ولسع
 نفسه بالنار عند الأجزاء الباردة من ثراعه، فإنه سيسمح له بأن يصبح "خادماً خاصاً" لثلاث
 كاهنات أخريات، فيفصل شيا بهن، ويخيطها ويقفل لهن شعورهن. وكانت الإجازات
 لجسدهن تعتبر أشياء مقدسة، وكانت وظيفة هذا الخادم الخاص أن يأخذ تلك الإجازات إلى
 مكان قصي من الغابة فيدفننها هناك حتى لا يستطيع أي ذكر آخر من القبيلة أن يعثر
 عليها. ولكنه - وحده - كان يسمح له بأن يلوث نفسه ببرازهن، ثم يحمم جسده ببولهن.
 وهذه ميزة كان يحسد عليها كل ذكور القبيلة الآخرين. وكان مزج السائل السوي
 للعياد بإجازات "القدسات" ينظر إليه باعتباره المرحلة الأولى من مراحل الاتحاد بالكانن
 للقدس. فإذا استطاع أن يمر بالزيد من مهام المتزايدة الصعوبة والألم، فإنه كان ينال الإذن
 بممارسة المزيد من الامتيازات، حتى قد يصبح واحداً من الرجال الثمانية الذين يقومون
 بدور "الخدم المخصوصين" للكهنة الأولى المقدسة نفسها. وفي هذه الحالة فإنه قد يكون
 الشخص الوحيد الذي يختار بالفرعة من بين الثمانية لكي يشارك معها في طقوس الاحتفالات
 التي تقام ليلة اكتمال القمر بعد الحصاد، ثم يجامعها مرتدياً جند عجل. كان عضو
 الكاهنة الأولى وعضو عابدها الذي شاركها في إقامة الشعائر يجفان بقطعة مقدسة من
 نسيج التيل بعد الاحتفال، ثم تمرق قطعة النسيج وتقسم إلى ثمانية أقسام ويعطى لكل

واحد من الخدم الثمانية قطعة منها. يعلفها كل منهم على رأس عضوه طوال ما بقي لهم
 من زمن يقضونه في وظيفتهم السامية.

وأظن أنه من الممكن أن نرى أن الفكرة الأساسية لدى الهيكومينيين، كانت هي
 محاولة بناء حالة من الشبق والتوتر الجنسي مرتبطة بالولع الديني، وأن كل مرحلة صعبة
 أو مؤلمة كانت مرسومة بحيث تمنع الصامح في الوصول من أن يصبح بأي شكل مسروراً أو
 غير مبال بمهمته. فإنه إذا فقد حالة تعاظه في أي وقت في حضرة الكاهنات، فإنه يجلد ويعد
 إلى القبيلة محقراً مهاناً. وكان معنى هذا أنه أصبح يعتمد على خياله إلى حد كبير. ويجب
 أيضاً أن نلاحظ أن وضعه الحقيقي كان إليه بوضع خادمة إحدى السيدات، فكان يعامل
 باعتباره امرأة، حتى يشعر بالهانة، وحتى تصبح ميوله الجنسية قوية ومنمعة. وتقدم
 الفكرة كلها على أنه لا ينبغي أبداً أن يعامل الجنس كشيء "فوق المستوى" أو كشيء
 عادي، أو أن ينظر إليه كشيء من التسلمات. كل شيء مرتبط بشعائر الطقوس أصبح
 مقدساً مخيفاً، ومثيراً جنسياً. وأصبح عضو الكاهنة هدفاً مقدساً نهائياً، وينظر كل ذكور
 القبيلة بحسد إلى الخدم الثمانية لأنهم يحملون على رؤوس أعضائهم قطعة النسيج المثلثة
 بإفرازها الجنسي.

وقد فضل إيزموند تعاليم الهيكومينيين على تعاليم اليهودانيين. وقسم كبير من
 الخطاب الطويل الذي كتبه إلى جليتي مكرس للمناقشة ضد النوع من الإغواء الذي كان
 إيزموند يدعو له من قبل. ويظل يردد أن هذا النوع ليس له تأثير دائم، أنه يؤدي إلى
 الإشباع.

والقصة التالية تعد واحدة من أكثر قصص العلاقة بين إيزموند وجليتي أهمية.
 ومن أسوأها تسجيلاً. وقد أمكنني أن أجمع أجزاءها من عدة مصادر، بما في ذلك بعض
 خطابات إيزموند - تلك التي وجدت في الضفدوق في السقيفة - وخطابات ويوميات كتبها
 هوراس جليتي، وخطابات أخرى كتبها ماري ومورين لنجس. أما القصة التي يمكن
 استخلاصها منها فهي كالتالي:

حينما تم الصلح بين إيزموند وهوراس جليتي في لندن في شهر أكتوبر عام ١٩٧٢،
 كان إيزموند يقيم في منزل ابنة عمه صوفيا في سانت جيمس. كانت صوفيا تسمى
 صوفيا بلاك وود بعد أن تزوجت السير آدموند بلاك وود، وهو مالك نري لأحد مصانع

أشرب، وكان والده أحد من ساندوا الموسيقار هاندي. وكانت لادي ماري وشارلوت أنجست تقيمان مع إليزابيث مونتاغو، صاحبة الجيوب الأزرق، التي كانت تلقيتهما علم الفلك (التنجيم). وهاتين أيزموند بشارلوت اللذيذة الربيعة، التي كانت عند ذلك في التاسعة عشرة ونصف من عمرها. أما جليبي فقد أسرته لادي ماري، الذكبة الجميلة والأكثر تماثلاً لنفسها من أختها، رغم أنها كانت تصغرها بصام كامل. (وهذا الاختلاف يعبر بشفة نموذجية عن الاختلاف بين شخصيتي الرجلين، إن أيزموند الماهر السيطر، قد فضل الحلاوة والرفاه، وجليبي غير الوافي بنفسه تماماً، دوخته الأكثر ذكاءً وذكافة بين الاثنين).

ويبدو أنه من المحتمل أن جليبي ما كان يمكن أن يرمي إلى مثل هذا الهدف البعيد لولا تشجيع أيزموند، فقد كان يشعر براحة أكبر وهو بفوي من هم دونه في الوضع الاجتماعي. أما ما كان مصدر التأثير على أيزموند، فهو أن أكثر الرجال نباهة كانوا ينجلون من ابنتي أنجست لما تشهر عنهما من ذكاء وفروعة كبيرة. كانت جماعة الرياضيين تعقد مراهنات سخيفة عليهما، وكانوا يشعرون بصعوبة منال الفتاتين لراحتي العقل والركز الاجتماعي، أما المحترمون من الشباب - الذين من المحتمل أنهم كانوا يبدون في صورة قريبة من شخصية "نارسي" التي رسمتها جين أوستين أو مسر بنجلي - فإنهم كانوا يعمرون الفتاتين بكلمات النناء والتعاطف وكانوا يحاولون فتح المناقشات انتقافية معهما. أما استجابة أيزموند فكانت أكثر بساطة. لقد فكر فيهما معاً باعتبارهما فتاتين لدينتين، وقال لجليبي أن الرجل جنير بأن يقضي ليلة مشهودة بينهما معاً.

وكان جليبي يعرف أنه حينما يقول أيزموند شيئاً من هذا القبيل، فإنه لا يكون يعبر عن مجرد أمنياته التي لا سبيل لتحقيقها. ولو كان هناك أي رجل في لندن قادر على إغواء ابنتي أنجست، فإن هذا الرجل هو أيزموند، كان يتمتع بالذوات المثالية لإغواء الفتيات للثقافات للدرجات على التعامل الاجتماعي، العقل الجيد. فقد كان هو وليتسنجج أبرز وأفضل طلبة الرياضيات بين جيلهما في غوتيفين. وكانت مينا أنجست تعرفان ليتسنجج بالفعل - فقد حدث أن قدم إليهما عن طريق شخص لا يقل مرتبة عن تلك نفسه، في هامبتون كورن. وفصحيت الفتاتان منظار الملك العظيم هناك تحت إشراف ليتسنجج. ومن الواضح أن أيزموند لم يكن يجد صعوبة في أن يلتقي كثيراً بابنتي أنجست، طالما أنهما كانتا تقيمان عند إليزابيث ابنة عمه صوفيا، وكان منظر أيزموند الخاص - الذي قام بصنعه مصنع

شوارمز في لندن - هوباً قوة غير عادية، فأقامه في حجرة السفينة في منزل صوفيا بلاك وود. ولدت رسوامة التوضيحية وخزقته بالديابيس في الحائط، ثم دعا إليزابيث مونتاغو وسيفتيهما الساحرتين لدراسة النجوم معه ومع ليتسنجج، وكان إليزابيث متلهفة إلى هذا العمل. وكان من حسن تصرفه أيزموند أن أعد وجبة صغيرة في "مراقبة" - من دجاج الحجل وطيور الغاية (نقار الخشب) والسمان، والخنزير الإيرلندي وبعض الطيبات أرفقة الأخرى. طرحت السيدات أسئلة عديدة، وحققن في المنظار لمدة تزيد على الساعة. ثم فتحت الحادثة إلى الفلسفة، وراح أيزموند وليتسنجج يتناقشان في لينز وفولشيم وهيوم، وفي نقلة الافتتاحية للألماني الكبير إيمانويل كانت التي يقول فيها الحقيقة غير قابلة للمعرفة، وأن الحواس هي التي تعطي شكل معرفتنا لكل الظواهر. (كان كتاب "النقد" الذي تطورت فيه هذه الآراء لم يكن قد صدر بعد، إذ لم يصدره كانت إلا بعد ذلك بتسع سنوات) تارة إليزابيث مونتاغو تأسراً عسيفاً، وقالت أنها لم تستمتع أبداً إلى مثل تلك المناقشة العبيدة الشاملة للقلبة، كلا، ولا حتى من بيرك وجاريلك، ولا حتى من جونسون نفسه. لقد كانت شبيهاً قليلاً على الرأس، تلك الفلسفة النقدية الألمانية. ولكن التأثير المطلوب كان قد تحقق وقالت إليزابيث مونتاغو فيما بعد أن أيزموند كان واحداً من أكثر "العازيين" الذين نباهة في لندن. وافتنع أيزموند بالفعل بأنه قد ترك انطباعاً طيباً عند شارلوت. أخذ يدها للحظة متظاهراً بأنه يساعدها على الهبوط في ركن مظلم من السلم، فسمحت له بأن يستقي يدها في يده لمدة ثوان أكثر من اللازم.

ولم يكن هوراس جليبي حاضراً في تلك المناسبة، ونحن نعرف السبب بالتحديد، لأن أيزموند بفصره في واحد من الخطابات الموجودة في مخطوطة "خطابات من فوق أحد الجبال". كان أيزموند يعرف أن جليبي لن يستطيع أن يترك تأثيراً هوبياً على السيدتين، لأنه على شيء من الخجل (ولكن ما كان أيزموند يعنيه بوضوح هو أن جليبي ما كان يمكن أن يلاحظه أحد وسط جماعة تضم ليتسنجج وإليزابيث مونتاغو وهو نفسه). كان عليه أن يحسن إعداد "مدخله"، واكتشف أيزموند ما كانت ماري أنجست تقرأه. وأضى جليبي أربعاً وعشرين ساعة في تفحص الكتاب ووضع ملاحظات ذكبة. خرج أيزموند للركوب العديدة مع الشقيقتين بعد يومين من ليلة المنظار، وحكي لهما عن شخصية صديقه جليبي الرفيق الخجول النبيل. قال لماري أن جليبي قد نشئ بأسلوب ديني متزمت، وأن معرفته بالفلسفة الألمانية تدمر عقيدته، ثم اخترع حكاية مؤثرة بشكل خاص عن جليبي في

كأنه نسبة تشاكر، وهو يسأل والدموع في عينيه، "هل كل هذا الحال مجرد نصب تشكاري لفكرة الإنسان علي أن يحدد نفسه؟". وهكذا فإنه حينما أخذ جليبي لزيارة أيرميث مونتاغو بعد ذلك بيومين، لم تكن هناك حاجة لتشجيع ماري لكي ذهبت به. فقد استهزت أول فرصة لكي تأخذه إلى رصكن هادئ، حيث تستطيع أن تسأله بإخلاص عن شكوكه، وكانت القابلة أكثر نجاحاً مما كان يتوقعه أي منهما. فقد وافقت علي أن تخرج للركوب مع جليبي في الحديقة في اليوم التالي، وقضت الليلة في حفظ الحنج التي أزيها بتل وتيلوتستون للرهنه علي وجود أثر صناعة الله في الطبيعة. وفي مقابل هذا، قام جليبي ببعض العمل التأثيري لصالح أيزموند، بإشارات غامضة عن أحزان سرية وحب مفقود. ولا شك في أنهما كانا يكونان قريباً قوي التأثير.

وتم اختبار أيزموند لكي يشكل مكاناً مثالياً بتكليفه بتمضية قدر كبير من الوقت مع شارلوت. وكانت أيرميث هي ابنة عمه، وكانت الفتاتان قد أصبحنا صديقتين لصوفيا بلاك وود. ولم يكن بمقدور أحد أن يظن أنه من غير الطبيعي إذا سارت شارلوت من ماني هير حتى سانت جيمس لكي تزور صوفيا وتناقشها في الثوب الذي ينبغي أن ترتديه في حفلة الحريف التي تقيمها لادي ساندويتش. فإذا لم تكن صوفيا في البيت، فلماذا لا تمضي ساعة أو نحوها في مناقشة الملك واليتاهيزيقا مع ابن عم صوفيا؟

وعندما وصل شهر أكتوبر إلى منتصفه، كانت شارلوت تعرف ماري بأنها ستكون مبالغة إلى القول لو أن أيزموند تقدم لخطبتها، ولحث ماري بذلك إلى جليبي الذي أصر أيزموند، وذهبت حينما لم ير أن صديقته يغمره سرور من نوع خاص لسماعه هذه الأنباء. ولكن أيزموند كان يرى الأمور بوضوح صافٍ إلى درجة مكانية لكي يرى أن الموقف كان يتطور بسرعة أكثر من اللازم، وأنه بدأ يبلو موقفاً خطيراً. فإذا كانت صوفيا وأيرميث وماري قد عقدن عزمهم على القيام بخطبة، فإنه قد يجد نفسه مرتبطاً بخلوبة قبل نهاية الموسم. كان الوقت قد حان للقيام بإرجاع مؤلفات.

عند هذه النقطة قرر هوراس جليبي أن يريد من وضوح قصته عن "الحب المفقود" وأن يصيغ إليها تفاصيل ضرورية هاسر إلى ماري أن أيزموند مرتبط ماينة كاهن سويسري، وأن والد أيزموند قد انخرض على فكرة ارتباط ولده ماينة قسيس كاثوليكي وأنه قد نجر مانه من اليراث. وأن أيزموند، مثلما قال جيبون، "تنهج كما يتنهذ العاشق، وأطاع

كما يجتر بالآتين أن يطبع"، وأن العاشقين قد انفصلا منذ ما يقرب من العام، وأن الفتاة قد كتبت إلى أيزموند تقول له أنها قد خطبت إلى تاجر ثياب من جنيف، ولكن أيزموند قد بلغه أخيراً أن هذا غير صحيح، وأنها ما تزال دون زوج وأنها لم تخطب، وأنها ربما كانت تنتظر أيزموند.

استبد الغضب بأيزموند حينما أخبره جليبي بما فعله. لم تكن لديه رغبة في أن يتر غير شارلوت ولا أن يشعرها بالتماسة، وإنما أراد فقط أن يختفي لمدة طويلة حتى تناس منه الماخطبات. أما الآن فقد اعتقد الجميع أنه أراد أن يعود إلى سويسرا لكي يلقي نظرة أخرى حليدة على حبه الضائع. ولم يكن من صالحه أن ينكر وجود مثل هذا الحب، فإن أحداً ما كان ليصدق.

وفي إحدى الأيام عندما كان راكباً مع شارلوت في مارلبون فيلدر سألته أن يظل في لندن حتى يستطيع أن يصحبها إلى حفلة لادي ساندويتش. وعرف أيزموند أن هذا اقتصر يمكن أن يكون قاتلاً، فشرح لها استحالة ذلك، وعادت شارلوت إلى البيت باكية. وفي اليوم التالي ذهبت ماري التجسر لزيارة صوفيا، وأشركت الاثنين في الإلحاح عليه للبقاء. وقالت صوفيا أنه من أسخف وقلة العقل أن يرحل لندن في قمة الموسم، وأن عمله في إيرلندا يمكن أن ينتظر. وحاول أيزموند أن يقلل من الضغط الواقع عليه بالقول بأنه سوف يعود إلى لندن حالما ينتهي من أعماله، لكن لم تكن في هذه أية فائدة. فقد كانت شارلوت مقتنعة بأنه إذا غادر لندن الآن، فإنه لن يعود إليها ثانية أبداً.

جاءت إلى المنزل في عصر اليوم التالي وكانت صوفيا بالخارج - وحاولت إقناعه بالبقاء. واعتذر لها أيزموند بلباقة قائلاً أنه لا بد أن يرحل للقيام ببعض الأعمال العائلية الضخمة المتعلقة بالزراعة. سألته بصراحة عن طبيعة هذا العمل، ولماذا لا يستطيع أن ينتظر ثم لجأت إلى المكاء، ووجد أيزموند نفسه بلاطفاً ويهدتها ويربت عليها. كان في أربعة والعشرين وكان كثير الشكوك. وكانت هي فائقة الجمال. وقد كتب يقول في خطاب إلى لاكتو بعد ذلك بعدة سنوات،

لقد كنت أؤمن دائماً بالرأي القائل بأن أكثر الفتيات فضيلة وبراءة، هن أولئك اللواتي دريثن طبيعتهم أفضل تكريب على هن الإغواء، فإذا وقعن في الحب، فإن مقاومتهن تكاد مستحيلة. المرة الوحيدة التي وقعت أنا فيها فريسة للإغواء، حدثت على يد عدو من

هذا النوع. وقد حدث أن صديقاً غيباً جعلها تصدق أنني أنوي أن أسرع إلى الزواج من امرأة أخرى. كنت قد برهنت لها على حداثتي بحبيها. وجاءت ذات يوم - كنت فيه وحيداً في المنزل لكي تقمني، وحتى تلك اللحظة لم أكن قد فعلت معها أكثر من تقبيلها، وحاولت في البداية جاهداً وبأمانة أن أقنعها، ففئت لها أن صديقي كان ابله، وأنني لم أكن أنوي أن أذهب إلى سويسرا. فسألتني عن السبب الذي يجعلني - في هذه الحالة - مصراً على الرحيل والذي يمنعني من البقاء عدة أسابيع أخرى. ثم راحت تبكي فدخلتها بين ذراعي حينما قبلتها ككفت عن البكاء. ثم بدأت تقبلي بشغف وحرارة وحتى أنني بدأت أشاءل عما إذا كانت فاضلة حقاً بالشكل الذي كنت أظنها عليها. دلتني توفي على أن الوقت قد حان للوقوف عن تبادل القبلات. ولكن حينما حاولت أن أهدئها، أغلقت فمي بالقبلات وضممتني بشكل أقوى. ثم قالت أنها تشعر بأنها على وشك الإغماء، ثم جلست على أريكة، فلت أنني سأذهب للبحث عن بعض الماء، ولكنها رجعتني أن أبقى وأن أجلس إلى جانبها. والآن، هل يمكن أن تعتقد أنه من غير العقول - في ظل تلك الظروف - ألا افترض أنها لم تكن بريئة - أو أنها لم تكن تعتمد التأثير الذي أحدثته بالفعل على العضو الذي أعينها به؟ دلتني منطقتي على أنني إذا جانبها بما اكتشفته عن نواياها، فربما صدمت وتخلت عن نواصعها ولجأت إلى الظاهر الكذب. ولذلك، فإني بعد أن ركعت إلى جوارها ووضعت رأسي على صدرها، دسست يدي تحت صدر نوبها المفتوح وحررت أحد نهديها من حمالته المشدودة. وحينما لم تحسج، ارتكبت أنها سمحت لي بذلك لأنها أحست أنها بهذا الشكل تكسبني وتأخذني من الفتاة الوهمية التي تتخيلني في حفيف. وثار فضولي لاكتشاف المدى الذي يمكن أن يصل إليه بها هذا التفكير. تحولت بشغفي إلى قدميها لم تكن ترتدي جورباً وكانت ساقها ناعمتين لينتين. وحينما بلغ رأسي ركبتيها، دسست أصابعي في رأسي، فظننت أن هذا مكان يهدف من القيام بأي تقدم آخر. ولذلك فقد تقدمت فعلاً ولكن بتصميم أشد. ولكنها لم تبذل أية محاولة لإبقائي، حتى حينما رفعت ذبول ثيابها الداخلية إلى أعلى، حتى وسطها وكشفت عن ثل صغير ناهد (...). قالت الآن "لا، لا" وحركت رجليها إلى جانب من الأريكة، ولكنها - فيما عدا هذا - لم تبذل أية محاولة جادة لمنعني (...). ورفعت بعد ذلك في مكانها. وقد احتضنتني بقوة، عارفة أنها ليس لها الآن أن تخشى أي هجران، وربما كان من المعقل أن تتخيلني أقدم لخطبتها. شعرت بأنها كسيت انتصارها بسهولة بالغة. ولذلك فإني بعد أن استلعت فواي الحيوية، ذهبت إلى الباب فأغلقتة بانفتاح وألقيت مزيداً من كتل الخشب في

النار، ثم علت إليها - كانت واقفة تنظر في منظار فتكفي مكان منصوباً على حامل منخفض - وشرعت أحل الشرحة نوبها. احتججت وتكسني تجاهلتها. لأنني شعرت بأنها إذا كانت قد عازمت على أن تصبح زوجتي، فإن عليها أن تبدأ في أداء واجباتها على الفور. ولم تكن الاحتياجات مقصودة بشكل جيد، لأنها سمحت لي بأن أخلع عنها كل ثيابها فطوية فطوية بعد ذلك جعلتها ترفد أمام نار التدفئة، ورحلت أبدل جهودي مع نهديها بإرادة قوية...

وبعد أن سمحت لها بإرتداء ملابسها، هبطنا إلى الطابق السفلي ووقفنا الجرس مطلي للنشاي، وأمضينا نصف ساعة نتحدث عن الزواج. وبعد ذلك، ولما كنا ما نزال وحينئذ، قلت لها أن تأتي معي إلى حجرتي لكي نبذل محاولة أخرى واحدة. فجاءت معي على غير رغبة منها...

هكذا نعرف كيف تحقق ما كان يبدو من الظاهر مستحيلاً وسلمت لأدني شارلوت انجست غريمتها لرجل كان مصمماً على أن يرهقها، وادراً ما تدخل خطبات أيزموند إلى أكتلو إلى مثل تلك التفاصيل الجنسية. فقد كان كل من الرجلين مهتماً أكثر بمناقشة الخصائص النفسية للنساء. ففي سن الرابعة والعشرين، لم يكن أيزموند يملك الخبرة الكافية لكي يدرك أن شارلوت انجست كانت تتميز ببعض خصائص الشخصية النسائية الواضحة، لقد أرادت أن يمتلكها الرجل القادر على أن يمرها أن ترفد على الأرض وأن تفتح ساقها. أصبحت عشيقه أيزموند، وراحت تتابعه في كل مكان بنفس الطريقة التي تابعت بها لأدني ككارولين لامب فيما بعد اللورد بايرون. ومما يثير أيضاً - بنفس القدر من الأهمية - إلى مزاجها الاستسلامي أنها بعد أن أصبحت عشيقته كلفت عن حديث الزواج، فمرة أخرى، أثارت نزعتها شاسوية في دخلها وضيعها الشاذ غير السوي.

ولابد أن نأخذ ما حدث بعد ذلك باختصار. ربما كانت بعض الإشاعات قد وصلت إلى أدني إيرل نوف فلاكستيد عن ابنته مع أيزموند. فقد أخبرها ذات يوم بأنه قد اختار لها زوجاً. وهو بارون اسكتلندي محرم بمضي جل أيامه في الصيد في أحرانه الشمالية. فقالت أنها تريد أن تتزوج أيزموند، ولكن أياها اجابها بأن عليها أن تنسى كل شيء من هذا القبيل إن أيزموند لم يكن شيئاً مذكوراً. إذ هو ابن أحد ملاكي الأراضي الإيرلنديين لا يمكن أن يكفي من المال لإعالة بيت محرم في لندن. وكانت هناك مواقف مشهورة كثيرة، وتعددت نوبات الغضب والبكاء، فأخذت الفتاة وأعيدت إلى بيت الأسرة في ويستون على نهر ترينت.

حيث سقطت مريضة لعدة أسابيع، وكتبت ماري الجسر إلى صوفيا، تطلب منها أن تمنح إيرموند بالعودة إلى إيرلندا، لأن أباهما كان مصمماً على إبعاد شارلوت عن لندن طالما كان إيرموند موجوداً فيها. ورحل إيرموند، ومن الغريب تماماً أن ماري أصبحت معادية لشقيقتها بعد تلك الأزمة. ربما كانت حادثة السهولة التي أسرت بها هذه الفتاة الرفيعة الحلوة الطليح شخصاً مثل إيرموند الذي كان ملائماً أكثر لماري نفسها.

فماذا كانت الفضيحة التي عرفت عن لادي ماري والتي أخرجتني بامرها الأنسان دويللي؟ كانت الفضيحة هي أن ماري قد فضلت إيرموند على هوارس جليبي الذي تزوجته في أغسطس عام ١٧٧٢. وكانت هذه غلطة جليبي إلى حد كبير. فبعد أن سكن زوجته في الجناح الغربي من قصر كلوسي، ودعا شارلوت لكي تأتي للإقامة عندهما، لم يتأخر عن دعوة إيرموند. ولبي إيرموند الدعوة على الفور، وستأنف علاقاته بشارلوت فور وصوله. أمضت الفتاة كل ليلاتها في حجرته، لتعود إلى حجرتها عند الفجر.

وقد وصلنا وصف الحادثة في خطاب كتبه إيرموند إلى لاسكوا، حيث ينتقد إيرموند قصة وردت في كتاب بريفو "تذكرات ومغامرات رجل ذي حيلة" يصف فيها كيف دفعت سيدة فاضلة خادماتها للنوم مع حبيبها حتى تستطيع أن تحافظ على طهرها. ويقول إيرموند أن هذا كلام سخيف ومستحيل إلا إذا كانت الحبيب سكران.

لقد حلت منذ بضعة سنوات أن كنت مع أحد الأصدقاء.. وكنا نشرب البورت أمام نار المدفأة، بعد وقت طويل من التصرف زوجته وشقيقتها - كل إلى غرفته، للنوم، ودفعنا الحديث إلى مناقشة اختلاف بين مزاج كل من الرأتين. فقال أنه كان من الممكن أن يكون أكثر سعادة لو أنه تزوج شقيقة زوجته. وناقشنا كيف يتعكس مزاج كل منهما في طريقة ممارستها للجنس. وسرعان ما اكتشفنا أن الشقيقتين تشابهان في شيء واحد. وهو أنهما إذا كانتا نائمتين، فإنهما تسمحان لرجليهما بمواقفهما دون أن تستبقظ إحداهما بفضل كاملة. وادى بنا هذا إلى فكرة أننا قد نجرب أن نكتشف ما قد يحدث لو أنه أتيح لي أن أنهب للنوم مع زوجته. وأن يذهب هو للنوم مع شقيقتها التي هي عشيقتي. بدت لنا الفكرة مسلية، فحربناها... ونجحت...

ولكن ما لم يذكره إيرموند في ذلك الخطاب، هو أنه نتيجة لتلك الليلة التي قضاهما مع ماري، شرعت هي تعامله بصراحة كما لو كان زوجها دائماً لها - والأمر الذي كان فيه

مهانة شارلوت، وبعد أن قضينا هذه الليلة معاً، لم تعد ماري تشعر بحاجة إلى إعفاء مشاعرها إزاء إيرموند، وكانت مفتونة به منذ البداية، منذ ذلك اللقاء الأول الذي شرح فيه لي لتشنج فلسفة كانت النقدية. أما علاقتها بزوجها فكانت مختلفة اختلافاً كاملاً. كانت مغرمة به ولكنها لم تستمع أن تعجب به، وكانت تدرك أن عقله - على صورته التي عرفت - كان بأكمليه تقريباً من صنع إيرموند - إلى درجة أقل - من صنع لتشنج. وحينما عاد إيرموند إلى لندن - وكان في ذلك الوقت قد اشترى المنزل الضويف الضيق في هيليت ستريت قريباً من منزل الدكتور جونسون - تبعته ماري، وأقامت عند صوفيا بات وود، وسرعان ما انتشرت إشاعة تقول أن إيرموند نام مع شارلوت وماري في فراش واحد وليس هناك دليل يثبت هذا، رغم أنه من الأكثر احتمالاً أن إيرموند ظل عشيقاً للرايز معاً. ونحن نعرف أن إيرموند كتب إلى إيرل أوف فلاكستيد في ٢٢ نوفمبر عام ١٧٧٢، طناً بد ابنته بشكل رسمي، وأنه في ٢٨ من نفس الشهر، تسلّم رداً بارداً مختصراً يقول فيه للإيرل أن شارلوت كانت مخطوبة بالفعل "لسيد نبيل من نبلاء كنت". ونحن لا نعرف أي نوع من الضغوط استخدمه الإيرل ضد ابنته التي كانت ما تزال أقل من سن الرشد. وقد فلت شارلوت فيما بعد لماري أنه عندما كان يحلق شعر رأسها ثم يرسلها إلى دير بلجيكي وبعد يومين من عيد الميلاد التالي، تزوجت شارلوت بهنوء من السير راسل فريزر، لورد أوف سيلير أوكس. وهو نبيل يشير إليه دائماً بقوله أنه "معتوه"، ويقال أن الإيرل قد قال لورد توماس جريفي، كاتب اليوميات الشهور: "إنها الآن قد خرجت من يدي، فلا يعنيها ما تفعله بنفسها". أما القصة التي يحكيها جريفي عن مباراة حدثت بين إيرموند وبين ولد شارلوت فتينو واحد من تلك الاختراعات الخيالية التي لا يمكن إعتفاء أثرها لاكتشاف أسرارها. وإذا كان فريزر "المعتوه" قد عرف مقدماً بقصة افتتان زوجته بإيرموند وتعاقبها به، فإنه يكون جديراً بالإيغار من بعد. ذلك أن إيرموند وجليبي كانا زائرين كثيري الرد على "بليدز هاوس" في سيفين أوكس خلال الأعوام التي تلت عام ١٧٨٠. لقد ذهبت شارلوت إلى فريزر منقاداً تماماً، ويقال أن فريزر كانت له عشيقة فرنسية في دوفر. وعلى ذلك فإن الأمر يبدو كما لو كان صورة نموذجية من تلك الاتفاقات المتحضرة التي تميز بها القرن الثامن عشر. وقد وصفت صوفيا بلاك وود صديقته شارلوت بعد عام من زواجها قائلة لها "تزدهر وفي غاية السعادة".

□ وربما كانت قصة مورين النجس، أصغر الشقيقات الثلاثة، هي أكثر القصص الثلاث أهمية وإمتاعاً، ولكن سوء الحظ، أنها أسوأها تسجيلاً وحفظاً. ويقتطف بوزويل من هوراس والبول قوله أنها لابد أن تكون تجربة مبهجة أن يتألم المرء حب مثل تلك الشقيقات لخصيلات الثلاث، وأنها تجربة لابد أن يحاول كل رجل أن يمر بمثلها خلال حياته. وكانت مورين - عندما تزوجت ماري من هوراس جليبي - في الثالثة عشرة من عمرها فحسب. ورفض والدها أن يسمح لها بالذهاب إلى لندن لكي تقبض عند الجراميت مونتاجو، بعد أن عرف - دون شك - بما حدث لابنتيه الأخريين هناك. ولكن طالما أن ماري قد تزوجت، فقد كان من المستحيل أن تمنع مورين من الذهاب إلى كلوسبي والبقاء هناك. ومن الغريب تماماً أن الإيرل كان يقدّر هوراس جليبي تقديراً عظيماً، وفي عام ١٧٨١، بعد أن ورت جليبي اللقب من أخيه، وصفه الإيرل بأنه "أكثر الرجال عطاءً وبهجة في إنكلترا". وهذا جانب من جانب جليبي لابد أن نتذكره. ولما كان صديقاً ملازماً لأيزموند، فإنه عندما كان يقف بالقرب منه، كان يظهر في صورة غير مناسبة، ولكن إذا لم تأسر الفكرة، أو إذا لم يحاول أن يقلد أيزموند أو أن يعتمد التقوى عليه، فإنه يبدو كما لو كان رجلاً جذاباً مثيراً بالإعجاب، أصبح بالتدريج نموذجاً من نماذج الأرستقراطيين الرياضيين. (وهناك جانب آخر من طبيعته، تتمثل في اهتمامه بالحكايات الشعبية الاسكتلندية، وكان اقتناعه بأن ملحمة "وسيان" كانت عملاً مزيفاً هو الذي دفعه إلى اكتشاف قصص الارتفاعات السحابية الشعبية الأصلية، التي قام بتجميعها، في شكل أقرب إلى شكل مجموعة لونيوت كالكيفالا، حولها إلى بناء قصص واحد تحت عنوان "خاثر الشمال" في عام ١٧٩٣).

وفي الخطابات التي وجدها في نهاية مخطوطة جليبي، لم أعر إلا على إشارة واحدة لما حدث بين أيزموند ومورين النجس. ففي الخطاب الثاني، يكتب أيزموند قائلاً: "نؤمن قبيلة جرمانية معينة تعيش في المناطق الشرقية العليا من الدانوب بأن بعض العذارى لهن قدسية خاصة. وأنه يجب النظر إليهن باعتبارهن الحافظات للقدسات لأسرار الخليقة... ويمكن معرفة مثل تلك النسوة من خلال ما يبدو في عيونهن من نظرة دائمة على الحلم والبهائم الأحلام في الآخرين، مع رقة في التعبير النحوية بالرشارة الطبيعية الجذيرة برمة من لربات. وعندما يلتقي الرجال بمثل تلك النساء، فإنهم يصبحون غير مطالبين إلا بأداء واجب واحد،

أن يعبدوهن. وبعبانتهن، أعني ناصيد حلال الشربة في قنسمونها الأبدية". وعلى شامس هذا الخطيب إلى جوار تلك السطور، هناك سطر بخط هوراس جليبي يقول فيه: "هذا ما يذكرك، بمورين النجس".

وكانت هذه، حتى تلك اللحظة، هي كل معلوماتي عن مورين النجس. وفي وقت متأخر من ذلك اليوم، قمت أنا وأجيلا وأكستير بمحضر كل ما وجدناه في الخزانة التي أخذناها من السقيفة. ولكننا لم نعتبر على الشريد الذي يمكن أن ينفعنا في تحقيق هدفنا وسوف أكتب في مكان آخر عن الرواية التي كتبها أيزموند في مرحلة باكورة - في سن التاسعة عشرة - تحت عنوان "الأرميس وليونيتا". حينما كان في غوتيفين. وعن قصيدته الطويلة "في ذكرى شارلس تشرشيل" التي كتب في نفس الوقت تقريباً. وقد عثرت على الرواية والقصيدة معاً في الكتبة الكبيرة في قصر كلوسبي، ولا شك أنهما وصلتا إلى يدي هوراس جليبي تنفيذاً لتوصية أيزموند. والقصيدة لا يمكن أن تكون خالية من أي قيمة كان لشارلس تشرشيل واحداً من أفضل الشعراء المعروفين في عصره. كان فسيحاً، ساخرًا في أسلوبه، مصارعاً (فقد كان ذا جسد هائل القوة) وكان عضواً في نادي نيران النجس، مات في سن الثالثة والثلاثين نتيجة إصابته بعدوى الحمى عندما كان يزور ويكليز في فرنسا وقابله أيزموند، وأعجب به بوضوح، وفي مخطوطة رواية "خطابات من فوق أحد الجبال" يذكر تشرشيل (كدا) باعتباره "واحداً من أسوأ أعضاء جماعة العنقاء شهرة، فإذا كان هذا صحيحاً - وهو محتمل تماماً كما نعرف من خلال كل المعلومات المنقولة عنه - فإن هذا يثير الاهتمام باحتمال أن تشرشيل كان أول من أخبر أيزموند بأمر الجماعة.

بلغت استنارتي بسبب اكتشافي لذلك الزيد من شواء جداً جعلني أكتب خطاباً ملوياً إلى فليشر من قصر كلوسبي - الخص له فيه اكتشافاتي حتى تلك اللحظة - بما في ذلك بعض المعلومات عن جماعة العنقاء - مقترحاً أنه من الأفضل أن أكتب هذا الكتاب (الذي نقرأه الآن) كمقدمة مستقلة للذكرات أيزموند. كانت ما تزال هناك بعض الأسئلة دون جواب، وكيف مات هوراس جليبي؟ ما الذي حدث لمورين النجس؟ وقبل كل شيء، ما الذي حدث لأيزموند في سنواته الأخيرة؟ ولكن كان من الممكن أن تترك هذه الأسئلة جانباً لتكون موضوعاً لأبحاث أخرى.

وقبل مغادرة قصر جاكوسي - بعد يومين من كتابة هذا الخطاب - اكتشفت حوية جزئية لاثنتين من تلك الأسئلة. كنا قد قررنا أن نرحل في الساعة العاشرة صباحاً تقريباً، لكي نحاول الوصول إلى أنقرة في وقت متأخر من الليل. تناولنا طعام الإفطار لسكرين، وبينما كانت أجيلا تحزم أحر ما سوف نأخذه معنا في الدقائق الأخيرة، درت أذا دورة حول المكتبة. كان الكثير من الكتب قد أفسدته الرطوبة أحياناً، وكان أحدهم قد صنع حكومة من تلك الكتب النالقة في أحد أركان الحجرة. ربما منية أن يرسلها لكي يعاد تغليفها في مكان ما. كنت أعرف أن هذه الغرفة لابد وأنها تبدو بنفس الصورة التي كانت عليها حينما اشترك أيزموند وهوراس جيليني في الشرب في أواخر كل ليلة هنا - تم قررا أن يبادلوا الفراش.

حاولت عدة مرات أن اضع عقلي في وضع أو حالة سلبية، لكي أحاول أن "تلقى" أيزموند (كما يتلقى جهاز الاستقبال رسائل لاسلكية) ولكن الشرل كان يعج بالحركة وأصبحت عاجزاً عن التركيز. وهجأة تماماً، وصلت الرسالة. أصبحت المكتبة مألوفة لي بطريقة غير مألوفة. وهذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكن أن أصف بها إحساسي أن أحاسيسنا تجاه الأماكن تصنعها غالباً ذكرياتنا وما يمكن أن نبعثه لدينا تلك الذكريات من تداعيات داخلية. ولكن ذكريات أيزموند عن تلك المكتبة كانت مختلفة بكل الاختلاف عن ذكرياتي. وهكذا، أصبحت المكتبة - بمعنى من المعاني - مكاناً مختلفاً. ووجدت نفسي أنظر إلى رف مرتفع في أحد الأركان قريباً من النافذة. عبرت الحجرة إلى هذا الرف. كان "أيزموند" قد كاد يتلأش الآن بالفعل. كان الرف خالياً، والخشب الشفول من خلفه كان مكشوطاً وقد يلته الرطوبة ولزوجة الصلاء الحديد. وخطر لي أنه لو كانت هناك مكتب فوق هذا الرف قبل طلائه، لكانت الآن موجودة بين الأكوام للراسمة في ركن الحجرة. ذهبت إلى تلك الأكوام ورتبتها على شكل صف طويل على الأرض. وقد فليت كعوبها إلى أعلى. ولم يبد لي أي عنوان من عناوينها ذا أهمية خاصة. كتب صلوات، وكتب رحلات، قصائد ككاوبر، بعض كتب سكوت. بل كانت هناك نسخة من طبعة توشفيتز لأحد كتب هنري جيمس. رحلت أفتحها، واحداً بعد الآخر، عشوائياً، ملقياً نظرت سريعة إلى صفحات العناوين الداخلية الأولى. التقطت نسخة من كتاب "تقرير عن جزر ساندويتش" وكانت قد أفسدت بشدة الرطوبة، والصفحات تعجنت من اليل. وحينما نظرت إلى صفحة العنوان الداخلية الأولى، عرفت أنني وجدت ما كنت أبحث عنه. كان

الكتاب بقلم مورين الجستر. وهو من نشر موراي، ناشر النورث بايرون. في لندن عام ١٨٨٣، في العام الذي بلغت فيه مورين عامها الثاني والأربعين. كان الكتاب مهيئاً إلى "تذكرت هوراس لورد جيليني" وتحت هذا الإهداء، كتب أحدهم: "طعن في عينه البعش بيد أحد القنا للجهولين في ٢٨ يوليو عام ١٨٩٦". كانت الكلمات قد تبللت إلى درجة سيئة وصنرح الدم بالياق الورق متشعباً متتلاً حتى أصبحت فرائدها عملاً على شيء من الصعوبة.

وهكذا، قبل أن يغادر قصر جاكوسي في ذلك الصباح، كنت قد عرفت شيئاً الخرم عن عائلة جيليني أن هوراس قد طعن ولم يطلق عليه الرصاص. وأن مورين تحسرت قد سافرت إلى الشرق في أيامها الأخيرة، وزارت اليابان وأستراليا وجزر ساندويتش. وقد فاصت فيما بعد من أن الكلمات التي كتبت تحت الإهداء كان كتابها هو ابن جيليني.

كنت مسروراً من نفسي إلى درجة كبيرة. لم تكن الزيارة قد أثمرت بالدرجة التي كنت أرحوها. ولكن كانت كل ثمارها ثمينة وذات قيمة كبيرة. كان الستير وأجيلا سعيدين أيضاً لم يكونا قد عثرا على بقية مذكرات دونيلي. ولكنهما كانا قد عثرا على نسخة من الكتاب المقدس تساوي عشرين ألفاً من الجنيهات.

زودتني معرفتي بأن جيليني كان قد طعن بمادة للتأمل، وخاصة بالنظر إلى ما أضفه أيزموند على خطابه الأول بعد التوقيع عليه: "لني أرجوك أن تدمر، أو على الأقل أن تحرق هذا الكتاب عن الأنظار، ليس فقط باسم صداقتنا، ولكن من أجل سلامتك أنت وسلامتي". فهل كان أيزموند يواجه أي خطر تهدد به الجماعة؟ هل يمكن أن يكون موت جيليني نتيجة لتجاهله تحذير أيزموند؟ كانت هناك سمة واحدة غريبة - على الأقل - في جريمة القتل، أنها حدثت في حجرة صغيرة بالطابق الثاني، فإننا كان جيليني قد طعن وهو في الفراش وهتل هنا. فلماذا لم يكن نائماً في إحدى حجرات النوم الكبيرة المطلة على البحيرة والنجرة؟ وجلت نفسي لثمني لو كان بوسعي أن اتصل بأيزموند لكي أسأله. ولكن لم أحظ بأي قدر من التركيز يعطيني الفتاح الذي كنت بحاجة إليه.

عندما إلى شقة الستير في لندن في الساعة الثانية من عصر يوم الجمعة. كان يوماً مشمساً. وفي الحقيقة كان أكثر حرارة من أن يسمح بالراحة. وجلت نفسي اتصلني لو كنت قد أتيت معي بملايس الصيف. كنت أفكر في أيزموند الذي كان جسده يلدوب

ويتلانى في قلب مقبرة المائلة منذ أكثر من مائة عام - فأتمنى لو أستطيع بشكل ما أن
أشاركه رفاته.

كان السهر مشغولاً بعمل ما في الليلة. فتناولت أنا وأنجيلا غداء متأخراً. من
السهيل أن تقوم بين شخصين علاقة حميمة على حين فجأة وبشكل عنيف. دون أن
يستمر في التفكير أحدهما في الآخر - بمعنى من المعاني - يوسفهما عاشقين. ولكن الغد
الذي شرع ينمو بيننا لم يكن من ذلك النوع الذي ينمو بين الرجل وبين زوجته. وجدت
نفسى أخيراً بتلك التجارب الغريبة التي "أصبحت" في أتناها أيزموند، وكيف أتت بي آخر
تلك التجارب إلى العنور على كتاب مورين الجسر. توقعت منها أن تجد في الأمر ما يبعث
على الاهتمام، أو أن تنظر إليها باعتباره شيئاً مسلماً. ولكنني لم أتوقع منها أن تجده أمراً قابلاً
للتصديق بشكل كامل. فقد كنت على كحل حال. أغرق نفسي بشيء من العمق في
أيزموند، وريما إلى درجة أكثر من اللازم. ولكن رد فعلها أدهشني. ارتبكت وبدأ عليها
الانزعاج. قلت:

"لا شيء يستحق القلق. إنما نظرت إلى الأمر كشئ يثير الاهتمام".

وجدتني أحتج بوجهة النظر العقلانية التي توقعت منها أن تأخذ بها. ولكنها قالت أن
السهر قد تحللت معها عن شعوره بالغربة في قصر جلوسيبي، وأنه تساءل عما إذا كانت
حجراته مسكونة".

بعد الغداء بنصف ساعة، وبينما كنت ألهجس مشغولة رواية جليني، قالت:

"هل تظن أنه يحاول أن يقول لك شيئاً؟"

"من؟"

"أيزموند".

حاولت أن أوضح لها أنني لا أشعر - أو أنه ليس لدي إحساس - بحضور أيزموند، وإنما
أنا أرى الأشياء - ببساطة - بعينيه هو كما لو كنت أنا أيزموند.

والمرء لا يحاول أن يخبر نفسه بشيء ما".

قالت: "ظن أنا يجب أن اتصل بالدكتور كورنر".

كنت قد قررت ذلك فعلاً قبل أن تقول له أنجيلا. ولكنني كنت أريد أن لأجل ذلك
الاتصال لمدة أربع وعشرين ساعة أخرى. كنت أريد أن أمضي اسمية هادئة في فوضى الأوراق
المتناقلة التي جثنا بها معنا من كلوسيبي. قالت أنجيلا:

"اسمح لي بأن اتصل به".

"حسناً. إذا كنت تريد ذلك".

وبعد عشر دقائق، قالت:

"لقد دعوته لشرب كاس معنا في الساعة السادسة".

وفي حوالي الخامسة والنصف، دق جرس التليفون، فرفعت أنجيلا السماعة. وضمت
يدها على السماعة وقالت:

"إنها أنا دنكنمان...".

هزرت رأسي بقوة لكي أؤكد لها أنني لا أريد محادثتها، فقالت لها أنجيلا أنني بالخارج
وأني لن أعود إلى وقت متأخر. ذهبت إلى الحمام بينما كانتا تتحدثان، واغتسلت. وحينما
عدت، بعد عشر دقائق كانت أنجيلا ما تزال تتحدث، ولكنها أنهت الكلمة بينما كنت أبدأ
ملايبي في حجرة النوم.

"تلك اللذة مرعبة تماماً. أتمنى لو أنني لم أعطيها هذا الرقم".

"ماذا كانت تريد؟"

"لأبداً أنها تملك حاسة سادسة. لقد قالت أنها قد سمعت الآن تواء كورنر موجود في
لندن وأنها أرادت أن تتصل بك ألا تراه. ثم راحت تسرد علي قصصاً طويلة متشابهة عن مقدار
ما يملكه من سر وقدرته على الإيذاء".

"ماذا قالت من أفعاله؟"

"و... مشاجرت عما كان يعنيه رايخ وما إلى ذلك. ولكنها قالت أنه يدفع عنهما
إساءات كاذبة، وأنها تنوي أن تقاضيه بتهمة القذف. أما كل ما كانت تقصده فهو أنها
تريدك أن تتجنب كورنر. فإذا حدث أن قابلته، فلا تصدق كلمة واحدة مما يقول"

كنت جالساً على الفراش، أعقد رباط رقبتي، أقرئ مني أنجيلاً وعرفت أصابعها في
شعري المتل. انتابتني دهشة بسيطة، ولكنني افترضت أن هذه الكلمة قد صدمتها بشكل ما
وأنها تريد شيئاً من التلذيل. أحطت خصرها بذراعي وضغطت عليها قليلاً. أخذت يدي
بكلتا يديها وضغطت بهما على نهديهما. نهضت واقفاً، وانحنيت عليها ومنحتها قبلة لكي
تطمئنهما، فوجلت نفسي أضربها بقوة حتى التصقت بي. وأصبح جسديا كتلة واحدة
مندمجة. وبعد أن تبادلنا القبلات للحظة، قالت بصوت متوتر:

"إنه شيء مرعب. ولكني أريدك أن تمارس الجنس معي"

"لا يكاد يكون هناك وقت."

ولكن كان باستطاعتها أن تضع يدي وأنا اتصلب في التصافي بها. كانت أكثر من
مستعدة لممارسة الحب. وحينئذ، فجأة، انفلتت من بين ذراعي وابتعدت عني. قلت:

"ماذا حدث؟"

انفجرت باكياً وقالت:

"إنني أكره نفسي."

"لماذا؟"

"إنها هذه البراءة الكريهة العفنة، اعتقد أنها تستخدم التنويم المغناطيسي. فحينما
كانت تتحدث معي..."

لم تستطع الاستمرار في الكلام. احتضنتها مرة أخرى، ولكن دون رغبة في هذه المرة.
قلت لها مؤكداً أنه من الصعب القول أنه من السهل أن يكون المرء قابلاً للتأثر بالإيمان. وبعد
قليل من الأسئلة اكتشفت أن السيدة دنكلمان قد تحدثت عن الاختلالات الجنسية
الجماعية. قالت أنجيلاً:

"أعرف هذا، ولكنها مسألة تبدو ككراهية جديدة. لقد أردت أن أختصيك."

"لا تسمح لي بأن أطفئ شعلتك الملتهبة"

ولكننا نعرف معاً أن نوبة الحمى قد انتهت. ولكي تؤكد ذلك، أرففتها على فراش
وقبلتها برفقة، ثم ربت على نهديهما وفخذيها بيدي. استرخت مثل طفلة صغيرة طفل
يوسعنا أن نمارس الجنس في تلك اللحظة، ولكنه كان سيصبح جنساً رقيقاً هائلاً مثل ما
يمارسه زوجان طبيان. كما لو كان استدعاءً للقبالات، ولن يكون حمى مسعورة متأججة
وبعد عشر دقائق، حينما كان جرس الباب يذيق، كنت أشرب كأساً من التارتيني شئت
حاجتي إليه، وكانت أنجيلاً تتحمم في الحمام.

□ كان كورنر رجلاً غريب الهيئة، طويلاً، محدوب الكتفين، رأسه يكاد يكون
أصلع. وقد ذكرني على الفور بفائد الفرقة الموسيقية فورثو انكر. لاخ لي صدغه ضعيفاً،
ولم ينم الوجه - بشكل ما - عن عزيمة قوية. ومع ذلك فقد كان الأثر العام الذي يخلطه
هذا الشكل الغريب هو الإحساس بدكاء داخلي وقاد غير مألوف. كان صوته مرتفع النبرة
إلى حد ما، ولكنه كان رقيقاً، يكاد يكون ذا تأثير مغناطيسي منوم بعد أن يتكلم عدة دقائق.
كانت الكلمة الألمانية قوية، وبدت بذلته الرمادية عالية الثمن، ولكنها ظلت تليق منذ وقت
طويل حتى علتها لحة خفيفة.

رفض أن يشرب كأساً "بني لا أشرب سوى قليل من عصير الفاكهة" ثم جلس على
حافة مقعد كبير عميق ذو مسندين وقد وضع يديه البارزتي العظام بين ركبتيه. علملاً
على أن يسند في وقت واحد بمظهر فيه كثير من الأسرءاء وعدم الراحة معاً. حينما دخلت
أنجيلاً، فسر واقفاً على قدميه، وانحنى مقبلاً يدها بدعامة وتهذيب طبيعيين. وفي رشفة
بنت تعبيرة عن شخصيته الداخلية. أقرحت أنجيلاً أن يجلس على الأريكة. وفي هذه المرة
هلف بنفسه إلى الخلف في أحد ركني الأريكة بتلقائية مبالغ فيها ثم وضع ساقي على ساق
كاشفاً عن جواربه المصنوع من الحرير ذي الخط الأبيض الناصع الطولي. ثم بدأ يتكلم:

"حسناً، يا عزيزي، مستر سورم، هذا حقاً شرف عظيم لي. انني اعرف مكتبك معرفة جيدة بالطبع، (وقد اتضح لي فيما بعد أن هذا صحيح، فقد كان يقتبس منها اقتباسات طويلة في حديثه بصريته الألمانية التعليمية) واسمح لي أن أقول منذ اللحظة الأولى انني لمتى أن تجد في بعض أرائي ما يثير اهتمامك، مثلما أجد أنا في أرائك."

كان بوسعي أن أرى أن انجيلاً تكاد تموت من نهفتها إلى أن نسلته عن أسرة داتكمان، ولكن كان من الصعب أن نوقف مجرى الحديث الدائر عن الأفكار والآراء بالإضافة إلى أن لراء كان جديراً بأن يشعر بتفاهة مثل هذا الموضوع بالمقارنة إلى مناقشة أفكار هولدرلين وباسرز.

لن أحاول هنا أن أنقل تقريراً كاملاً عن معادنته. فقد مضى في حديثه، باستمرار وديت تقريباً، حتى غادرت عند منتصف الليل وبدأ حديثه من النزعة الرومانتيكية الألمانية واليناهيريقا الفلسفية عند فلاسفة الألمان. حتى وصل إلى أفكار رايخ وتطويره هو تلك الأفكار. ولا يمكن هنا سوى أن أقدم صورة سريعة لأفكاره المحورية الرئيسية.

كان داتكمان وزوجته قد لخصا لنا وضع ويلهلم رايخ. ولكن ككورنر وصفه بشكل أكثر اكتمالاً، فقد قسم مراحله الفكرية إلى ثلاث مراحل، بدءاً من عمله بوصفه أحد اتباع المدرسة الفرويدية، ثم انفصاله وابتعاده عن فرويد إلى "تحليل الشخصية" - التي قد يفتريها أكثر علماء النفس مساهمته العظمى في هذا العلم - وأخيراً، مرحلته "الترفة" أو "لهووسة"، حينما اعتبر نفسه "عالمًا طبيعيًا"، وحينما اعتقد أنه قد اكتشف نوعاً شامضاً من الثقافة يدعى "الأوركون" يمكن أن يركز بطرق مختلفة، ولكن ما انبهتني كان ما أنبته ككورنر من أن رايخ كانت له نظريات مادية التركة - بقدر ما من المادية - حول الأمراض العصبية (وقد كان رايخ عضواً في الحزب الشيوعي حتى فصل منه بسبب آرائه المعارضة لآراء الحزب حول أسباب الفاشية).

وقد بدأت أفهم ككورنر بصورة أفضل حينما تحدثت عن فكرة رايخ حول "درع الشخصية". وكيف ينمي الناس أنواعاً مختلفة من القشور الصلبة حول شخصياتهم لكي يغطوا أنواع قصورهم ونقاط ضعفهم والفتنات التي يخشون منها على أنفسهم الداخلي، وكيف يمكن لتلك القشور في الوقت المناسب أن تتحول إلى درع قوية - مثل الحيلة الفولانية انني كان قرسان القرون الوسطى يرتدون في الحرب - تحنق الشخص في داخلها، ومن

تواضح أن ككورنر قد آمن بهذه الفكرة إيماناً مطلقاً واستقرت في أعماقه. ولاح لي أن هذه قد أصبحت ألا تكون لشخصيته أي دروع على الإطلاق، وبدا لي كما لو كان في حالة سيئة كاملة من حماية - أو شخصين - من أي نوع. وسرد علينا بصراحة وكيف عانجه رايخ من إصابته بتصلب العضلات فكانت تسبب له الآم تقلصت الياف العضلات الضخمة. وكان هذا التصلب راجعاً بشكل أساسي إلى الحرج الذي يمكن أن يشعر به رجل شديد الحساسية - مثلاً تبدأ ككتابة لتعيد لتصلب وتتشنج هذه حينما يطل المدرس إلى صكراسته من فوق مكتبه أثناء الكتابة.

وبعد ككل ذلك كان من الصعب أن أفهم كيف حقق ككورنر تحوله إلى نظرية عن الوعي الباطن - رغم أنه هو نفسه قد اعترف بأنه لا يرى أي ترابط بين الفكرتين وفكرته - أساساً - تنحصر في أن الحضارة والعقل النطفي. قد دفعنا الإنسان إلى حالة استعناعية زائفة. وقد نظر إلى قدرة الإنسان على التفكير باعتبارها نوعاً من السقوط من حالة النعيم المبارك، شكلاً من أشكال الخطيئة الأصلية. وقد أطلق على الوعي اسم "ضوء النهار الصناعي"، وفارته بالضوء الكهربائي الذي ساعد الإنسان على أن يرى في الظلمة، ولكن الضوء الذي كان من نتيجته أن عزل الإنسان بحدّة عن الليل الممتد خارج نافذته، فالإن الحيونات بشكل ما تتطابق مع الطبيعة، أما الإنسان فقد وقع في شرك حجرة وعيه ذات الضوء الكهربائي.

ويظهر هذا بشكل خاص في المجال الجنسي، لأن الجنس ينتمي بشكل أساسي إلى ذلك "الليل" الممتد خارج النوافذ. الحيوانات تنزلق إلى الجنس مثل تمساح ينزلق من ضفة النهار المربلة إلى المياه (هذه صورة ككورنر)، أما الإنسان فلا بد أن يقفز إلى المياه من فوق منصة مرتفعة. إنه يصل إلى هناك لا خلافاً. ولكن إن لم يكن عواصماً ماضراً، فإن تأثير القشرة والموسم الفاجح يمكن أن يدمره. قال أنه من الحق أن الجنس يعتمد على الانفصال الفهم بين الذكر والأنثى، مثلما يعتمد مولد الكهرباء على التناظر بين قطبي الفناطيس. ولكننا بالغنا في هذا الانفصال حتى أصبح "قفاً" آخر إضافية وضع على باب السجن. وتكاثر أنواع الإحباط والخيبة، أصبحنا معزولين غرباء عن المجتمع وأحدنا عن الآخر، بالإضافة إلى اغترابنا عن الطبيعة، وتتبدى مظاهر المرض في تزايد نسبة الجريمة، وفي الطبيعة البربرية الغريبة التي تبدو بها بعض الجرائم - وقد أشار هنا إلى بعض الجرائم المذكورة في مكتبي

الإجابة، أو المحل طبقاً لما يقوله كورنر بسيطة بسيطة جميلة، إن الجنس ينبغي أن يظهر "حتى تصبح العلاقة الجنسية بين البشر طبيعية مثلما هي بين الحيوانات، فإذا ما أمكنا من إزالة الحاجز الجنسي الهائل بين الناس، عادت الرابطة القوية القديمة بين الوعي والوعي الناطق إلى سابق عهدها، وسوف يستفيد الإنسان من حصاره - التي لن تعود وحداً مثل وحش فركتكتين كما هي الآن - بالإضافة إلى استفادته من بساطة الحيوان المصحيح لتكوين. إن "سفر التكوين" مصيب في قوله أن "الخطيئة جاءت من وعي الإنسان أو شعوره بالخلل الجنسي. يجب أن يختفي "شكل" خلل من أي نوع.

عاد السير إلى البيت حينما كان كورنر يشرح آراء رايخ، واقتان به السير حتى أنه نسي أن يصيب لنفسه ما يشربه. وبعد ساعة، اقترحت أن نخرج جميعاً لكي نتناول طعام الغداء، ولكي نمضي في "الناقشة" (التي كانت أن تكون محاضرة تقريباً، رغم أنها كانت تلقى بأكثر الأشكال العادية وغير الرسمية سحرًا وحاذية)، طلبنا عصير ليمون تشابلين الفرنسي مع الطعام، وشرب كورنر كامرين بعد أن أضاف إليهما الماء. ثم سرنا حول البلدان مدة من الزمن - فقد قال كورنر أنه يحتاج دائمًا إلى الحركة الجنسية إذا كان عقله يعمل بصورة جيدة - ثم عدنا إلى الشقة. وكانت لدي تحفظات معينة إزاء أفكار كورنر، ولكن كان يوسعي أن أرى أن صاحبي الآخرين سوف ينظرون إليها كشئ، من المضحكة. وبدون أي تردد، وصفت انجبالاً ما كانت تجده من كتابات جنسية في طفولتها، وقال لنا السير مكيف أنه لم يتخلص أبداً من الإحساس بالخلل والعار حينما نظر إليه شخص ما من فوق حاجز الر حاض في المدرسة فضبطه وهو يمارس العادة السرية. رأيت انجبالاً وهي تجفل إزاء هذا الاعتراف، واعتقد أنها لم تتخيل أبداً أن الضحية يمكن أن يكونوا على هذه الدرجة من الحيوية الجنسية. ولشدة دهشتي، مضت انجبالاً لكي تصف ما حدث لنا حينما زونا أسرة دنكمان لآخر مرة، وظننت في البداية أنها لم تكن تريد إلا أن تخبره بأن أنا دنكمان أصرت على أن نعري أنفسنا، ولكنه بعد أن احمر وجهها ورمقتني بنظرة سريعة، انتقلت إلى الحديث عما حدث في السيارة. وكان هذا هو دور السير في الجفول، إن لم يكن في الظهور بمظهر الصدم. وانتهت بقولها: "مكيف يمكنك أن تفسر ذلك؟"

لاح الاهتمام والاستغراق في الموضوع على كورنر. وظل يوميء برأسه ببطء.

"لنهما ماسكران" ماسكران جداً. لقد كان علي أن أطردهما من مجموعتنا لأن إرادته حقاً كان هو أن ينظمنا جمعية للاحتفالات الجنسية الداعرة. (حينما قالت انجبالاً "هذا هو ما قتلاه عندك"، أومأ برأسه في حركة أكثر وقاراً) اتفهمون؟ لنهما لباس من السير التحضريين. لنهما ينتميان إلى مرحلة من مراحل تطور المجتمع أكثر بدائية - مرحلة (الجرمات) والتضحية بالبشر كالكثريين. سأروي لكم ما أدرك إلى تفصائنا النهائي. كان سر أن اذهب إلى ألمانيا للقيام ببعض الأعمال القانونية. كنت أعرف أن رايخ كان ينق لها ولذلت فقد تركت لهما مسؤولية الإشراف على مجموعتنا. وجاءت أنا ذا يوم إلى الاجتماع حاملة رمزاً ضخماً لعضو التناسل الذكري مصنوعاً من الخشب - يمكن أن تطلقوا عليه صفة الشيء الخرافي، وزعمت أن هذا الرمز الخشبي الضخم كانت تستخدمه قبيلة البريانية في احتفالات اقتراع العذارى الأسيرات قبل تقديمهن ضحايا وقربان للالهة. وأنتم تعرفون أن واحداً من أهم مبادئنا هو أن تمريناتنا على خلق الألفة بين البشر تقوم على التوقف عن الاتصال الجنسي الكامل. وليس هذا لأننا نعتبره شيئاً سيئاً، وإنما لأنه يخفف التوتر بسرعة كبيرة، والتوتر ينبغي أن يتساعد حتى يمكن أن يستخدم في تحويل اتجاه العقل. (الكثري الهولنديين واحتفالاتهم مع العذارى القديسات)، ولم يحاول هذان الاثنان - دنكمان وزوجته - أن يعارضا هذه الفكرة بطريقة مباشرة، ولكنهما أصرا على أن تمريناتنا على خلق الألفة ينبغي أن تتساعد حتى تصل إلى أن يمارس شخص مثل الكاهن الجنس مع إحدى النساء باستخدام رمز خرافي لعضو الذكورة التناسلي، ثم يقلب لنا دافناً داخلها في لحظة بلوغها ذروة النشوة. وقد استمتعوا جميعاً بهذه العملية بالطبع، وأصبحت الفتيات يصرخن من التهييج حينما تبلغ المرأة ذروة نشوتها. وكان كلاوس دنكمان بالطبع هو "الكاهن" في كل مرة. وكان دائماً يصبر على أن يرتدي ملابس كاملة، فكان يرتدي حلة كاملة فاتمة اللون، ولكنه يخرج عضوه بارزاً من فتحة بطناله بعد أن يطلبه ببعض الألوان الزاهية مثل النعنان. (وكان رايخ يقول أن دنكمان وزوجته يعانيان من كل أنواع الانتكاس الجنسي التي وصفها فرويد). وتحسن الحظ عدت أنا بعد بداية هذه العمليات بوقت قصير. وظل دنكمان وزوجته بتصويت ديمقراطي بين الأعضاء لنوصيخ من يريد الاستمرار في هذا "التمرين". (هنا احمر وجه كورنر، وبرزت عروق جبهته)، قلت لهما أنه لن يكون هناك تصويت. فإن هذا كان مناقضاً لأفكاره، فإذا لم يوافقا عليها كان يوسعهما أن يذهبا لتكوين مجموعتهما الخاصة. وعرضت أنا أن أستقيل لكي أكون مجموعتي الخاصة في مكان

آخر. ولكن لم يكن هناك من يريد ذلك بالطبع. فقد كنت اكتسبت شخصية ألب روسمه بالنسبة للمجموعة. ولم يكن هناك من يظن أنها فكرة طيبة سوى دانكمان وريخته. فكان علي أن اضطردهما. وبعد ذلك حاول أن يكونا مجموعتهما الخاصة. دون نجاح. ولكنكم ترون (هنا رفع أصبعه إلى السماء) إنهما لا يمتلكان أي أسس فكرية. باختصار إنهما لا عقل لهما" ثم أشار بإصبعه نحوي. "وهذا هو سبب لهفتكما أن اكتساب ذابيلك. فإن الكارك تستطيع أن تكسب لهما اللؤيسين والأنصار. إنك يمكن أن تكون عشيقا للسيدة دانكمان."

قلت، "معاذ الله؟"

"ولكنك قد تكون. إنها تعرف كيف تسيطر على الرجال. مثلما رأيت. حينما كانت عضو في جماعتنا. كانت دائماً ترتدي أجمل اللابس الداخلية، كما لو كانت فتاة صغيرة مزينة بالحياة فواردة الرغبات بدلاً من أن تكون لثارة النصف ذات الأربعين عاماً. وأنا أعرف لها وجيت عشاقاً عديدين."

سالت أنجيلا، "هل تعان أنما تملك نوعاً من القدرات الغناطيسية إذن؟"

"بالطبع لا. إن ما قلته لي الآن توا هو ببساطة برهان على ما كنت أشرحه لك، إن الحياة الجنسية التي تفصل بين البشر ليست هوة طبيعية. ولكن حتى أكثر الناس صحة ونفسية ملينون بأنواع الكتب. إنك فتاة طهرية مثزمنة إلى حد ما. وإنني أعلى استعداد للقول بأنك لم يكن لك سوى عشيق واحد؟ (أومات برأسها). وهكذا هو الأمر. إن هذه المرأة لا نتحدث فقط بصراحة عن الجنس وعن الاحتياج إلى التخلص من كل أنواع الكتب، وإنما هي تظهر بنفسها وتتعري لكي تثبت بجسدها ما تقول وما تعني. وهكذا يخلل التوازن القائم بين عقلك وبين طاقاتك الجنسية. وتنفجر الطاقات مثل الحمم المتفجرة من بركان. فتظنين أنت أنها سحرتك، بينما أنت التي تقومين بكل شيء."

ابتسم بسعادة عندما اكتملت فكرته وتلاقت خصلوطه بهذا الشكل الواضح. قالت

أنجيلا:

"فماذا حدث حينما اتصلت بالتلفون هذا المساء..."

أنت هنا

"لقد حدث التأثير مرة أخرى؟ فقد تذكرت ما حدث في المرة الأولى؟"

هجة أدرك ما قالت، صالحو بها، "هل اتصلت بك؟"

آخرته أنجيلا بالسبب فهو رأسه وقال:

"أه، الشيملانان تاركمان. هل قلت لك أنه كان قاتلاً؟ لقد كان جديراً بأن يعدم في أي بلد باستثناء سويسرا" "سويسريون متسامحون جداً."

حينما دقت الساعة معلنة منتصف الليل، نظر إلى ساعته ثم فطر وهفاً على قلعه مثل أحد رجال سلاح الفرسان يهب لصبيحة "انتباه". قال:

"يجب أن أترككم. أن الغد يوم صعب بالنسبة لي"

نظر إلينا مفكراً، ثم قال: "لا بد أن أكون صريحاً معكم. إن مجموعتي تربطها علاقة قوية شديدة الانسجام لأننا عملنا معاً لسنوات عديدة. ولذلك فإن الأعضاء الجدد يبقون طويلاً في مرحلة الأعداد كمرشحين للعضوية. ولكني أشعر في حالتكم أن الإسراع به ما يبرره. ولقد قررت بالفعل أن أدعو صديقي جيران لحضور اجتماع جماعة الألفة. فإذا رغب لكم أنتما الاثنان أن تاتيا معه..."

لو أن هذه الدعوة وصلتتهما منذ ست ساعات فحسب لرفضاهما على التو دون تردد. ولكنهما الآن كانا وهمين تحت تأثيره حتى أنهما وهفاً مع إبداء كثير من الامتنان للتحسن سألته عن الوعد فقال:

"عداً بعد الظهور. أتيكم سياراً؟"

نوما الستير برأسه.

"حسناً. سوف أرسل شخصاً ما للمجيء بكم في منتصف نهار الغد. وسوف تتيبنون السبب الذي يجعلني عاجزاً عن إعطائكم العنوان."

خبط بكعبيه وهو ينحني تحاة خفيفة، ثم رحل. توفعت أن يسرع الستير وأنجيلا إلى فراشيهما. وكنت مستعداً للنوم. ولكنني نسيت أنهما يصفراني بخمسة عشر عاماً على الأقل. سرعاً في مناهضة ما قاله لهما، وظلاً بطالباني بإبداء رأيي. كنت مرهقاً للدرجة

تسلمني من الحديث عن تحفظاتي. ثم سأنته انجيلاً. كما إذا كان قد صدم بما روته عما عبت في سيارة الأجرة. أحجم أو لا عن الكلام، ثم برز لمواجهة الحقيقة. قال:

"لم تكن صدمة على وجه التحديد، إنما كانت أقرب إلى العيرة. اعتقدت أنني أفكر فيك كلما لو كنت أحد أفراد العائلة".

سأنته: "ومكيف ستفكر في العيرة لو أننا اتبعنا جميعاً أفكار أوتو؟" (وكانا جميعاً نتنادى باسمائنا الأولى)

"لا أعرف. الحيوانات أيضاً تغار. اليس كذلك؟"

"ليست هذه حالة واحدة. إنها ليست نفس العيرة. لقد قال أوتو أننا لا نحاول العودة إلى حالة الحيوان، إنما نحاول أن نمزج بين طبيعة الحيوان وذكاء الإنسان ونهضة".

كان يوسعي أن أرى كيف يمكن لها أن تكون تلميذة جليدة بالإعجاب، فقد طوعت نفسها بكل الإجابات المطلوبة على كل الأسئلة المتوقعة.

قال مسالماً لكي يتجنب المناقشة: "اعتقد أنك على صواب".

"بالطبع أنا على صواب. إنني أحب جيرار (طارقت عيني من الدهشة) وأنا أحبك أنت أيضاً. وأنت شروق لجيرار وجيرار يروق لك. فلماذا لا يعامل أحدهما الآخر كما لو كنا ننتمي لنفس العائلة؟"

شعرت بأن منطقها كان قد بدأ يشويه نوع من الاضطراب، ولكنني تمسكت بصمتي. وأخيراً، تظاهرت وأنشعرتهما بأنني أريد أن أنام. كانت الأريكة (التي تتحول إلى سرير للنوم) موجودة في حجرة الجلوس. وعندما أبدت رغبتي في النوم اقترحت أنهما يجب أن يرحلاني، وأن يذهبا لتابعة المناقشة في حجرته. فتحت الأريكة وأعدتها للنوم، وبدلت ثيابي فارتديت البيجاما، فخرقت في النوم بعد دقائق. استيقظت بعد وقت لا أعرف مقداراً حينما صفق الباب بخفة، على ضوء النور القادم من النافذة، رأيت جسداً لم أستطع أن أتبين إن كان جسد أوتو أم جسد أنجيلاً. متجهاً إلى الحمام، ثم خرج الجسد مرة أخرى، فعدا إلى حجرة النوم. عدت فخرقت في نومي. ابتظنتي ضوء الشمس في حوالي الخامسة صباحاً. فتحت عيني فتملكني شيء من الدهشة حينما رأيت رأس أنجيلاً إلى جوارني على الوسادة. وحينما رفعت

رأسي، تراءيت دهشتي عندما وجدت أن التنوير كان ينام إلى جانبها من الناحية الأخرى نهبت إلى الحمام. ثم رقيت في فراش أنجيلاً الخالي، فنهضت لمدة أربع ساعات أخرى التي تعارض "الألفة"، ولكن لكي "أنا" أفضل أن أكون في سرير مستقل خاص بي.

دق جرس التليفون خمس مرات في ذلك الصباح. ولكننا افترضنا جميعاً أنها إما تنظر فراصتنا يدق دون رد. وفي المرة السادسة، أجابها أوتو. فقلت أنا وآنكمان بالفعل. قال أوتو أنني وأنجيلاً بالخارج وأنا سنبقى خارج المنزل طوال النهار، ثم قطع الكلبة قبل نشوء شيء من التعقيدات.

قبل ربع ساعة من منتصف النهار، دق جرس الباب. ولم أفتح أحدنا، وحينما وراء الباب شاباً قوي البنية، رأسه مثل طفلة الرصاص. دعواته للدخول، فجلس على الأريكة بدلاً الخجل. رفض شرب الشاي أو القهوة. وقال أنه شرب شايه وقهوته قبل أن يأتي بقليل. سأنته عما ينبغي أن نأخذه معنا لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، ثم رأسه يغموض وقال: "أيه... لا شيء".

كان اسمه كريس رامزي، وكان بعيداً عن أن يشبه تصوري عن تلامذة كورنيل. كانت تبدو عليه سمة من سمات البراءة تجعله محبباً إلى النفس إلى حد بعيد، ولكن كان كل من الصعب أن نقول أنه صاحب أفكار أو من نوع الرجال المفكرين. تحدثت عن الصراخ والآنزلاق على الماء والقفز بالظلة من الطائرات. التقينا قليلاً من اللامس في حقيقة واحدة وخرجنا من المنزل مع كريس. كان يقود سيارة رياضية صغيرة. فاقترح أن أركب أنا معه، على أن يتبعنا صديقاي في سيارة أنجيلاً من طراز كورتينا. مضينا بالسيارتين حتى بقنا طريق ادكار رود، ثم عبرناه في مواجهة حانة "بارنيت وموترز". عبرنا ضاحية ويلوبس كاردن سيتي، ثم استدرنا إلى الطريق الرئيسي. بعد نحو ميل وصلنا إلى حائط طويل من الفرميد الأحمر، تبدو وراءه بعض الأشجار. استدرنا بين نصيين على ناصيتي طريق جلي مصنوعين من الإسمنت قد خلنا الطريق الصغير الذي بالحفر الصغيرة. كان المنزل كبيراً إلى درجة واضحة ولكنه كان يحمل علامة تقول إنه من بناء وكالة "ريجيني" للتشييد وكانت جدران الحديقة المقواة بالنباتات المتسلقة وأحواض الزهور - بشكل عام - في حالة أحسن من حالة المنزل.

كان عصر ذلك اليوم معتدلاً طيب الجو، نفوح في هوائه رائحة الحشائش القضاوعة، وقد سمعت أصوات اللهاة في مجرى صغير يجري وراء المنزل. أخبرتني كوريس بأن المنزل كان مبنوئاً لإحدى جماعات جيوردييف، ثم أخذته جماعة كوريس منهم. ولا مكان سكان القرية المجاورة قد اعتادوا على الضراب التي تصدر من تلامذة جيوردييف، فإن مسؤولهم إزاء الجماعة الجديدة كان محدوداً، وكان هذا صحيحاً كما تبينت بالفعل، وإن كانت هذه الجماعة جديدة بأن تقدم مادة جيدة لتحقيق لأذع في مجلة "نيوز توك" ذي وورليد". ثم بيت لي ما كنت أفكر فيه على الفور. فطالما كان كوريس ما زال مختلفياً، أو أنه لم يكن قد وصل، فقد رحت أتمشى حول المنزل، عبر الحشائش البتلة (فقد امطرت السماء مطراً خفيفاً) حينما كنا نمر ضاحية ويلومين). بالقرب من الجانب الخلفي للمنزل، وتحت ظلال الأشجار، كان هناك جسدان عاريان يتدحرجان ملتصقين على الحشائش. جلسا، وابتسما لي، ثم استمرا في دحرجتهما. كان أحد الجسدين الفتاة ممتلئة - وإن كانت جميلة في نحو السادسة عشرة من عمرها؟ وكان الجسد الثاني لرجل نحيل مفتول في منتصف العمر، فقلت "معترة" وأنا أشرع في الابتعاد. صاحبت الفتاة، "تعال وانضم إلينا".

"انضم إليكما في ماذا؟"

"إنها دورة الألفة مع الطبيعة. الحشائش البتلة تعطيك إحساساً لئلياً".

وضحت لها أنني جئت إلى هذا المكان لأول مرة. سألتني:

"أنت خجول؟"

"كلا". كان سؤالها نوعاً من التحدي.

"إذن تعال".

لاحظ على الرجل أنه مرحب بانضمامي فهدر ترحاب الفتاة، ولو كنت في مكانه لرفضت تطفل طرف ثالث. خلعت كل ملابسني ولم يكن في هذا أي حرج. لأن من عادتي أن أسير في منزلي عارياً لمدة من الوقت بعد أن أستيقظ من النوم - ثم ذهبت إليهما لكي أجلس بجوارهما، قال الرجل:

"أجلس، جرب ما فعلته".

جلست ثم تمددت على الحشائش وتدحرجت، شاعراً بشيء من اللهاة. ولكنه صار على صوتي؟ فقد غمرني إحساس لئلي. من ملابس الحشائش البتلة للعباد العاري. بعد تدحرجت حتى شعرت بشعر برقة البرد، ذهبت فرفقت في الشمس التي سرعان ما جعلت مكان لرجل انحطتها يرفد على ظهره. وكانت الفتاة تجلب بيدها حزاماً من الحشائش وثقلت بها جسده. تلاطمه بها. بعد دقائق قليلة من تلك اللامضة، رفقت على ظهرها، وباعدت ما بين فخذيها، ففعل معها نفس الشيء. وهو يجذب حزاماً كبيرة من الحشائش ونشف التربة البتلة ما زالت عالقة بجذورها. وظل بذلك نهديها ويصلها برفقة متناشبة بما يجنيه. قال لي:

"تعال وساعدني".

فضلت أن أجلس عاكفاً وكسبتي أمام صبري لكي أدرى اهتمامي المتزايد بالفتاة. إن كانت ساقها الفتوحان يثيران استجابات بافلووية. ولكن بعد أن اختفت هذه الاستجابات بمجهود خاص من جانبي قمت فذهبت إليهما وحذيت قبضة من الحشائش، وكنا قد تحركنا بعد أن جردنا البتلة التي كانا يرفدان فيها - فعاولت أن أدلكها مثلما كان يفعل الرجل. وسرعان ما تخلت عن هذه العملية وتبعث ما أملتني علي عريزتي. فرحت إلى أطراف الحشائش البتلة من جسدها حتى لمست نهديها، ثم هيضت بها أكثر لكي تلامس نهديين برفقة. نجحت في تجربتي الجديدة، فسرعان ما شهقت شهقة المستمتع، وحركت رجليها حركة شهوة واضحة. قالت للرجل:

"إن له لسة رائعة".

استخدمت الحشائش بالطريقة التي كان يمكن أن أستخدم بها لساني لو كنت أحاول أن أستثير شهوتيها. وحينما وصلت إلى السرة، زالت من ثباغ فخذيهما

عند هذا، التفت الرجل إلى الناحية الأخرى وقال:

"أظن أنني سأذهب لأستحم في مجرى لاء".

سار مسرعاً وقد أولاتا ظهره. قلت:

"أخشى ألا يكون على وشك التوت لهفة إلى خطايا الجسد".

فانفجرت في صكر ككرة من الصبغات اللونية، فصارت شوهة حينما نستكها بقبضة باردة جديدة من الحشائش، فالت حالة:

"أعني لو كنا في حجرة نوم".

"كم يمكن أن نأمن أن مثل هذه الأشياء مسموح بها لكم".

هذه الأمور ليس مسموحاً بها، ولكننا لا نتمتع جميعاً بسيطرتك على نفسك".

تحركت على مرفقيها وهي تنهد، ثم دفنت رأسها بين فخذتي. كان نهم فمها من حولي للنبذ، ولكني كنت متوتراً خشية أن يأتي أحد إلينا. كنا مكشوفين تماماً دون غطاء أو حجاب، والنزل على أحد الجوانب - مكشوفين لأي شخص يمكن أن يعثر من أحد النوافذ - والرجل الذي يمكن أن يعود من مجرى الماء في أي لحظة. وضعت يدي بين شعرها ثم أبعدتها برفقة وفلت لها، "فيما بعد، ليس الآن".

قالت: "هنا وعدة".

قلت أجل، فراجعت إلى الحشائش لتزهد من جديد. وسمعت سيارة تتوقف عند الجانب الآخر من النزل. وكان الرجل قد لاح عائداً من المجرى. قلت:

"أظن أن علي أن أذهب لكي أرى الدكتور كورنر".

وبينما كنت ارتدي ملابس يومية، لاحظت أن فقدانتي للسيطرة على نفسي قد خفف من درجة التوتر الذي شعرت به من قبل. رفقت الفناء في مكانها تحت الشمس. وقد انغمضت عينيها، وبنت ابتسامة على شففتيها المنقربتين، ولاح عليها كما لو كانت تبلع نبرة نشوة بعينية الاشتغال.

لم يكن الدكتور كورنر هو من وصل بالسيارة، وإنما كان أربعة نسوة يرتدين النظارات، يشبهن مدرسات في مدرسة لتعليم عمال العقول الإلكترونية، ومعهن رجل نحيم يضع على عينييه نظارة رفيعة. ولكنني وجدت الدكتور كورنر داخل النزل. في الهواء الواسع الخالي الذي بدا لي مكانه مليء بالتماثيل الصغيرة لهشمة إقذافات البراعم والزهور، والريبات الإغريقية حواملات عنقود العنب لاج الانشغال على كورنر وهو يلقي توجيهاته

عن الأماكن التي يجب أن توضع فيها التماثيل. ولكنه حينما رأيته، جاء إلي وعلى وجهه ابتسامة داهنة، وصافحتني بهزلة، ثم رفع يده طالباً الصمت. جاء الآخرون والتفوا حولي فقدمني إليهم كورنر واصفاً إياي بالأنف المعروفة والفيلسوف. بدا عليهم جميعاً أنهم يشارون بتقديرهم لي. وشعرت بالحرج في داخلي يتزايد ويشتد. كانوا ينظرون إلي كما لو كانوا يتوقعون مني أن أرفع بيضاء فوق الأرض لكي أطفئ في الهواء. أحذني كورنر من ارتني وقال:

"أحد أعضاء جماعتنا يمسار للعادات القديمة. وقد أهدانا تلك التماثيل. إن بعضنا ليس على قيمة فنية كبيرة. ولكننا سوف تخصصها كموز لشخصيات بعض الأعضاء".

"رموز؟"

"نكي يجعلوها موضوعاً لتأملاتهم" ومن الواضح أنه شعر أن جعلته كانت واضحة وضوحاً كافياً لأنه أضاف يقول: "سمع لي بأن اطلعت على بقية المنزل".

كان المنزل كبيراً أشبه بمعسكر مهيا لنزول العشرات، من النوع الذي لا يمكن إلا للنيون أن يجعله مريحاً للسائكنين. كان كورنر وتلاميذه يحاولون تجاوزه بأنفسهم. ومن المؤكد أن عدداً قليلاً من الحجرات كان مؤثناً تأثناً مريحاً للغاية، مما يشير إلى أن بعض التلاميذ على الأقل يستطيعون أن يذهبوا ثمن هدايا من الأثاث الجديد.

أطلعتني كورنر على حجرة نوم تضيئها أشعة الشمس وقال:

"هنا ستنام أنت. إلا - بالطبع - إذا كنت تفضل أن تنضم إلى جماعة خلق الألفه بالطابق الأسفل".

"هل ينامون معاً؟"

"أجل، ولكن مع روح خمرة كاملة بالطبع. ليس سعباً عليهم أن يكسحوا جهاج رغباتهم، إنهم يعرفون أنهم يريدون عمقاً جيداً لذواتهم بهذا العمل".

استمر يتحدث بطريقة التي تشبه أسلوب إلقاء المحاضرات. وهو يلتقط حزمة من الأسلاك الكهربائية كان أحد عمال الكهرباء قد تركها على مقعد تحت النافذة.

"انظر إلي. إن السبب الذي يجعل الجنس مخيباً للأمل بالنسبة لعظم الناس بهذا الشكل، هو أنهم يشبهون سلكاً رقيقاً لا يتمكن من حمل أي ثمار. هل ستوافق على أن نشوة الجنسية تشبه تياراً صكهر بالياً. فإذا كنت صحيح الجسم ثم سكبت رغباتك لمدة طويلة فإن التيار سيصبح ذا شحنة عافية. وهذا هو كل هدفنا - أن نتحول إلى سلك سميك تقبل مثل هذا". ولوح تحت أنفي بالسلك السميك الثقيل النحاسي. ثم مضى يقول: "هكذا استطاع السلك أن يحمل التيار، فإننا لن نشكو من نقص التيار نفسه. أضلك جيداً بالواقعة على هذا؟"

قلت لني أوافق، كنت أعرف أن التنظيم الذاتي الكثيف يزيد من قدرة الرء على بلوغ نشوة والاستمتاع بها. ولكن قبل أن أتمكن من طرح بعض التحفظات، وضع ككورتز يده على ذراعي

"والآن. أريد أن أتحدث إليك. سوف تدرك أن لي هدفاً من الإتيان بك إلى هنا. تعال فاجلس". من الواضح أنه كان يشعر بجذبته حديثه. جلسنا في ضوء الشمس على الأريكة تحت الشافذة.

قال

"ليس الأمر ببساطة هو أنني أريدك عضواً في جماعتنا - فهذا واضح دون حاجة إلى سؤالك. إنك مؤهل تماماً لهذه العضوية. إنني أحب أن تكون نائباً في القيادة، خلفي، والرجل الثاني من بعدي في الوقت المناسب".

رفع يده لكي يمنعني من مقاطعة، واستمر يقول:

"ليس عليك أن تتخذ قرارك الآن. بل ولا حتى في الأسبوع التالي أو الشهر التالي. إنما أريدك أن ترى كيف تعمل. انظر إن كان يوسعنا أن تساعدك. أو إذا كان يوسعك أن تساعد. اسمع إنك تملك ما يكفي من التناسق والانسجام. إن أكثر من حوالي ثلاثين حيدون، ولكنني حتى الآن لا أعرف الميزات التي يحتاج إليها القائد. لقد أراد دانكمان وزوجته أن يكونا قائدين - ولكنهما كانا حديريين - ببساطة - بأن يحولا مجموعتنا إلى بيت للنداعة، حريم خاص لكل منهما. إن عملاً مثل هذا يحتاج إلى تكريس خالص للنفس، يحتاج إلى الروح العلمية. وانت تملك هذه القدرة وتلك الروح".

- ٢٨٧ -

أضفتم بعض الأصوات الدالة على الاعتذار. ثم قلت لني بحاجة إلى بعض الوقت للتفكير واتخاذ القرار. ولكن في أعماقي كنت أعرف أن هذا ليس من الأمور التي يمكن أنناقشها. لني وحيد منفرد، ليس ببساطة يحكم ميولي، ولكن يحكم طبيعتي. لني لم أدر اختلما بكل هؤلاء الناس

ربت على كتفي وقلت: "بالضيق، خذ من الوقت ما تشاء. ولكن هناك شيء واحد من الأفضل أن أقوله لك بصراحة. فقد حاولنا حتى الآن أن نحافظ على ابتعاد نشاطاتنا عن الأنظار، لأنها من الممكن أن يساء فهمها. ولكن ربما قد أن تون الخروج وإظهار أنفسنا بوضوح لكي نكتسب الأنصار، ولكي نعلن أهدافنا على العالم. لأن هدفنا هو أن تثبت أن المقاربة لم تستقر أبداً حتى يفكر كل إنسان بالطريقة التي نفكر بها".

كان قد أصبح جاداً كالك الحدية، ولم أكن أنا خالياً من كل تعاطف معه، ولكنني زحنت فجأة أفكر في الصورة التي رسمتها أنا دانكمان عن الغرياء الذين يسيادون حلقاً عميقاً في السيارة العاصفة، هو جنت أنه من الضروري أن أظل خالياً من الشافذة حتى أتمكن من السيطرة على تعبير وجهي. وبينما كنا نهبط إلى الطابق الأسفل، قلت:

"أظن أن هذه فكرة عظيمة. لقد استلأ السبر والتجيلة بالحماس إلى حد الانفجار في الليلة الماضية. لقد اكتسبت أمس نصيرين متحمسين".

"هذا شيء جيد، ولكننا لن نقنع حتى أتمكن من أن أقول نفس الشيء عنك".

وحينما أقرينا من الجماعة الذين كانوا ما يزالون مشغولين بترتيب التماثيل، قيس على ذراعي وقال "مؤقتاً" احتفظ بسرية ما قلته لك بشكل كامل".

- ٢٢٢ -

□ في الساعة الثانية ظهراً، أعلن أن الغداء قد أعد. في حجرة الطعام، التي تطل على الحديقة الكبيرة الخضراء، كانت وجبة بسيطة قد وضعت على التوفد الخشبية البسيطة الخشنة - كان هناك صحنان كبيران عميقان مملووان بالحساء، وصحنون صغيرة فيها

- ٢٨٨ -

أَكْثَرُهم من مكعبات الجبن، وكعكك من طحين القمح وكعكك آخر مزود بالسكر. قدمني كورنر إلى رجل شاب ذا لحية كبيرة اسمه بول، بدا لي أنه مساعده. كان بول يضع نظارت ذات إطار صناع من قرن حيوان. لكنه شمالية واضحة. وأسلوب في التعامل بالغ الحية.

قال،

"إننا نحاول أن نأكل وجبات خفيفة، وألا واجه الجسم مشاكل كثيرة في هضم الطعام، فيفسد النظام ولا يؤدي إلى أية فائدة. أما هذه الوجبة فهي وجبة كبيرة إلى حد بعيد. أما مجموعتنا الأخرى - وهي مجموعة من ثعلبوا الأربعين - فتأكل أقل من هذا بكثير".

أهمت أن كورنر يحافظ على الفاصل بين المجموعتين، وأن لكل من المجموعتين موعداً خاصاً لاجتماعها كل أسبوعين. قال بول،

"لا بد أن تكون عمليتين في هذا الصدد. نظرياً، ليس هناك بالطبع حد يفرضه السن. ولكن تجربتنا دلت على أن التفلنمين في السن يهتمون بالجنس أكثر من اهتمام الشبان. فإذا سمحنا لما هو أكثر من اللازم منهم بالانضمام إلينا لمكنا الشبان. إن الكثير من الفتيات الصغيرات لا يبدو عليهن الأمر حاج من الرجال الأكبر عمراً، ولكن ليس كثيراً أن يختار الأولاد الأقل عمراً نساء يزيد عمرهن على الأربعين. من الطبيعي أن المجموعتين تستطيعان الاختلاط فيما بينهما، ولكن هذا يحدث في حدود معينة، ويدعوت خاصة".

وكان واضحاً أن هذا يفسر حضور عدد من الرجال والنساء يزيدون على الأربعين، بل على الخمسين.

كان عدم الحاضرين في اليوم يبلغ الستين تقريباً، مع أغلبية قليلة من النساء. وبدت لي المجموعة عينة غالبة من الناس. لاحظت أن هناك ما يشبه الرزي الشائع بين نساء المجموعة، تغلب عليه الثياب ذات الأكتاف الطويلة والنظارات ذات الأطر الثقيلة إلى حد ما، الأمر الذي يعطيهم مظهر البارسات الجذبات. لم يكن هناك مرافقون يقل عمرهم عن العشرين. وكانت الفتاة التي رأيتها في الحديقة تبدو واحدة من أصغر الحاضرين. لاحظت أن نسبة كبيرة من الرجال يبدوون ذوي بشرة قوية، أو يرتدون صدارات صوفية مغلقة مرتفعة

الأغناق عريضة الصدر لكي تعطي لطباعاً بضخامة حجم من يرتديها. ولم يكن سواراً عند فليل جداً من الحاضرين هو من يبدو وسيم الطلعة بشكل ملفت. ولكنني لم أر شخصاً واحداً يمكن أن يقال عنه أنه غير جذاب من الوهلة الأولى. وبشكل عام، كان للنساء مظهر لشباب وارتفاع المستوى الذهني بشكل يزيد عما يتمتع به الرجال. لقد رأيت عدداً قليلاً جداً منهم من الرجال. يمكن أن يقال أنهم من النوع العصبي في النشاط الذهني الزائد. وسيدد بنا عتبههم من سمات تدل على أنهم مجموعة "متوسطة"، مثل عينة غالبة، أحسست بأنهم ربما جاوزوا نتيجة اختيار دقيق بأكثر مما يظهر لن يراهم للمرة الأولى.

أناح عليهم أنهم يعرف أحدهم الآخر معرفة جيدة جداً. كان هناك قدر كبير من الضحك، ومن التجاذب والمناكسات، من المصافحات والقبالات بين المعارف والأصدقاء. ومن قيام بعضهم بتقديم صحاف الطعام وإطباق الحساء للآخرين. أحسست بالتأثير القوي لهذا الجو الودي، رغم أنني شعرت بأن من وراء هذا الجو يكمن توتر من نوع ما، ويوشك أن يكون اعتقاراً إلى التلقائية والتصرف بطريقة مسريحة.

ذهب بول لكي يتحدث إلى شخص ما، قال صوت في مقابلي: أهلاً، فوجئت نفسي أمام نحو العيينتين البنيتين للفتاة التي قابلتها وسط حشاش الحديقة الخضراء المبتلة. كان لرجلها يحيط بنا معاً، وبينما رفعت وجهها وأدارته نحوي متسمة لي، امتلئت بشدها من وريها وفرصت عضوي فرصة ودية. قالت:

"اسمي تبسا" ثم أشارت إلي لكي أحتي رأسي نحوها، همست:

"لا أريد تناول الغداء، فلنذهب إلى الفراش".

"كنني أشعر بالجوع".

"إلى جانب أنهم قد يلاحظون انصرافنا معاً. إنني أتلقى تدريباً خاصاً".

غداً بول، ورمق الفتاة بمنظرة مقطعية تدل على عدم موافقته.. أحسست أنهم يعترضونها ذات تأثير مفسد وغير صحي.

أكلت خبزاً وفطعة الجبن وشربت حساني، ثم خرجنا من نوافذ الشرقة الفرنسية ومنها إلى الحديقة الكبيرة. كانت مجموعة من النساء تقف على شكل دائرة، وبدأ بهم

يؤدون نوعاً ما من التمرينات، وضع كل منهم يده على كتف الشخص الذي يجاوره، ثم تحركوا إلى الأمام حتى تلامسوا، ثم انحس كل منهم إلى الأمام بحركة واحدة حتى أصبحوا كالعقدة على هيئة البداية في لعبة "الركبي" ذات الخمسة عشر لاعباً، قال بول.

"هذه جماعة من جماعات الألفة في مرحلة التسخين، إنهم يحاولون التخلص من مشوكة الحياة الجنسية - يلمس أحدهم الآخر، يقومون ببعض الأشياء معاً، يحاولون التخلص من الإحساس بالانفصال والعزلة".

كان رجل شاب يرتدي صداراً ذا عنق مرتفع يلقى بالتعليمات للجماعة، ويتحرك من حين إلى آخر وسجلهم ويصفع بمقتهم برقة على الكتفين أو على الظهر، وبينما كنت واقفاً في مكاني، اتجه إلى امرأة في نحو الأربعين، وفعل شيئاً ما يهذيها - من الواضح أنه كان يعمل من وضع مشد صدرها من فوق صدرها الصوتي - وانتهى بأن صفع رقبها صفقة حادة كما لو كانت بقرة تقاد إلى الحقل. قال بول.

"هالانت ترى، إنهم يحبون أن تلقى عليهم الأوامر، إنها تساعدكم على التخلص من الإحساس بالمسؤولية - مرض الحضارة المعاصي. والغرض هو جعلهم يشعرون مثل شعور الأطفال الأبرياء مرة أخرى".

لاحظت أن كل الشرعيين في هذه الجماعة من "جماعات الألفة" كانوا يرتدون ملابس ثقيلة إلى حد ما، بالنسبة لحرارة الجو. وفسر لي بول ذلك بأنه جزء من عملية التدريب، فبينما يشجعون في التخلص من إحساسهم بالظفر، يمكنهم أن يرتدوا ملابس أخف نقلاً، وقال في النهاية، "سوف ترى ما أعنيه بعينيك في مساء".

ذكرت له الفكرة الأساسية التي ساورتني، وهو أنه طالما يأتي الجنس للبشر بشكل طبيعي إلى هذا الحد، فإن كل الأهداف الشديدة تتعلق لجماعة مثل هذه - لا بد أن تتجه نحو تبادل الاستنارة الجنسية في النهاية، ورغماً عن الجميع، أولاً برأيه موافقاً، وقال.

"في مجموعة بهذا الحجم، لا بد أن يحدث هذا في حدود معينة بالطبع.. ونحن نحاول أن نتخذ الاحتياطات اللازمة. ولكنك سوف تدرك إذا عرفت مقدار قلة حدوثها، ليست هناك محرمات، ولا صكوبات أو موضوعات للكبت، وهذا يؤدي إلى فرق كبير".

عندما قدخنا المنزل، سألته عما كان يعنيه بكلمة "احتياطات" فقال، "سوف اطلعك عليها".

صعدنا إلى حجرة في الطابق الأول. كنت قد عرفت أنها حجرة نوم جماعية للنساء دخلها بول دون أن يطرئ الباب. كان هناك ست من النساء يرقدن على الأسرة، أو جالساً يعلن ترتيب زينتهن، وكانت إحدهن جالسة بسرور لها الداخلي ومشد صدرها وهي تلمع جوربها. ابتسمت لنا، ولم يبد عليهن الاهتمام. اتجه بول إلى سرير فوقه حقيبتي مفتوحة فقلب محتوياتها على السرير. نشر المحتويات وبعثرها على سطح الفراش - ثوب قصير رمزي من الصوف، مشدات، زوج من الملابس الداخلية، بعض أدوات التجميل - ثم ألقي نظرة على حقيبتي غسيل فرمزية اللون، لم يبد على إحدهن أنها نظرت نحوه أو انتبهت إلى ما يفعله قال.

"إنني أبحث عن موانع للحمل. إنها أفضل طريقة لتأكيد أن شخصاً ما يبول، يكسر القواعد الذميمة".

التفت حقيبتي المرأة التي كانت ما تزال ترتدي ملابسها. قالت.

"أوه. بحق السماء لا تبعثر كل شيء. دعني اطلعك على ما فيها".

أخرجت الثياب من الحقيبة قطعة وراء أخرى، وهدرت كل قطعة ونفستها لتار بول إلى سروال طويل فرنسي وردي اللون وقال.

"ليس هذا جميلاً جداً".

"اعرف هذا. ولكنني غادرت المنزل في عجلة والقيت في الحقيبة ماأول شيء رأيتُه أمامي".

وفي خارج الغرفة قال موضحاً.

"لدينا نقطة تفتيش كل عطلة من عطلات نهاية الأسبوع، لكي نرى إن كانوا قد جاءوا معهم بموانع الحمل أم لا. وبالطبع، ليست لدينا وسيلة نعرف بها إن كانت النساء قد تناولن "قرصاً" قبل مجيئهن أم لا".

"ألا يفسد هذا من تأخير بشكل ما؟"

"أوه، لا. إن أوتو يتحدث إليهم ضد "أقراص منع الحمل" على أي حال، لأسباب صحية".

"وماذا عن الرجال؟"

"النساء تفتشهم. من المسموح لكل واحد أن يفتش أي شخص آخر، إننا نحاول أن نكون ليرة واحدة".

"لماذا اعترضت على السروال الوردي لذلك الفتاة؟"

"فتحات الساقين واسعة. ليست هنالك قاعدة بشأنه بالطبع، ولكن إذا كان في نية الناس أن يمارسوا الجنس، فإن هذا النوع من السراويل هو النوع المثالي - فإذا اضيئت الأنوار فجأة، بدت الفتاة في كمال ملاميسها".

"إذن فإن من المفترض أن تظل النساء مرثديات سراويلهن الداخلية؟" هكذا سألت وأنا أفكر في تيسا وهي راكدة على حشائش الحديقة الخضراء البتلة.

لاحظ أنه قد صدم تقريباً. صاح، "أوه، لا. إن هذا جدير بأن يجعلك تماماً عن الهدف الأساسي لجموعتنا - الألفة. ولكن إذا شرعنا في تلقي الللاطقات من أحد الرجال، فإن عليهن أن ينزلن سراويلهن، على الأقل حتى الأفخاذ" واستمر يتحدث بإخلاص شديد: "لا يبدو عليك أنك تفهم. إننا لا نحاول أن نجند الناس أو أن ننظمهم في كتائب صارمة النظام كالجنود. ولكنك تعرفت بنفسك أنه كلما زادت العقوبات كلما زاد ما تنمره من اهتمام. ولهذا فإننا نحاول أن "نصف" لنساء مجموعتنا أن يرتدين السراويل الحريرية ذات فتحات إسبقتان الضيقة المحكمة إلى حد كبير، وبذلك فإذا حدث أن رغبت الفتاة في ممارسة الجنس فإن عليها أن تخلفه تماماً. إننا لا نحب السراويل المصنوعة من النايلون أو السراويل الفرنسية الواسعة لأنها يمكن أن تجلب جانباً بسهولة كبيرة. وبعض هذه الأشياء لا تشكل أية حماية على الإطلاق".

سمع صوت جرس نحاسي صادر من البهو. سألته: "ماذا يحدث الآن؟"

سبب محاضرات حتى الساعة الخامسة، وأنا نفسي ينبغي أن ألقى محاضرة. ولذلك سيكون علي أن أتركك. إن حضور المحاضرات إجباري بالناسية، وأي شخص "يزوغ" من المحاضرات لا يكون جانياً حقاً. ونحن لا نقول ذلك للقادمين الجدد، لأن هذا يساعدهم على التخلص ممن يأتون لتوافع لا تتفق مع أهدافنا".

نصحني بأن أتجول بين قاعات المحاضرات المختلفة، وأن ألقى الأسئلة إذا رغبت في هذا.

عملت بنصيحته. انقسم "الطلبة" إلى أربعة مجموعات. تحدث كورنر إلى المجموعة الأولى، ويول إلى المجموعة الثانية، وكريس إلى مجموعة ثالثة، وتحدثت للمجموعة الرابعة امرأة جذابة. وإن كانت تبدو عليها مسحة طفيفة تجعلها أشبه بمدرسات المدارس الثانوية. تدعى جوينيث. كنت سعيداً بأن أرى الستير وأتبعها يجلسان بلهفة في الصف الأول من مجموعة كورنر، التي كانت تجلس في الحديقة. جلست في الصف الأخير من تلك المجموعة لمدة عشرين دقيقة أو نحوها، وسمعتهم يشرح الأسباب التي تجعله مادياً. قال،

"يعتقد اللاتيون أن أشياء مثل الحياة والفكر والأفكار يمكن أن توجد "بمعزل عن" المادة. بمعنى من المعاني". وكانت حججه ضد هذا الرأي كاسحة، ومقنعة تماماً بالنسبة لي. ولكنها لم تبلغ هدفها، بقدر ما يتعلق الأمر بما أهتم أنا به. إنني أوافق على أنه لا يمكن أن تتفصل العقول والعمليات العقلية عن المادة. ولكنني ما زلت اعتقد أن الحياة - بشكل ما - قد دخلت المادة من "خارجها"، وليست هيضاً منبثقة عن المادة. مثلما تنبثق النار عن الفحم.

أحسست بأن كورنر لن يرحب بتوجيه أية أسئلة، ولذلك فقد انتقلت إلى المجموعة التالية، التي كانت تحاضرها السيدة الدعوة جوينيث. كانت تقدم ملخصاً متحمساً - وإن كنت قد رأيتها مشوشاً - لأفكار رايخ. ولاحظ لي حديثها عن "الساتل الحيوي" الذي يراكم بين الفخمين لحظة الاستثارة الجنسية، لاحظ لي قريباً إلى درجة خطيرة من الطائفة المعصية التي قال بها رايخ. تساءلت في داخلي عما يمكن أن يحس به كورنر إذا هذا حاولت جوينيث نشاط أن تجرني إلى المناقشة، التي سرعان ما بدت فيها الحياة. بدت لي مجموعتها مفعمة الذكاء والفهم، وأكثر استقلالاً عقلياً مما توقعت - فقد رفضوا الاتفاق معها حول عدد كبير من النقاط. بذلت بعض المحاولات لشرح نظرياتي الخاصة عن أصل النافع الجنسي نظرتي حول الاستجابة الرمزية، ولكن كان يوسمي أن أرى كيف نظروا إلى هذه الأفكار استغراب كامل، وأنها - كما قالت إحدى السيدات - "مجردة بشكل لا ضرورة له". أصبحت

شائفة ساخنة حتى لقد دهشنا جميعاً حينما زحف أعضاء الجموعات الأخرى إلينا في حبيقة وقالوا ان وقت الشاي قد أوف.

ولكننا في الحقيقة لم نشرب شاياً - وهو الذي يمقته كورنر - وإنما شرب السانكا. وهي قهوة منقاة من الكافيين. أكلنا أيضاً معجنات مسكرة دهنت بطبقة خفيفة من الزبد. تحدث علي جوينيث وقالت لي أنها اقتنعت بأفكارتي. وراقت لي هي جداً. وكانت في نحو الأربعين من عمرها، ذات مزاج دموي حار، وأسنان كبيرة بيضاء أضفت على ابتسامتها لطفاً وجاذبية، وكانت تميل إلى التبالغة في صورة الدرسة الجسدية التي لاحظت لي أنها الصورة التي وصفتها "قيادة" لمجموعة لنسائها، بتوبها الأسود الطويل الأكمام، وعقدتها ذي الوريقات الذهبية والصليب في وسطها. أدرجكت أنها عضو في المجلس البلدي الذي يتبعه مسكنها، ولها شغل وظيفية حسنة في مكتب للعلاقات العامة. كانت تتمتع بطريقة حماسية مشوشة للبال في مناقشة الأفكار ذات الجاذبية الخاصة أو السحر بالنسبة لها. ولكنني لم أستطع أن أتحلل كيميائية تضمناها إلى مجموعة كورنر.

بعد شرب الشاي، ذهبتنا إلى جميعاً إلى المحبرة الرئيسية. لم يكن فيها سوى اثنتي قليل، لكنها كانت مزودة بأبسطه جيدة، بنت كما لو كانت قد شكلت المجموعة ثمناً يساوي ثلثي كتل الأثاث الموجود في المنزل. (قالت جوينيث أن هذه الأبسطه كانت "هبات" قدمها الأعضاء الأكبر سناً. وقد انتابني شكوك حول أن بعض الأعضاء الكبار السن قد اشعروا بأخويتهم في المجموعة بالهدايا الغالية التي تريد كثيراً - وبالإضافة - إلى الرسوم المقررة).

ورغم أن فرد كان يتزايد بالحارج، فإن هذه الغرفة كانت دهشة بسبب منقذ الغيب الذي كان يحرق في نازها الكبيرة.

انقسم الناس في المحبرة إلى جماعات ألفة صغيرة، ورحبت أتنقل من مجموعة إلى أخرى، مراقباً لنشاطاتهم باهتمام. وسرعان ما اتضح لي أن القسم الأول من النهار لم يكن سوى مقدمة مبدئية مثل افتتاحية الأوبرا الموسيقية. أما هذا القسم الآخر فكان هو القسم الجدي والهام. تشابكوا في حلقات ضيقة، متلاصقين بشدة أحدهم إلى الآخر. ويرى كل منهم ببديه على أجساد الآخرين، يادنين من الكاحلين، متجهين إلى الرؤوس. انقسمت جماعات كثيرة إلى أزواج، وكرروا عمليات الصمغ والتدليك، لم تكن هناك تصرفات جنسية بشكل خاص في هذه العملية، ولا حظت أن الأيدي لا تلبث إلا قليلاً عند المناطق

الحساسة، ولكنها بدت أكثر اهتماماً بالرؤوس والأذرع. جذبتني فتاة نحيلة طويلة إلى داخل إحدى الجموعات حينما كنت واقفاً أراقبها، وبدت تربت علي، ضاغطة بكثا يديها على بطني أو صدري ثم تباعد بيتهما وتضغما بقوة أكثر. بعد ذلك فعلت معها نفس الشيء، واقف ورائها، تضغماً بيدي الاثنتين بقوة على بطنها، ثم مدلكاً جسدها حتى أصل أرفقي تكررت هذه العملية على نهديها وعلى الفخذين، ثم - طبقاً لتعليماتها - بدت أربط على ظاهري الساقين، بدت من الخصر، جازياً بيدي فوق ثوبها، هابطاً إلى القدمين. لاحظت أن كانت ترتدي حزاماً لرفع الجوربين مع الجورب نفسه، وبعد ذلك بدت تلامط، تكلم، وفراعي ورأسي، جازية بأصابعها في شعري، وعلى صدغي، فاتحة فمي لكي تدس طرف أصبعها داخله، ثم تدس أصبعها الصغير (ينصهرها) في أفني. كانت ما تفعله هو ملاطمة كتما لو كنا عاشقين، ولكن لما كنا قد بقينا بكامل ملابسنا، فقد كان للعملية حسية غريبة من الاستنارة، وقدر غريبة على إبراز ما هو محرم وممنوع، ولو أننا كنا مغررين. وقد خلصنا بعض ملابسنا، لانتبهت العملية بالجماع في خلال دقائق. ولكن هذا التدليك الطويل الذي في حجرة بشاركك فيها أكثر من خمسين شخصاً، أدت إلى خلق مجموعة جديدة من الاستجابات، محصلة كل العادات القديمة.

لاحظت أن بعض الأزواج الآخرين قد جاؤوا بأول منة بالاء، وراحوا يتبادلون غسل أوجوه والشعر، قاموا بذلك بالقرب من نوافذ الشرفة المفتوحة، حيث لم تكن هناك أسط، كثيراً ما اخترق الأزواج وتبادلوا الشكر كاه. وبعد عشر دقائق من ملاطمة الفتاة النحيلة الطويلة، حصلت على امرأة ثقيلة البنية متوسطة العمر. شعرت في البداية أن التغير لم يكن مقبداً، ولكن بعد خمس دقائق من التلاطمة لاحظت أننا حققنا الألفة الطولية، ووضنا أن أن يعرف أحدهما الآخر وأن يروق أحدهما للآخر. بعد ذلك حصلت على نيسا التي استندت وهمسيت لي بطريقة فيها قدر من التفكه، "خشى أن لابد أن يكون هذا ذروة مضادة، هو مقابلة للثروة" anticlimax. كانت على صواب إلى درجة ما. لم يخف بلصالي عنها أي سر. كما لم يخف ثوبها عني أي سر. ولكن الإحساس بنعومتها تحت الثوب كان متراً اختلقت شيئاً كالفكاهة من هذا الموقف، فدنست يديها تحت صدري الصوتي وقرصت ذبني بقوة، وحينما دلكتها ودفعت ثوبها بين فخذيهما قالت، "أرجو ألا يفحصني الآن أحد إنني مبتلة". سألها

"هذا من المعومات؟"

"بالطبع. ولكن ماذا يمكنني ان افعل؟ اذا لمسي الناس مجرد لسة هنا، بلغت ذروة بنوتي على الفور. لقد بلغتها مرتين الآن".

بعد بضع دقائق، قالت، "انني جائعة إلى درجة لعينة. عندي كثير من الشوكولاته في جبرتي، إذا كنت تريد بعضها".

"هذا مسموح به؟"

"نيس بشكل حقيقي. ولكن كل هذه الألفة تثير نهمي إلى الطعام".

في الساعة السابعة والنصف ارتفع صوت الجرس النحاسي فقالت نيسا،

"الحمد لله على ذلك".

اتجهنا خبيماً في حركة واحدة كالتيار إلى حجرة الطعام. كنت بحاجة إلى طعام، وكانت كل هذه الاستشارة تجعلني أشعر كما لو كنت قد سرت عشرين ميلاً. كان لعشاء أقل قليلاً في شح من الوجبة السابقة: صحاف ضخمة من لحم البقر والخنزير البارد، وصحاف عميقة صغيرة من حساء الطماطم، وخضراوات ساخنة. ولدهشتي، لاحظت أنه كان ثمة مشرب للخمور أيضاً، وقالت لي جرينويث - التي توتت أمر رعائتي - بأن في وسعي ان أحصل على بيرة أو على نبيذ. قالت إنه ليست هناك مشروبات ثقيلة قوية، ولكن قليلاً من الكحول يساعد أكثر الناس على الاسترخاء والاستمتاع بوجبتهم. لاحظت باهتمام أن "الألفة" استمرت في قاعة الطعام. فقد انتهز الرجال والنساء التمازجة الفرصة لكي يلاطف بعضهم الآخر، بل وأن يتبادلوا القبلات. كان هناك قسبر معين من القبلات في الرحلة السابقة، وأغلبها كان على الأذرع والأعناق، أما الآن فقد رأيت أنهم يحيون بعضهم البعض غالباً بالتقبيل على الفم. ورغم أن الألسنة لمعت دوراً في بعض هذه القبلات، فإن أحداً لا يستطيع أن يصفها بالشهوانية، بمعنى دلالتها على الرغبة في الذهاب إلى الفراش.

أكلت بشكل جيد، وأعشتني كأس من البيرة إنمائياً كبيراً. وبعد تناول الطعام، شفتت طريقي إلى الرحاض، ولكنه كان مشغولاً. فشقت طريقي إلى الطابق العلوي إلى مكان تذكرت أنني رأيت - وهو مكان ملحق بغرف النوم تذكرت أنني رأيت على بابيه

قبيعة رجل وحقيقية بد نسائية. مع سهم تحتها يشير إلى نهاية الدهليز. سرت في الانتواء لنم إليه، فوصلت إلى مرحاض من الواضح أنه كان قد بنى حينئذ، مع عتد من الأبواب للأماكن الخاصة مثل مرحاض عمومي. ولكن لم تكن هناك إشارة على الباب تدل على مكان المرحاض للرجال أم للسيدات. وبينما كنت واقفاً هناك، سمعت صوت خطوات تأتي من آخر الدهليز. وتنفس الصعداء حينما رأيت أن نيسا كانت هي القادمة.

"أنا مسرور لرؤيتك أيهما للرجال؟"

"أوه، أيهما أرتت، فليس لدينا اثنان. إنها الألفة، أرى؟ هل ستأتي؟"

"أعتقد هذا".

يجب علي أن أعترف بأنني أحسست بالخجل، ولكن كان بوسعي أن أرى عدم منطقية هذا الإحساس. ذهبت إلى المحل الأخير بين المحلات الصغيرة المتجاورة، ولشدة دهشتي اكتشفت أن الجدار الذي كان يفصله عن المحل المجاور كان مصنوعاً من الزجاج. ذهبت نيسا إلى المحل المجاور وابتسمت لي. ثم - ودون أي إحساس بنفسها - جذبت ثوبها إلى الأعلى ثم جذبت سروالها الدخلي إلى ركبتها، وجلست.

قلت،

"يا الهي الرحيم، هذا أكثر مما ينبغي. نيس كذلك؟"

"ظننت هذا حينما جئت لأول مرة. ولكنك سرعان ما تعود عليها".

"ولكنني لا أحب أن أتخفف من هوائي الفاسد حيث يمكن أن يسمعي أحد".

"لماذا تهتم بذلك؟ الدكتور كورنر يقول أنه صوت طبيعي من أصوات الجسم، مثل صوتك وأنت تتكلم".

شعرت بالبلاهة وأنا واقف في مكاني، فالتزمت بنطالي وجلست. لم أشعر من قبل أبداً بعدم الراحة التي شعرت بها في تلك اللحظة. ثم سمعت صوت مزيد من الأصوات بالخارج، ثم دخلت امرأتان أخريان. اتجهتا إلى الكائنين في الطرف الآخر، وكشفتا عن مؤخرتهما وجلستا - وكان الزجاج نظياً بصورة غير عادية. لم تنتفتنا أبداً أقل التفاتة، وإنما استمرت في

تحدث عما قاله كورنر عصر ذلك اليوم. أراخني صوتهما، فأنفجر البنبوع المحبوس في داخلي، ولما راقت تيسا وهي تنظف نفسها بالورق فكرت في أننا جميعاً مخلوقات مليئة بالكوييت والرغبات الكبوتة أو المحبلة بأكثر مما نعرف عن أنفسنا، وأنه من المحتمل أن يكون كورنر على صوب مرة أخرى، ولكنني صممت على أن أستخدم مرحاض الطابق الأرضي في المستقبل، لأن له حيزاً عادياً.

هبطت إلى الطابق السفلي مع تيسا.

عندما عدت ثانية إلى القاعة الرئيسية، وجدت معظم الطلبة جالسين على الأرض فوق وسائل مقنطرة. وحينما دخلت، أشار كورنر الذي كان واقفاً إلى جدار المقاعة. ذهبت إليه. ضرب على اللثة بإحدى الزجاجات طالباً الصمت. ثم قال:

"والآن أريد أن أقدمكم جميعاً إلى الروتي والفيلسوف البارز جيردسورم، الذي وصف بأنه أكثر كاتب بريطاني إثارة للاهتمام منذ اللويس مكسلي ود. ه. لورنس. (واعتقد أنه اخترع تلك القارنية من وحي اللحظة). إن آراء مسر سورم حول الجنس تختلف عن أرقنا في نواح متعددة، ولما الآن أريد أن أطلب منه أن يلقي بضعة كلمات عن آرائه تلك. ويجب علي أن أقول أنني لم أئنه قبلاً بأنني سأطلب منه مثل هذا الطلب، وهكذا فإن كلمته سوف تكون مرتجلة تماماً".

لم يكن لدي ما يكفي من الوقت لكي أدهش فيه أو لكي تنوتر أعصابي. وقفت ولخصت بسرعة نظريتي عن الدافع الجنسي، وطبيعته العميقة، والطريقة التي بمسورها الدافع الجنسي نظريتي الظاهرية (الفينومينولوجية) على شكل تفاعل الإنسان مع العالم. وحينما شعرت بأنني أوشك أن أتوه بهم في دهاليز هوسرل^(١)، تحدثت عن إحساسي بالدافع الجنسي باعتباره "مفتاحاً لحاملي مفاتيح لوجوه" وعن العلاقة بين الجنس والتجربة الصوفية. انتهيت بمحاولة شرح النقطة الأكثر جوهرية عندي، وهي أن الجنس يمنحنا لوحة خاطفة من تركيز العقل يمكن أن تجعلنا أئنه بالآلهة لو استطعنا أن نبتهتها إردياً في مجالات أخرى وأن نسيطر عليها. ذكرت فكرتي عن أن الكائنات البشرية تشبه ساعات

(١) إدموند هوسرل (١٨٩٥-١٩٦٨) فيلسوف ألماني، ولد في مورفيا من أسرة يهودية، وبعد اكتشاف النهج الظاهري في الفلسفة الحديثة لوصف وتعريف معنى الحقيقي لأداة الوعي.

الأجساد التي كانت تدبرها القواضر المضغوطة، وأن الجسد أفضل من أن يحركه العقل الضئيل الذي تعمله قوة الإرادة. ولا يحدث إلا في الجنس أن نتمكن من تنمية فافر بنمى بالقوة الكاهية لتحريك ساعة الأجداد الثقيلة. وانتهيت بقولي أن اهتمامي الرئيسي كان يركز في التساؤل عن كيفية تعلم إدارة وتقوية قواضر الإرادة.

كان المناقشة التي تلت كلمتي ممتعة ومثيرة للاهتمام، ولكنها لم تصل الحد الأقصى. فقد اعترض الكثيرون على أساس أنه من الخطورة الشديدة السماح بمثل تلك الأهمية الكبيرة للإرادة. كانوا يحتجون بوجهة نظر تشبه نظرة لورنس وكورنر واستطعت أن أرى أن تلك كانت النقطة التي اختلفت فيها معهم جميعاً، فني لم أنزع ظني عن الإرادة ولا الذهن.

كان يوماً طويلاً، وكنت أشعر بالتعب. كانت الساعة الآن قد قاربت التاسعة، وكان الوقت قد مر بسرعة شديدة. وكنت قد بدأت أشعر بالرغبة في النوم. كان الأمر كله بالغ الإمتاع مليئاً بالعود الكثيرة، وشعرت بأن كورنر كان في طريقه إلى شيء هام دون شك، ولكن كان الأمر يتطلب قدر كبيراً من التفكير لتوضيح موقفني من مسألة شكلها. وأملت أن ينجلي المساء عن شيء أكثر اجتماعية بشكل نقي، وأني أتمنى لو ألتقي في الفراش. وقد كان هذا على بُعد كبير من الموقع الذي بدأ منه، حيث كان أيزموند وهوراس جليني.

شكرني كورنر وقال أنه يأمل أن يتمكنوا من رؤيتي كثيراً. ثم قدم المجموعة إلى السمر وتجيلاً، اللذين كان عليهما أن يقفا، وقد بدا عليهما الحرج. صفق الجميع بابتسامة شرعوا في الوقوف والتحرك للخروج من الحجرة. سألت كورنر، "ثم ماذا بعد؟"

"أه، الآن يبدأ القسم الأكثر أهمية. سنمر الآن بمرحلة أخرى من مراحل الألفة".

لم أسعد بذلك سعادة كاملة. كانت الرحلة السابقة ممتعة ولكنها متعبة، فإني لم أشعر برغبة في أن أثير توتر ملكاتي مرة أخرى. أشار إلي فتبعته إلى خارج الحجرة. متسائلاً سيني وبين نفسي إن كان سيتمتعش إذا اقترحت ألا أشارك في تلك الرحلة. بدأت أتحدث، ثم غيرت رأي. وبدلاً من هذا، سأنته.

"أود لو سألتك عن إيزموند دونيلي".

نظر إلي وبسّم.

قال: "ظن أن يوسعي أن أخبرك ببعض الأشياء الهامة، ولكن يمكننا أن نتناقش ذلك فيما بعد. فإن لدينا الآن أشياء أخرى يجب أن نقوم بها".

تبسمته، بشيء من الإجهاد، على السلم، استندنا إلى اليمين، وطمّنت أننا ذاهبان إلى جميع الفتحات الخمس لتوهمن. ولكنه فتح باباً علياً لباب حجرة النوم، ودخل، تبسمته، وكانت الحجرة صغيرة المرتفعة. كان لأحد الجدران نافذة واسعة. ولدهشتي، رأيت جوينيث واقفة أمامها، تعيد ترتيب شعرها وتحقق نحونا.

"هذه مرآة عاكسة ذات اتجاهين، بالطبع".

كانت هذه أول مرآة من نوعها أراها في حياتي، سألتها:

"أنت واثق من أنها لا تستطيع أن ترائنا؟"

"ليس إلا إذا فعلت هذا" مد يده وأدار ذراعاً صغيرة. وعلى الفور، أصبحت النافذة مرآة. كان يوسعي أن أركي وجهي على سطحها. قال:

"تستطيع هي الآن أن ترائنا. لقد قلبت اتجاه الانعكاس في المرآة".

أدار الذراع مرة أخرى، فارتسمت جوينيث لنا، ولوحت، بينما عبر النافذة. لوحت رداً عليها، ناسياً أنها لم تعد تستطيع أن ترائنا.

"ما الغرض منها؟"

"للملاحظة. سوف ترى أن النساء يبدلن ملابسهن الآن".

كان هذا صحيحاً. ففي التهجيع المزدحم، كانت النساء يحملن ثيابهن، ولمصانتهن الداخلية، والأحزمة رافعة الجوارب. أما جوينيث، فإنها دون وعي بما تفعله قد ملئت يدها إلى ظهرها وفككت زراً في ثوبها، ثم جذبت الرمام. خلعت الثوب بعناية ثم هزته على الفرائش. كانت ترتدي قميصاً داخلياً أسود اللون ذا حافة حريرية مشقولة بدت مغرية جداً وجذابة. بدا عليها أنها نسيئنا. خلعت حمالة القميص عن كتفها، ثم تركه يسقط حول قدميها. من الواضح أنها لم تكن تفضل اللون الأسود وحدها للابسها الداخلية. كانت ترتدي حمالة صدر

بيضاء، وحزاماً أسود اللون يرفع الجوربين وسروالاً داخلياً أبيض من الثيابون الناعم مر الواضح أنها كانت مستثناة من القاعدة التي توجب على النساء ارتداء سروايل داخلية لا يكثر أن نمط إلى درجة كبيرة. أما أكثر النساء اللواتي كان يوسعي رؤيتهن فقد التزم من بهاء القاعدة. لم تكن إحداهن ترتدي السروايل الصغيرة الحجم. كانت أكثريتهن يرتدين تلك الأشياء الوردية أو الزرقاء التي تغطي كل البعدة، والمزودة بشريحة مطاطية عند الوسط، رغم أن تجريتي الخاصة مع ذلك النوع أثبتت لي أن المطاط عند فتحة الساق يمكن أن يفتح السد بدرجة كبيرة، فإذا ما جذب إلى أسفل بوصة واحدة أو اثنتين، لم يعد يمثل أي مشكلة.

انضم إلينا عدد آخر قليل من الرجال بينما نحن واقفان أمام المرآة. ورأيت أنهم جميعاً مكن يرتدين الآن ثنانير قصيرة جداً رمادية من الصوف من النوع الذي كانت قد لاحظت وجوده في كل الحقائب التي فحصها يول أمامي. وكان الرجال الذين جاءوا للوقوف معنا قد أصبحوا يرتدون الآن زياً مماثلاً يتكون من بنطال رمادي من الصوف وقميصاً رياضياً ليس اللون. نهبنا نحو عنبر نوم الرجال في الطابق التالي. حصلت على إجابة السؤال الذي كنت على وشك أن أطرحه حينما فتح باب مجاور ثياب العنبر فראيت عدة نساء واقفات هناك ومن الواضح أنهن مكن يرافقن الرجال أثناء خلعهن لملابسهم من خلال مرآة أخرى ذات اتجاهين ناذي كورنر بحدة.

"هيا يا سيدات. لا درجة أكثر من هذا. لقد آن وقت تغيير الملابس".

أسرعن كلهن إلى الخروج، ولاحظت أن تيسا كانت بيلهن. وبينما كنا لدخل العنبر، رأيت أنها تسلط عائددة إلى حجرة المراة.

قال كورنر: "تعال. لقد آن وقت استبدال ملابسنا".

في عنبر نوم الرجال، بدا أكثر الرجال عراة تقريباً، وكان الشخص الواقف بالقرب من المرآة عارياً تماماً بالفعل. سألت كورنر:

"ما الهدف من هذه المرايا بالتحديد؟"

"أكثر الناس يتسمعون بصفات الرغبة في الاستعراض. حتى أكثرهم ثباتاً ورواية وأكثر الناس كذلك يحملون صفات "نوم البصاص". وهذا يمكنهم إشباع هذه الرغبات دون

جناس بالإنتم، لا تكاد تكون هناك أية رغبة جنسية لأحد من إخوانها هنا في هذا المكان إنما نحاول أن ندفعها جميعاً إلى السطح الكشوف، أن نجعلها صريحة مباشرة ونحت الأنظار للطفلة، والآن، لظن أن هذا البسطال الذي ترتليه سيكون مناسباً، إنك لا تحتاج إلا إلى قليل.

استدعى بول، الذي كان يرتدي ملابس كاملة لكي يعثر لي على قميص. وبعد وضعه بجانب، عاد بول حاملاً قميصاً رياضياً دون "ياقة" من القطن. لاحظت أنه كان طويلاً بشكل غير عادي، فأدخلته في فتحة بنطالي. لاحظت أن أكثر الرجال كانوا يرتدون سروال داخلية - من النوع الصغير الذي تجد إعلاناته في مجلات الصحة والقوة، وكانوا يرتدون أحذية "النمس" البيضاء، كان الكثيرون منهم يستحمون في الحمام المجاور. صفق كورنر يديه وصاح قائلاً:

"هيا يا سادة، آن وقت ارتداء الملابس، ليست هناك سيدات في الحجرة المجاورة الآن."

تذكرت - مجفلاً - أن تيسا كانت هناك، وأنني كنت أخلع ملايسي على بعد اقدام قليلة من المرأة. تمنيت أن تكون قد استمتعت بالميلتر. أو ربما كانت ترتقب الرجال الآخرين.

في الحجرة الرئيسية، كانت شاشة ضخمة قد وضعت أمام الدخلة، التي كانت منخفضة الارتفاع. رأيت أنجيلا وقد بدت خنوء جداً في تنويرها القسيرة الرمادية. لاحظت أنها كانت ترتدي جورباً مثل نساء أخريات كثيرات. وكان من الواضح أن ارتداء لجوارب إجباري. أذريت مني وامسكت يدي، قلت:

"بم تشعرين؟"

"إنني بحالة طيبة. ولكنه أمر يؤدي قليلاً إلى الصدمة إذ تفقد الكثير من الكوابيت في عملية نهاية أسبوع واحدة، ولكنها تجربة رائعة. لا أستطيع أن أقول لك كم أنا ممتنة لطفلة كورنر."

"تري، ماذا سيحدث الآن؟"

"لا تعرفين مزيد من الألفة. كانت الفتاة التي تنام على السرير المجاور لي تصلي الآن. هذه اللحظة الكري، أرجو أن أحصل عليك. لا أستطيع أن أحتفل واحداً من الرجال الآخرين، فانا أكره الذكور ذوي الشعر الكثيف."

"ولكن ماذا؟"

قبل أن أتمكن من إكمال سؤال، صاح كريس قائلاً:

"هل نحن هنا جميعاً؟"

قالت أصوات عديدة: "جل".

"حسناً، كونوا الدائرة، بول، هل لك أن تطفئ النور بالتدريج؟"

تساءلت عن النهاية الحقيقية في إطفاء بول للنور وبالتدريج، وبينما كنا نتحرك لكي نشكل الدائرة، والأيدي فوق الأكتاف، أخذت الأصوات تخفت تدريجياً. رتب الرجال أنفسهم في سرعة لكي يصبح كل رجل تالياً لامرأة، ولكن لما كان عدد النساء يريد قليلاً عن عدد الرجال، فقد كان من اللازم أن تصاحب بعض النسوة نساء أخريات. ثم أطبق ظلام كامل سألت أنجيلا:

"ماذا نفعل الآن؟"

ولكن صوتاً غريباً أجابها:

"إننا نتحرك الآن جميعاً نحو المركز، نختلط ببعضنا، ثم نختار أول من تصالقه من الجنس الآخر."

بدلنا نتحرك إلى الأمام، حلت لحظات قليلة من الفوضى. عجبت كيف أميز الرجال من النساء، وانتهيت إلى أن لمس الصدر هو الوسيلة المناسبة لذلك. (واكتشفت فيما بعد أن هذه كانت هي الوسيلة المعتادة). عثرت على فتاة هامسكت يدها بقوة. صاح صوت بول:

"أكل مستعد؟"

تأملت صيحات متضاربة، "جل، لا".

ولكن الأضواء راحت تسطع بالثديين. اكتشفت أنني كنت أمسك يد فتاة ضئيلة الحجم. شغراء الشعر كانت قد لاحظتها من قبل. لم تكن جميلة جداً، ولاحت لي عيناها مسابقتين بقصر النظر، ولكن وجهها كان جذاباً ساحراً مفعماً بالحياة. سألتها:

"لنم ماذا الآن؟"

"يمكننا إما أن نشترك مع الأزواج الآخرين، أو أن نبقى منفردين. أيهما تفضل؟"

"فلنبقى منفردين الآن".

"وهو كذلك".

نظرت إلى جاراتي اللاصقة لي - الفتاة التحيلة الطويلة التي كانت معها في لحظة سابقة من النهار - فجففت حينما رأيت أنها كان توشك أن تخطو لكي تتخلص من سروالها الداخلي الذي كان ساقطاً عند قدميها. وكان الرجل الذي يقابلها يفعل نفس الشيء، وهو رجل وسيم إلى درجة ملحوظة. عصبي، يكاد يبلغ منتصف عقده الرابع، بينما أحمر وجهه. ناولته سروالها وأخفت سرواله، وأخذ كل منهما يرتدي سروال الآخر وهما متواجهان.

"ما الفرض من كل هذا؟"

"هذه هي بداية الألفة. يمكننا أن نتبادل اللباس دون تقيد بأي حدود. وهذا هو القسم الذي رسم من أجل المؤمنين جنسياً بالشيء معينة، فيما اضن. هل تعني السراويل الداخلية شيئاً بالنسبة لك؟"

"إن لها دلالة جنسية محددة".

"في هذه الحالة، يحسن أن نتبادل سراويلنا".

ودون أن يبدو عليها أي حرج، خلعت بسرعة سروالاً وودياً من النوع الطويل، ثم ناولته لي. استغرقتنا وقتاً أطول في خلع بنطالي ثم في خلع سروالي الداخلي.

قالت: "وماذا عن قميصك؟"

"إذا راق لك ذلك".

كان ملتقى ساهي سروالها مبتلاً، وولد احتكاكاً بما بين فخذي ومضة من التبع الجنسي قضت على آخر آثار التعب. ومن الواضح أن مثل هذا الاحتكاك إنما هو أساساً احتكاك بين الأعضاء التناسلية الذكرية والأنثوية يتم بحركة واحدة. وبدأت أدرك ما عناء كورنر بتعبير "النشوة الجنسية العلقية". كان ما فعله هو أن ملأ حجرة بالرجال والنساء، وجعلهم يعيشون لحظة احتكاك جنسي - فعلي أو رمزي - أحدهم بالآخر، حيث يكون النير الجنسي في أقصى حالات قوته، ولكن الانضباط الجماعي يضع كل شيء تحت المراقبة. وقف كورنر إلى جوار اللهاة، برقبنا بعينين طيبتين سعيدتين ووجهت نفسي اتساعاً عما يشعر به الآن أو ما يفكر فيه.

أعطيت زميلتي - وكان اسمها نورما - قميصي الرياضي، وأخذت منها قميصها القصير الذي كان بنفس الطول تقريباً. لاحظت حينما خلعت ثوبها أن حمالة مسددا كانت من النوع ذي الفتحة الهائلة التي تكاد تسمح للثدي بالخروج منها.

ارتديت بنطالي ثانية، وأحكمت خفاف حزامه. قلت:

"لا أعرف لماذا تهتم بأن ترتدي هذه اللباس ثانية. هذه القمصان القصيرة طويلة بما يكفي للاحتفاظ بمظهر حسن".

"أعرف ذلك. ولكن الدكتور كورنر يظن أن عملية خلعها الفعلية لبنطاله تثير الكوابت لدى الذكر. أما لدى الفتيات فإن العملية تتم بخلع سراويلها الداخلية".

أدركت ما كانت ترمي إليه، بداني أن بعض الآخرين يريدون أن يتبادلوا اللباس وما أن انتهى الرجل الوسيم الجاور لنا من ارتداء بنطاله حتى تقربت فتاة أخرى. ورأيت أنه في هذه المرة - لم يتبادل اللباس مع الفتاة، ولكن مع زميلها الذي كان - أو الفرض أنه - يرتدي بالفعل سروالها وحميصها الداخلي.

قالت نورما: "هذا القسم من العملية يضجرني. دعنا نتبع عندهما".

تحركنا حتى أصبحنا عند طرف الجماعة. قالت:

"هل أبداً أنا مملت أم تبدأ أنت معي؟"

قلت: "من الأفضل أن تبذلني أنت معي. إنني لا أثق في كيفية قيامي بالعمل".

"هل تفضل أن تقف أم ترقد؟"

"سيان، لا يهم".

رايت أن بعض الأزواج كانوا يأخذون مناضد مطوية، من كومة كانت في الركن، ثم يقيمونها في الساحات الخالية. كانت المناضد مصنوعة من الألمنيوم، وبدا أن طولها يبلغ ستة أقدام. كان الرجل أو امرأة يرفد على المنضدة، كما لو كان يوشك أن يتلقى علاجاً فورياً للتشنج، ثم تبدأ "الأففة" بنفس الصورة السابقة. أثبتت نورما أنها أكثر خبرة من كل شريكاتي السابقات، أو ربما كنت أنا أكثر استدارة. وقفت أمامي، وحررت ببديها على ملوحي، ومعنتي وفخذي حتى هبطت إلى القدمين. وحينما وقفت، حلت حزام بنطالي، ولحظة تساءلت أنا إن كانت ستمضي إلى أبعد مما ينبغي. ولكنها لم تفعل أكثر من أن ملت يده إلى الداخل ودستها إلى أسفل حتى لمست ساقي، وهي تفرصني برفقة أو تربت بلطف حتى بلغت ركبتي. جعلتني أجلس، ووقفت ورائي، وحررت ببديها في شعري، وداخل القميص. أو بالأحرى توبي النسائي - وفوق صدغي، وداخل شفتي. منحت يدي إلى زمام البنطال لكي أغلقه، ولكنها جلست بيدي بعيداً وقالت:

"مزيد من الكوابيت؟"

"أصف".

انحنيت إلى الأمام، وملت يدها إلى الداخل، ووصلت إلى فخذي فربتتهما، وتركت يدها تتجول بحرية. كنت قد تخلت عن كل محاولاتي لكبت ردود فعلي الطبيعية، ملت يدها قدستها في حصر بنطالي، وتركت أطراف أصابعه تجري بقرعة صاعدة صابطة فوق معنتي، ثم إلى أسفل أكثر. سيطرت على صوتي لكي أسألهما:

"هذا مسموح به؟"

أوه، أجل. الأمر كله مزرك لنا. هل أتوقف؟

"أظن أنه يكون من الأفضل لو توقفت".

انفجرت فقهقات ضاحكة إلى جوارنا. كانت امرأتان ورجل يضحكون على الرجل الذي استبد به الضجل واحمر وجهه. وبدا الآخرون يضحكون بينما وجهه يزداد احمراراً وتكراراً. الذي كان يقف إلى جوار اللهاة بدت عليه الصرامة وهو يهز رأسه ببطء. استمر الرجل وأسرع خارجاً من الحجرة. قالت نورما:

"مسكين مسر ماك كان. إنه لا يستطيع أن يسيطر على نفسه أبداً. أخشى أن تكون النساء يتبادلن له لكي يجعلنه يفقد سيطرته على نفسه".

كان الأمر الغريب هو أنني لم أعد أشعر بأي إرهاق. كان تيار متوهج غريباً جداً يجتاحني من الداخل.

قاطعتنا مجموعة من ستة أشخاص، أربع نساء ورجلان. أرادوا أن يتبادلوا الملابس مرة أخرى. بدأ الامتناع على نورما، ولكنها خلعت سروالها الداخلي على مضض، وتسلمت بدلة منه سروالاً نسائياً صغير الحجم أسود اللون. أما أنا فأخذت السروال الفرنسي الطويل الذي عرفته عصر ذلك اليوم. استبدلت الثوب النسائي القصير بأخر أطول منه. كانت ترتيبه فتاة شاحبة عميقة النظرات، وحينما انتهت عملية الاستبدال قالت نورما:

"هيا. لقد حل دوري".

وحينئذ، اعتصمترني صدمة حينما تبينت أنني كنت أيزموند خلال اللقاءات الخمس السابقة، وأن هذا هو ما يفسر السبب فيما شعرت من ارتياك إزاء تلك الثياب الغريبة الشاذة بالنسبة "لي". كان الأمر كما لو أن أيزموند قد برز طاقياً من قلب أعماق وعيي أنا لكي يكتشف لنفسه ما يجري. وحالاً أصبحت واعياً بوجوده، تزايد تأثير النظرة اللزوجة، حتى أنني للحظة شعرت بأنني موشك على الفئيان، واختفى التهيج الجنسي.

كنا قد عثرنا على مكان هادئ عند حافة الجماعة التراحمة. كانت جوينيث التي لم تعد تحمل أقل سعة من سمات المدرسة الثانوية، منحنية إلى الخلف مستندة إلى حمار. وقد اغتمضت عينيهما وارتسم على وجهها تغيير يكاد يكون مزيجاً من الشوة الثالثة. وكان رجل راكماً أمامها، ورأسه مستند إلى خلفها. حينما أدار رأسه عرفت أنه الستير. قال لي أيزموند: "تحبائي، إنها الصديق". وبدا الستير كمن جفل فجأة. هبطت جوينيث فجأة إلى

نفس، فأصبحت نصف جالسة نصف راقدة، وقد اغمضت عينيها، وانقرجت ركبتيها.
ننذ عمر لي التمر بعينه وقال،

لا بد أن تجربها، إنها رائعة".

كان التعبير الشهواني للسكر الذي علا وجهه - أشبه بوجه آلة الرعاة الروماني فون -
بيدا علي، ولكنه لم يكن جديداً على أيزموند، تحققت أنه كان سلباً مباشراً لهوراس
بني.

لم يعد تأثير الرؤية الزودة شيئاً ولا مضاداً للسرور، كما لو كنت أنا وأيزموند قد
لنا صفقة نحتل بمقتضاها جسداً واحداً دون معاكسة ولا نزاع. كان الإحساس الآن
كثير وضوحاً مما كان من قبل في أي مرة، ولم أعد قادراً على الاعتقاد بأنه لعبة غريبة
يوم بها وعبي الباطن في الخفاء.

وضعت ذراعي حول نورمان من الخلف، وداعبت نعليها، ثم بحركة سريعة من
يدين، حررتهما من قيد الشد الذي يمسكهم. ألقت بنفسها بركة لتستند علي، فشعرت
فضونة ثوبها على لحمي العاري. أحنيت رأسها حتى استندت إلى كتفي، ورفعت وجهها،
أحنيت عليها ولست شفتيها، وحينما فعلت ذلك مدت يدها وراء ظهرها وامسكتني بقوة.
أنت، "إنك تزده تهيأ أكثر من اللازم".

مضيت أربت عليها، مستمتعا باستجاباتها، وكانت مثل قطعة قوست ظهرها حتى
سنتي وهزت في اطمئنان، تبينت، في جزع مفاجئ، أنها قد بلغت "النشوة للعلة"، ثم تبينت
مد لحظة، أن أيزموند هو الذي عرف ذلك، وليس أنا. لقد كان أكثر خبرة مني بشكل لا
يأتي في مثل تلك الأمور.

فجأة قالت نورما، "انظر، هناك منضدة خالية، فلنذهب إليها. لا يمكنني الوقوف
كثير من هذا".

وفي الحقيقة، لقد بنيت ركبتيها وكانها تصطكان، ساعدتها حتى تسلمت منضدة
بالقرب من المدفأة، حيث كان يقف كورنر. ناظراً بارتياح ومحبة إلى الحجر، يومئ برأسه
من حين إلى آخر ويبتسم، ربت على كتفي كورنر. قال له أيزموند.

"تحياتي لهما النايكن البشر".

سقطت يد كورنر، وشحب وجهه شحوباً شديداً. انحني إلى الأمام وحقق في وجهي

"كنت تعرف هذا من البداية؟"

"كنت لست أبله، أيها الشرف". كذلك قال أيزموند. فقال كورنر بهلوه؟

"أذن فقد كنت تلهو بي".

لم يكن هذا سؤالاً، فاضافت قائلاً: "ولكن، ماذا؟"

أثارني تعبيره لتفعم بالوقار الحزين. أردت أن أشرح له الحقيقة، ولكنها كانت سلباً
امراً يدعو إلى السخرية. ثم لاح علي كورنر أنه يتعاسك، لوى شفتيه، وابتسم ابتسامة
مريرة، وهز كتفيه، ثم خرج من الباب وترك الحجر ومضى. قلت:

"ماذا تعني بحق الشيطان؟"

كنت أسأل أيزموند. ولكنه تجاهلني.

كانت نورما راقدة على المنضدة، وتبدو كالنائمة، ذهبت إليها، وخلصت حلقها.
بدت قدمها الصغرى أبهى من جيداً. أحنيت وقبلت باطن قدمها، ثم أحنيت أطراف أصابعي
في فمي. جفنت وتنهيت. حررت رأسي إلى أعلى وقبلت فخذيها، وفي نفس الوقت لمست
يدي في وسط سرووليها. في هذه المرة، شغقت ولم تبذل أية محاولة لكي توقف عمليات
اكتشافتي. وعلى الرغم من وجود الناس حولنا، فقد كان من الصعب مقاومة الإغراء
بالنعسود فقها.

نرت بيصري حول الحجر، فربت أني وأيزموند، كنا من بين آخر من ظلوا على
أقدامهم. أدركت الآن لماذا كان السباح سميكا إلى هذا الحد. كانت الأجساد الممتدة راقدة في
كل مكان. استطعت أن أرى أنجيلا راقدة على ظهرها، وساقها مفتوحة، دون سروال
داخلي. وبدا أنها غارقة في النوم. كان بول راقداً إلى جوارها، وإحدى يديه على فخذه، وقد
اغمض عيني هو الآخر. أما جويليت - التي بنيت غير قابلة للنعب - فكان غارقة في تلك
الحظة، راقدة على البساط، ورجل يرضع نعليها، وآخر يربط على ساقها وبطنها، بينما

راحت أروافها ترتفع وتنخفض برفقة. كانت أجساد أخرى متداخلة في أشكال وتكوينات لا معنى لها، قبلت كما لو كانت صورة تخيلها رسام صور داعرة لحظة إحساس ساخر منكم.

كانت نورما تمسك يدي بشدة، لكي تمنعها من الهرب، وراحت تحرك فخذيها مساعدة هابطة وبدي ممسوكة بينهما. حينما نظرت إليها، سقطت في ذهني ذكرى قديمة. حاولت أن اثبتها، ولكنها راوغتني. بذلت مجهوداً آخر، وأنا أحرق بقوة في لحم فخذيها الذهبي النحلي. خطر لي أن أيزموند نادراً ما مارس الجنس مع نساء لو حلتين الشعة الشمس. ورغم أن عصره لم يكن يتميز إلا بالقليل من الاحتشام، كما هو عصرنا، فإن التياب كانت تضر جزاء رئيسياً من إنسانية الرجال والنساء، وكان التعرض العاري لأشعة الشمس يمكن أن يعثر نوعاً من الحنيفة القريبة والخروج عن المألوف. ولذلك فإن اخذ عتيقات أيزموند كانت دائماً ببطء ناعمة.

حينذاك، وبشكل فشلت في فهمه، لم أعد أنا وأيزموند رجلين يحتلان جسداً واحداً، وإنما تطابقنا فجأة وأصبحنا رجلاً واحداً. إن تفسير هذا لابد أن يكون أكثر أهمية من وصف مجرد الأحداث الجنسية التي وقعت خلال الساعات القليلة التالية، ولكني لا أستطيع في الواقع تفسير ذلك. إن اللغة لم تصنع لكي تعبر عن أحوال الروح الإنسانية الباقية الشافية والبالغة. لا يمكن إذن أن القول سوى التالي: يكاد يكون من المستحيل - ابتداءً - أن ننسى الكائنات الإنسانية نفسها، ولا أن نغفل من نشاطها الغلاب والسيطر بنفسها، ولا من أن نتحقق من أن ثمة عالماً يقع خارجها. لقد أدركت بليد أن لكل طائر يقطع الطريق الهوائي هو "عالم هائل من البهجة، قريب من حواسنا الخمس". ولكنني في تلك اللحظة وفي ذلك المكان، كنت فجأة وبسرعة الواضخ الخاطف، قد أصبحت داخل وعي شخص آخر. كانت إنساني كانت حياتي وتجربته مختلفة من كل جوانبها عن حياتي وتجربتي. وقد جازني هذا الوضع بإحساس هائل من البهجة والحرية، كان أشبه بالخروج من منجم فحم متناثر. وكان الشيء الذي اختفى فجأة، اختفاء كاملاً - هو ذلك الخوف الأساسي الذي يتسلل إلى عقول كل الأذكى والتفكير من الناس في لحظة ما من لحظات حياتهم، الخوف من أن الواحد منهم هو حقاً الشخص الوحيد في الكون، وأن الحياة فكاهة محكمة، عرض سينمائي يقدمه رب تملكه الضجر يعرف أنه وحيد تعاطى - أو أعطى لنفسه - عقاراً ينسى به وحيدته.

ذلك أنه في تلك اللحظة، كان هناك وعي أيزموند، حقيقي ومكتمل بصورة لا تقبل الشك أو الإنكار مثل وعي أنا، ممزوج بوعي ومتداخل فيه.

وفي ومضة خاطفة أدركت معنى الجنس. إنه سعي حقيقي إلى تداخل الوعي وامتزاجه، رمزاً هو تداخل الأجساد. ففي كل مرة يروي فيها رجل أو امرأة عطشه أو عطشها - في مياه شخصية أخرى غريبة - فإنهما يلقيان نظرة بازقة على ضخامة حريتهما الشاسعة.

كانت ذاكرة أيزموند أكثر من قوة ذاكرتي بكثير. فبسبب القدرات التي استطاع أن يطورها في نفسه، كان يستطيع أن يستعيد الأراحل الماضية من حياته في صورة من الحيوية لا يمكن تصديقها. وقد عرفت الآن أن هذا هو السبب الذي دفعه إلى اختياري لك كنت أعرف دائماً أن الحياة الإنسانية شبيهة بالحلم لأن أكثر الكائنات الإنسانية تعيش بشكل سلمي. إن وعيهم لا يزيد إلا قليلاً عن كونه انعكاساً لحياتهم. وعند حدوث سنو الجنسية، تشتد قوة تيار عقولهم فجأة إلى حد الاصطحاب، فيدركون اللحظة - مؤقتاً - أنهم لم يعودوا مصباحاً كهربائياً لا تتجاوز قوته الأربعين "واط"، وإنما مائتين وخمسين خمسمائة، ألفاً... ثم ينخفض التيار، فيعودون ثانية إلى مستوى الأربعين "واط" وبعد احتجاج، إنهم مثل البلهاء الفارغي العقول الذين لا يستطيعون تذكر شيء ما لأكثر من ثوان قليلة. إن الكائنات البشرية كائنات متوسطة القدرة والذكاء حتى ليكاد يكون من الصعب القول بأنهم يملكون عقولاً بأي معنى حقيقي. في ومضة خاطفة أدركت الحقيقة الواضحة العائنة: لا شيء يستحق أن تمتلكه إلا عمق الوعي. هذه هي الحقيقة التي نلناها لحظة نشوء الجنسية، فإذا أدركتها الكائنات الإنسانية - لو أن عقولهم لم تكن بهذا المعز عن فهم حتى أبسط الأشياء - لكانوا جنبرين بأن يهجموا بكل مصطلح آخر من أجل تحق هذا الهدف. ما الذي يهم حقاً في أن تكون. وماذا تفعل، وكما تملك، إذا كان عقلك محدوداً ضعيفاً قاصراً تماماً مثلما لا تعني أكثر الأشياء شيئاً أي معنى بالنسبة لرجل يعاني من الحمى. ومن الجانب الآخر، ولأن أيزموند قد أدرك هذا، وراح يطارد السر ويسعى وراءه فإنه قد دخل الشككة التي شغلت بروست طوال الإثني عشر مجلداً من روايته "البحث عن الزمن الضائع"، مشكلة الكيفية التي نفتح بها الخازن الهائلة غير النافذة التي تمثلها ذاكرتنا. إنني قد حاولت أن أتذكر طفولتي فإن ذاكرتي سوف تكون نسخة معتمة بالكربون عن الشيء

الحقيقي الأصلي. ومع ذلك فإن حادثة ما، مثل كعكة بروس في الفموسة في الشاي، تستطيع اللحظة مؤقته أن تبعث إلى الحياة زمناً بعيداً بصورة تماثل في حيويتها تلككري لحادثة وقعت بالأمس، فإمّا تكون الناكدة بهذا الضعف لأن الوعي قانع بأن يجري بقوة أربعين "واط"، بينما كل ما في الكون من طاقة وقوة قريبة منه وفي تناول يد.

في هذه اللحظة، تذكرت فجأة حادثة كان من الممكن أن تعلمني ما عرّفه أيزموند. فمك ستوت قليلة، أرسلت إلي تلميذة صغيرة خطأً عن أحد كتبي، شعرت من الخطأ ببنكائها، فقابلتها في كورك - حيث كانت تدرس في مدرسة داخلية. كانت فتاة تسبب للور - واحدة من تلك المنتجات الجميلة، إضافة الوثقة بنفسها والتي ينتجها بيت ثري مزود باستعدادات الخيول والحدائق الواسعة كالروج، وقد سحرتني - لا لأنها كانت تؤثر علي عواطفني التي كانت متعلقة بكل شغل بدياناً وإنما لأن الكمال يسحر دائماً سواء شدي في صورة منظر جواد سباق جميل، أو سيمفونية قوية. وكان من الواضح أنني سحرتها أيضاً، لأنها أعلنت عن أنها تنوي أن تتزوجني، رغم أنها كانت كاتوليكية وكانت تعرف أنني متزوج. وقد توقعته أن تستخدم أسرتها نفوذها للحصول على إذن من أباها بذلك.

وفي أثناء العطلة السنوية، أرسلتها أسرتها إلى دبلن لكي تقيم مع عمّة لها، فاصبحت قادراً على أن أجد فرصاً لرؤيتها مرة واحدة كل أسبوع تقريباً. كانت لسانة شكلها بريئة بكل البراءة، من الناحية الجنسية. فإنها وهي في السادسة عشرة، كانت عذراء رومانتيكية، كانت مفتتة بي، ولكنها تخاف من الجنس. وذات يوم، وقبل الوعد المحدد لعودتها إلى المدرسة بوقت قصير، بنا عليها بوضوح أنها قررت أن الوقت قد حان للسماح للعلاقة بأن تتقدم إلى أمام خطوة واحدة. كان عصر يوم ممطر من أيام أغسطس، وكانت قد أوقفت السيارة في غابة ما على حافة مزرعة كبيرة. وبعد عشر دقائق أو نحوها من بديّة جلوسنا متعانقين في مقعد السيارة الخلفي، تبين أنها قد قررت أن تسمح لي بأكثر قدر ممكن من الحريات دون أن تسلّم عتريتها تسليمياً فعلياً، ولكن هذا التحديد نفسه - أنني جديته لنفسها - غرس الخوف في قلبها. سمحت لي بأن أحل رباط حمالة صدرها، وأخلع سروالها الداخلي، ثم فجأة بدأت تبدي خشيتها من أن يتطلع أحدهم من زجاج السيارة - الذي كان ممجلاً بالبخار إلى درجة تمنع الرؤية تماماً، متوجهاً من الإحباط والشعور بالخيبة، أحكمت إغلاق أبواب السيارة لكي أطمئنها. ثم شرعت بعمل لكي أنسبها إحساسها بالإثم بسبب تهيجها الجسدي.

واستغرق هذا وقتاً طويلاً - وقتاً طويلاً جداً - وخطر لي أنها قد شعرت بأنها أصبحت كالعاهرة دون سروالها الداخلي، وهكذا فقد ألبستها السروال مرة ثانية. وجعلها هذا تتم بالاطمئنان الكافي لكي تسمح لي بالرفاق فوقها، وقد ارتفع ذبل ثوبها حول وسطها وكان حينها حاولت أن تحرك لكي اتخذ وضعا يمكن لأحتكاك فيه أن يشبع استثنائي ككلمة يسع استثنائها، فأر خوفها مرة أخرى، وكان علي أن أعود هايداً من البداية. كنت قد وجدت للشدة للدرجة التي كنت على استعداد لأن أبدأ من جديد مائة مرة. لقد انارت في نهاية الرجل الجائع. ولاح لي وجودي في هذا الموقف، الأظف أجمل هناك قبلتها في حياتي، لأكثر شهاً يعمل بقطة جنسي منه بالحقيقة. ولم تكن عملية ممارسة الجنس النهائية أمر هاماً، فقد كان امتصاص أنوثتها كافياً لإرواء عطشي. وبعد ساعة، حينما تحققت من أنها قد بلغت حالة من التهيج لأحت كل المقبات، عملت أن أحافظ على وعدي، فزكنت تلذع استثنائي لفراسمة لكي تنفجر دون ضرر - وكان هذا كافياً لجعلها تسحب مكل لوسر التحريم السابقة.

ولكن بينما كانت ألبود السيارة عائداً إلى البيت، بعد أن أنزلتها في طريق العودة عند "كوليج جرين"، كنت أعرف أن وعيي لم يعد مستقراً عند مستواه القديم من الإحساس. كانت الساعتان اللتان قضيتهما في تركيز مكثف قد غرستا في "عادة" التكتيف العميق. عادة رفض السماح لاضائني بأن تفرق ثانية لكي تختفي في منبعها من الوعي الباطن. وبينما كنت أسير بالسيارة ببطء في الظلام، كنت أعرف أن عقلي قد بلغ مستوى جديداً من القوة كانت ضربات قلب حيواني أكثر عمقا وقوة، وكانت ذاكري تعمل بشكل أحسن من المعتاد، وكانت قدرتي على الحس قد تعمقت... ولم يستطع طريق العودة الطويل أن يقل من هذه الكفاءة العميقة، ووصلت المنزل عند الفجر، شاعراً بنفس الانتعاش الذي أحسست به حينما بدأت رحلي للذهاب من دبلن.

وعلى الرغم من ذلك فقد سمحت لنفسني بالانتكاس ثانية إلى المستوى القديم. فقد ضاع اكتشافي هكذا هدرًا، معرفة أن ساعتين من الجهود المركز يمكن أن تعمق العقل ولكتنه حتى يقرب من رؤية التصوفين ولكني الآن، في هذه الحجرة، وأنا محاصر بالرجال والنساء المندبين على الأرض، أعدت اكتشاف هذه الرؤية الداخلية التي أبصرتها ذات مرة. لم تكن هذه الحجرة مألوقة لي. إن التعود على شيء أو الألفة، بمعنى مختلف عن ممتزج

لتربية ككورنر) وظليفة أو نتيجة من نتائج إجهاد الوعي، إما بالنسبة لعقل مكتمل البنية، فإن كل شيء يبدو جديداً وطازجاً.

كنت متحرراً من التهييج الجنسي، وكان إحساسي الرئيسي إزاء هؤلاء الناس هو الاحتقار للتسلل، وحينما كانت نورما تتحرك حركة متشنجة محتكة بيدي، شعرت بأنها بلغت في قبضة فعل انعكاسي لا سيطرة لها عليه. وفي نفس الوقت، بدا واضعاً بقوة عظيمة لي أملاك زمام رغبتني الجنسية بشكل كامل. وسواء اجتنبتني هؤلاء النسوة أم لا، فسوف يكون بوسعي أن أقوم بوظيفتي العسكرية بصورة كاملة تماماً، كانت هذه فكرة مثيرة للاهتمام، رغم أنها لم تكن جذابة بشكل خاص. كان الأكثر إثارة للاهتمام بكثير أن استفيد ذكرى تخفيف صوت الدكتور جونسون والكيفية التي مضى بها شفته السقلى في تعبير عنواني واضح حينما قال: "سيدى...". أو أن أتذكر الالتواء الماكرة الخبيثة التي جعلت ليكن الأيسر من هم فولتير يتشج قبل أن يطلق واحدة من تعليقاته اللاذعة الذكية، أو صوت سيللي المرتفع للتوتر وهو يقرأ في قصيدته "أونيس" بصوت مرتفع النبرة. ولكن كان لأيزموند هدف أراد أن يصل إليه، وعلينا أنه كان معلمي الخاص، فقد كنت على استعداد للانتظار في هذه اللحظة، أراد أن يظهر لي أن الرغبة الجنسية بشكل مكامل مرجعها إلى الخيال - أو إلى "العقد" كما يحق لي أن أقول، إن تعاهي إزاء نورما يمكن أن يتغير تبعاً لإزائتي الخاصة، وكان بوسعي أن أراها في صورة فتاة غبية شبيقة لا تستطيع أن تفكر في شيء أبعد من اللذة التي تحسها بين فخذيها، أو في صورة تجسيد لربة الأرض، فإذا اخترت أن أنظر إليها على هذا النحو، فسوف يكون علي أن أسدي لها لأحرام والتوفير للأزمين، مثل كاهن يثقف أمام النسيج. وتبعاً لهذا، فقد خلعت سروالي، ثم خلعت سروالي، وصعدت فوقها، فتحت عينيها دهشة للحظة واحدة، ثم شهقت بحدة حينما ولجتها... ولما كان هذا عملاً من أعمال مقدوس العبادة، وليس من الأعمال التي تدل على الرغبة، فقد ركزت على إعطائها أقصى قدر ممكن من اللذة، مؤمناً بين حركتي إلى الأمام وبين حركاتها.

ورغم التفاصيل القائم بيني وبين ما أفعله، فقد كنت أشعر كما لو أنني أمارس الجنس للمرة الأولى في حياتي. وأكثرنا يعرف أن الجنس يكون أحياناً أفضل منه في أحيان أخرى ومن الممكن أن يولد ولوج فتاة صدمة كهربائية تماثل الصدمة التي تحدث إذا وضعت أصبعك داخل توصيلة كهربائية بالصلفة، أو يمكن أن تبدو هذه العملية ككتابة وعادية.

عملاً جسدياً لا يختلف عن أي عمل غيره. وهذا يرجع إلى القدرة الإنسانية على الدخول في حالة من البلاهة أشبه بحالة النوم مغناطيسياً، حالة من تقبل كل شيء على علته، وإن أمكن لتقبل نورما على علاقتها فقط، كما مر بيدي من التسلمات، بل كانت مدرجاً لأنها نفس الوقت شبه كل فتاة أخرى في العالم. شعرت كما لو كنت نسراً يحوم دائماً في اليد دون حركة، محبلاً إلى أسفل نحو هجوة هائلة بين الجبال.

كانت الطائفة التي ولدها عملنا قد اشرت على الآخرين في الحجرة. شعروا بها كما لو كانت مهيجاً غامضاً: "عصراً خاصاً تحمته الريح" كما قال بليك. كان بعضهم يراقبون وراح آخرون يقلدوني متجاهلين قواعد كورنر التي وضعها ضد الجماع الفعلي. شعرت بـ تجري برهة على ظهري، وعلى ردي، ثم بين ساقي. كانت تيسا، متجنبة فوقى وعلى وجهها تعبير حالم بشكل غريب ومتناقض لما كانت تفعله. تذكرت من كانت تذكرني بها، إنها مينو بوير، أولى عشيقات أيزموند، لم أكن قد عرفت اسم أسرتها من قبل. ولكنني تذكرت الآن. زنت من سرعني وأنا أشعر بتصاعد استنارة نورما، ثم بينما كان بطنها ينحني إلى أعلى وتضغط بقوة على بطني، تظاهرت بأنني بلغت ذروة نشوتي، شاعراً في نفس الوقت بأصابع تيسا وهي تنغرز وتقبض على لحمي. استرخت نورما ببطن، هسحت نفسي. قال شخص ما:

"يا الهي". كانت جوينيث، التي كانت تقف إلى جوارنا من الجانب الآخر من بابا عجب في العضو الذي بدا - حتى لعيني - منتفخاً بشكل غير عادي. أما الستير، الذي كان لنوده قد نهض من فوق فتاة طننتها للوهلة الأولى أنجبلاً فقد صاح مدعوشاً،

"غير معقول!"

أمسكت تيسا بمرقتي وقال:

"والآن، أنا!"

لحقها جوينيث جانباً، ممسكة بي حتى لا أنهض تماماً وقالت بتصميم:

"كلنا، أنا!"

ثم يكن عندي أي فرق بينهما. كان أيزموند - لأسباب تتعلق به... مصمماً على أن يمضي في الظاهرة حتى يبلغ بها نهايتها، ورغم أن تذكرته كانت واضحة لي، فإن وعيي لم يستطع أن يدرك الغاية القصوى من نواياي. لم أعرف سوى أنه قد نوى أن يستخدم جسدي لكي يشبع أكبر عدد ممكن من النساء اللواتي قد يخزن أن يطلبن منه خدماته. وهكذا، فعينما استنلت جوينيث بظهرها إلى الجدار، ضاعطة أداة المتعة... مددت يدي من ورلها، وأرسلته إلى للدخل الضيق... لم يكن الوضع مريحاً بشكل كامل، لأنني كنت أطول منها، كانت هناك مائدة قريبة خلفي، تحركت إلى الوراء وأرحت نفسي على ركنها، جاذباً التراب معي. أنت وهي تنضغط إلى أسف، ثم رفعت نفسها وهبطت مرة ثانية بسرعة. جذبتها حتى انصرفت بي، ممسكاً بها بقوة أمامي، وقد شعرت بشكل ما بأنها قد أصبحت مثل أداة موسيقية مألوفة لي. كان في نيتنا أن تبقى في مكانها لأطول وقت ممكن. فقد كانت تتركها على التماسك الجنسي دون حدود تقريباً، وقد تجاوب الموقف الحالي مع نزعة الاستعراض الكامنة في غلمتها. ولكن أيزموند كانت له خطط أخرى. كان متمرساً في استخدام مبدأ رد الفعل المتعكس الشرطي. دفعات حساسة رفيعة قليلة دمرت سيطرته، ثم جاءت دفعة لا يسعني أن أصفها إلا بأنها نوع من الكهرباء الجنسية جعلت نقاط اتصالها الحساسة - نقاط الحلماتين وفتحة الشرج الممتدة تتوهج بقدر من اللذة لا يمكن احتماله حتى الفزيت من الألم. أطلقت صيحة ألم، وهي تتلوى وتنقبض، وكان علي أن أمنعها من انسقوط من أمامي. وبينما أمسكت بها ملتصقة بي، خفت حدة التقلصات، وتحولت الأذات إلى تهيدة عميقة. أبعدتها برفقة عن حجري، وأمسكت بها بينما كانت تهوي بيضاء على البساط.. ففز رأس الإله الذي لا يكل إلى أعلى مثل "عقريت العلية"، وجفنت حينما سمعت انطلاق التصفيق. جالساً وقد أوليت ظهري إلى بقية الحجرة، لم أكن واعياً بجمهور الشاهدين الذي تجمعوا للفرجة. كان بول وأنجيلا يقودان التصفيق ويصيحان. قال بول: "نك استاذ"، فتبينت مصدوماً أنه كان يعرف عن جماعة العناء أكثر مما كنت اعتقد. صبحت جماع التعليق غير للتواضع الذي كان أيزموند قد شرع يطلقه. اندفعت أنجيلا نحاهي، ولكن تيساً كانت قد وصلت قبلها وهي تقول:

"كلا. إنها أنا". ثم دفعتني إلى الوراء على اللضدة، وهي تحاول أن تسعد فوق. اغنتها على ذلك - طالما أنها كانت أصغر حجماً من جوينيث. ورفعتها قليلاً قبل أن اتركها تسقط فوقني. انحط رأسها فوق مكتفي، وأطلقت تهيدة طويلة، ثم بدأت تتحرك ببطء، كما لو

كانت متعبة، وهي تطلق صيحات خفيفة. مثل حيوان ضئيل الحجم يتلقى الضربا نسبت إحدى يدي تحت قميصها الرياضي وقرصت حلمتها اختلصت برفقة والدهم لسان الصغير في فمي وراح يدفعني من داخل فمي. وبينما كنت ادفعها برفق بعيداً عني، صاح رجل بلكنة استنطالية وصوت مرتفع: "إن الرجل فلانة عجيبة لا تتكرر".

كانت أنجيلا هي صاحبة الدور التالي، جذبتني حتى أرقدتني على البساط أمام الدهاز. وألقت بنفسها إلى أسفل وقد ننت ركبتها. ومعها، اكتشفت اكتشافاً جديداً كانت العملية مثيرة مثلما كانت بعد زيارتنا لأسرة دانكمان. من الواضح أنها كانت تتمتع بشيء ما، أو إنه كانت هناك صفة خاصة في تركيبة كل منا الجنسية النفسية، جعلت كلاً منا قادراً إلى درجة عجيبة على إعطاء صاحبه الحد الأقصى من المتعة. وهذا عنصر نادراً ما لاحظته الكتاب الذين كتبوا عن الجنس، الذين يبدو أنهم يشعرون بأن اختلاف بين عملية جماع وأخرى إنما هو بشكل كامل مسألة تتعلق بالعاني التي يختار الشخص أن يسقطه عليها. كانت العملية مبهجة مع أنجيلا حتى أنني شعرت بما يغريني أن أهدئ من سيطرتي على نفسي وأن أكف عن حبس رغبتني في المشاركة. على الأقل يدافع من التهذيب. كانت خمس دقائق كافية لاسترداد طاقتي، ولكن هذا لم يكن جزءاً من العرض الذي يرمي إليه أيزموند، فقد لاح أنه مصمم على الاستمرار في العرض، لأسباب خاصة به بدأت أشعر كما لو كنت محرك سيارة قوية وصل إلى درجة الأداء الكامل. لم يكن لمة إجهاد أو نصب، وبدأ جسدي كما لو كان يندفع بسرعة ثمانين ميلاً في الساعة، واكتسبت حركات أرداني حركات موزونة إلى درجة غريبة، كما لو كانت بتدولاً مضبوطة الإيقاع زلت من سرعتي لكي أصل بأنجيلا إلى ذروة نشوونها. وأنا أجدتها لكي أضغطها على جسدي حتى خبت حدة عنفها، ثم انتقلت إلى الترافة التي كانت تنتظر بالفعل إلى جانبي من الناحية الأخرى. شيء ما كان يحدث لي، الشبه بحالة إحساس حقيقي بالانفصال عن جسدي. وكان عقلي قد انفصل عن الجسد وطار في الهواء محملاً فوقنا. إنني حينما أفكر متذكراً حياتي الجنسية العادية، فإنها تبدو لي ضائعة لا نظام فيها، فهي كل مرة يلج فيها رجل فتاة، يستيقظ له في داخله. إنه لا ترضيه الحياة الجافة ولا الوجود الشبه بوجود النفس، الذي نعيشه، يعرف أن الإنسان قد صنع لكي يفزو اتفاقاً شاسعاً، غزوة لا نهائية ومن أجل أن يحقق بقية سامياً وأنجيلاً للإرادة. وحينما يصطدم اللحم باللحم الغريب. يقع عقله في قبضة نوع حاد من وضوح الهدف يرفض أن يتسامح مع نشوش الجسد وثقله. يصبح مثل القائد

لعمري، إنه يستطيع أن يجعل من هذا الركاب من الأخلاط النشوة التي تدعوها الجسد، متناسخاً صلباً مثل فصيلة حيدة التريب متسجمة الأفعال. ثم تعبر ذروة النشوة إلى ما أوعى، ويغيب القائد في طبقات النسيان، ويعود التشويش المضطرب من جديد.

لم يكن أيزموند يقوم بهذا متفكهاً أو بهدف تسلية. فعلى المستوى الأول، كانت هذه المرة أو استعراضاً. بدون كلمات كان يقول لنا أن الهدف الحقيقي الذي يسعى وراءه زلواها ودون جوان وهارتك هاريس وزملائهم، هو أن يجعلوا من عمليات الإغواء التي رواها واحات من "القدس" في صحراء من الفوضى وعدم النظام، لقد خلقوا عالماً لثانية بدة كالكسور، ثم انحصروا هابطين ثانية إلى المستقبل. كان أيزموند يقول لي أن الهدف أن "تبقى في الهواء". ماذا يمكن أن نقول عن قائد سابق قطعان الغزاة إلى خارج البلاد، ثم جمع من المنطقة التي احتلها وسمح لهم بأن يعودوا على الفور ليس هذا سوى ما حدث ثم، وقد بالغوا في تسليمهم بهذا كما يسلون بالبتيهيات حتى أن الغزاة عادوا مباشرة في ثوب الأحرار للرجعة، دون محاولة للتمزية أو للمساومة. وقد أراد أيزموند أن يظهر أن ثقافة الجنسية تهيئ لنا بصورة داخلية في مثل حيوية الرؤية المصوغة، وأسهل في تحقيقها ثمر، ولكنها - لكي تكون مؤثرة، فلا بد أن يتم تنظيمها بحرص وتفاعل مساو لحرص من الزمن اليوغا أو التنسك والصوم الطويل.

بعد المرة الخامسة، لم يعد الجنس يهمني أو يمتعني. كنت مجهولاً بالحقيقة التي كانت تحدث في وجهي طوال حياتي. ففي كل مرة نشعر فيها بسعادة عميقة، فإننا نعرف، ليس هنالك سوى خير واحد، قوة الإرادة، وأنه ليس ثمة سوى شر واحد، أن نتنكر للإرادة. ثم إن الحياة طليقة خيرة مثلما نعرفها في لحظات ابتهاجنا، فكان من الواجب أن ننظر إلى كل العقبات كما لو كانت من حصص الطريق، وتكان الفروض ألا يكون الإنسان قابلاً تهزيمة. وحينما كنت أنظر حولي في الحجرة إلى هؤلاء الربات العازيات، تبع في داخلي فرح ميق. هؤلاء تكن الأمهات، والذات جنسنا، اللواتي استعبدن الرجال دائماً واحتقروهن. لقد يندهن مثل كائنات إلهية مقدسة. إن ما بين أفخذهن هو مدخل الرجال إلى عالم الأحلام، إلى العظمة، وإلى الهدف الأول الذي يكمن وراء الماد. لم أر أي فرق بين الواحدة منهن الأخرى، بين الصغيرة والجميلة وبين متوسطة العمر الجمدة. الرغبة في خدمتهن جميعاً كانت رغبة غير شخصية ومتحررة من الشهوة. وقفت وأخذت يد فتاة نحيلة عصبية

الشكل وكانت تنتظر، ومضينا معاً إلى ركن الحجر، وقف جزء من مكياتي خلف مدبح مقصلي بقطعة فماش حمراء، شيد في مدبح مبني من الحجر الرملي المنحوت. وارتدت لناعاً على شكل رأس طائر عظيم. ووقفت أربعمون امرأة عازية في صف واحد أمام المدبح، اجسدن تلعب بالزيت، وكل منهن تمسك في يدها قارورة ممتلئة بمائل قود متوهج الخضراء اندركت أنا طبيعته وكنهه على حين فجأة.

- ٢٢ -

☐ عندما استيقظت في صباح اليوم التالي، على أثر ملامسة أشعة الشمس لوجهي، اجتاحتني إحساس عارم بالسعادة. كان جسدي في أشد حالات الوهن، وكانت عسلتي تؤذي، إلا أن جسدي كان لا يزال ينضبط ببطء عميقة مكيونة. نظرت إلى الفتاة الرقيدة إلى جوارى - فتاة لم أكن أعرف اسمها. وشعرت بنوع من الإضفاق يجتاحني. ومن الغريب لماذا أنها كانت عنراء. وكانت قد قبلتني زوجاً لها. ولكنني كنت زوج ديانا ووالد موبسي. لم أذكر ديانا كثيراً في خلال سردي لهذه القصة، ولكنني كنت أصليها بالتلفون كل يوم. وكانت أفكر فيها وقتما تكون لدي الفرصة للاسترخاء والتفكير. إنني عاشق للبيت - بعكس أيزموند. وقد أردت في تلك اللحظة أن أعود إليهم.

انزلت خارجاً من الفراش برفقة. واتخذت طريقي عائداً إلى حجرتي وأخذت من حقيبتي ثوباً فضفاضاً من القطن ومنشفة من فوق للشعب، وهبطت إلى الطابق الأسفل. كان الصباح لنيداً، مفعماً بروائح حشائش إبريل. اتخذت طريقي إلى الجري الذي كان يجري على الجانب البعيد من صف من شجيرات الفوشيا عند حافة الحديقة الكبيرة. هرع أرسب فلهوش إلى الحشائش الطويلة يختفي فيها دون إسراع. كان مجرى لاء ضحلاً. ولكن عمقه كان يبلغ خصر الرجل بالقرب من المنتصف. كان شديد المرونة حتى كان علي أن أخرج قدمي من الماء بعد لحظات قليلة، لكي أترك الألم يخفت بالتدريج، ثم هبطت بجسدي في الماء بالتدريج، وغسلت بالاء جسدي بأسفنجة جنت بها معي. بقيت في الماء حتى بدأت أشعر بالمرونة، ثم فرتت أنشفة فوق الحشائش التي بللها الندى وتعلمت تحت أشعة الشمس. وبعد عشر دقائق كان جسدي قد جف.

كنت اعرف ان علي ان اغادر هذا المكان قبل ان يستيقظ الآخرون.. ولو أنني بقيت، لكانت ارتباطات شخصية مع عدد كثير جداً من الناس. فكل امرأة مارست معها الجنس كانت جديرة بأن تشعر بأن من حقها ان تأخذ معها جزءاً من حياتي. واعتراضي الوحيد على هذا هو انهن يكن كثيرات جداً. وكنت جديراً بأن استمتع بالارتباط مع كل واحدة منهن والدخول معهن في علاقات شخصية، ولكن لم تكن لي سوى حياة واحدة.

عدت إلى المنزل فابقضت انجيلاً وقالت لها انني أريد أن أرحل. كانت نائمة في حجرتها فتناثرت، وفتسمت وفتحت ذراعها. قبلتها وهزرت رأسي وقالت:

"ليس الآن".

"لا بد لك متعب".

هبطت بيدها وادستها تحت ثوبي الواسع.

"يا الهي الرحيل!" وولج لسانها فمي. طوحت بالأغطية من على الفراش، وصعدت فوقها. كانت ما تزال ناعسة. وكانت العملية دافئة ومستمعة، ولكنها لم تكن متفجرة. حاولت أن انسحب قبل بلوغ ذروة نشوتي، لكنها هزت رأسها وأمسكت بي بقوة. بعد ذلك، غطيته ثانية.

"يمكنني أن أأخذ سيارتك؟"

"بالطبع، ولكن ليس عليك أن ترحل".

أخذت مفتاح سيارتها من حقيبتها وأخذت مفتاح باب الشقة. قلت:

"اعتذري لكورنر، وفولي له ان يوسع ان يجلسني في الشقة اليوم، في أي وقت، وسوف

بغهم".

بعد عشر دقائق كنت أقود السيارة باتجاه لندن. وقد تملكنتي سعادة مفاجئة غامرة، وعقلي يشع بالأفكار والرؤى.

كانت مسألة إيزموند هي ما شغلتني أكثر من أي شيء آخر بالطبع. كانت دراساتي في علم النفس والظواهر الخفية ذات الطابع السحري (والتي كتبت تاريخاً لها) قد

أقنعني بأنه من الممكن أن توجد شخصيتان في جسد واحد... إن الحالة الغريبة التي تمثلها "وجوه جوء الثلاثة" هي حالة (كلاسيكية، نموذجية وتقليدية) في علم النفس لم يعالج أحد ان يفسرها، ربة البيت المتزوجة الهادئة الحسنة السلوك التي تتحول فجأة إلى محبة لغيره لمن العشق. وأكثر ملامح هذه الحالة غريبة وهي الحالة التي صورها كل من نيلسن Ingpen وكنيكي Clochleg^(١) هو أنه بينما كانت ربة البيت المتزوجة جاهلة تماماً بما حدث حينما استولت على جسدها الفتاة العاهرة، فإن العاهرة، كانت مطلعة على كل نشاطات "الأنا الأخرى" التي تشاركها نفس الجسد. وقد أخبرني ديانا بحالة شهنتها نفسها في صباها الأول، فقد ذهب أحد اعمامها لكي يتسلق الجبال في سويسرا، وذهت يوم بدأت غفلة زوجها - التي كانت ديانا تقيم معها - تحدث بصوته، مستخدمة نفس امتدادات لسانها ونغمة صوته ورغم أن صوتها بالطبع ظل صوتاً أنثوياً، واستمر هذا لمدة ثلاثة أيام حتى عثر على جسد عمته في أخدود عميق بين الجبال، ثم توقفت عن الكلام بصوته.

إننا لا نملك أي تفسير لذل هذه الأشياء، وقد لا يهم كثير أن أصبح لدينا أي تفسير أم لا. فمن المحتمل أن يكون تفسيراً خاطئاً، إن كل ما همي - بمعنى ما - هو أن إيزموند لم يكن ميتاً. كانت هذه هي الحقيقة الوحيدة اللافتة للنظر والهامة.

كانت هناك مشاكل أخرى. ماذا كان ذلك الذي قاله إيزموند فأنج ذلك القدر العنيف على كورنر؟ وما الذي عرفه كورنر عن إيزموند، وكيف أتى له ان يكتشفه؟

ولكن هذا لم يكن سوى جزء صغير مما شغل عقلي بينما كنت أقود السيارة عائداً إلى لندن. أما الشيء المهم حقاً فهو ما تعلمته في الليلة السابقة. لقد اكتشف إيزموند طريقة ما يتمتع بها نفسه من بلوغ ذروة نشوته، فيجعلها متوجهة طوال ساعات، وكان معنى هذا أنه قد خطا خطوة أبعد من أي إنسان شعر بالتهيج قبلاً. وأن ما سحرتني فكرة جوانب الوعي والإرادة التي تقنعت أمامي. كنت قد شعرت بإرادتي أكثر قوة بالفعل، شعرت بأن وعيي أصبح أكثر اتساعاً وعمقاً. لقد شعرت بنفسي - طوال حياتي - بأنني واقع بشكل ما في قبضة قوى تقع خارج ذاتي، وأنا بشكل ما، تحركني بطريقة من طرق التنجيه البعيد.

(١) "وجوه جوء الثلاثة". تأليف كورنر هـ. تيفين، هيري م. خطيبكي. لندن سيكر وداربورج، ١٩٥٧. وصف "الوجه الثالث" هو جوء ذات الانسجام الداخلي بعد علاجها.

فإذا كنت متعباً، وشعر عقلي بالبلادة، فإني أفقد همتي بسهولة، فأصبح أداة سيئة لتلك القوى، ومن ناحية أخرى، إذا حافظت على إيماني، وسقت نفسي سوقاً شديداً، وحافظت على مستوى عالٍ من التفاؤل عن طريق الإرادة المخلصة والخيال، فإني أشعر بأنني أستخدم لخدمته غرضاً يتجاوز أغراضه الخاصة، وأبدو كمما لو كنت أحظى بقوة جديدة تفوق قوتي. هناك - لاحظتها - يكون إحساسي بالاحتمالية والارتياح، وأشعر بهشة عميقة، مثل عصفور يجد نفسه فجأة طائر أيسر عة طائر فاضلة.

في قصيدة "فيفاين في السوق" يقول براونينغ أن الإنسان يشبه السباح إذ يطفو على ظهره فوق سطح بحر هادئ، إنه لا يستطيع أن يطير مثل الفراشة، فإذا حاول أن يرفع كتفيه إلى أعلى مما ينبغي فوق سطح الماء، غرق باقي جسده. فإذا هبط برأسه تحت المياه غرق. ويقول براونينغ أن هذا هو وضع الفنان، رأسه فقط هو الذي يستطيع أن يبرز من بحر الحياة، وأن يكتشف الحرية في عالم من الخيال، إما ما بقي منه فهو محكوم عليه بأن يظل في المياه، خاضعاً لقانون الأجسام المادية، وإني - باعتباري وجودياً ارتقائياً - لم أقبل أبداً هذه النظرة الرواقية الباردة، إني متيقن من أن قوى الخيال والنشوة تلك، التي طورها ونماها أرومانتيكيون، كانت فاتحة مرحلة جديدة من التطور الإنساني. وفي قصيدة "فيفاين"، وهي عن "دون جوان" يقبل براونينغ فكرة أن الإنسان ليس ثابتاً مطرداً مستقر التكوين، وأن رغبته الجنسية تمنحه لحظات بارقة من حقيقة مراوغة من نوع ما، تخفي فتافره مذهولاً مرتبكاً مأخوذ لللب. وكان ما ظللته دائماً هو أنه ليست هناك ضرورة لأن يكون الأمر على هذا النحو. إننا نمثل قوى نادرة ما نص وجودها في أثناء دوران الحياة اليومية الكئيبة، قادرة على أن تجعل الروح تموج مثل عاصفة، أو تغرق في هدوء ساحق الهواء متلهفة إلى النشوة المستحيلة. ومن أجل أن تكتشف تلك القوى، يجب علينا أن ندفع أنفسنا إلى أفق جديدة، أن نرحل الذي يتمسك بالعادة اليومية لا يستطيع أن يحصل على أية لغة مرعبة من لحاح اكتشاف الذات. ولكن عملية ارتداد علم الجسد لا تقدم أية إمكانية لكشف جديدة، علينا أن نتدرب - وأن نجيد استخدام - تلك الحيلة القريبة التي تؤدي إلى تاحة الفرصة للجسد لكي يظل ساكناً أو هامداً، بينما يندفع العقل لكي يكتشف الأذغال وسلاسل الجبال الداخلية.

وفي وضوح كامل، استطاع أيزموند بمعونة الجنس أن يخطو خطوة هائلة في هذا الاتجاه، فلا عجب أنه كان قادراً على أن ينتفع بجسدي وعقلي وأن يستخدمهما. هذا كدرس كل منا حياته للوصول إلى نفس النبل الأعلى. وعمر قرنين من الزمان، التقى عقلاً كما تلقي يدان استبدت للعصافحة، فتماسكا وتمانقا. هناك جوانب عديدة استطعت أن أرى أن اتقدم إلى أبعد مما كان في مقدور أيزموند أن يتقدم فيها، لأنني حصلت على فرصة معرفة ثمار قرن ونصف قرن آخرين من تطور الثقافة الأوروبية. ولكن إرادته استطاعت أن تبلغ إلى أبعد وأعظم مما بلغته إرادتي. فما الذي يمكن أن يكون مستحيلاً بالنسبة لعقلي المتمزجين؟

- ٢٤ -

❑ وصلت إلى الشقة بعد الساعة العاشرة بقليل. كنت جائعاً إلى درجة هائلة وجدت قطعة جيدة من فخذ خنزير في الثلاجة فطهوت ست شرائح منها مع ثلاث بيضات شعرت بتحسن بعد أن أكلتها مع الخبز الحاف والبري وعصير التفاح والقهوة. واستمر الإحساس بالسعادة والإدراك العميق الممتد الأفاق. خطر لي أن مشكلة الوعي الإنساني الأساسية هي أنه يتركز على الحاضر معظم الوقت. وفي لحظات الاسترخاء وحدها - لحظات الإجازات - نستطيع أن نحقق حالة هي في نفس الوقت "يقظة كاملة" ولكنها "غير مركزة" وهذه حيلة، أن نقهر العادة القديمة، عادة السماح لوعي بأن يسترخي حينما لا يكون مركزاً هاهنا أنا، مفعم بالإحساس بقدر غريبة، وعقلي يقظ يقظة تامة. ومع ذلك فإنه غير مركز على شيء. بالتحديد. وكانت النتيجة هي أن يملأني كل ما انظر إليه تقريباً أو أفكر فيه بالاستثارة والروى الداخلية الحقيقية إلى درجة لا يمكن القبض عليها أو إمساكها.

كان لدي الستير - على رف الكتب - طبعة جميلة من قصائد تشاترتون^(١٩). ولم يكن قد قرأت ما جمعه له رولاي من قصائد، ومع ذلك فحينما نظرت إليها انتابني إحساس بالعرفه، بالألفة. أخذت كتاب القصائد من على الرف ونظرت إلى تاريخ حياة تشاترتون.

(١٩) توماس تشاترتون ١٧٩٥-١٨٠٠. واحد من أشهر الشعراء الإنكليز. في عصر (الأحياء القوطي). وكان بحق من الأدباء رؤى الشعر العاطفي والوجداني، مات منتحراً في ليلة ٢٤ أغسطس عام ١٨٠٠.

١٧٧٠-١٧٧١. وكان أصغر من أيزموند بأربع سنوات، ومن الواضح أنه كان في لندن طوال
لشهور الأربعة الأخيرة من حياته - قبل أن يتناول جرعة من سم الأرسنيك. كان في وسع
أيزموند أن يقابله. جلست على القعد القريب من النافذة، والكتاب مفتوح على ركبتي
وأفردت عقلي. على التو كنت أنا أيزموند؛ ظهر مثل صديق قديم وراء عيني ناظراً إلى
الكتاب. عرفت إجابة سؤالي. إنه لم يقابل تشاترتون أبداً - فقد كان في غوتيفرن حينما
كان تشاترتون في لندن؟ ولكن كان قد تحدث مع والبول عن تشاترتون في عيد الميلاد
سابق. وكان والبول غاضباً بعنف لأن الصبي كان قد أرسل إليه بعضاً من شعره نسبها إلى
لحمن يدعى جون أبوت. وخدع والبول بالقصائد حتى أعلن الشاعر غراي أنها قصائد
بسبوبة ومتسوية خطأ إلى جون أبوت. وكتب والبول إلى تشاترتون، وأشار له برفقة إلى أن
من واجبه أن يستخدم مواهبه من أجل أغراض أحسن، فجاءه جواب وصف بأنه "مقالة
سبوبة للأدب وبديئة". وحينما سرد والبول على أيزموند هذه القصة أغفل أن يتحكر أن
غراي قد اكتشف عملية السرقة ونسب الفضل في الاكتشاف إلى نفسه.

دق جرس قتلبيون، فافترضت أنه لابد أن يكون المتحدث هو مكورنر أو انجيلا. ولكن
حينما سأل الصوت الألماني الثقيل قائلاً: هل تسمع سورم موجودة؟ علمت أنني أخطأت
بالاستجابة للرنين. قلت: "إنه هو المتحدث" بخشونة مفتعلة.

١٨. شكراً لله. أنا "أليز دانكمان". كنت أحاول الاتصال بك طوال عطلة نهاية
الأسبوع. كيف حالت؟

تبادلنا المجاملات اللؤمية للحظة، ثم قالت:

"اسمع، من المهم جداً أن أراك. هل يمكنك أن تأتي إلى هنا؟"

"إنني متأسف للغاية، فإن هذا مستحيل. فانا راحل إلى إيرلندا. عصر هذا اليوم..."

بينما كنت أتكلم معها، شعرت بوخزة غريبة بين لفخاكي، وغادنتي فجأة بوضوح
عظيم صورة فخذيها المفتوحين وأعضائها التناسلية تحت الحرير الوردي اللون. خطر لي أن
أيزموند جدير بأن يفهم هذا. ولكن كان شيئاً بالغ الصعوبة أن أحاول تصفية عقلي
وتركيزه وهي تتحدث. فجأة تقطع الخط وتقطعت للكللة. افترضت أن عطلاً هنياً قطع
الاتصال، فوضعت السماعة. وخطر لي أن هذه اللحظة ربما كانت هي اللحظة المناسبة لكي

اتصل بيدينا في ماي كوكولان - حتى إذا اتصلت أنا دانكمان مرة ثانية وجئت الخط مشغولاً.
اتصلت بعائلة الخط، وبعد بضع دقائق كنت أتحدث مع موبسي، التي قالت لي أن "ماني" في
بيت تلهة الزهور، في الحديقة. بعد دقائق قليلة جاءت ديانا إلى التليفون، وقالت إنها كانت
تحاول الاتصال بي منذ أمس، فقد استطاع فليشر أن يحصل على عرض من شركة
سينمائية لإنتاج فيلم عن الادة التجمعة لديه عن دونيلي، وأنه يريد إجابة فورية. كان
البلغ للعروض كبيراً جداً بالطبع، ولكن فليشر اقترح أن يأخذ خمسين بالمائة، وهي نسبة
بنت لي مبالغاً بها جداً. تحدثنا لمدة تقرب من العشرين دقيقة، وقلت لها أنني أرجو أن أعود في
غضون يومين، وقلت لها ألا تفعل شيئاً بخصوص الرقبة التي أرسلها فليشر. وحينئذ دق
جرس الباب. قلت لها "إلى اللقاء" بسرعة، وذهبت لكي أنظر من النافذة. كانت أنا دانكمان
تقف عند عتبة الباب الخارجي.

شعرت بما يفريني إلا أحيب، ولكن بدا لي هذا نوعاً من الجبن، إلى جانب أن من
الاحتمال أن تكون قد سمعت صوتي وأنا أتحدث بالتليفون - فقد كنت فتحت النافذة -
ذهبت وفتحت لها.

١٩. تبسمت لي بطريقة أسرة مليئة بالود.

٢٠. يا عزيزي جيرارد. جميل أن أراك مرة ثانية."

أمسكت بكليتي يدي، والصقت نفسها بي في انفعال للحظة. وجلت نفسي لتسأل إن
كانت ترتدي السروال الخرم، وشعرت بوخزة بين فخذي.

الأمر الدهش هو أنها كانت امرأة كنت جديراً بشكل طبيعي أن أراها منفردة على
الغور وبشكل مباشر. لم تكن سينة الظهر وكان جسدها جميلاً - وإن كانت تعبل إلى
البدانة - ولكنني كنت أشعر أنها ذات مظهر رجولي بشكل أساسي. وبشكل مناقض للطبيعة،
لاحظ أن هذا يزيد من جاذبيتها عن طريق إثارة الحاجز الطبيعي الذي يفصل بين الذكر
والأنثى، ويقوم بدلاً منه نوعاً من الصراحة الراقية، وكان علي أن أعترف بأنها كانت
تتمتع بجاذبية الشيطان وحسنه الظاهري.

كانت من المحكمة لدرجة أنها لم تنشر على محاولاتها للاتصال بي. الأمر الذي كان من الممكن أن يتضمن نوعاً من التائب أو التوب. كانت مقعمة بالدنف، فقد كنا - في نظرها صديقين قديمين عاداً إلى الالتقاء وقد ابهجهما أن يرى أحدهما الآخر.

سألني عن صديقي الشابين أين هما. فقلت لهما أنهما صديقان بالخارج طوال النهار. فقلت أنني اكتشفت على وجهها شبح ابتسامة تهني بها نفسها. قالت:

"يا للخسارة. لقد أردت أن أقابل هذا الشاب. إنه يبدو ذكياً واسع الأفق."

فكنت أزرار معطفها. فاعتنتها على خنعم. كانت ترتدي ثوباً من نسيج بني ناعم. جعله نهديها الكبيران مشهوداً إلى الخارج. وكان الثوب بالغ القصر.

جلست على الأريكة. بطريقة أقرب إلى الاحتشام. وقد ضمت ركبتيها ووجهتهما إلى الخارج. ولكن قصير ثوبها جعلها تعري ساقيها حتى طرقي جوربها بشكل حتمي. كما تعرت منطقة من الفخذين. عرضت عليها قنداً من القهوة. قالت:

"كلاً الشكر. إنما أريد أن تحدث معك عن أشياء كثيرة. ونبدأ بمسألة هامة. إنك بإقامتك في إيرلندا تحتاج إلى مساعد أدبي "ليس كذلك؟"

قلت بحذر شديد أن هذا محتمل. ولكن لابد أن اعترف بأنني كنت قد بدأت اتساءل إن لم يكن سكورزير بإبالغ بشأن دانكمان وزوجته. كانت تشع بالدنف وبحيوية عاطفية عارمة. قالت:

"حسنًا. إن ليدي الشخص المناسب تماماً. هناك فتاة شابة تدعى كلارا فيبيج. وهي سويسرية. حينما أخبرتها بأنني قابلتك. لم يكن يوسعها أن تصديق ذلك إلا بصعوبة. إنها تمتلك كل مميزاتك. وملفاً كبيراً يضم كل ما كتبته عنك في الصحافة."

ابتسمت بشفقة مطمئنة. ثم استطردت تقول:

"هذا بالطبع نوع من الافتتان الذي يحدث للفتيات الصغيرات - فإنها قد اتهمت تعلمها في الكلية منذ وقت قصير جداً. وقالت أنها كتبت لك مرتين. ولكنها لم تحصل على أي جواب.. (ومن الممكن أن يكون هذا صحيحاً، فإنني لا أحجب على الخطابات إلا إذا لم يكن علي

أن أكتب شيئاً آخر). وهذه الفتاة لديها الكثير من وقت الفراغ. فإن ولدها يرسل إليها مبالغ جديداً كل شهر. وهي تقوم بالدراسة في جامعة لندن. وحالاً آخرتها عن عملك في موضوع نوثيلني. عرضت أن تقوم بعمل مراسلتك الأدبية في لندن. وهي لا تريد شيئاً في مقابل هذا. إنها لا تريد إلا أن تعمل معك..."

وجئت في الأمر ما يتعلق بغيري. فإنه لا يوجد كاتب أصبح متخماً بالملذات. يمر مبالغ بها لدرجة ألا يستمتع بإعجاب النساء به. ووجدت نفسي أسوأ لسحر موضوعية السيدا دانكمان وعدم تحيزها. فمن الواضح أنها لم تكن من النوع الغيور. قالت:

"طيب. لقد قلت لكلاً أنا قد نذهب كي نراها اليوم في أي وقت. إنها تقيم في نوثينج هيل جيت. وبهذا فإنها قريبة من هنا. لدي صورة لها."

فتحت حقيبة يدها. وأخرجت حافظة أوراق صغيرة. وففت لكي أأخذها منها. ووجدت هي أيضاً وبدأت تبحث في الحافظة. كانت تضع نوعاً خافت الرائحة وإن كان ممتعاً من المعطر. وقد زادت نغومة نسيج ثوبها من استدارات نهديها وردها. قالت:

"ه. هاهي."

تحركت لتتقرب مني. وضغطت أعلى فخذها بخفة على فخذي. شعرت بوخزة من الرغبة وكانت تجعلني أفرز. وكانت الصورة التي أطلعتني عليها لفاتة في ثياب الانزلاق على الجلبد. واقفة على قمة الانزاق الجلبدى المرتفع. بدت الفتاة جميلة ونحيفة. ولكن كان من الصعب التأكد من ذلك بسبب ثوبها الثقيل.

ولكن ما أدهشني كان التعة التي كانت استمدتها من الانحناء على أنا دانكمان. كانت ملتصقة بي التصاقاً خفيفاً. تقلب صور الحافظة الملتصقة بها. وبدأ لي أن الدنف النطلي من خلال ثوبها يتصل مباشرة بعضوي الجنس. لاح لي أنها تحمل صوراً عديدة لكلارا فيبيج. أطلعتني على صورة قريبة لوجهها فرأيت فتاة على شيء قليل من الذكورة ذات صدغين مرتفعين - جميلة - وشعرها الأسود منسدل على كتفها. ذكرتني بشكل غامض بمظهر أنا دانكمان نفسها.

ولا وفقت في مكاني خلفها فاضطراً من فوق مكتبها، أربكني عنف رغبتي. إن استجاباتنا الجنسية من التعقيد بحيث أنه من الصعب أن نقول بثقة لماذا يتمتع شخص معين بجانبيه خاصة علينا، وفي هذه الحالة لم أكن مستعداً للتسليم بإفشاء كل السؤالية على وعيي الباطن. نظرت دون وعي إلى صورة الفتاة، محاولاً أن أتذكر شيئاً ما. وفجأة قالت أنا دانكمان.

- "أشعر بذلك؟"

ودون أن تعي بذاتها، ملبت يدها وراء ظهرها فسدتها بين أعلى فخذي وبين فخذي. ثم كنت يدها في ذلك المكان لحظة قصيرة، مفتوحة... حينذاك فعلت ما كنت أفكر في فعله منذ أن دخلت الشقة إذ ملبت يدي إلى ذيل ثوبها، ودسستها فوق طرف جوربها. قالت:

"هذا جميل. إننا صديقان. ليس هناك سبب يمنعنا من أن يعامل أحدهما الآخر بصراحة. إنني أكبر جداً من أن أكون عشيقتك، بالطبع، ولا يريد أحدهما ذلك، ولكن ما يزال هناك قدر كبير من التجاذب الطبيعي، تجاذب الأنثى والذكر - فيما بيننا. ويمكننا أن نكون صريحين فيما يتعلق بهذا."

كانت هذه هي الزاوية الصحيحة للنظر إلى المسألة، فإن فكرة حمل أنا دانكمان إلى الفراش كانت جنسية بحتة. ولكنها لم تتوقع شيئاً من ذلك. قالت:

- "سوف تجد أن كلاراً أقرب جداً لأن تكون النوع الذي يروق لك، إنها فتاة حلوة. يمكننا أن نذهب لكي نراها"

فكرت في أن هذه قد تكون فكرة طيبة. كنت قد بدأت أشعر بنفس الاشتهااء غير الصحي الذي شمرته به في سبارة الأجرة مع أنجيلا، ذلك النوع من الشعور الذي من المحتمل أن يحس به الشخص الليالي إلى الاستعراض... ومن الناحية الأخرى، دلتني الجذر على أنه قد يكون من الأفضل أن أضرد هذه الفكرة من ذهني.

قالت:

- "أجل. لماذا لا نذهب إلى هناك الآن؟"

- "طيب، جميل. ولكنني أحب أن أقول لك شيئاً عن خططنا..."

أخذت يدي بشكل طبيعي تماماً وفادتني إلى الأريكة. فآخرت من حقيبتي يدها عدة من الأوراق المكتوبة بالآلة الكاتبة. قالت:

"هذا الكلام بالألمانية، هل تقرأ الألمانية؟ إذن سوف أقوم بالترجمة."

كانت جالسة في الوضع للوقوف، مستندة بظهرها إلى السند، وفخذيها مكشوفتان فوق ذيل ثوبها للشمس إلى ما فوق أطراف جوربها. كان فخذيها بلمساتني. وشعرت بشيء مثل صدمة كهربائية واهنة تجري منها مباشرة إلى ما بين فخذي.

حينذاك، وعلى حين فجأة تماماً، كان أيزموند في مكاني، وتغير كل شيء. شعرت كما لو كنت قد خطوت فجأة خارجاً من جسدي، ولنتي انظر إلى نفسي من جزء آخر من الحجر. عبرت موجة الحمى والتعبث. وفي نفس الوقت، فهمت، دون أن أشعر ببذل أي جهد عقلي محدد، كانت أنا دانكمان نمتلك نوعاً من الطاقة، نوعاً غريباً بدايئاً من الطاقة التي تملكها كل النساء بشكل غريزي. ولكن هذه الطاقة - لدى معظم النساء - تكمن تحت الطبقات التي تكونها "الشخصية"، و"الكوايت". وقد تعلمت أنا دانكمان أن تحرر هذه الطاقة وأن توحها. لن يكون تعبيراً دقيقاً أن نتحدث عن هذا الإنجاز من جانبها باعتباره شكلاً من أشكال السحر، وإن كانت الطاقات الفعلية التي تملكها الساحرات تتمتع بنفس الطبيعة، وقد رأيت في مضمة خاطئة أن هذا هو السبب الذي يجعل من التقليدي أن يكون "يوم سبت الساحرات" حيث يجتمعون بالشیطان، يوماً مليئاً بالأعمال الشهوانية، مع خلع ملابسهم كلها، والسافدة مع ذكران اللعز، وما إلى ذلك، فالساحرة تلقى عن نفسها كل أنواع الكبت وتعلمه كيف تركز كل طاقتها الجنسية الطبيعية.

لقد فهم أيزموند أنا دانكمان، فإنه كان قد عرف الكثيرات من نوعها، بل إنه عرف من هن أكثر موهبة منها، وحدث نفسي أنظر إلى داخل عقل أنا دانكمان، فاشعر بافتتان مخيف. لم تكن مثل زوجها منحرفة جنسياً، فالانحراف ينبع بسبب عقبة سيكولوجية غائرة في نفس الإنسان. وكان كلاروس متسماً عن فكرة "الحرم" واللنوع. وكانت فكرة أن أي شيء يمكن أن يكون محرماً أو ممنوعاً كافية لكي تجعله ينتصب، إنه مثل ذي صا. أريد أن يكون شريراً، وأن يمضي حياته في البحث عن أشياء جديدة مذهشة يفعلها، وقد

تلاصت نزعاً أنا داتكمان الجنسية الفياضة مع نزعته تلك واشباعها إشباعاً كاملاً. فإن غيرة الأمومة لديها كانت قد تشوهت وتحولت إلى نوع من النهم الشره. رأيت بوضوح أنها كانت مزدوجة الرغبة الجنسية، وأن كلار هيبيج كانت عشيقتهما. فإن موقفها من الجنس كان موقفاً ذكورياً بكل غريب، كانت تحب أن يأخذها كل رجل في العالم، وإن تملك هي كل امرأة جميلة. وكانت تتمتع بفضول لا يشبع، وكانت تريد أن تكون "في" داخل وهوق بكل شيء. وقد رأيت أن هذا هو دافعها إلى البحث عني والاندفاع نحوِي. فقد كان يوسعي أن أضيف جواً من الكفاءة الثقافية على "مجموعتها" فتنجذب بذلك الانتباه والاعلام، وكانت خطتها أنه لابد لي من أن أخذها هي وكلار هيبيج قبل أن ينقضي النهار، ثم تكون مهمة كلارا هي أن تحافظ علي وأن تشدد قبضتها، من خلال ما تشيعه حولها من جو المثابة الفتونة.

لا ادعي أنه كان يوسعي أن أقرأ ما يداخل عقل أنا داتكمان. فقد كان كل هذا - بمعنى من المعاني - نوعاً من التأمل، ولكنه كان تأملاً قائماً على أساس من تجربة أيزموند الهائلة. وقد بدا لي كل هذا واضحاً شديد الوضوح. ثم أدركت الآن، أنه - أيضاً - قد بدا مشيراً للعاطفة إلى حد ما، وكانت تمتلك الكثير جداً من الضافة، وفرصة محدودة جداً لاستخدامها، فلماذا لا تقبض على أية فرصة تلوح لها؟ كان هذا أمراً مفهوماً.

لم تكن واعية بانها قد "فقدتني"، فقد جاء "استبصاري" الداخلي لها سريعاً كالوميض، بينما كانت لا تزال تقلب الصفحات. أمسكت بالأوراق مفتوحة ياخذى يديها، وراحت يدها الأخرى تتحرك فيما بينها، لكي تزيد من قوة الاحتكاك. وفي تلك النقطة بدأ أيزموند يسلي نفسه. كان ما فعله ببساطة هو أن ضغط على قواي الجنسية، وتوجيهها ضلها. وفي الحقيقة، لم يكن هذا غريباً علي غربة كاملة، فإنني كنت أفعل هذا دائماً دون وعي، في لحظة الاتصال بفناء كانت قد اجتلبتني. إن امرأة - إذا رغبت في اجتناب رجل ما - فإنها قد ترمش بعينيهما أو تتأوّد لكي تبرز مفاتيحها، ولكنها إذا كانت رزينة محتشمة فإنها ستحافظ على هدوء السطح الخارجي، ثم تستخدم السحر الداخلي القادر على الاتصال المباشر غير الظاهري الذي كانت أنا داتكمان تستخدمه الآن. أما الذكور فإنه نادراً ما يستعرض مراكز جاذبيته بشكل صريح، إن أسلوبه من البداية يعتمد على الظهور بمظهر غير البالي

ولا لهتم. وعلى ذلك فإنني - بمعنى ما - كنت متفوقاً على أنا داتكمان في هذا الصدد. ولكنني ما كنت أستطيع أن أعرف هذا دون المعونة التي أسلحتها إلي خيرة أيزموند.

شعرت بالإثم بسبب هذا الموقف، فإنني لم أزد حقاً أن اجتنبها، ولكن علي أن اعترف بأنه كان في سلوكي هذا نوع من "العذالة الشعرية"، العقاب الذي ينزل بالآثمين في الأساطير التقليدية. كان الموقف قد تحول إلى مباراة، مباراة بسيوف خشبية.

بدأت ترجم الكلام المكتوب بالذاتانية، وحينئذ ارتعشت اليد المسكة بالأوراق، كانت تقاوم. وكانت قد اعتادت أن تكون هي الساحرة لا "السحورة"، وفي هذا الوضع الجديد ازغبتها الإحساس الجديد المصاحب له وأخافها. قلت بأصبع: "استمري"، وزمت من التيار الضائعات، بدأت تقرأ:

"إن الفوائد التي تتبعها جماعة تعاونية من تلامذة رايخ..." ثم توقفت، وقالت:

"يجب أن نعتز على اسم آخر لهم".

قلت: "أجل، يجب أن نفكر في اسم آخر..." فاستعادت ثقتها وعادت تقرأ:

كنت قد لاحظت أن لتوبها زماماً من الخلف، وأن الزمام يخلق عند قمته بزر ضخمة. وقد أدركت في تلك اللحظة أهميته. كان فخذها سلاحاً عدوانياً، فحاً للذكور لشيء يدفع العناكب للذباب، ولكن نهديها مكاناً جزءاً من أثوثها، الجزء الأموي منها. أشرت إلى جملة في الورقة تقول: "ماذا يعني هذا؟" فلم يست عظمة ساعدي قمة نهديها. جفنت حفلة خفيفة وغثمت. وضعت يدي بقوة على النهدي وأمسكته، للحظة فقلت السيطر على نفسها وحاولت أن تبعد يدي بعنف دون حساب مثل الفتاة صغيرة. ثم استعادت سيطرتها على نفسها مرة أخرى، وقالت بصوت ثابت بدرجة ملحوظة:

"إنها اقتباس من رايخ..." وشرعت ترجم الجملة كاملة. مددت يدي وراء ظهرها،

وفي حرص حلت الزر الضخم، كتبت هي رغيبتها في إيقاعي، فقد كانت هي - على كل حال - التي تحدثت عن "ضرورة أن يعامل أحدهما الآخر بصراحة"، جذبت الزمام إلى أسفل، فرائت أن ظهرها كان عازياً، باستثناء شريط حمالة الصدر. حلت رباط حزام صغير عند خصرها، وجذبت الزمام إلى أسفل حتى أقصى مجراء، تحت الطرف العلوي لسروالها الداخلي، قالت:

"إنك شئت انتباهي"، "إنك شئت انتباهي".

حاولت أن تضغط بظهرها على مسند الأريكة، ولكن محاولتها كانت متأخرة جداً، فقد كنت نجعت في ذلك مشبك حمالة الصدر ضغطت بظهرها على مسند الأريكة بقوة، وفقدت سيطرتها على نفسها تماماً للمرة الأولى، أصبحت فجأة غير واثقة من نفسها، وهي تشعر بما يفرها على فتاتي، دون أن انظر إلى وجهها، أمسكت بكتفي ثوبها، وجذبتها إلى الامام، ابتعد الثوب عن كتفيتها للذين كانا ابضين مستديرين مثل كنتي تمثال. كانت جبيرة بأن تبدو في هيئة ممتازة وهي ترتدي ثوباً نون اكتاف في بهو حفلة راقصة في عصر الإمبراطورية الثانية، كان نهذاها كبيرين، وما زال بحالة جيدة. انهضني بباضهما، واحمرار الحلمتين الناقض لذلك البياض. وضعت ككل من إحدى يدي على أحد التهنين وشعرت بالدفء يتسلل طافياً في داخلها. كان هناك شيء يدعو إلى الإعجاب بالطريقة التي حاولت بها أن تستعيد سيطرتها على نفسها، ونجعت في ذلك جزئياً. كنت أعرف ما كان يحدث لها، من الطريقة التي انفرجت بها ساهاها، كانت تشعر بنفس الوخز المموم الذي شعرت أنا به من قبل. مدت يدها ووضعتها فوق بطنالي.. فقلت، "هني". ترددت ثم فعلت كما امرتها. سقط الثوب على الأرض، ووقفت في مكانها بسروالها الداخلي الوردي، وحزام الجوربين فوقه، مع الجوربين. جذبتها حتى التصقت بي... أرقبتها على الأريكة، وخلفت ككل ملابسها...

جفنا كلاتنا عند سماع صوت جرس التليفون...

قال صوت رجل، "مستر سورم؟"

"يتحدث".

"إنك لا تعرفني. اسمي نيجيل سانت ليجير. ترى، هل يمكنكني أن أجيء لكي أراك؟"

"أنت الـ "نيجيل سانت ليجير"؟"

أطلق ضحكة تنل على الحرج وقال،

"أعتقد أن يوسفك أن تقول هذا، هل يمكنكني أن أتي لكي أتحدث معك عن موت

هوراس جليبي؟"

"طيب، نعم، بالطبع. متى؟"

"إنني قريب منك جداً هذه اللحظة، أيمكنني أن أجيء إليك الآن؟"

"بالطبع. هل تعرف العنوان؟"

أوه، أجل. سأكون معك بعد دقائق قليلة."

حينما التفت وراني فكانت أنا بالكمائن تشبك حمالة صدرها بالفعل... ثم قالت،

"أعتقد أنك تظنني بالغة ثياباً؟"

"كلا"، ولكنني لم أعرف ما أقوله عدا هذا.

كان يوسف أن أشعر بها وهي توشك أن تفضب. أمسكت بمعصمها. قالت،

"لماذا لم تخبرني؟"

قتل أول شيء خطر على ذهني.

"ربما لم يكن هذا ممسوحاً لي به."

حدثت في وجهي، وقد دار اهتمامها فجأة، وللحظة طويلة ظلت عينهاا تحدقان في عيني. قالت،

"أظنني أفهم".

وكان هذا أكثر مما يوسف أن أقول.

تحركت متجهة إلى شباب.

قالت بأسلوبها السابق الودي المتواضع،

"حسناً، إننا نظل صديقين".

كانت قد عادت إلى سيطرتها على نفسها مرة أخرى، ووقفت في مكانها، بمعصمها مفتوح، ويدها ممدودة، وساهاها منفرجتان ثابتتان على الأرض، ولكن للوقوف بدا سخيلاً ولا

معنى له. نظرت إلى انتهين البارزين، وخففت بصري إلى الفخزين، وكانت امرأة تتظاهر بأنها رجل.

حينئذ، احمر وجهها فجأة. لم أكن قد تبينت أن نظرتي واضحة مثل هذا الواضح. انزلت يدي، واستندت دون كلمة، وجذبت الباب بعنف ففتحته. لم أبذل أية محاولة لتابعها. فباني أولاً، كنت مسروراً لرؤيتها ترحل. وثانياً، شعرت فجأة بالأسف. فربما كانت مباراة أيزموند لعبة ممتعة، ولكنها غادرتها مكشوفة ومعرضة للاختراق من أي نقطة. ماذا عساها تستطيع أن تفعله الآن؟ تحاول أن تنمي جانبها الأثوري؟ هذا امر لن يؤدي فقط إلى الإحباط لو حاولته. طرا على ذهني فجأة أن هناك فارها واحداً أساسياً ينبغي وبين أيزموند. لقد كان ينتمي إلى القرن الثامن عشر، قبل عصر "الحساسية". لم تكن هزيمة أنا دلتكم بالنسبة إليه سوى شيء مضحك، والأكثر من هذا، لا أهمية لها.

ذهبت إلى النافذة حينما سمعت السيارة تتوقف بالخارج. تعرفت على تيجيل سانت ليجير قبل أن يخطو خارجاً منها إلى الرصيف. لم أكن قد رايته أبداً في السلسلة التلفزيونية التي جعلته معروفها لعند كبير جداً من الناس. ولكن كان لدي كتاب عن فضايها وحالاته، مزود بعند كبير جداً من الصور. كان أصغر حجماً مما توقعته، ولكن مشيته كانت تنسم بنوع من التدفق القوي إلى الأمام دلت على شيء ما في شخصيته.

قابلته عند الباب. سألني "مستر سورم؟"

صافحتني ولكن ابتسامته سلت لي باردة قاسية. تقدمته إلى داخل الشقة. كان رجلاً وسيماً، قوي البنية، في أوائل عقده السادس. وكان يوسعي أن اتخيل أن نخبرته الحقيقة النافذة الباردة قد أخلفت عنداً كبيراً من الساجين في قفص الاتهام.

قلت: "من أتحرك بانتي هنا؟"

نظر إلي بحدق، كما لو كان يشعر بما يفريه لأن يقول: "أنا الذي ألقى الأسئلة" ثم أضاف قائلاً:

"الدكتور كورنر، بالطبع."

أخرج عليه سيجار من جيبه، وقدمها لي. هزأت رأسي. اهتزب مني وأنا واقف بالقرب من النافذة وحدثني وجهي. قال:

"لنفي لم أقرأ أي كتاب لك من قبل، ولكن سوف أحرص على أن أفعل ذلك الآن."

لم أقل شيئاً. توجه إلى منضدة للعب الشطرنج عند النافذة، ودون وعي حرك أحد بيدتي الشطرنج. قال:

"هل تلعب الشومينو، يا مستر سورم؟"

لم أقل شيئاً. كنت أحاول أن أحتفظ بنقاء عقلي. وقف سانت ليجير ينظر إلي، مثبداً أياي بأفضل ما يمكنه من نظرات الاتهام.

قال أيزموند:

"تحبتي، أيها الشرف."

جفل سانت ليجير، وبان عليه الانزعاج. ولكنه استرد سيطرته بالذهف إلى الأريكة والجلوس عليها. قال:

"أفهم من هذا أنك تعرف الكثير يا مستر سورم. ولكنك لا تنتمي إلى منزلنا. والأستاذ الأعظم لم يسمع بك من قبل أبداً."

كنت أعرف أن من الأفضل لي أن أترك هذا الموضوع لأيزموند. فلم يكن هناك وقت أصبق في محاولة الاعتماد على نفسي. قال أيزموند:

"أذن فلا بد أن عليك أن تسمع عني. اليس كذلك؟"

أشعل سانت ليجير سيجارة.

"هذا هو الواضح، إن كان كل ما سمعته صحيحاً. حاول أن يسترخي، ثم استطرد بالقول:

"اسمع لي بأن أوضح موقفني. إنني لا أنكر حقك في الانتماء إلينا. إن مؤهلاتك عظيمة بشكل مثير واضح، وبهذه المناسبة، أين تعيش؟"

"في إيرلندا".

"هـ".

ظننت أنه قد بدا عليه الانشراح والتفاؤل. قال:

"طبعاً. لم يكن هناك أي شيء في إيرلندا منذ سبعين عاماً. ربما كان علينا أن نفعل

شيئاً ما هناك".

نظر في طرف سيجارة، كان لدي إحساس بأنه ليس واثقاً من الكيفية التي يعالج بها

هذا الموقف. ثم نظر إلي. قال:

"ككيف استطعت أن تكتشف الأمر، يا مستر سورم؟"

ثم يقدم أيزموند إلي أي معونة. ففكرت أن أقول الحقيقة.

"لقد طلب مني ناشر أمريكي أن أكتب عن أيزموند دونيللي. وطوال الشهور القليلة

اللامية كنت أحاول أن أكتشف مذكراته وأوراقه".

"ولم تكن تعلم شيئاً قبل هذا؟"

"كلا".

"أرى ذلك".

بدا عليه الارتياح. دق جرس الباب، فتحرك كل منا لدى سماعه، قال:

"هل تتوقع مجيء شخص ما؟"

"كلا".

"جميل. إذن أظنني أعرف من يكون. هل تسمع؟"

ولكن كانت أنجيلا هي القادمة. قالت:

"لقد أوصاني كريس. وقد اشتبك في مناقشة عنيفة مرعبة مع لوتو..."

دخلت إلى العجزة، ورات سانت ليجير الذي وقف بأدب لكي يحببها. تعرفت عليه على الفور وبان عليها ذلك. قدمت أحدهما إلى الآخر. فتصافحا، وأظهر هو قدراً من التهذيب أكثر بكثير مما كان قد لبدى. حتى الآن. قال لها:

"أنت عضو في جماعة الدكتور كورنر. شيء ساخر أعنفك أنك أنت التي قدمت للسز سورم إليه؟"

سألته، "هل تعرف بامرهم؟"

"كوه. أجل أنا أعرف بامرهم".

نظرت إلي أنجيلا. ترجو الحصول على بعض المعلومات لكي تفهم الموقف.

قلت:

"إن السر نهجيل هو المشرف على الشزل الإنكليزي لجماعة المنقاء".

شعب وجه سانت ليجير. للحظة ظننت أنه علي وشك أن يفقد سيطرته على نفسه. قالت أنجيلا:

"أهو يمزج؟"

بدا على سانت ليجير أنه فقد شهيته للكلام تماماً. قال:

"من المؤكد أن لديه إحساساً فكرياً سبب التفكير والحفظ".

قالت أنجيلا:

"بظن كورنر أنك من جماعة المنقاء. ماذا قلت له؟"

فطع سانت ليجير كلامها بالقول:

"أنا سمحتا لي. أظن أن هذا موضوع من الواجب ألا نتحدث فيه. إنه قد يكون خطيراً".

قالت أنجيلا، "خطيراً؟"

خلق فيها سانت ليجير عدة ثوان، ثم وقف واتجه إلى النافذة. تولد لدي انطباع بأنه شعر براحة أكثر وهو واقف على قدميه. أطل من النافذة ثم قال

"لقد سألتني عن اغتيال اللورد جليبي. وهذا موضوع لا أعرف عنه الكثير، ولكن يوسعي أن أقول لك شيئاً واحداً. إن جليبي لم يكن هو الضحية المقصودة. كان المقصود هو إيرموند دونيلي".

حينما قال هذا، عصفت بي إحساس غائر بالبور، كما لو كان قد احترق شيء ما داخل عقلي. وليس يوسعي أن أفسر ما حدث، إنما كان صوت سانت ليجير وهو يقول: إيرموند دونيلي "هو ما فعل بي هذا. لقد قلت أنني كثيراً ما سمرت بنوع من الخل في الأسبوع السابق كما لو كنت أنا وإيرموند نحتل عقلاً واحداً. ولكننا كنا كالكربين، ولم تكن ذاكرته في متناولي. ولكن حدث في تلك اللحظة شيء ما جعل كل تلك الذكريات واضحة ومعروفة، مثلما ينضبط مجهر فجأة لكي يكرر الكائنات الحقيقة تحت عدساته، كما لو كان عقلي عقل إيرموند. قد ارتبطا فجأة بمشبك فولاذي إذ بهما معاً. كنت قد عرفت أن هذا من الممكن أن يحدث منذ نحو أسبوع، ولكن التكيف النهائي بين العقل والواقع كان ما يزال مطلوباً. أما الآن فلم يعد هناك المزيد من الأسئلة، فقد امتزجت ذاكرة إيرموند بذاكرتي. وفي تلك اللحظة، حينما سألت أنجيلا سانت ليجير عن كيفية معرفته بهذا، وجدت نفسي أقول:

"يمكنني أن أخبرك بذلك".

قال سانت ليجير: "ليس من المحتمل أن تستطيع معرفة هذا".

قلت: "كان خطأ جليبي الأكبر هو أنه حدد الأسماء. ففي النسخة الأصلية من كتابته "خطابات من فوق أحد الجبال" حدد أسماء عبد الله يحيى والأساذ الأعظم، وذكر أن هنريك فان جريس كان هو الشريف على هولندا. واقنعه إيرموند بأن يغير الأسماء في النسخة المطبوعة، ولكنها ظلت تسبب تعريداً وانفجاراً داخل الحديقة. وأراد فان جريس أن يتم اغتيال إيرموند، ورفض يحيى ذلك. وفي عام ١٧٩١ سمع فان جري يحيى وقتله. ومنذ ذلك الحين عرف إيرموند أنه لابد مقتول في أي وقت. وقد استيقظ ذات صباح في باريس، فوجد خنجرًا مفروساً في وسادته. وكانت هذه إحدى حيلهم المفضلة - لكي يحطموا

معنويات الرجل بالخوف قبل أن يقتلوه. وقد استخدم الحشاشون الأصليون - الإسماعيلية هذه الخدعة على سبيل التهديد. وقد أجيروا صلاح الدين مرة على رفع حصار كان له ضربه على قلعة الأستاذ الأعظم بأن غرسوا خنجرًا في وسادته. وأدرك إيرموند هذا التحذير، فذهب إلى روسيا، ثم إلى اليونان، وحينما عاد، اكتشف أن جليبي قد ارتكب حمايته النهائية. كان قد نشر نشرته التي يهاجم فيها الجماعة، ويحدد اسم فان جريس بوصفه الأستاذ الأعظم الجديد. وكانت هذه هي القشة الأخيرة التي قصمت ظهر الجمل في عرف فان جريس. وكان لديه قاتل فرنسي محترف كان قد تدرب في تركيا - وهو رجل يدعى جاك كريفيا - فأرسله لمطاردة إيرموند. وكان كريفيا هو الذي قتل هوراس جليبي في فراش إيرموند".

"ولكن ما الذي كان يفعله هوراس في فراش إيرموند؟"

"كان قد سرد على إيرموند قصة سخيفة عن رؤيته لشيخ في حجرته هو. ووافق إيرموند على أن ينضم إلى الحجرة لمدة أسبوع - فقد كان لا يؤمن بالأشباح. ولم يكن جليبي بالطبع يصدق أنه يمرض نفسه لخطر حقيقي - فقد كانت الحجرة على ارتفاع سبعين قدماً، وكان يوصد الباب من الداخل. ولم يكن يعرف أن كريفيا معروف باسم النهائية".

كان سانت ليجير ينظر إلي مذهوشاً. قال:

"قد يكون كل هذا صحيحاً، ولكنني أشك في ذلك. لا أحد يعرف التفاصيل. فقد أصبحت هذه التفاصيل بعضاً من أكثر أسرار الجماعة بعداً عن متناول الناس وأشدها حماية. ومن المحتمل ألا يكون هناك في العالم الآن من يعرفها سوى شخص واحد"

انتظرت منه أنجيلا أن يستمر في الحديث، ثم لا راته يسمت، سألت:

"ومن هو ذلك الشخص؟"

قلت: "الأستاذ الأعظم الحالي".

قالت: "أذن فإنها مازالت موجودة؟" ونظرت إلى سانت ليجير. وأضافت:

"ولم يكن يمزح؟"

صرفت سانت ليجير نظره عنها، وأدار رأسه بغضب وهو يقول:

- يا سيدتي الشابة العزيزة، نصيحتي لك أن تلقي أقل قدر ممكن من الأسئلة. انني أسف جداً لوقتك في الوقت الذي علمت فيه، وانني لأكثر أسفاً لأن مستر سوروم لم يكن مكتوماً إلى هذه الدرجة".

كانت قد بدأت أشعر بالفضيب من سانت ليجير، أن أسلوبه اللبي بالتفاخر قد بدأ يضغط على أعصابي. كنت قد أدركت الكثير وفهمت عنه الكثير. كان يتمتع بالاحتياج الرئيسي الذي يحتاجه مشرف في الجماعة، خضوعه للجنس كهاجس متسلط. وكان هذا مثلاً في سلوكه وأسلوبه في التعامل مع تيجيلا، كانت بالنسبة له وسادة هراش مناسبة، وكان بالفعل يتخيلها رائدة تحته وعيناها مغمضتان. كان رجلاً جذاباً، جنسياً وشخصياً. وكان بعيداً جداً عن البلاهة. ولكنه كان مثلاً. وقد ظهر هذا في الطريقة التي سار بها عبر الحجرة قبل إعلانه عن اغتيال هوراس جليشي. وكنت أنا أمثل تهديداً جدياً له، هذا يفسر السبب الذي جعل أسلوبه معي حاداً إلى هذه الدرجة، شعرت بخيبة أمل لأن أول اتصال لي بالجماعة يتم عن طريق رجل مثله.

سمعت سيارة تتباطأ بالخارج. قال سانت ليجير:

- "والآن، اظن ان علي ان اترككم".

ذهبت فوقفت إلى جواره. كانت سيارة أجرة من مطار لندن. وكان هو قد شرع يتحرك نحو الباب.

قلت:

- "لا اظن ان رحيلك يغير شيئاً. فصلاً انك كنت تتوقع حضوره. يمكننا نحن أيضاً ان

نراه".

قال بهدوء: "هل تسمعان لي؟" ثم استدار إلى تيجيلا وقال: "ارجو ان يلتقي ثانية".

تقدمت فتجاوزته، وذهبت إلى الباب. جاء خلفي وهو يقول بغضب: "حقاً يا مستر

سوروم، إن هذا..."

كان رجل قد خرج من سيارة الأجرة وراح يتطلع إلى أرفاف الشاغل. كان بالغ الضخامة، وجهه بني اللون مليء بالثعلب. التفت عيناها بعيني، ثم رأى سانت ليجير بلهجة متسلطة:

- "سوف أكون معتماً إذا انتظرتماني هنا لحظة واحدة". ثم تجاوزني وهبط الدرج لم أجد نفعاً في محاولة الإمساك به أكثر من هذا، قد دخلت المنزل مرة أخرى. كانت تيجيلا تقف وراء النافذة قالت:

- "ماذا يحدث الآن بحق المجحوم؟ من هو هذا الرجل؟"

- "أعتقد ان له علاقة بجماعة العنقاء. ولا أعرف شيئاً أكثر من هذا".

من وراء الستائر، راقبت سانت ليجير وهو يتحدث إلى الرجل الأسمر. قلت:

- "إنه منزعج من وجودك هنا".

- "أحب ان أنصرف؟"

- "قد يكون هذا هو أبسط الحلول".

اقرب الرجلان في تلك اللحظة من المنزل. خرجت أنا لاستقبالهما. قلت:

- "السيدة الشابة سوف تخرج الآن، إذا كنتمما تريدان الدخول".

حدثني في الرجل الضخم بطريقة مبهمه. ظننت أنه يؤكد أن يتجاهلني. وحينئذ قال سانت ليجير:

- "هذا هو المستر سوروم. مستر السيد توري".

وهنا مد الرجل يده ليصافحني وقال كيف حالك. تبين أن صحته كان نوعاً من الحرص الشرقي على الشكليات. قال توري:

- "لا أظن أن هناك حاجة إلى إزعاج صديقك. إن مستر سانت ليجير لديه سيارة ويمكنه أن يأخذنا إلى بيتي".

"إن هذا ليس عني" كذلك قال سانت ليجير في عصبية ظاهرة. لم يكن هذا يوم

سعد.

قلت: "هل تسمح لي بلحظة؟"

عنت فدخلت المنزل وأخبرت أنجيلا بأنني ذاهب معها. ثم سألتها عما إذا كانت سمعت في حياتها عن رجل يدعى السيد نوري. بلى كما لو كانت قد جفلت. وقالت: "بالطبع".

"من هو؟"

"إنه مليونير من نوع ما. البترول فيما أظن. إن اسمه يذكر دائماً مع أسماء أوناسيس وبول جيتي. لا بد أنك رايتته".

قلت لها إن عالم الشؤون المالية العليا هو أبعد شيء عن اهتماماتي. قالت:

"انظر إليه. إنه شخص من النوع الذي يملك سلطة حقيقية".

خرجت ثانية وأغلقت الباب خلفي. تحركت سيارة "ديملر" رمادية يقودها سائق خاص فاخرت من المنزل. فتح السائق الباب لنا. وبينما كنا نجلس، قال نوري بطريقة تنم عن عدم موافقته: "بهين جداً عن اللياقة".

احمر وجه سانت ليجير وقال: "إنني استخدمها دائماً".

رايت ظل أنجيلا من وراء الستائر الشفافة بينما كنا نبتعد. من المحتمل أنها كانت تتسائل إن كانت جماعة العنقاء ما تزال تحتفظ بفرقة من الفئلة المحترقين.

لم يتكلم أحدهما حتى استأدنا متجهين إلى بارك لين. ثم قال سانت ليجير:

"كان عطفاً منك أن تقطع كل هذه المسافة لكي تأتي".

اعتبر نوري أن هذه كانت معاملة، فقبلها بهزة من رأسه. ثم قال:

"ربما كان الأمر كما تقول، هام".

ولم يكن ههما فأنه إساءة أو غلظة، ولكن وجه سانت ليجير احمر ثانية.

كان إحساسي بخضور إيزموند قد اختفى كان تلك الأحداث شيئاً غير مألوف لدرجة لا بد معها أن تدفعني إلى التوتر، وهذا التوتر هو ما جعل شخصيتي أنا هي الناسا بشدق. استرحت بالتفكير في أنا ذاتكمان. فقد كانت تجربة مرضية دون شك. لقد كانت إحدى تلك التجارب التي أستطيع خوضها بنجاح باهر من دون إيزموند. كانت شخصيته تتمتع بنوع من الثقة. يدافع لا يفتأ يدفعه إلى الأمام. وجنته أنا دائماً مساعداً على التحرر الحقيقي.

كنا قد توقفنا أمام منزل في شارع بروك. قال نوري: "لقد وصلنا" ثم نظر إلى سانت ليجير وقال: "شكراً لك على توصيلنا إلى هنا". كان ما يرمي إليه واضحاً. قال سانت ليجير:

"هذا يسعدني..." ثم فتح الباب لنا.

وقفت على الرصيف، أرمش بعيني تحت ضوء الشمس الساطع، ناظراً إلى ثياب السيد الرحلة التي ترتبها النسوة في ميدن كروزفينور، شاعراً بأن ما يحدث الآن، غير مناسب بشكل ما مع هذا الانطلاق الحيوي الفياض. انفتح الباب الأمامي قبل أن نصل إليه. بشكل ما كنت أتوقع خادماً شرفياً وراء الباب. ولكن الرجل الذي رايتته كان رئيس خدم ليكيزيا عادياً، انسحب وراء مصراع الباب لكي يسمح لنا بالدخول. وبدا أن نوري أصبح أكثر راحة وانطلاقاً بعد اختفاء سانت ليجير. قال:

"إنني لا أعيش هنا، ولكنني احتفظ بهذا المكان للإقامة فيه إذا قضيت عطلة نهاية الأسبوع في لندن" إنه مناسب لي".

ثم ضغط على زر جرس.

كان منزلاً نموذجياً للرجل الثري، بما بدا عليه من راحة وثابت فاخر. ولم يشر إل انضمام صاحبه إلى الشرق سوى سياج الدرجات الداخلية. فقد كان مصنوعاً من الحديد الشغول بشكل دقيق. ربما كان قد أتى به من "حريم" أحد السلاطين.

صعدنا الدرجات إلى الطابق العلوي، وعبرنا حجرة للجلوس مزودة بآلة بياتو من النوع الكبير وبعض لوحات لانتيس^(١) على الجدار، ودخلنا مكتبة أشار إلي للجلوس على مقعد كبير عميق ذي مسندتين.

"يمكنني أن أقدم لك ككاساً؟ أم ربما تفضل الشاي أو القهوة؟ إنني لا أشرب سوى القهوة".

نظرت في تلك اللحظة إلى نوري عن قرب، وبدا لي أنني لا أزال أحاول أن أعرف عليه. ربما كنت قد رايت بعض الصور له. كان طوله يزيد على ستة أقدام، ووجهه وملامحه أقرب إلى وجه وملامح جندي محترف. كان يرتدي بذلة زمانية، سترتها ذات صفين من الأزرار. وكان شعره قصيراً - وقد تعدد هو ذلك - وبدا الشيب يفرود. وكانت في وجهه بعض الندوب، ولكن كان وسيماً بتلك الجاذبية الباردة التي تتميز بها طائر من العواجم. كانت حركاته الاقتصادية، مختصرة كما لو كان يحس بالرشاقة إذا تشبه بالنساء.

جلس في مواجهةي وعرض علي سيجارة رفشتها. أخرج سيجارة روسية سوداء ذات طرف ذهبي ونقر بها على غلبة السجائر. قال:

"لقد جئت من باريس لكي أراك يا مستر سورم. لأنه إذا كان نصف ما أخبرني به سانت ليجير صحيحاً، يكون لدينا الكثير الذي يمكن أن يقول أحدهما للآخر. إذن فانت تعرف من أنا؟"

"أجل. إنك الأستاذ الأعظم الحالي".

"لقد خمنت ذلك، بالطبع".

"لقد كان هذا استنتاجاً عادلاً. إنك لست مشرفاً، وإلا لما كان سانت ليجير قد أصبح عصبياً من وجودك بهذا الشكل".

ضحك فابدي أسناناً بيضاء في حالة ممتازة. قال:

(١) هنري أميل بيلوا مانيس ١٨٦٩-١٩٢٤. من أهم الرسامين الفرنسيين في القرن العشرين، عرف باسم أنه أحد رواد حركة فن الطليعة، إلى جانب جورج روو وأندريه مارك.

"إن هذا الرجل أبله. لا ينبغي له أن يكون مشرفاً".

"أذن، فلماذا يحتل هذا المنصب؟ إنك تملك سلطة إعادة".

"لم يعد هذا ممكناً. في الخسارة. إن منطقتنا قد أصبحت أكثر ديمقراطية مما كانت عليه أيام إيرموند دونبيلي".

دخل رئيس المخدم، وهو يدفع "عربة تقديم" صغيرة أمامه، ثم خرج على الفور وبينما كان نوري يحسب القهوة، قال:

"لا ينبغي لنا أن نضيع الوقت يا مستر سورم. فإن لدينا الكثير الذي ينبغي أن نقوله. وعلي أن أعود إلى باريس هذه الليلة. هناك الكثير مما يحيرني بشأنك. إنك تبدو كما لو كنت تعرف قدرًا كبيراً من المعلومات. وهذا يعني إما أن شخصاً ما لم يكن مكتوماً كما ينبغي، وإما أنك حصلت على بعض الوثائق التي لم تكن نعرف بوجودها".

ثم أفل شيئاً، فمضى يقول:

"كان من الممكن - حتى الآن - أن تكون أي إنسان بالنسبة لي. ولكنني أعرف الآن أنك أشبه بالعبقري، أو بالطفل المعجزة. لقد أخبرني صديقنا كورنر أنك أنهيت عملاً استمر عامين بصبر ولباب بما يشبه ضربة خط عبقرية مستحيلة. وأنا أزعم أنه لم يكن ببالغ".

ثم أفل شيئاً أيضاً، فاستمر هو يتكلم:

"إنني أفهم من صمتك أنه لم يكن ببالغ".

وضع قدير القهوة التركية الصغير أمامي، وهو يقول:

"من أنت؟ من أين جئت؟ وكيف عرفت كل ما تعرفه؟"

"اسمي جيرارد سورم، وأنا كاتب. أما عن كيف عرفت كل ما أعرفه، فالإجابة هي أنني لا أعرف شيئاً".

قدم إلي نوري صحناً مليئاً بجلوى صغيرة مستديرة، وكانت فيها نكهة الفرفة. راق لي ضلعها كثيراً.

قال:

"هذا قول غريب. اتعجب إن كان يزعمك أن اتحقق من صحته؟"

لم أفهم ما عناء بقوله هذا، ولكنني قلت أن هذا لا يزعمني، بالطبع. مد يده وضغط على زر جرس آخر. لم يتحدث أحدنا طوال الدقائق القليلة التالية. كان الجلوس في صمت بولد ليدي إحساساً مريحاً، كانت هناك سمة في شخصية نوري تجعل من هذا الوضع طبيعياً إلى حد كبير. فتح الباب يهوء شلبد، ودخل الحجرة رجل. كان علي أن أنظر إليه بتدقيق شديد لكي أثبت أن رجل. كان شعره ذو اللونين مجعلاً وطويلاً، والوجه يبدو كما لو أن شخصاً ما قد امتص من جسده كل قطرة من الدم، لكي تنهار العروق وتجف. كانت عيناه شاحبتين اللون حتى بدا لا لون لهما، ورغم أنه كان يرتدي ثوباً عربياً - عباءة صفراء فخرة - فإنه كان عربياً دون مشقة الشك. لم يولد نوري أي اهتمام. جلس الرجل على مقعد صغير وأصل يكاد يكون بيننا نحن الاثنين. رايت أصابع قدميه طويلة بارزة العظام، مثل شيء خارج من قلب فيلم من أفلام الرعب، وكانت أظفارها صفراء ملتوية مليئة بالنقطة البيضاء.

قال نوري: "هذا هو بوريس كاهن".

تجاهلنا الرجل، وهو يحدق في الفضاء. قال نوري:

"لقد كان يكسب رزقه بالعمل في اللاهي قارئ لأفكار الناس. ثم تطورت قدراته إلى درجة أخافته هو نفسه. فأصبح مدمناً على الهيروين. وقد عثرت عليه ذات ليلة يزحف عند مدخل المنزل وعنقه مكسور - وكان قد سقط من نافذة في الطابق الثاني. وهو الآن يسافر معي حينما يكون لدي عمل هام. إنه بلا عقل على الإطلاق، ولكنه يعرف الحقيقة حينما يتكلم الناس، لكنهم أم يصنفون".

أخذ سيجارة أخرى من العلبة، ثم قال:

"هل أخذك سانت ليجير أنني الأستاذ الأعظم؟"

"كلا".

"إنني لم أضل هذا. ولكنني أردت أن أتأكد".

كنت أنظر إلى "بوريس" بفضول شديد. كان يرمق شطائر القرفة في سحري بلهفة. قلت:

"كيف يفعل حينما يكذب أحدهم؟"

"قد يكون من السهل أن أظفك على نموذج عملي".

أشار بيده إلى النافذة وهرق باصابعه. أسرع روبيس فمر الحجرة، ونحن مرتين على الأقل مثل كلب مذعور، ثم اندس فاختفى وراء ستارة ثقيلة من القטיפ. ضغط نوري على زر ثالث على المائدة. بعد حوالي ثلاثين ثانية سمعت صوت خطوات رفيقة ترحف على البساط في الحجرة المجاورة. فتح باب، وانلمحت فتاة تجري إلى داخل الحجرة. وقفت عند الباب، ورمقتني بنظرة غريبة مليئة بالشك. ثم اندفعت تجري نحو نوري وطوحت ذراعيها فأحاطت عنقه وهي تصدر أصواتاً غريبة كالصياح ولا معنى لها سوى الترحيب بمقدمه. كانت ترتدي سروالاً عربياً طويلاً وصدرأ صغيراً من نفس الطراز، ولكنهما كانا من الشفافيتين بحيث كان الأفضل أن تكون عارية. يمكنني أن قول أنها كانت في نحو السادسة عشرة من عمرها، ولكن جسدها كان نامياً نمواً مقبلاً، وشعرها طويل داكن اللون. كانت تقبل نوري وتعود إلى تقبيله، مثل طفلة صغيرة ترحب بعمها الذي تحبه. ابتسم في صفاء وتركها تستمر في تقبيله للحظة، ثم قال لي:

"هذه هي كريستي، طفلة جماعتنا الليلة".

أجلسها على ركبتيه وقال: "وكيف حال طفتنا؟" وانلمست يده داخل سروالها الشفاف. فتحت ساقيها طائعة، فتسللت يده بينهما ولست ملتفتي لخديها. قال:

"هل كانت طيبة؟"

أومأت الفتاة برأسها بحماس، ووجهها خال من أي تعبير مثل دمية. خطر لي أن نوري يفضل من لا عقل لهم من الناس. سألها:

"هل كان لها أي عشاق منذ كنت هنا آخر مرة؟"

ارتسم على وجهها تعبير ينم عن الفضيلة، وهزت رأسها بتأكيد من وراء الستار جاء صوت غريب، "شاك، شاك، شاك" كما لو كان حيواناً يسعل. اندفعت الفتاة نحو الستار، وجذبت جانباً، وجذبت بوريس من شعره فاخرجته، صرخت، "كذاب".

راشد مستسلماً على الأرض، وخده ملتصقاً بالبساط، ورفاه مرهقاً في الهواء. -
وحينما رجعت بقدمها القطنى بجذاتها الرقيق إلى الوراء وركبته في ضلوعه لم يتحرك.
اندفعت عائدة إلى نوري وألقت ذراعها حول عنقه، وقالت،

"الطفلة ليست كذابة. هو الكذاب".

لاصق نوري ظهرها بحنان، وسألها: "كم كانوا؟"

"لا أحد" عاد تعبير الفضيلة الكاملة مرة ثانية وهي تهز رأسها، عاد الصوت للبحوح مرة أخرى يتعالى من حلق بوريس. كانت على وشك أن تقفز لكي تندفع إليه مرة أخرى، ولكن نوري أمسك بها من معصمها، وكرر سؤاله: "كم كانوا؟".

تجهمت ومعلت شفرتها استياء، قالت،

"ثلاثة".

سمعت الصوت للبحوح التقطع ثانية. صرخت في بوريس،

"سوف أقتلك".

قال نوري باستياء،

"مفلتلتا بها شيء من الغلظة الشيفة السيئة، اليس كذلك؟"

قالت الفتاة، وهي تبدو في صورة إحدى بنات الطائفة المهترئين التزممة، الذي يرفعهم ذكر الخطيئة، "لا. ليست كذلك".

"مفلتلتا تستحق الضرب بالحزام. اليس كذلك؟"

"كلا، كانت تنوسل، إنه كذاب".

"كم كانوا؟"

نظرت إلى بوريس بحقد وهي تقول، "سبعة".

لم يصدر عنه أي صوت، قال نوري،

"سبعة رجال، أم سبع مرات؟"

"رجال".

"سبع ضربات بالحزام، إذن".

وقفت، وجذبت سروالها إلى أسفل حتى ركبتها، ثم رقدت على بطنها فوق ركبتها. وجذب هو من تحت القعد شريطاً من الحبل، ورفع في الهواء، وهوى على الريد الستدير الوردي بضربة قوية. صرخت دون حياء، أصبحت صرخاتها أعلى وأكثراً تعبيراً مع توالي الضربات الست التالية. وعند الضرب السابعة قفزت من فوق ركبتها. هز رأسه وقال،

"واحدة أخرى".

انحنى أمامه، فهوى عليه نوري بضربة واحدة قوية. ثم قال،

"الآن، اجري".

حينما اختفت، قال نوري،

"والآن يا مستر سورم، اتقول أنك لا تعرف شيئاً عن جماعة العنقاء؟"

"لني لم أقل ذلك. إنما قلت أنني أعرف أقل بكثير مما تعتقد".

"لني لا أفهم كيف يمكن أن يكون هذا صحيحاً".

نظر حوله إلى بوريس. ونظرت أنا أيضاً إلى بوريس، الذي كان يجلس الآن على البساط، محتضناً بركبتيه، وكانت الحجرة تبدو على بوريس،

كان نوري ينظر إلى بوريس. قال، "ماذا يعني يا بوريس؟"

نظر إليه يوريس دون تعمير بعينه الشاحبتين. كما لو كان يحاول أن يتجنب السؤال بأن يتظاهر بعدم الفهم. ولكن حينما ظلت نظرة نوري الجامدة مثبتة عليه، قال بصوت متلعثم فيه هافاة:

"إنه... إنه... إنه يو... يو، يعني أنه، أكك، أكك، أكك، أكثر من شخص و... و.. واحد."

قال نوري: "هذه ما تعنيه يا مسر سورم؟"

قلت أخشى ألا يؤدي الشرح إلى أي نتيجة، إنك قد تشك في عقلي."

نظر إلي يوريس، وقال في صوت مثل قبح سوط يهوي:

"ماذا يعني؟"

جفل يوريس، وقال في صوت ضعيف خارج من الحلق:

"إنه شخص ما، يدعى أيزموند."

زحفت عينا نوري إلي وراحنا نتفحصان. كان يوسعي أن أرى أن وجهه يستطيع أن يكون مفعراً عن التهديد العنيف. قال:

"أنت أنت جيرارد سورم؟"

"أجل."

"من هو أيزموند؟"

"إنك تعرف. أيزموند دونيللي."

حديق في بقوة بالغة، كما لو كان يتساءل إن كان قد فهم ما قبلته على الوجه الصحيح، ثم، لهششتي، انسحب الدم من وجهه، وشحب لونه، وأصبحت نظراته ثابتة لا حركة فيها. قال:

"هذا مستحيل."

ولكن صوته كان قد أصبح عريضاً مشروخاً.

حينئذ، راح أيزموند ينظر إليه بعيني، محققاً في عينيه بقسوة، تغير وجه نوري. لكم كنت أحب أن أنظر من مرة لحظتها لكي أرى ما كان يراه. وأياً ما كان ذلك الذي رآه، فقد رأيت أنه القنعة، تطلب منه الأمر بضع ثوان لكي يستعيد السيطرة على نفسه. وكانت شفتاه قد شحبتا حتى أبيض لونهما، وبرزت اللثوب الحمراء على وجهه الرمادي.

قال:

"إنني فقد كنت على حق. لقد عرفت كيف تعود."

لم يفعل أيزموند إلا أن أومأ برأسه (براسي). كان يوريس ينظر إلى نوري نظرة خائفة، مثل حيوان لا يعرف ماذا حل بسيد. وقف نوري وعر الصخرة إلى خزنة جانبية. انقطع قنبلة الخمر وراحت يده تهتز وهو يصبها في كأس الخرج الكبيرة، ثم ابتلع كل ما صبه دفعة واحدة. وأياً كان نوع ما شربه - كانت خمر صافية مثل العرق - فقد جعلت عينيه تفيضان مثل المياه العكرة، وحسبت أنفاسه للحمضة. مسح العرق عن وجهه، ثم جاء فجلس ثانية، وجعل يرمي أيزموند بنظرات خائفة كما لو كان يأمل أن يكون الأمر كله خطأ من الأخطاء. قال:

"سامعني. إنك لا تتوقع مني أن أقبل هذا الأمر بسهولة."

أسند ظهره إلى مسند اللقمة متجنباً إلى الوراء وأغمض عينيه. وإذا كنت أصدق من خلال عيني أيزموند وجنت نفسي متحيراً مما أبداه من القتناع سريع، انتظر أيزموند، كانت هذه هي لحظة الانصارة. اعتدل نوري في جلسته وأشار إلى يوريس قائلاً: "أخرج" فأسرع يوريس خارجاً من الباب. قال نوري:

"ماذا تريدني أن أفعل؟ إن استقبل من الأساندية؟"

"كلا. لا أستطيع أن أكون اسناداً إذا أردت... فإن لدي مسر سورم أشياء أخرى ينبغي عليه أن يقوم بها، ولكن لابد أن تكون هناك عودة إلى اتفاقية عام ١٨٣٠."

ذهب نوري إلى الخزنة الجانبية مرة أخرى، وصب لنفسه كأساً أخرى دون اعتذار. قال:

- "لا أرى كيف يمكن ذلك، سيعني هذا أن نحدث في قسما".

- "هذا هو الطريق الوحيد، صدقني".

كان أيزموند قد أصبح صبوراً يحاول أن يخرس الثقة في صدر نوري. قال:

- "إسمع إلي يا السيد، إنني لا أؤمنك. لقد كنت أستاذاً ممتازاً، ولكن هناك أشياء هامة تحدث. وحتى هذا الأبله ككورنر "ليس سوى فاجر - أو بشر - للمستقبل. هناك بشر من نوع جديد في طور النشوء الآن. إن العقل الإنساني يكاد الآن يبتلع الأفاق والطاقات التي لم أستطع أنا إلا أن ألمحها من بعيد. وفي جوانب عديدة، يعرف سورم هذا أكثر جداً مما أعرف أنا. وإن عليكم أن تكونوا مستعدين لأن تلعبوا دوراً هاماً... وأنتم لن تستطيعوا القيام بهذا الدور وأنتم جميعية سرية".

قال نوري: "للمشرفون الآخرون لن يوافقوا بأي حال".

- "لن يكون أمامهم خيار. هذا الرجل سورم يعرف كل شيء عنا. وسوف ينشر كل ما يعرف. وسوف يكون عليك أنت أن تحميه".

اعتدل نوري في جلسته مرة ثانية. كان على وشك أن يستعبد سيطرته الكاملة على نفسه، ولكنني ظننت أنه قد كبر في العمر عشرة أعوام دفعة واحدة. قال أيزموند بعطف:

- "اسمع يا سيد، اسمح لي بأن أشرح لك، حينما انضممت إلى الجماعة، منذ مائتي عام، كانت جميعية من الفاسقين الفجار، وكانت فكرتهم الأساسية هي أنه لا بد أن تملك أقلية ممتازة صغيرة الحرية الجنسية الكاملة. وكانت هذه فكرة جيدة حتى ذلك الحين وقد قبلتها أنا ورحت أفعل كل ما فعله الآخرون - فرحت أتجول متخفياً بالسحر والشعر والنشوة الصوفية التي تنزل كلما عرست ذكرني في عضو امرأة عربية. واستلكت طاقة داخلية، وتطورت تلك الطاقة حتى لم يعد في وسع أي امرأة أن تقاومي لأكثر من يوم أو بعض يوم، وأنت تعرف بعض ما فهمت به. لقد أقمعت فتيات مذعورات في منارس الأديرة الداخلية بأن يسلمن عذريتهن خلال أمسية واحدة. لقد نمت مع ثلاث ملكات، وثمانين أميرات. وقد امتلكت نساء بعد أن عرفتهن بعشر دقائق فقط - نساء مكبوتات تخيلن بعد ذلك أنني سحرتهن. وفي سن الخامسة والثلاثين، صار من المحتمل أنني عشت تجربة جنسية أكثر استكمالاً من أي

تجربة مماثلة عاشها أي رجل قبلي. ثم بدأت أنمو وأشب عن طوق هذه التجربة. تعبت من الاستمرار في أن أكون مجرد أداة في يد قوة لم أفهمها. حينما شعرت بأنني شبيه برب من الأرباب في لحظة التحقق الجليل، طرحت على نفسي تلك السؤال: هل هذا هو أيزموند دونيللي الحقيقي أم أنه الأفاق من النوع الجليل الذي يستخدم ذكاه وإخلاصه لكي يوقع بالنساء الماهرات لقد رايت، ذات يوم في موسكو، سائق عربية يضرب حصانه، وقبل أن اضربه حتى أضررت أسنانه من فكه، كنت قد شعرت بنوع من القتيان بسبب "ساديته" الطالفة وفي وقت متأخر من نفس هذا اليوم، أخذت صغرى بنات القنصر إلى منزل صيفي صغير في مروج حدائق القنصر، وأقنعتها بأن تدعني أستولي على عذريتها، وبينما كنت أخذها، استولت علي فجأة رؤية رأيت فيها وجه سائق العربية، فعرفت أنني كنت أفعل الشيء نفسه، استمد المتعة من خلال "فرض إرائتي" على مخلوق أضعف، فاستمتعت بالإحساس بالقوة وتبيلت لحظتها أنني كنت أقوم بعمل نفس الشيء طوال عشرين عاماً، مكرراً نفس الفعل الذي كما لو كنت أسعى إلى أن تؤكد لنفسني أنني لست الأبله الضجر الذي يشبه بقية النبلاء - أصحاب الدم الأزرق - الشبان. وفجأة شعرت بنفسي بانساً مجلباً بالعار. واتخذ انقلابي النفسي هذا شكل الإحساس بالأسف على الفتاة، وهكذا فقد اندفعت حتى إلى التفكير في أن أسألها أن تهرب معي، ولكنني اكتشفت في اللحظة المناسبة أن هذا لن يكون سوى طريق مسدود آخر. هذه هي نهاية أكثر الأفاق شهرة، إنهم يحاولون أن يجعلوا أنفسهم يشعرون بالاسمو الأخلاقي بأن يعاملوا الفتاة كما لو كانت إنسانة بدلاً من معاملتها كمدبنة تحت الحصار. ولكن هذا السلوك لا يزيد أخلاقية في الحقيقة عن إلقاء قطعة نقد معدنية في صندوق شحاذ لكي ترضي ضميرك وتهذه. لم يكن الحل هو أن استبدل نوعاً من الخياء نوع آخر، بل كان هو أن أحاول أن أفهم طبيعة الأمل السرابي الخادع الذي ظللت أطارده تحت أذيال النساء.

"وحينما عدت إلى أيرلندا، رايت فتاة كنت قد عرفتها منذ سنوات طويلة، فتاة كنت قد لغويتها منذ خمسة عشرة عاماً، ونهضت رؤيتها إلى ذاكرتي بصورة ذلك الصيف في الحظيرة خلف منزلنا. وفتت في الحظيرة وتذكرت كل شيء. وحينذاك عرفت الغم الذي وقع منذ البداية واستمر بعد هذا على الدوام. فحينما امتلكت في البداية مينو ولفين توقعنت لنفسني مستقبلاً من القدرة اللانهائية على الامتلاك، توقعنت أن تعاملي الحياة مثل طفل مدلل مفضل. ولقد عاملتني الحياة بهذا الشكل بالتأكيد. ولكنني سمحت لنفسني بأن

أصبح سلبياً أكثر من اللازم. لقد قبلت الحصول على المتعة، ولكنني فشلت في أن أبذل في سبيلها أي مجهود. في أول مرة ولحيت فيها مينو، شعرت بأنني مثل إله من الآلهة القديمة. ولكن مثبة انتصار آخر، وولوح مثبة امرأة أخرى لم تفعل شيئاً لكي تفندي هذا الوعود بالآلوهية. على العكس، لقد دمرت انتصاراتي وعدي القديم، لأنها لم تكن انتصارات حقيقية، وإنما أصبحت عادة تمارس مثل بقية العادات الباردة".

كف عن الكلام. وكان لصوته - الذي لا يعني أن أقول أنه صوتي، لأنه كان يبدو مختلفاً حتى بالنسبة لأذني أنا - التأثير الذي أراده بالضبط على توري. ولابد أيضاً أن نتذكر أن ايزموند كان يستخدم دماغه أنا ولفتي وشاعري، ولما كانت هذه الأدوار أدواتي - تستطيع أن تعبر عن أفكاره بدقة أكثر من لفظة هو الخاصة بأن الكلمات كانت تنطلق من لسانه بسرعة الفائقة حتى كان من الصعب أحياناً أن يتابعه من سمعه. كان مجهود التركيز قد هدأ توري، وجعله يستعيد سيطرته على نفسه. قال ايزموند:

"هل تتابع سلسلة تفكيري؟"

"ليس ما تقوله غريباً بالنسبة لي، كثيراً ما تفضل لي أفكار مشابهة، وكنتي لا أستطيع أن أعتبر على أي حل".

"الخل القرب مما تظن. ويكاد مسم سورم أن يكون قد عثر عليه بنفسه. لقد كانت لي ميزة طبيعية واحدة عظيمة - فقد فكرت في نفسي دائماً باعتباري الطفل للفضل. وهذا شيء مهم - التفاضل، الدافع الحركي إلى الأمام. وكانت لدي الجراءة الكافية التي تدفعني إلى التساؤل عما إذا كانت حالات التشبه بالرب تمثل حقيقة وجودي الداخلي أم لا تمثله. وعندما قررت الإجابة على أن ذلك السؤال هي "أجل"، لم يبق أمامي - ببساطة - سوى سؤال واحد: لماذا إذن يعود العقل فيفرق في حالة من البلادة الكثيرة حينما تنتهي لحظة ذروة الشهوة الجنسية؟"

"بالتأكيد لأننا لا نستطيع الصمود أمام مثل هذه الكثافة، ليس لدينا ما يبقينا لنا. وليس لنا ما يحفظها في أيدينا. إن إزاء ماء لابد أن يفرغ سريعاً إذا ترك على النار".

"كلا. هذا تفكير مختلط مشوش. إن شهوة الذروة الجنسية ليست نتيجة انطلاق الطاقة المحبوسة، وإنما نتيجة الرؤية التي تصاحبها. يمكنك أن تحصل على الذروة الجنسية

دون الرؤية، إذا كان عقلك متعباً. أو يمكنك أن تحصل على الرؤية دون الذروة الجنسية، إذا كان العقل مشبعاً بالشعر أو الموسيقى. هل يمكن أن تصبح مشبعاً أكثر من رجل أعمى لأنك ترى الأشياء التي لا يراها كلاً، العكس هو الصحيح، لأن الرجل الأعمى أكثر قرباً من احتمال الضجر، والضجر يؤدي إلى التعب، والسالة هنا هي مسألة الرؤية وسرعان ما اكتشفنا أننا نفقد الرؤية لأننا نكف عن محاولة رؤيتها. إننا نسرحي، نتصرف عنها ونوليها ظهورنا، مثل رجل يتعاب ويقضم عينيه".

"لقد عرفت في حياتي رجالاً مقدسين، رجالاً ساروا فوق الجبال وعبر الصحاري كانوا يبحثون عن نفس الرؤية، الإدراك الدائم للعالم باعتباره لغزاً عاماً، ولقد عرفت الآن لماذا تسلط عليهم عشق الخلاء الكشوف. لقد طور الإنسان قدرته على التركيز على الأشياء الصغيرة، مثل صانع ساعات سويسري، ومثل صانع الساعات، أصبح قصير النظر، وتزايد قصر نظره حتى لم يعد بإمكانه أن يحدق في المسافات البعيدة. وكان الرجال القديسون يحاولون تصبح نظرهم بالبحث عن مساحات الخلاء الفتوح، وأني لأرى الآن لماذا كان سعيهم إضافة للوقت والتجهد، لقد كانوا يحاولون أن يستبدلوا ملكة بملكة أخرى، ويبحثون عن الجبال بنفس الطريقة المتعثرة المتكررة التي كنت أبحث بها عن النساء.

"هل تفهمي؟ أصبحت واعياً مكتمل الوعي بإمكانية الحصول على رؤية أكثر اتساعاً، اعرفت بأن هذا لابد أن يعتمد على تطور ملكات أخرى وقدرات جديدة للإرادة. في البداية، فعلت أوضح شيء يمكن أن أفكر فيه. ففي اللحظة التي كانت تفيض فيها قوة الذروة الجنسية يتفرق عقلي، كنت أحاول أن أمسك بها فلا أدعها تفلت. وأرفض أن أسمع لها بالهبوط ثانية إلى المستوى العادي. وسرعان ما اكتشفت أنني كنت أحاول أن أطور قدرة كبيرة على التركيز. من الحق أنني لا أستطيع أن أتمسك بكثافة لحظة الذروة الجنسية أو أن أمسك بها. ولكن حالاً يتحول عقلي إلى الخارج، مثل نسر صغير يحدق في السماء من عشه الرقع فيحاول أن يقذف بنفسه إلى الهواء، فقد كان يوسعي أن أركز على توسيع نطاق رؤيائي. إن مشكلة الإنسان الرئيسية هي أنه جبان خائف الخزم. ففي كل مرة يفقد فيها إحساسه بوجود هدف أمامه، يقف ساكناً، ثم يراجع. ويجعله الضجر يسير دون هدف وفي دوائر مغلقة، فيضيع معظم حياته في هذه الحالة، إن سعيه وراء الحب يمنحه اتصالاً واحتكاماً مؤقتاً بالإنابيع الخفية للقصد أو الهدف، وقد كان هذا هو أعمق تعبير لوجود

جماعتنا. ولكن احتياجنا الحقيقي بوضوح، هو أن تحول تلك الينابيع الصغيرة إلى منابع كبيرة لا يمكن أبداً أن تجف، لابد أن يصبح الضجر مستحيلاً. إنه العادل الوحيداني لفقدانك الطريق في الصحراء. ولكن حالاً يمكن ابتكار البوصلة التي تحدد الاتجاه، فإن هذا لن يكون مشكلة بعد. ولقد رأيت أن مهمتي هي أن أركز حتى أتمكن من أن أطور هذه البوصلة، وهي العرصة الواضحة لهدفي. لقد رأيت أن الضجر هو عدو شبيه الرب، وأن كل هوائي ينبغي أن توجه نحو القضاء على هذا العدو".

قال نوري: "ولقد انجزت هذا. لقد نجحت".

- "أجل. وسوف تنجح أنت أيضاً، الآن، وقد رأيت أنه ليس بالهدف المستحيل. وسوف ينجح سورم. وحينما ينجح اثنا عشر رجلاً، سوف تتبعهم بقية الجنس البشري. إن ينابيع القصد أو الهدف ليست مدفونة إلى عمق كبير تحت الأرض. وحتى هذه الفتاة الصغيرة التي كانت هنا تملك القدرة اللازمة إذا عرفت فقط كيف توجهها. إنها حيلة عقلية، مثلها مثل القفز من الأرض لامتطاء حصان يجري".

كانت الصورة التي وضعتها في عقل أيزموند هي صورة رجل يستفيد من موجه قوية لكي تحمل لوحة الطفلي فوق الماء، ولكنه لم يستطيع أن يفهم الصورة. كان أيزموند يفتقر إلى التصورات والفاهيم اللازمة للتعبير عما يريدته تعبيراً كاملاً، فكرة "الارتقاء" من مستوى الوجود إلى مستوى آخر، ومعرفة أن الشخصية الإنسانية سلسلة من المستويات. ولكنني كنت أملك تلك التصورات والفاهيم.

قال نوري: "هل لي أن أطرح بعض الأسئلة؟ أين أنت الآن؟ هل هناك عالم آخر - بالمعنى الحرفي لكلمة العالم - وراء أو تحت هذا العالم الذي نحياه؟"

ضحك أيزموند. قال:

- "إن ما تدعوه "هذا العالم" هو ما يمكنك أن تراه من خلال شق صغير في الباب الفلق. وهذا يماثل أن تسمي هذه الغرفة التي تجلس فيها الآن عالماً بأكمله. يوسع مسر سورم أن يشرح لك هذا بشكل أفضل مني. إنه يتحدث عن حياة - العوالم - أما فيما يتعلق بأين أنا الآن، فليس بوسعي أن أوضح هذا بسهولة. فحينما استطعت أن أطور قوة إرادتي، بدأت أفهم أشياء لابد أن تكون واضحة من تلقاء نفسها كالبداهيات. فحينما يملكك التعب، تصبح الروح

مقيدة بشدة بين اضلاع الجسد. وكلما زدت صحة وحيوية، كلما زدت إحساساً بأنك تسيطر على جسدك من مسافة بعيدة، مثلما يسيطر مدرب الصقور على صقره الطائر في الفضاء. وعند نقطة معينة من الدائرة العقلية، يصبح من الممكن أن نحقق درجة من السيطرة على هذا الجسد لا يمكنك حتى أن تتخيلها. وحينما يحدث هذا، تصبح كل الأشياء الغريبة ممكنة الوقوع - فإني أستطيع، على سبيل المثال - أن أعرض ما تدعوه أنت بجسدي الوهمي من على مسافة عظيمة".

- "وكان هذا هو ما حدث حينما ظهرت في اجتماع برلين عام ١٩٣٠؟"

- "بالضبط. ولكن لا تبالح في تقدير أهمية تلك القدرة، إنها ليست سوى منتج ثانوي. إن ما يهم حقاً هو درجة السيطرة الجديدة على الجسد. لأن هذه القدرة إذا ما تحققت مرة، يكاد يكون من المستحيل أن تموت بعد ذلك".

قال نوري: "ولكنك مت".

- "مثلما ترى".

- "ولكن جسدك مات في عام ١٩٣٢. ودفنت في "سرداب مدفن الأسرة في إيرلندا".

لم يقل أيزموند شيئاً، كانت ذاكرته مغلقة مطبقة ثانية حتى بالنسبة إلي أنا. قال بعد لحظة:

- "لا تدعنا نضيع وقتنا على ما لا أهمية له. ولنصرح فقط بأن مسر سورم قد كان أداة ثمينة لا تقدر، وأنت ينبغي أن تعامله بنفس الثقة التي تعاملني بها. وسوف يكون قادراً في مقابل هذا، على أن يقدم لك الكثير من العونة. إن مسر سورم، مثلي أنا، ليس مهتماً بالجنس بصورة أساسية. إنه رجل كالتطهرين. ولكنني أظنه قد اكتشف بعض الإمكانيات ذات الأهمية في جماعة كورنر، وتستطيع أنت أن تطلعه على أشياء أكثر أهمية بكثير، إنني أعتمد عليك".

- "وماذا عنك أنت؟ هل سترحل الآن؟"

- "كلا. ولكنني حقاً لا أستطيع أن أظل أفرض نفسي على مستر سورم. إن لديه عمله الخاص الذي ينبغي عليه أن يقوم به".

قلت بصوت مرتفع - لصالح نوري: "إنني أرحب بمقدمك وفتما تحب ذلك".

- "أشكر. إنك مضياف حقاً".

قال نوري: "ما الذي تريد مني أن أفعله على الفور؟"

- "لا شيء. ركز على تعلم حيلة القفز فوق صهوة الجواد السريع. وتذكر شيئاً واحداً، التشاؤم أفضل من الرصاص يحيط بالقدم. الهزيمة دائماً نتيجة اختيار ذاتي. يستطيع مستر سورم أن يشرح تلك الأشياء بشكل أفضل مني - إن له نسقه الخاص في الفلسفة الذي يقوم على أفكار رجل يدعى هوسرل. والآن يا عزيزي السيد. سوف أغادرك. وإنني سأكون أيضاً في غاية الامتنان لك لو أنك مدحت حمايتك كي تشمل لورد جليبي الحالي، ابن ابن صديقي هوارس. إنه يملك عدداً كبيراً من نفس العناصر التي كان هوارس يمتلكها وبذلك فإنك تستطيع بمعنى ما أن تعتبره تجسيدا جديداً لجده الأكبر وتلك العناصر. لا تقل شيئاً عما حدث لذلك الأبله سانت ليجير. إنه ليس جديراً بالثقة".

بعد ذلك اختفى، وأصبحت أنا ونوري وحيدين. لم يكن نوري وافقاً من أنك حتى قلت: "لقد رحل".

وقف وقال: "حسناً يا مستر سورم. اظننا نستحق كأساً. ويسكي؟"

- "كأساً صغيرة. مع الشكر".

وبينما كان يصب الكاسين، سألت: "كيف عرفت أن أيزموند كان ينوي أن يعود مرة أخرى؟"

"هناك قصة تقول يا مستر سورم بأنه لم يمت أبداً، وإن الجسد الذي دفن في سرداب ملفن الأسرة كان جسد شحاذاً عجوز. ولقد قال هو نفسه شيئاً يقرب من هذا في يومياته للوجود الآن في منزلي على جزيرة هيننورابي. وسوف تكون أنت وأسرتك ضيوفاً مكرمين

هناك إذا شئت أن تأتي لكي تفحص تلك اليوميات. وهذه اليوميات تتوقف بعد عام ١٨٠٠، الأمر الذي حيرني دائماً. ولكنني أفهم ما حدث الآن".

- "هناك شيء واحد أحب أن أسألك عنه، هل أطلع عن الجنس بعد ما حققت من استبصار وإدراك؟"

- "أظنني أستطيع أن أجيبك على هذا السؤال. إنك تعرف أنه قد اختار صغرى الشقيقات أنجست لكي تكون شيئاً مثل الكائن للقدس، وقد أصبحت فيما بعد كاهنة في قيادة الجماعة القسطنطينية؟ يمكنك أن تقرأ عن هذا في اليوميات. وأنا أعتقد أنه قد اختارها لأنه قال عنها أنها تمتعت بنوع سري خاص من النعم الإلهية جعلها أكثر نقاء في أنوثتها من أي امرأة عرفها من قبل. وعاملتها الجماعة باعتبارها كائناتاً مقدساً، بعد أن أصبح أيزموند استاذاً أعظم في عام ١٨١٠، وبعد ذلك احتلت ابنتها ثم حفيبتها مكانها. ومما يصدق كل العارفين أن أيزموند كان والد ابنتها الحقيقي".

- "من الذي كتب الكتب النسوية إلى أيزموند، "أفراع العذارى" وما إلى ذلك؟"

- "لقد كتب جليبي نفسه هذا الكتاب، في وقت أراد فيه أن يزعم ثقة أيزموند بالجماعة، ولكن كانت هناك تزييفات أخرى كثيرة بعد هذا. فإن أيزموند باعتباره استاذاً أعظم كان جديراً بأن ينحل أعمالاً مزيفة مثلما نحل كتاب عصر اليزابيث الصغار أعمالهم لشيكسبير، وخاصة السرحية منها".

- "ماذا كان السبب المباشر لموت أيزموند؟"

قال: "هذا شيء يحيرني، فالقصة التي يوردها كاتب ترجمته، عصمت الاصطخري تقول بأنه أصيب بتزيف دموي في الدماغ بعد احتفال ضاحك فيه خمس عشرة امرأة. وهذا بالطبع محتمل، فباعتباره استاذاً أعظم، كان من مهامه أحياناً أن يشترك في مثل تلك الاحتفالات. ومع هذا فإنني لم أكن قادر أبداً على أن أقبل هذه القصة قبولاً كاملاً. وأنا الآن أقل ثقة منها مما كانت من قبل".

- "هل هذه الترجمة مكتوبة بالإنكليزية؟"

- "إنه بالعربية لسوء الحظ. ولكن يمكنني أن أمر بترجمتها لك".

نظرت إلى ساعتى فدهشت حينما وجدتها قد تجاوزت السادسة. خطر لي أن أنجيلا ستكون الآن قلقة بشدة علي. ولذلك فقد سألت إن كان يمكنني أن أطلبها بالتليفون. وقد كنت على حق، فقد كان أنجيلا الستير يتناقشان في تلك اللحظة حول إن كان عليهما أن يتصلا بالشرطة أم لا، فإن تلميحات سانت ليجر العتمة حول اغتيال جليبي أزعتتهما. وبينما كنت ما أزال أتحدث في التليفون، تسلل إلى جانبي رئيس الخدم الصامت وقال:

"اعذرني يا سيدي، ولكن مستر نوري اقترح أنك قد تحب أن تدعو صديقك لتناول لعشاء هنا".

بلغتهما الاقتراح، فقبلاه على الفور.

حينما عدت إلى المكتبة، كان نوري يرتدي عباءة فضفاضة مزخرفة بشكل جميل، وقد وقفت خلف مقعده، أربع فتيات في ملابس شفاقة، قال،

"أه، مستر سورم، أرجو أن يكون صديقك قد قبلا الدعوة؟ ما زال أمامنا ساعة أخرى حتى يحين موعد العشاء. هل حدث أبداً أن جربت ما يتمتع به حمام الأمراء من قدرة على بعث الراحة في الجسد والاسترخاء في الأوصال؟ لقد اخترعه استاذ أعظم تركي في القرن السابع عشر. وهؤلاء السيدات الصغيرات قد تعلمن فن الكمال. انني اقترح أن نستحم الآن على طريقة الأمراء، قبل العشاء، وربما امكنك في أثناء ذلك أن تروي لي كيف حدث أن سمعت بأيزموند دونيللي".

- ٢٥ -

□ كانت هذه هي المقدمة التي أدت إلى واحدة من أمتع الأمسيات التي قضيتها في حياتي، ولكن ليس هذا هو مكان وصفها بالتفصيل. إن تاريخ جماعة العنقاء موضوع يبلغ من التعقيد والثراء حداً يجعلني أشعر بأنه ليس من العدل أن أتحدث عنه هنا. وحينما يكتمل إعداد أوراق دونيللي للنشر، سوف أرجو أن أقوم بهذا العمل بنفسى. وقد سرد علينا نوري أيضاً جانباً من تاريخه هو، وانتهى بأن استعرض أمامنا بعضاً من تلك القدرات الهائلة التي أدت إلى تعيينه استاذ أعظم. (وقد حدث هذا بعد صراع مشهود مع لودفيج بينديج.

- ٣٦١ -

المشرف الألماني الذي كان أيضاً نازياً سابقاً. وقد أدار بينديج "العسكر الجنسي" المشهور، الذي أنكر المؤرخون الألمان المعاصرون وجوده).

لجانا إلى أسرتنا، منهكين إلى أقصى حد متمنين أن ننام عميقاً، وفي ساعات الصباح الباكرة. وحينما استيقظنا، كان نوري قد رحل إلى باريس. وفي وقت متأخر من نفس اليوم طرت عانداً إلى شانون حيث قابلتني ديانا. وحينما عدنا إلى البيت، وجدنا برقية من نوري يسألنا فيها إن كان بوسعنا أن نلحق به في منزله في هيندورابي في عطلة الأسبوع التالي. افلتنا طائرته الخاصة من شانون. وفي الشهور الأربعة التالية منذ ذلك الحين، تمتعنا بأشعة الشمس، وكتبنا أنا هذا التقرير عن بحثي عن أيزموند.

أما أبحاثي في محفوظات السيد نوري - التي ساعدني فيها منظم مكتبته الممتاز الدكتور هانق خصه فقد أجابت على معظم ما تبقى من أسئلة حول أيزموند وحول تاريخ الجماعة في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر. وسوف تنشر هذه النتائج في موعدها اللائم. أما أنجيلا التي تعمل هنا هي الأخرى، لقد جمعت المواد الأساسية المطلوبة لتأليف ترجمة حياة أيزموند، هذه الترجمة التي من المحتمل أن نتعاون في كتابتها.

وقد كانت المشكلة الرئيسية التي واجهتني في عملية الكتابة عن "بحثي" هي مقدار ما أستطيع أن استخدمه من الصراحة في بعض المواقف أو الأحداث. ولقد قبلت اقتراح هوارد فليشر بأن أكتب كل شيء كما حدث، ثم أترك له مهمة تقرير كمية التغييرات ونوع ما قد يكون ضرورياً منها^(١). وعلي أيضاً أن اعترف بأنني لم أسمح لديانا - حتى الآن - بأن تقرا المخطوطة، وإنها - لحسن الحظ - فتاة قادرة على الفهم، ويمكنني أن أفي أكثر اللوم على أيزموند.

وماذا عن أيزموند؟ فمنذ عصر ذلك اليوم في شارع بروك، لم أحس بحضوره إلا على فترات متباعدة. ولكنني لا أستطيع أن أكون وثقاً من أن هذا الحضور ليس من وحي خيالي. إنني كثيراً ما أجد نفسي أفكر في حادثة غريبة حدثت في بيت نوري في تلك الليلة. كان

(١) حينما كان هذا الكتاب في مرحلة تجارب الطبعة، سمعت أن بهابا كوكلونيل دونيللي قد عثر عليها في منزل مزرعته الذي احترق عن آخره، ولم يكن ثمة أي شكوك في وقوع عمل إجرامي متعمد. وعلى ذلك فقد اعتدت كتابة الفقرة الخاصة بالكولونيل دونيللي ووضعتها بالشكل الذي كتبتها به هنا.

يوريس يستعرض قدرات حاسته السادسة امام انجيلا وأستير. وان نوري قد نومه تنوياً
مفناًطيسياً، وكانت إجاباته على أسئلة حول حياة كل منا الخاصة دقيقة إلى حد مخيف.
وقبل أن يوقفه نوري، سألنا إن كان لدينا أية أسئلة نحب أن نطرحها على التائم. قالت
انجيل،

- "أجل. هل يمكن أن يخبرنا أين أيزموند في هذه اللحظة؟"

استدار وجه يوريس الغمض العينين إلي، وقال،

- "إنه هو أيزموند."

* * *